

نساء الأنبياء

دراسة تاريخية في الجانب الاجتماعي لسيدات البيوت النبوية

د. علي العكيدي



نساء الأنبياء

دراسة تاريخية في الجانب الاجتماعي لسيدات البيوت النبوية

نساء الأنبياء
دراسة تاريخية في الجانب الاجتماعي لسيدات البيوت النبوية

د. علي العكيدي
الطبعة الأولى ٢٠١١

سلسلة دراسات

رئيس مجلس الإدارة: نوفل أبو رغيف

رئيس التحرير : د. فالح حسن فزع

تصميم الغلاف: ابتسام السيد

الطباعة الالكترونية : منتهى حمود حسن



العنوان :
العراق – بغداد – أعظمية – حي تونس
ص. ب. ٤٠٢٣ – فاكس ٤٤٤٨٧٦٠ – هاتف ٤٤٣٦٠٤٤
البريد الالكتروني dar-iraqculture@yahoo.com



نساء الأنبياء
دراسة تاريخية في الجانب الاجتماعي لسيدات البيوت النبوية

د. علي العكيدي

الطبعة الاولى - بغداد - ٢٠١١

الاهداء

الى بلد النخيل والرافدين وحبيبات القمح
الى بلد العلم والأدب والقلوب المملوءة طيبا
الى العراق الصابر والكبير
حباً واعتزازاً

***

الى روح أستاذي العلامة الدكتور حسين علي محفوظ
الذي كان لي أبا برعايته وحنانه
واستاذا نبيلا بعلمه وروعة أدائه
عرفانا بالجميل

المقدمة
وتحليل المصادر

ان موضوعاً كالذي تصديت له في هذا البحث هو موضوع طويل ومتشعب، ومادته متوفرة، فالأنبياء الذين ذكرهم الذكر الحكيم كثر وكلهم لهم زوجات وأمهات لذلك كان التطرق لزوجاتهم ونسائهم جميعاً في وحدة بحثية متكاملة غير مجزأة ضرباً من الخيال، وأمراً غاية في الصعوبة، لذلك ومن خلال صياغتنا للعنوان استنجدنا بالقص القرآني، فأصبح التطرق الى نساء الأنبياء وأمهاتهم مرتبطاً بما جاء به القرآن الكريم، أي أن النبي الذي لم يتطرق القرآن الكريم أو لم يشر الى زوجته أو أمه سوف يكون خارج حدود بحثنا وبذلك استطعنا ان نختصر الموضوع ونجعله في سياق واحد يمكن السيطرة عليه والبحث به، ومن هنا كان تطرقنا لنساء أنبياء الله آدم، ونوح، وابراهيم، ولوط، ويوسف، وأيوب ومحمد وأمهات كل من موسى وعيسى، صلى الله عليهم أجمعين يعتبر بمثابة الحدود التي رسمها العنوان للبحث الذي تم التصدي له.

أما ما يتعلق بالنبي سليمان (عليه السلام) فان ما ذكره بعض المؤرخين من انه تزوج من بلقيس ملكة سبأ فان القرآن الكريم لم يشر الى ذلك، أما المفسرون والمؤرخون فانهم اختلفوا في ذلك ولم يتفقوا على رأي واحد يمكن اعتماده والاستناد عليه، فقد توزعوا بين من قال انه تزوج من بلقيس وبين من قال انه عاد بها الى اليمن ثانية وزوجها من زعيم احدى القبائل[1]، لذلك لم نتطرق الى بلقيس على الرغم من الاشارة لها في الذكر الحكيم،

---

[1] ينظر، الثعلبي، ابي اسحق، أحمد بن محمد النيسابوري، (ت، ٤٢٧هـ)، قصص الأنبياء، المسمى عرائس المجالس، المكتبة الشرقية، ص٣٢٤.

أما ما يتعلق بنبي الله يوسف (عليه السلام) فان القرآن لم يتطرق ايضاً الى زواجه من زليخا، امرأة العزيز فيما بعد على الرغم من ان سياق القصة في القرآن يوحي بذلك أما المؤرخون والمفسرون فلم يختلفوا في ذلك حيث ان العدد الأكبر منهم من الذين قد تم الوقوف على آرائهم أكدوا أن ملك مصر وهو الريان بن الوليد وبعد أن فسر له النبي يوسف (عليه السلام) رؤياه، وأخرجه من السجن عزل قطفير عزيز مصر من منصبه وعين يوسف محله، ثم بعد ذلك مات قطفير، فزوج الملك يوسف من زوجته زليخا صاحبة الجمال الرائع. أما الذي لم يتفق من المؤرخين والمفسرين مع هذا الرأي فانه لم يطرح رأياً مناقضاً بل تجاوز الموضوع ولم يشر الى ما هو عكس ذلك أي لم يكن هناك من ذكر مثلاً أن يوسف عليه السلام تزوج من امرأة معينة حددها بالاسم وحدد مرجعها وأصلها وكيفية زواجه منها، ولم يحدد ايضاً مصير زليخا بعد وفاة قطفير، لذلك ارتأينا التطرق الى زليخا واعتمدنا آراء المفسرين من السلف الصالح الذين أكدوا زواج يوسف منها، وتم درج آرائهم كأساس تم الاستناد عليه في بحث الاثر التاريخي لزليخا باعتبارها زوجة لنبي الله يوسف، وهذا هو الفرق بين اعتمادنا لروايات المفسرين الذين أكدوا زواج يوسف من زليخا ولم يأتوا بنقيضه، وبين عدم اعتمادنا لروايات المسفرين الذين أكد قسم منهم على زواج سليمان من بلقيس، في الوقت الذي طرح الآخرون نقيض ذلك حين أكدوا ان النبي سليمان (عليه السلام) نفسه زوجها من غيره[٢].

تم تقسيم البحث الى عشرة فصول كان الأول منها بمثابة تمهيد للبحث بشكل عام والفصول التسعة الباقية تصدينا بها الى أثر نساء الأنبياء وأمهاتهم وكالآتي:

---

[٢] ينظر الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٢٤.

الفصل الاول: جاء تحت عنوان المرأة في التاريخ القديم، حيث تطرقنا وباختصار الى أهمية المرأة في تلك العصور الواغلة في القدم وهي عصور ما قبل التاريخ وكيف أصبحت المرأة وبسبب الانجاب الذي تصور المجتمع حينذاك انه ميزة خاصة بها ولا دخل للرجل فيه اصبحت سيدة الموقف وكان لها مقام كبير وأهمية أوصلتها الى حد أصبحت فيه آلهة لقومها، ثم كيف تلاشى هذا الأمر بمجرد وعي الناس لدور الرجل بعملية الانجاب ايضاً مما جعل نجمها يأفل بالتدريج حتى تلاشى أخيراً وأصبحت ملكاً للرجل يفعل بها ما يشاء وقد تمت الاشارة ايضاً الى اثر المرأة في العصور التاريخية اللاحقة وهي العصور السومرية والبابلية والآشورية وكذلك أثرها في الحضارة المصرية، هذا على مستوى الحضارات أما على مستوى الأديان فقد تطرقنا الى أهميتها من وجهة نظر الديانتين اليهودية والمسيحية قبل أن نتطرق الى وضعها في العصر الجاهلي وهو العصر الذي سبق ظهور الاسلام.

بعد هذا التمهيد دخلنا في صلب موضوع البحث فكان **الفصل الثاني** - تحت عنوان حواء الزوجة الأولى والأم الأولى حيث تمت الاشارة الى خمس فقرات رئيسة شكلت بمجموعها ما يمكن اعتماده كفصل أو كوحدة بحثية متكاملة، أول هذه الفقرات تطرقنا بها الى آدم (عليه السلام) باعتباره أول الخلق، كيف خُلق وكيف دخلت فيه الروح وكيف أصبح انساناً سوياً ثم تطرقنا الى ابليس (لعنه الله) وسبب عدم سجوده لآدم وما ترتب على ذلك من تداعيات، أما الفقرة الثالثة فقد خصصناها الى أثر حواء في الجنة منذ أن خلقها الله وصولاً الى أثرها بالخطيئة، ثم بعد ذلك هبوط كافة الأطراف الى الأرض وأخيراً كانت لنا وقفة مع أثر حواء على الأرض منذ أن هبطت حتى حملت بأبنائها وكم مرة ولدت حتى وفاتها ..

الفصل الثالث : كان مخصصاً لأثر امرأة نوح (عليه السلام) فامرأة نوح تطرق لها القرآن بشكل صريح على أنها خانت زوجها خيانة عقائدية، فلم تقف الى جانبه، ولم تسانده، بل كانت منافقة تضمر في داخلها شيئاً وتظهر في تصرفاتها شيئاً آخر، حتى ساندت قومها على زوجها فكانت عوناً عليه بدلاً من أن تكون عوناً له. تطرقنا في هذا الفصل الى عدة فقرات يكمل بعضها البعض، منها ما تعلق بنوح (عليه السلام) نفسه، حياته ونبوته.. الخ، وكذلك تطرقنا الى الطوفان باعتباره أهم حدث ليس على مستوى علاقة نوح بقومه بل على مستوى الحياة بشكل عام، ثم تطرقنا الى أبناء نوح وذريته التي جعلها الله هي الباقية بعد الطوفان ومنها بدأت الحياة ثانية.

الفصل الرابع: جاء الفصل الرابع تحت عنوان امرأتا ابراهيم – فابراهيم عليه السلام قد تزوج عدد من النساء، تطرق القرآن الى اثنين منهما واحدة بشكل مباشر وهي امرأته الأولى، أم اسحق، عندما قال (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ)[٣] أما الثانية وهي هاجر أم اسماعيل، فقد تطرق لها القص القرآني ضمنياً عندما قال جلّ في علاه في كتابه العزيز وعلى لسان ابراهيم نفسه (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)[٤] لذلك كان فصلنا مخصصاً للحديث عن هاتين الزوجتين أما الفقرات التي تطرقنا لها فكانت على الشكل الآتي، الفقرة الأولى خصصناها لابراهيم عليه السلام، حيث سلطنا الضوء على سيرته العطرة منذ ولادته حتى نبوته وهجرته الى الشام ومصر وأخيراً وفاته.

[٣] هود من الآية ٧١.
[٤] ابراهيم من الآية ٣٧.

سارة زوجته الأولى والتي هاجرت معه من العراق الى الشام كانت أول من تطرقنا له من نسائه فتحدثنا عن حياتها الأولى وحجم اعتزازها بابراهيم ومقدار ما عانت معه من آلام، هاجر الزوجة الثانية لابراهيم (عليه السلام) ولدت له اسماعيل بعد زواجها منه مباشرة وهي أم العرب حيث عاشت وابنها عند البيت الحرام، ومن هناك بدأت رحلتها مع الحياة حتى وفاتها فدفنت في مكة المكرمة، أما اسماعيل (عليه السلام) فهو الابن البكر لابراهيم من زوجته الثانية هاجر (رضي الله عنها) فقد تطرقنا له في الفقرة الخامسة والأخيرة، وقد بينا كيف نشأ في الحجاز وتزوج من قبيلة جرهم العربية وعاش مع أمه معهم، ثم تطرقنا الى مسألتين مهمتين وأساسيتين في حياة اسماعيل وابراهيم معاً وهي بناء البيت العتيق الذي ساهم اسماعيل مع أبيه ابراهيم في بنائه كما أشار لذلك القص القرآني، والقصة الثانية هي ما ورد في الخطاب القرآني من محاولة ذبح ابراهيم لولده والذي كان اسماعيل دون اسحق وقد اشرنا الى ذلك بالأدلة وفي شيء من الوضوح ضمن نطاق حديثنا عن حياة اسماعيل (عليه السلام).

الفصل الخامس: نبي الله لوط (عليه السلام) هاجر مع ابراهيم عمه الى الشام بعد ولادته في العراق ايضاً، ثم أرسله الله تعالى فيما بعد الى قرى سدوم وما جاورها في غرب الأردن، لم يكن نصيب لوط في علاقته مع زوجته أفضل من نصيب جده نوح (عليهما السلام)، فاذا كانت امرأة نوح قد كشفت اسرار زوجها بعض الشيء وخانته عقائدياً فان والهه زوجة لوط كانت أشد ايلاماً لزوجها من امرأة نوح، فقد أعلنت وأفشت ما في داخلها حين وقفت مع قومها قولاً وفعلاً، ولم تنتبه الى وضعها باعتبارها زوجة نبي كريم وعليها الوقوف الى جانبه والعمل على اسعاده ومعاونته وتهيئة الأجواء النفسية والأسرية له، لذلك عاقبها الله وتحدث عن كونها كافرة في تسع سور مباركة من سور القرآن الكريم. كان الفصل الخامس مكرساً للحديث عن هذه العلاقة غير الطبيعية فكانت الفقرة الأولى مخصصة للتعريف بنبي الله لوط وتسليط الأضواء على سيرته الكريمة ومعاناته الكبيرة

من قومه وزوجته في آن واحد، أما الفقرة الثانية فقد وقفنا من خلالها على أهم خصائص قوم لوط الشاذة وما ترتب عليها من سلوك أدانه القرآن وشدد على أنه فعل لم يأتِ به قوم قبل قوم لوط، وبالنظر لكون موضوعنا الأصلي هو امرأة لوط واثرها السلبي في الحياة للمساعدة على اشاعة الفاحشة فقد خصصنا لها فقرة طويلة في هذا الفصل تحدثنا فيها عن أهم تداعيات تعاون امرأة لوط مع قومها وأسباب ودوافع ذلك الانسجام غير المبرر والذي عانى منه لوط (عليه السلام) ودفع ثمنه من راحته وحياته التي قضاها مع تلك المرأة العنيدة في عذاب واختلاف كبير في الرؤى والتوجهات.

كان **الفصل السادس** مخصصاً بأكمله للحديث عن كل من يوسف (عليه السلام) وزوجته التي استقينا معلوماتنا عن زواجه منها من مصادر التاريخ وليس من القص القرآني الذي توقف عن ذكر زليخا وما حل بها بعد أن ساهمت بايداع يوسف السجن، ثم اعترافها أخيراً بعدم خيانتها وحبها الشديد له الذي كان سبباً في كل ما جرى، كانت الفقرة الأولى مخصصة للحديث عن يوسف، وعلاقته بأبيه وأخوته، وحجم حب أبيه له وما تعرض له من مشاكل بسبب رؤياه التي تطرق لها القص القرآني بشيء من الوضوح، ثم بعد ذلك وصوله الى مصر وعلاقته بامرأة العزيز وما ترتب على ذلك كله من أحداث حيث تم سجنه واخراجه فيما بعد وزواجه من زليخا وتسلمه لمهامه الرسمية كعزيز لمصر وجملة نشاطاته الاقتصادية والعلمية التي تركت أثراً ايجابياً في المجتمع المصري، أما زليخا فقد كان حبها ليوسف أمراً لا يمكن المرور عنده مرور الكرام فحبٌ أوصل يوسف الى السجن وزليخا الى الهلاك النفسي لا بد وأن يكون رصيناً قوياً مبنياً على الجانب الروحي والوجداني بعيداً عن الغرائز والملذات الزائلة، وبعد أن تجاهل القص القرآني ما حل لزليخا بعد خروج يوسف من السجن لكون القصة تتعلق بيوسف واثره أكثر من تعلقها بمواقف زليخا، تابعت مصادر التاريخ القصة وأكدت ان ملك مصر قد

زوج يوسف من امرأة العزيز بعد أن مات العزيز وبذلك اكتملت الصورة حيث أصبح يوسف عزيزاً لمصر، وأصبحت زليخا بحبها النقي له امرأة أنجبت له ولديه افرائيم وميشا.

الفصل السابع، كان من نصيب امرأة نبي صابر، وهو نبي الله أيوب، فكان عنوان الفصل، امرأة أيوب (عليه السلام)، تطرقنا فيه أولاً الى أيوب نفسه كيف كان وماذا حدث له، ومقدار صبره على حجم الخسائر التي خسرها في جوانب حياته المادية والاجتماعية والصحية، وكيف أن الله تعالى جزاءاً لصبره أعاد له كل ما فقده، ومن ضمن ذلك زوجته أعاد لها جمالها وحيويتها بعد أن ذبلت بسبب معاناتها من جراء حزنها وألمها عليه وتعبها في السهر عليه ومتابعة حاجاته ومتطلباته، أما الفقرة الثانية فقد خصصناها للحديث عن تلك المرأة الصابرة المخلصة الأصيلة التي وقفت الى جانب زوجها ولم تتخلَ عنه فكانت بحق رمزاً للمرأة الوفية المؤمنة الصابرة.

الفصل الثامن، كان إنتقالة الى الشطر الثاني من موضوع الكتاب وهو أمهات الأنبياء، حيث جاء تحت عنوان (أم موسى عليه السلام) وأم موسى هي الأم الوحيدة التي ذكرها القرآن على أنها أمٌ لنبي بدأ أثرها في الحياة من خلال تلك الصفة الانسانية الرائعة، بدأنا الفصل الثامن بالتطرق أولاً الى النبي موسى الذي جاء اثر أمه في الحياة من خلاله هو ولم يأتِ اثره من خلالها، ثم تطرقنا في ذات الفقرة الى هارون شقيق موسى الذي بعثه الله نبياً ووزيراً الى موسى ليكمل معه المسيرة وليكون سنداً وعوناً له، أم موسى تلك المرأة التي أشار لها القص القرآني بشكل مباشر وتطرق الى فؤادها وكيف اصبح فارغاً كانت أمّاً مؤمنة جادت بوليدها وهو حي ورمته في البحر ليكمل مشواره ويصبح نبياً. تطرقنا الى أثرها الرائع في الحياة في الفقرة الثانية، أما الفقرة الثالثة من الفصل الثامن فقد كانت من نصيب آسيا امرأة فرعون جاء التطرق اليها ليس من خلال كونها جزءاً من موضوع الكتاب فهي ليست زوجة لنبي ولا أمّاً لنبي ايضاً لكنها كانت امرأة صالحة وواحدة من

سيدات نساء العالمين الأربعة اللواتي تحدث عنهن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في حديث له سيتم التطرق له في متن الكتاب.

مريم بنت عمران أم عيسى عليها السلام، تطرقنا لاثرها الرائع في الحياة في **الفصل التاسع** ومن خلال الفقرة الأولى منه، حيث أن ظهور مريم في المشهد آنذاك وأهميتها في الحياة ودورها الرائع الذي تصدت له بكل قوة قد اشاد به الله تعالى قبل أن يخلق عيسى (عليه السلام) بسنوات، عيسى نفسه كيف ولد؟ وكيف دافع عن أمه وهو طفل مولود للتو؟ أثبت بدفاعه نبوته أولاً وعظمة أمه ثانياً، تطرقنا لحياته في الفقرة الثانية، أما الفقرة الثالثة فقد تطرقنا من خلالها الى زكريا وابنه يحيى الذي وهبه الله له على الكبر بعد أن أصلح له زوجته وكان لمريم موضوع فصلنا أهمية تفوق أهمية الجميع فقد اشاد الله بها واعتمدها سيدة لنساء العالمين ..

الفصل العاشر: كان الفصل العاشر أكثر الفصول بعدد صفحاته لتعدد فقراته وأهميتها فضلاً عن تعدد نساء النبي وضرورة التطرق الى أدوارهن والى كيفية زواج الرسول منهن وشيئاً من حياتهن، تطرقنا في الفقرة الأولى، لحياة الرسول العظيم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) باعتباره مصدر الحدث الأساسي والمهم، تطرقنا لحياته الشريفة بشيء من الاختصار، منذ الطفولة حتى بعثته الشريفة ثم تطرقنا الى أثره بعد الهجرة حتى وفاته، أما الفقرة الثانية فقد خصصناها للحديث عن فلسفة الزواج عند الرسول ودوافع زواجه من نسائه وما كان يبغي من ذلك من أهداف اجتماعية وانسانية نبيلة، وبالنظر لكون القرآن الكريم قد اشار الى نساء النبي في سورتي الأحزاب والتحريم وعلاقتهن بالرسول، وبالنظر ايضاً لكون كتب الحديث ومصادر التاريخ تطرقت الى تلك العلاقة واهتمت بها لذلك خصصنا فقرة خاصة للحديث عن تلك العلاقة اسميناها، علاقة الرسول بنسائه من خلال القص القرآني وما جاء في كتب التاريخ. تطرقنا الى

نساء النبي والى عددهن حسب ترتيب زواج الرسول منهن فكانت لنا وقفة مع كل واحدة منهن بعد أن أجلنا الحديث عن أهم زوجتين من نسائه صلى الله عليه وآله وسلم وهن السيِّدتان خديجة الكبرى (عليها السلام) وعائشة بنت أبي بكر (رضي الله عنها) الى الفقرتين الأخيرتين الرابعة والخامسة، حيث تم الحديث عن أثرهما التاريخي، وبعد الانتهاء من الفصول العشره، جاء دور الخاتمة ليكون بمثابة الخلاصة التي تم فيها اختصار أهم نقاط الوحدة البحثية بأشارات محددة من كل فصل تبين اهميته ضمن السياق العام للموضوع بعدها تم تنظيم قائمة بعدد من الصفحات للمصادر والمراجع التي تم اعتمادها كان على رأسها القرآن الكريم.

هذا ما يتعلق بمتن الكتاب وما جاء فيه من فصول أما المصادر والمراجع التي تم اعتمادها والتي قاربت المائة وخمسين مصدراً ومرجعاً فلا بد من الوقوف عند أهمها والتعريف به وبمؤلفه إذ أن واحداً مما امتازت به عملية اعتمادنا على المصادر كانت شمولية المصدر لفصول البحث، وذلك بسبب التشابه الحاصل في عناوين الفصول المستوحى من العنوان العام للكتاب الذي تصدى لزوجات وأمهات الأنبياء، وعليه فأن المصدر الذي يتحدث عن الأنبياء سيكون شاملاً من الممكن الاعتماد عليه في كل فصول الكتاب تقريباً لذلك كان اعتمادنا للمصادر قليلاً بعض الشيء قياساً بحجم الكتاب وعدد فصوله، وقد جاءت أهم المصادر ضمن التصنيف الآتي:

١- كتب التفاسير.

٢- قصص الأنبياء.

٣- كتب التاريخ.

٤- كتب الحديث.

اولا: كتب التفاسير. اعتمدنا أكثر من عشرين تفسيراً كما هو مثبت في قائمة المصادر. بدءاً من أقربها للحدث وهو تفسير جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير

الطبري(ت٣١٠هـ)، حتى التفاسير الحديثة كتفاسير، في ظلال القرآن لسيد قطب وصفوة التفاسير للصابوني وتفسير الميزان للعلامة الطباطبائي والتفسير المبين للسيد محمد جواد مغنية.

كان لكتب التفسير أهمية بالغة في التعامل مع النصوص القرآنية التي تحدثت عن حياة الأنبياء وأثرهم الكبير وكذلك عن علاقتهم بنسائهم وطبيعة الحياة الأسرية والاجتماعية التي كانت الأساس في التعامل الميداني بين الأنبياء وزوجاتهم من جهة وتأثيرات ذلك على دور كل منهما في الحياة العامة من جهة أخرى.

لذلك كان لآراء المفسرين وتحليلاتهم المبنية سواءً على أحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أو على أقوال وآراء الصحابة الكرام والتابعين وبقية الرموز العلمية من أهل البيت وغيرهم أهمية كبيرة.

لا نستطيع أن نقف عند كل كتب التفاسير التي تم اعتمادها فهي كثيرة كما أشرت واستخدامنا لها كان موزعاً على الفصول، إلا أن هناك تفاسير كانت الأكثر شمولية من حيث توزيعها على الفصول والأكثر أهمية ايضاً من حيث التحليل الصحيح والرأي البعيد عن التحيز والمذهبية الضيقة، لا بد من الوقوف عندها والتذكير بها لأهميتها في بحثنا كتفاسير الطبري (ت،٣١٠هـ) والطبرسي من اعلام القرن السادس (مجهول الوفاة) وابن الجوزي ت ٥٩٥ والرازي ت٦٠٦ والسيوطي ت٩١١ فضلاً عن تفاسير الآلوسي والطباطبائي فالطبري أقرب المفسرين للحدث من غيره، فالرجل عاش في منتصف القرن الهجري الثالث وهو فضلاً عن كونه مفسراً فهو مؤرخ وكتابه تاريخ الرسل والملوك أشهر من أن اشير اليه في هذه العجالة، لذلك كان اعتمادنا على تفسيره أعلاه وكذلك كتاب التاريخ هو أمرٌ لا بد منه، فأي باحث في التاريخ العام والاسلامي في الفترة التي سبقت وفاة الطبري، لا يمكن أن يستغني عن كتب الطبري أبداً، يقول ابن النديم

(ت ٣٨٥هـ) في الفهرست: الطبري علامة وقته وإمام عصره وفقيه زمانه، أخذ فقه الشافعي عن الربيع بن سليمان بمصر وعن الحسن بن محمد الزعفراني في بغداد وأخذ فقه مالك عن يونس بن عبد الأعلى، وأخذ فقه أهل العراق عن أبي مقاتل، ثم أدرك الأسانيد العالية بمصر والشام والعراق والكوفة والبصرة والري وكان متفنناً في جميع العلوم كعلم القرآن والنحو والشعر واللغة والفقه، ثم يعدد ابن النديم كتب الطبري فيقول: ومن كتبه: كتاب اللطيف في الفقه وكذلك كتاب البسيط ثم كتاب الشروط الكبير، كتاب الحاضر وكتاب السجلات، كتاب الوصايا، كتاب أدب القاضي، كتاب الطهارة، كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، فضلاً عن كتاب التاريخ الذي استمر به الى سنة ٣٠٢ هـ[٥] أي قبل وفاته رحمه الله بثمان سنين.

الطبرسي، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن، من أهم علماء الامامية في القرن السادس، اعتمدنا تفسيره المعروف بمجمع البيان في العديد من فصول البحث وخاصة الفصول الثاني والسابع والحادي عشر.

ابن الجوزي، أبو الفرج، عبد الرحمن بن محمد، (ت، ٥٩٧هـ) وهو ايضاً مؤرخ وله من الكتب كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم وكذلك كتاب صفة الصفوة الذي يعد واحداً من أهم كتب التراجم في التاريخ الاسلامي. استخدمنا تفسيره المعروف بتفسير زاد المسير في العلم والتفسير في الفصول السابع والثامن والتاسع. الرازي، فخر الدين ابن الخطيب، المعروف بالفخر الرازي المولود في (٥٤٣هـ)، والمتوفى في (٦٠٦هـ) كان لكتابه التفسير الكبير أهمية كبيرة في تناولنا لحياة عيسى وأمه عليهما السلام، اذ تم استخدام

---

[٥] ابن النديم، محمد بن ابي يعقوب المعروف بالورّاق، (ت، ٣٨٥هـ)، فهرست ابن النديم، تحقيق رضا تجدد، طهران، ١٣٥٠هـ ص٢٩١.

هذا التفسير في ذلك الفصل بشكل مركز، أما كتابه عـصمة الأنبيـاء فهـو مـن المـصادر المهمة جداً حيث تم الاعتماد عليه في الكثير من فصول البحث.

السيوطي وهو واحد من أهم علماء القرن التاسع الهجري حيـث انـه تـوفي مطلـع القرن العاشر وبالتحديد في (٩١١ هــ) هذا المفسر والمـؤرخ يعتـبر موسـوعة في العلـوم، فمن كتبه التي وصلت الينا فضلاً عن تفسيره المشهور بالدر المنثور في التفسير بالمـأثور، كتاب تاريخ الخلفاء، ولباب العقول في أسباب النزول والتـي اعتمـدناه ايـضاً في بحثنـا، فضلاً عن كتب أخرى عديدة لا يحضرني في اللحظة سوى كتاب أخبـار الجـواري وهـو واحد من الكتب التي تابعت أخبار جواري الملوك والسلاطين واسرار العلاقة بـين الرمـوز السياسية آنذاك وجواريهم في العصرين الأموي والعباسي، اسـتخدمنا تفـسيره أعـلاه في العديد من الفصول وكان مصدراً غنياً بالمعلومات، إذ أن الـسيوطي يعتمـد آراء أسـلافه بشكل موسع ويتطرق بذكره للأحداث على عدة روايـات وبطـرق متنوعـة ممـا يعطـي للمعلومة التي يذكرها أهمية تثير الباحث.

الآلوسي، العلامة محمود شكري البغدادي، (ت، ١٢٧٠هــ) كـان لتفـسيره المعـروف بروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني أهميـة في كتابـة فـصول الكتـاب خاصة الفصول الوسطى منها، فتفسيره موسع وهو يقـع في ثلاثـين جـزءاً، والآلـوسي رجل مقتدر يطرح آراءه معتمداً على أسلافه واذا كان هناك ما يختلف به عنهم فيطرحه بجرأة، ومن ملاحظاتي عليه وأنا أتابع بعض أجزاء كتابه أنـه حـذر مـن الاسرائيليـات شأنه بذلك شأن صاحب تفسير الميزان وان كان صاحب تفسير الميزان أكثر حـذراً منـه، والآلوسي له العديد من الكتب لا سيما كتاب نهاية الأرب في معرفة أحوال العرب.

الطباطبائي، العلامة السيد محمد حسين المعـروف بـصاحب تفـسير الميـزان، كـان لتفسيره تفسير الميزان أهمية كبيرة في كتابة فصول الكتاب حيث تـم اعتمـاده مـصدراً

مهماً لاحتوائه علـى آراء معتدلـة بعيـدة عـن الانحيازيـة والتطـرف فـضلاً عـن كـون الطباطبائي كما أشرت كان حذراً جداً من الاسرائيليات فهـو يعتمـد العلميـة بتفـسيره للنصوص مختلفاً بذلك عن الكثير من المفسرين الذين يعتمدون الروايـة دون تمحـيص، وفضلاً عن التفسير أعلاه فأن للطباطبائي كتاباً كان محوراً مهماً من مجموعة المصادر المهمة التي اعتمدناها واعتبرناها محاور أساسية لعملنا، ألا وهو كتاب تاريخ الأنبيـاء. وتاريخ الأنبياء هو مختصر التفسير الخاص بحياة الأنبياء واثرهم في الحياة وما يتعلـق بذلك بشكل مختصر فهو جزء من التفسير لكنه لا يغنـي عـن التفـسير إذ أن اعتمادنـا للتفسير كان بسبب شموليته.

ثانيا: قصص الأنبياء: بالنظر لكون موضوع دراستنا مختصراً على اثـر نـساء وأمهـات الأنبياء لذلك كانت كتب قصص الأنبياء واحدة من أهم مصادر البحث، وقصص الأنبيـاء التي اعتمدناها كمصادر مهمة هي أربعـة يقابلهـا أربعـة أخـرى تعتـبر مـن المراجـع الحديثة التي تتابع ذات الموضوع.

كتاب "قصص الأنبياء" للثعلبي، أبي اسـحق أحمـد بـن محمـد النيـسابوري، (ت، ٤٢٧هـ) المسمى عرائس المجالس تقدم تلك المصادر، فهو يتطرق الى حياة الأنبياء جميعاً عدا خاتمهم الرسول المصطفى محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسـلم) ويعتـبر أقدم مصدر تناول حياة الأنبياء بالتتابع وهو مـصدر موسـع تطـرق للأحـداث بـشكل تفصيلي وهو لا يخلو من الإسرائيليات والروايات التي فيها شيء من عدم الدقة بالنقل أو عدم الدقة بالصياغة اذ وردت في قصص الثعلبي العديد من الروايات التي لا يمكن قبولها لعدم ملائمتها لسير الحدث التاريخي، ولكن مع ذلك كان لهذا الكتاب دور كبـير جـداً اذ ربما يأتي في مقدمة المصادر من حيث الأهمية وكثرة الاعتماد على رواياته بعد تصفيتها من الشوائب.

"قصص الأنبياء" لابنِ كثير، أبو الفداء اسماعيل بن كثير، (ت، ٧٧٤هـ) هو الكتاب الثاني من قصص الانبياءِ الذي تم الاعتماد عليه في البحث، فابن كثير رجل علمي ودقيق رغم اعتماده على بعض الاسرائيليات كما هو شأن سلفه الثعلبي، إلا أنه يصنف الاسرائيليات بقوله (وقد ورد عن أهل الكتاب) .. وقد جاء ذلك واضحاً عند حديثه عن النبي يعقوب وأبناءه،وكذلك موسى وعيسى (عليهم السلام) لذلك كان لكتابه أعلاه مع بقية كتبه الأخرى كالبداية والنهاية والتفسير العظيم دور كبير في كتابة فصول الدراسة. الجزائري، نعمة الله الجزائري، (ت، ١١١٢هـ) كتابه المعروف "بالنور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين"، هو الكتاب الثالث في قصص الأنبياء والذي تم اعتماده كمصدر مهم من مصادر قصص الأنبياء المنوه عنها أعلاه، وقصص الجزائري هي الأخرى موسعة لكنها غير منظمة وفيها من الاسرائيليات ما يمكن فرزه بسهولة فضلاً عن انها تحتوي على روايات هي الأخرى لم تنسجم وسير الحدث التاريخي ولكن كل ذلك لا يقلل من أهميتها الكبيرة باعتبارها قصصاً أغنت الدراسة بما تحتاجه من المعلومة النافعة والرواية التي ساهمت برسم ملامح فصول الدراسة. الحنفي وهناك من يطلق عليه تسمية ابن أياس، وهو الشيخ محمد بن أحمد بن أياس، (ت، ٩٣٠هـ) كان كتابه الموسوم بـ (بدائع الزهور في وقائع الدهور) أشبه ما يكون هو الآخر قصصاً للانبياء وان لم يسمَ بذلك فهو يحتوي على قصص الأنبياء المشار اليهم في القرآن الكريم بدءاً من آدم حتى نهاية عصر عيسى عليهما السلام فضلاً عن شموله على أحداث أخرى وقصص أخرى حفل بها التاريخ القديم، لذلك كان مصدراً مهماً من مصادر الدراسة حيث تم اعتماد العديد من رواياته وعلى طول الفصول باستثناء الفصل الأخير. هذا ما يتعلق بالمصادر التي صنفت تحت باب قصص الأنبياء، أما المراجع الحديثة والتي تصدت لذات الموضوع فهي "قصص الأنبياء" للنجار وقصص القرآن لجاد المولى وأنبياء الله لأحمد بهجت فضلاً عن "تاريخ الأنبياء" للطباطبائي والذي تمت الاشارة اليه سابقاً. عبد

الوهاب النجار مدرس التاريخ الاسلامي بكلية اصول الدين في القاهرة كان لكتابه قصص الأنبياء أهمية كبيرة في رفد فصول الدراسة ببعض المعلومات المستندة على الذكر الحكيم كون النجار، كان دقيقاً بنقله للأحداث فهو يربط ما جاء في القرآن مع ما جاء في التوراة والاناجيل بطريقة علمية ولم يتعامل مع الروايات العشوائية غير المنظمة أما الاسرائيليات فلم تأخذ طريقها الى كتابه أعلاه لذلك كان مصدراً خالياً من الشوائب. تمت الاستفادة منه في عدد من فصول الاطروحة، جاد المولى الاستاذ محمد أحمد جاد المولى، اعتمدنا تعليقاته وآرائه السديدة في عدد من فصول الأطروحة بعد أن اطلعنا على كتابه قصص القرآن الذي تناول حياة الأنبياء بما فيهم الرسول المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو بذلك اختلف عن أقرانه الذين توقفوا عند نهاية حياة النبي عيسى (عليه السلام) أما أحمد بهجت فقد عرّفنا على الأنبياء بطريقة علمية حين أسند حديثه وبأسلوب رائع على آيات الذكر الحكيم التي تطرقت الى حياة الأنبياء ومواقفهم السياسية والاجتماعية .. الخ لذلك جاء كتابه (أنبياء الله) عاماً وشاملاً دقيقاً وأهم ما فيه طريقة تعليقاته على المواقف التي تستوجب الوقوف عندها.

ثالثا: كتب التاريخ:

سلك المؤرخون العرب والمسلمون في كتاباتهم منهجين، الأول هو كتابة التاريخ الحولي أو ما يسمى بكتابة التاريخ حسب السنين، والمنهج الثاني هو كتابة التاريخ حسب الموضوعات، وقد كان أشهر من كتب التاريخ الحولي هو الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، (ت، ٣١٠هـ) في كتابه تاريخ الرسل والملوك وقد تمت الاشارة اليه أثناء الحديث عن كتب التفاسير، وقد نَهجَ نهج الطبري في كتابة التاريخ الحولي خلفه ابن الأثير، علي بن محمد الجزري، (ت، ٦٣٠هـ)، وابن الأثير وإن سار على نهج الطبري في الكتابة ونقل عنه العديد من الروايات إلا أنه حاول المحافظة على وحدة الموضوع جهد

امكانه "فجمع عناصر الحادثة التي تتصل الى عدد من السنين ويصل بين أجزائها في سنة معينة وموضوع واحد حتى تبرز القيمة الخبرية للحادثة وتتابع عناصرها بانتظام وترابط يستسيغه القارئ فيستوعب الموضوع في سهولة ويسر"[٦].

كان اعتمادنا على ابن الأثير واضحاً في معظم فصول الدراسة من خلال كتابه "الكامل في التاريخ" وكذلك كتابه الآخر والمهم ايضاً والذي اعتمدناه مصدراً مهماً في الفصل العاشر وهو كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة" الجزء السابع الخاص بالنساء، حيث ترجم ابن الأثير للنساء الصحابيات ومن ضمنهن نساء الرسول المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) فكان مصدراً غنياً بالمعلومات المهمة.

ابن كثير: أبو الفداء اسماعيل بن كثير، (ت، ٧٧٤هـ) كان لكتابه المكتوب حسب السنين وهو كتاب البداية والنهاية أهمية كبيرة في كتابة فصول الدراسة لشمولية الكتاب وغزارة معلوماته وتطرقه لجوانب عديدة وتفصيلية من حياة الرسل والأنبياء جميعاً بما فيهم حياة الرسول الكريم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، والذي لم يتطرق له في قصص الأنبياء المشار اليها سابقاً. هذا ما يتعلق بكتب التاريخ الحولية أو المكتوبة حسب السنين، أما الكتب المكتوبة حسب الموضوعات فقد مثلها أولاً ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن مسلم (ت، ٢٧٦هـ) في كتابة "الامامة والسياسة" المعروف بتاريخ الخلفاء والذي تم اعتماد جزءٍ من معلوماته في الفصل الأخير، تلاه ابو حنيفة الدينوري، أحمد بن داوود، (ت، ٢٨٢هـ) في كتابه الأخبار الطوال الذي كان مصدراً مهماً من مصادر كتابة الفصول الأولى للدراسة وخاصة الفصول الثالث والرابع والخامس وكذلك اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، (ت، ٢٨٢هـ) كان لكتابه

---

[٦] سالم، السيد عبد العزيز، التاريخ والمؤرخون العرب، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر ١٩٦٧م، ص٨٤، والمعلومة مأخوذة من كتاب (المؤرخ ابن الأثير) لعبد القادر طليمات.

المعروف "بتاريخ اليعقوبي" أهمية كبيرة جداً في كتابه تفوق أهمية العديد من المصادر الأخرى لشمولية الاعتماد عليه في فصول الدراسة واليعقوبي فضلاً عن كونه مؤرخاً فقد كان رحالاً وله كتاب اسمه "البلدان "اعتمدناه ايضاً في بعض من مفاصل الفصلين الثالث والرابع.

المسعودي، علي بن الحسين، (ت، ٣٤٦هـ) هو الآخر كتب كتابه المهم في التاريخ وهو كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" حسب الموضوعات حيث جمع الحوادث التاريخية تحت رؤوس موضوعات وهو في ذلك شأنه شأن تاريخ اليعقوبي يجمع بين التاريخ حسب الدول والحكام[٧]. وكتاب المسعودي أعلاه فضلاً عن كتابه الآخر المسمى بـ "التنبيه والاشراف" كانا من المصادر المهمة التي أغنت فصول الدراسة بالمعلومات المفيدة.

الديار بكري، الشيخ حسين بن محمد الديار بكري، (ت، ٩٦٦هـ) كان لكتابه "تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس" والمكتوب بطريقة الموضوعات المختلفة والذي بدأه من بداية الخلق حتى الدول العباسية والفاطمية مع ذكره لملوك الأتراك والأكراد والجراكسة الذين حكموا مصر، وكان كتاباً عاماً شاملاً غنياً جداً حيث اعتمد الديار بكري في تأليفه على مجموعة من كتب أسلافه ذكرهم جميعاً في مقدمة الكتاب لذلك جاءت معلوماته متنوعة ومفيدة للغاية، ومن الكتب التي ألفت حسب المواضيع أنواعٌ أخرى منها:

ا. **كتب الأنساب**: اعتمدنا في فصول الدراسة مجموعة من كتب الأنساب أمثال كتاب "جمهرة النسب" لابن الكلبي، (ت، ٢٠٤هـ) والمحبر للنسابة ابن حبيب، (ت، ٢٤٥هـ) وكتاب نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار (ت، ٢٥٦هـ) أما أهم كتاب تم استخدامه

---

(٧) سالم، المصدر السابق، ص٩٣.

من كتب الأنساب فهو كتاب "أنساب الأشراف" للبلاذري أحمد بن يحيى، (ت، ٢٧٩هـ) حيث كان كتاباً فضلاً عن كونه يشير للأنساب ويعتمدها اساساً له إلا أنه يحتوي على معلومات تاريخية قيمة تم اعتمادها في عدد من فصول الدراسة لا سيما الفصل الأخير الخاص بنساء النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو يحتوي على تراجم لنساء النبي تطرقت الى أهم ما يخص كل واحدة منهن وعلاقتهن ببعضهن من جهة وبالرسول من جهة أخرى فضلاً عن أهم ما يتعلق بحياتهن من أحداث مهمة .. الخ من تفاصيل الحياة الأسرية للبيت النبوي الكريم فكان بحق مصدراً تاريخياً مهماً.

ب. **كتب السير**: كان الفصل الأخير فصلاً مهماً جداً إذ احتوى عدداً من الصفحات تعادل بعددها الفصول الثلاثة الأولى للدراسة، هذا الفصل اعتمدنا فيه أعداداً كبيراً وجديدة من المصادر والمراجع لم نكن قد استخدمناها في الفصول السابقة، ومن هذه المصادر، كتب السير الثلاثة وهي "سيرة ابن اسحق"، محمد بن اسحق بن يسار، (ت،١٥١هـ) المسماة بكتاب "المبتدأ والمبعث والمغازي". يعتبر ابن اسحق من أقرب المؤرخين للحدث وله من الكتب فضلاً عن السيرة أعلاه كتاب آخر يسمى كتاب الخلفاء[8].

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام، المعافيري، البصري (ت، ٢١٨هـ) على أغلب الروايات هو صاحب السيرة النبوية المعروفة بسيرة ابن هشام المستخرجة من سيرة ابن اسحق أعلاه، كانت سيرة ابن هشام مصدراً مهماً ورئيساً من المصادر التي تم اعتمادها في الفصل الأخير لاحتوائها على معلومات غزيرة ودقيقة في بعض الحالات من حياة الرسول منذ ولادته حتى وفاته مع ذكر لأهم الأحداث التي حدثت في حياته في مكة والمدينة مع تذكير ايضاً بأهم المواقف الاسلامية الخالدة.

---

[8] ابن النديم، المصدر السابق، ص١٠٥.

"السيرة الحلبية" لعلي بن برهان الدين الحلبي، (ت، ١٠٤٤هـ) المعروفة بانسان العيون في سيرة الأمين المأمون، كانت هي الأخرى من المصادر التي اعتمدناها في الفصل الأخير وان كان ذلك أقل بكثير مما تم اعتماده من السيرتين أعلاه.

ج. **كتب الطبقات والتراجم:** استخدمنا مجموعة من كتب الطبقات كان على رأسها كتاب "الطبقات الكبرى" لابن سعد أبي عبد الله محمد بن سعد (ت، ٢٣٠هـ) كاتب المؤرخ محمد بن عمر المعروف بالواقدي، حيث تم اعتماد معلومات كتابه في عدد من فصول الدراسة، وابن سعد هو واحد من أقدم المؤرخين وقد قسم كتابه الطبقات الكبرى، وهو كتاب تراجم مفصل ويحتوي على معلومات غزيرة جداً، الى عدة طبقات بناءً على عائدية الصحابي ومكانه فكانت طبقات أهل مكة أولاً ثم الطائف واليمن والبحرين والكوفة والبصرة والشام والجزيرة ومصر .. الخ[٩]. وفضلاً عن طبقات ابن سعد كانت لنا وقفة مع حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله الأصبهاني، (ت،٤٣٠هـ) حيث تم اعتماد ما جاء فيه من معلومات بخصوص نساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي الفصل الأخير تحديداً، أما كتب التراجم فقد استخدمنا ثلاثة كتب مهمة منها كتاب الاستيعاب في معرفة الاصحاب لابن عبد البر، ابي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، (ت، ٤٦٣هـ) وكتاب سير أعلام النبلاء، للذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، (ت، ٧٤٨هـ)، وكتاب الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي، (ت، ٨٥٢هـ) وقد أغنت كتب التراجم الثلاث أعلاه الفصل الأخير من الأطروحة بالمعلومات الوافية والدقيقة والمهمة حيث ترجم العلماء الأفاضل الثلاث لنساء النبي مذكرين بأهم مواقفهن وأعمالهن وما يتعلق بعلاقتهن

[٩] ابن النديم، المصدر السابق، ص١١١.

بالنبي ودورهن العلمي والاجتماعي والسياسي بعده، وفضلاً عن كتب التاريخ أعلاه فقد كان لكتابي الروضة من الكافي للرازي الكليني، (ت، ٣٢٩هـ) وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد عبد الحميد المدائني، (ت، ٦٥٦هـ) أثر كبير في اغناء فصول الأطروحة بالمعلومات المهمة والضرورية، وقبل أن ننتقل للحديث عن نوع آخر من المصادر التي تم استخدامها لا بد من التذكير بمصدرين مهمين اعتمدناهما في الفصل الأخير وهما كتاب "تسمية أزواج النبي" لأبي عبيدة معمر بن المثنى، (ت، ٢٠٨هـ) وكتاب "الصمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين" لمحب الدين الطبري، أحمد بن عبد الله الطبري، (ت،٦٩٤هـ) حيث كان لهذين المصدرين دورٌ كبيرٌ بتزويدنا بمعلومات دقيقة وتفصيلية عن حياة زوجات النبي، والتي لم ترد في بقية المصادر أو وردت بطريقة مختصرة، اذ أن الحديث عن أمهات المؤمنين في هذين المصدرين كان مركزاً وموسعاً خاصة في كتاب "الصمط الثمين".

رابعا: كتب الحديث:

اعتمدنا كتب الحديث في بعض من فصول الدراسة واذكر بالأخص الفصل الأخير، حيث كان لكتب الحديث دور كبير في ابراز مناقب نساء النبي وعلاقتهن به واثرهن بعد وفاته، فضلاً عن أشياء أخرى تهم البيت النبوي الشريف فكان لمسندي الشافعي، أبي عبد الله محمد بن ادريس (ت، ٢٠٤هـ) وأحمد بن حنبل (ت، ٢٤٠هـ) دورٌ مهمٌ في نقل تلك الوقائع وأحاديث الرسول بتلك الخصوص، البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن المغيرة، (ت، ٢٥٦هـ) ومسلم أبو الحسين ابن الحجاج النيسابوري، (ت، ٢٦١هـ) لصحيحيهما أهمية في الموضوع حيث رجعنا لهما في الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالأسرة المحمدية حيث مناقب نساء النبي وعلاقتهن ببعضهن وعلاقة الجميع بالرسول المصطفى (صلى الله عليه وآله سلم).

ابن ماجة، ابو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت، ٢٧٢هـ)، وأبـو داود سـليمان بن الاشعث السجستاني، (ت، ٢٧٥هـ) وكذلك الترمذي أبو عيسى محمد بـن عيـسى بـن سوره، (ت، ٢٧٩هـ) رجعنا الى سننهما في الفصل الثاني والثالث وكذلك توقفنا عندها في الفصل الأخير للتعرف على ما نقله الثلاثة بخـصوص أهـم مـا جـاء في فقـرات الفـصل الأخير.

هذا ما يمكن استعراضه من مصادر البحث أما ما لم نـستعرضه فهـو يـدخل في خانـة المصادر العامة اما الاشارة لها فقد جاءت في الهوامش وكذلك في قائمة المصادر والمراجع.

اما ما يتعلق بالمصادر الحديثة، فقد كانت كثيرة ورجعنا لها في العديد من الفصول وتمت الاشارة اليها كذلك في قائمة المصادر والمراجع التي زينت نهاية الدراسة.

الفصل الأول

ـ المرأة في التاريخ القديم ـ

أولاً: المرأة في حضارة وادي الرافدين

ثانياً: المرأة في حضارة وادي النيل

ثالثاً: المرأة في الديانة اليهودية

رابعاً: المرأة في الديانة المسيحية

خامساً: المرأة في العصر الجاهلي

المرأة في التاريخ القديم

المرأة هي الوجه الثاني للحياة، وعندما نقول الوجه الثاني للحياة فهو إشارة لكونها المخلوق الذي رأى النور بعد الذكر الذي خلقه الله جل شأنه في أحسن تقويم .

ولغرض الوقوف على دور المرأة في سالف العصور سنعمل على تقسيم تلك العصور بما تمخضت عنه من حضارات وحسب اهميتها وعمقها الزمني، لذا سنبدأ الكلام بحضارة وادي الرافدين وذلك لكونها اولاً اقدم الحضارات وثانياً لكون مكان قيام هذه الدراسة هو بغداد التي أصبحت بعد آلاف من السنين على وجود تلك الحضارة عاصمة لبلاد ما بين النهرين، ثم يتطرق الباحث بعد ذلك الى المرأة في بقية الحضارات.

أولاً: المرأة في حضارة وادي الرافدين

جاء في الأخبار الطوال للدينوري (ت٢٨٢هـ) ما يأتي "وجدت فيما كتبه اهل العلم بالاخبار الاولى، ان ادم عليه السلام كان مسكنه الحرم، وان ولده كثروا في زمان مهليل بن اشون بن شيت بن ادم، وكان سيد ولد ادم في دهره والقائم في امره وكذلك كان اباؤه الى ادم عليهم السلام اجمعين، فوقع بينهم التنازع في الأوطان ففرقهم مهليل في مهب الرياح الاربعة وخص ولد شيت بأفضل الأرض فأسكنهم العراق، وكان أول نبي بعد

شيت، إدريس واسمه اخنوخ بن برد بن مهليل وسمي إدريس لكثرة دراسته، ثم بعث الله نوحاً عليه السلام الى اهل عصره وكان مسكنه بأرض العراق"[1].

أراد الباحث من خلال التطرق الى النص اعلاه ان يشير إلى أهمية حضارة وادي الرافدين وعمقها الزمني من خلال النصوص التاريخية والتي أيدتها الى حد بعيد التنقيبات الأثرية على ضوء ما جاءت به الرقم الطينية من معلومات مكتوبة[2].

ولغرض الوقوف عند اهم النشاطات الاجتماعية بشكل متسلسل وماطرأ عليها من تغييرات عبر المراحل الزمنية الواغلة في القدم. سنقوم بتقسيم تلك المراحل التاريخية التي شهدت بناء اقدم الحضارات في ارض الرافدين الى ثلاث مراحل اساسية لغرض الوقوف عند أهم مفاصلها والاطلاع على مواقف المرأة من خلال التعرف على النظام الاجتماعي والاسري السائد آنذاك فضلا عن الوقوف على اهم القوانين والتشريعات التي صدرت والتي كانت تنظم العلاقة بين طرفي الحياة الرئيسيين وهما الرجل والمرأة وانعكاسات ذلك على الوضع الأسري والاجتماعي بشكل عام.

أ- المرأة في العصر السومري

قبل التطرق للعصر السومري باعتباره اول عصر السلالات[3]لابد لنا من التوقف قليلاً عند عصور ما قبل التاريخ، يتطرق الاستاذ ثلما ستيان عقراوي في كتابه " المرأة ودورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين" الى وضع المراة ودورها في تفعيل الحياة الاجتماعية من خلال الإنجاب الذي منحها مركزاً مرموقاً في المجتمع قائلاً: " في مرحلة

---

[1] الدينوري، ابي حنيفة احمد بن داوود، (ت،٢٨٢هـ) الأخبار الطوال، تحقيق، عبد المنعم عامر، سلسلة تراثنا ، وزارة الثقافة والإرشاد ، مصر ، ص ١ .

[2] راجع، سوسة، احمد ، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، مطبوعات وزارة الأعلام ، بغداد ، ص٤٥ و ص١٢٩.

[3] سوسة، المصدر السابق،ص١٢٩.

الصيد والرعي وهي المرحلة التي سبقت مرحلة الاستقرار والزراعة، كان الرجل يتنقل بحرية دون ارتباطات من منطقة الى أخرى يفتش عن فريسة يصطادها، بينما كانت المرأة وبحكم غريزتها تحمل أطفالها الصغار وتفتش عن القوت وتساعد في الصيد وبهذا كان وضعها قاسياً جداً بحكم تكوينها البايلوجي. إذ كان هناك تجاهلٌ كبيرٌ لدورها في الإنجاب، وبمرور الزمن وعند الانتقال الى مرحلة الزراعة، وعندما أدرك الانسان القديم اهمية التكاثر وانعكاس ذلك علىٰ خصوبة الارض ومن ثم الانتاج، اصبح للمرأة شان أخر.

يواصل الأستاذ عقراوي حديثة فيقول: ولعل المرأة هي التي اهتدت إلى تدجين الحبوب البرية بالزراعة أي انها هي التي اوجدت الزراعة، فانعكس ذلك نتيجة الاستقرار على نظرة الأفراد لمسالة تكوين الجماعات حيث اصبحت الامومة مركز اعتزاز وتقدير ومن ثم تقديس للدور الكبير الذي تضطلع به (حيث اخذ الرجل يخلع على المرأة ووظائفها البايلوجية من حيض وحمل وولادة ورضاعة سحراً استثنائيا وقيمة خاصة نتيجة لادراكه بالاهمية البالغة للمولود إذ اخذ الانسان يشعر بوجوده ككائن مرتبط بالماضي ومطل على المستقبل ، يرغب في تحديد وجوده واثبات نفسه وهنا اخذ يثمن الطفل والام التي تنجبه)[٤]

بعد ذلك حدث متغير كبير جداً. بحياة المرأة وعلاقتها بالمجتمع اذ ان اكثر الاقوام البدائية كانت تجهل في هذه المرحلة من تطور الحياة. دور الأب في الانجاب، فاعتقدت ان الاولاد ينحدرون من روح الأجداد المتقمصة في جسم المرأة لذلك اخذ الاولاد يتبعون عشيرة امهم اولاً ثم اصبح لها دورٌ كبيرٌ وقياديٌ في تلك المجتمعات. ثانياً، حيث اخذت الملكية

---

[٤] عقراوي، ثلما ستيان ، المرأة، دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد ،١٩٧٨، ص ١٨ .

الجماعية تنتقل من خلال النساء، وكل هذا كان على حساب الرجل ومكانته حتى "ظهرت في هذه المرحلة من التطور الفكري والاجتماعي عقيدة عبادة الام الاله"[٥]

حيث كشفت التنقيبات الأثرية عن تماثيل ودمى تمثل المراة في مختلف مراحل الأمومة يقول عقراوي: "ان هذه الصور للآلهة ألام والتي مثلتها دمى الطين ظهرت في عصور ما قبل التاريخ واستمرت خلال العصور التاريخية اللاحقة واذا كنا نجهل الاسم الذي أطلقه سكان عصور ما قبل التاريخ على آلهتهم الام لانعدام الكتابة انذاك فاننا عرفناها عند السومرين باسم انانا وعند البابليين باسم عشتار"[٦] ومن هنا نستنتج بان مجتمع عصور ما قبل التاريخ الذي بدا بسيطرة ذكورية، تلاشت بالتدريج أمام الوظيفتين الاقتصادية والاجتماعية للمرأة التي كانت تنجب للحياة ما جعلها تنمو وتستمر وتتطور فانعكس ذلك كله على وضعها ايجابياً فاصبحت في قمة الهرم. ولكن يا ترى، هل ان هذا الوضع يمثل حقيقة الحياة وهل ان الإنجاب كعملية بايلوجية كان فعلاً إنثوياً بحتاً لادخل للرجل به، ثم ان الزراعة وتدجين الحيوانات كوظيفة اقتصادية فرضتها ظروف الاستقرار، ألم يستطع الرجل الابداع بها كما هو شان المرأة ؟

هذه الأسئلة أجابت عليها الفترات اللاحقة من مراحل تطور المجتمعات على الارض، حيث ان عصر سيطرة المرأة (الأُم) لم يدم طويلاً إذ سرعان ما اكتشف الرجل أثره في الإنتاج، كما ان المجتمع انتبه بشكل دقيق إلى دور الرجل في عملية الإنجاب والتكاثر، وهكذا بدا الرجل يسلب الامتيازات الالهية من المرأة وفرض سيطرته وسيادته عليها وبذلك ظهر بجانب الآلهة الأنثى الآلهة الذكر تشابهها في الخصائص ولو كان اقل منها مركزاً وأثراً الا انه يجسد كما هي تجسد بالضبط فكرة الإنجاب والتكاثر. ومن هنا " بدا

---

[٥] المصدر نفسه، ص١٩.

[٦] المصدر نفسه، ص٢٠.

ظهور الالهة المزدوجة انانا ودموزي عند السومرين وعشتار وتموز عند البابليين"[٧] بعد ان تساوى طرفا الحياة الذكر والانثى بالدور والمسؤولية، ونتيجة لتطور الحياة وظهور اساليب جديدة للتعامل مع المستجدات على الساحة البشرية اخذ أثر المرأة يتضاءل قياساً الى أثر الرجل وفي العصر الحجري الحديث حيث برزت ظاهرة الغزو. الذي وجد فيه الرجل وسيلة جديدة للكسب الاقتصادي اكثر ربما من ناتج الزراعة التي ابدعت فيها المراة باديء الامر فاخذ يوظف هذا المتغير الاجتماعي لصالحه. ثم ان الغزو لم يقتصر على الاموال وما يرتبط بها سواء نقدية كانت ام عينية، بل أضاف الرجال مهراً معنوياً اخر زادوا به من مكانتهم في الحياة حيث ظهرت ظاهرة السبي للنساء ، فكان الغازون ياتون بالاموال والنساء وهم منتصرون الى قراهم وتجمعاتهم. ((ان الغزو وهو يحقق غنائم كبيرة ترفع مستوى عيش الغزاة المنتصرين وعوائلهم ، كان يعزز أيضا المكانة المتفوقة للذكور منذ الصغر لتهيئتهم لدورهم المرسوم لهم في الحرب وكذلك الامر بالنسبة الى القبائل المغزوة والمعرضة الى الغزو وباستمرار وذلك لان الاطار الاقتتالي كان عاماً فقد اصبحت قيمة الذكور اكبر من قيمة الاناث))[٨].

بعد هذا التطور الاجتماعي الذي حدث لصالح الرجل صاحبه تطور في مجالات اخرى على المستويات السياسية والاقتصادية والعلمية. وعند ظهور الكتابة وبداية عصر التدوين تحولت الحضارة في العراق الى عصور اكثر قدرة على العطاء فكانت العصور التاريخية التي أعقبت عصور ما قبل التاريخ. وهكذا كانت العصور السومرية بكل مراحلها وكذلك البابلية والاشورية.

---

[٧] عقراوي، المصدر نفسه ،ص ٢٠.

[٨] جاسم ، عزيز السيد ، المفهوم التاريخي لقضية المراة ط١ ، بغداد ١٩٨٦ ،ص ٢٥.

كانت المرأة في بداية العصر السومري تتمتع بالكثير من الحقوق والامتيازات على الرغم من أنَّ النظام الاجتماعي والعائلي كان نظاما ابوياً.

اذ كان لها حق المشاركة في الاعمال التجارية والادلاء بالشهادة امام المحكمة، كما كان لها الحق في ان تشتري العبيد والاماء وتتبنى الاطفال الى غير ذلك من الاعمال الحرة الاخرى[٩].

اما فيما يتعلق بالزواج كنظام اجتماعي فقد كان له من الضوابط والشروط والطقوس في تلك العصور ما كان له في عصور اخرى اكثر قرباً الى عصرنا هذا، فقد كان الزواج في العصر السومري يشكل نظاماً معقداً إذا كانت البنت اذا تزوجت تحتفظ لنفسها بما يقدمه ابوها من بائنة ومع ان زوجها كان يشترك معها في القيام في هذه البائنة، فقد كان لها وحدها ان تقرر من يرثها بعد وفاتها وكان لها من الحقوق على اولادها ما لزوجها نفسه، واذا غاب زوجها ولم يكن لها ابن كبير يقيم معها كانت تدير بنفسها المزارع وبقية الاعمال كما تدير المنزل، ولكن مع كل ذلك فقد كان الرجل هو السيد المسيطر في الازمات جميعها وكان من حقه في بعض الظروف ان يبيع زوجته كَأمَةٍ دفعاً لما عليه من ديون، هذا فضلاً عن ان الحكم الأخلاقي على الرجل يختلف عن الحكم الأخلاقي على المرأة وكما هو شأن ذلك في أغلب العصور فزنى الرجل في العصر السومري كان يعد من النزوات التي يمكن التعامل معها بمرونة والصفح عنها أما زنى الزوجة فكانت عقوبته الأعدام[١٠] وعلى الرغم من سيطرة الرجل وأبوة النظام الأسري الا أن للمرأة في العصر السومري الحق بأن تتزوج أكثر من زوج وهذا ما كان يطلق عليه بتعدد الأزواج، حيث جاء في وثيقة الاصلاح الاجتماعي التي اصدرها الحاكم السومري

---

(٩) عقراوي، المصدر السابق، ص٢٣.

(١٠) ديورانت، دل دايرل، قصة الحضارة، ترجمة الدكتور زكي نجيب، ج٢، مطبعة ليدين، ص٣٢.

أوروكاجينا (٢٣٧٨-٢٣٧١ق.م) بأعتباره أخر ملوك سلاله لكش لما لها من أثر بتنظيم الحياة الأجتماعية والسياسية في ذلك الزمن السحيق في القدم فيقول مايلي "وبقدر ما يتعلق الأمر بالمرأة يذكر أوروكاجينا في وثيقة أصلاحاته بأنه ثبت حقوق الأرامل والأيتام وحافظ على ممتلكات النساء من جشع المتنفذين والأقوياء كما يذكر أيضًا بأنه حرم عادة تعدد الأزواج للمرأة الواحدة إذ يظهر من فقرة في نص أصلاحاته أن هذه العادة كانت متبعة حتى أيام حكمه وأنه الغاها ووضع عقوبة الرجم بالحجارة على من يثبت زواجها بأكثر من رجل"[١١].

ب- المرأة في العصر البابلي.

كما تحدثنا عن العصر السومري بكل مراحله دون تحديد سيكون حديثنا عن المرأة في العصر البابلي كذلك دون الأشارة الى تعاقب العصور البابلية.

ووصولنا إلى مراحل العصر البابلي يعني الوصول إلى زمن القوانين والتشريعات والضوابط التي حددت العلاقات بين الناس بجوانبها الأقتصادية والأجتماعية فضلاً عن العلاقات بين المرأة والرجل وهي ما يطلق عليها بالعلاقة الأسرية أوالعائلية. فمن قانون لبت عشتار إلى قانون أشنونا إلى شريعة حمورابي العامة ذات الخمسمائة وأثنين وثلاثين مادة والتي كان نصيب المرأة منها تسعين مادة[١٢] كانت الحياة تسير وهي حافلة بالمزيد من الإهتمام بالشأن الإجتماعي لذلك كانت دليلاً قاطعاً على مدى التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي وصل اليه مجتمع وادي الرافدين [١٣].

---

[١١] عقراوي، المصدر السابق، ص.٣٠

[١٢] قاشا، سهيل، ،المرأة في شريعة حمورابي ، منشورات مكتبة بسام ، الموصل ،١٩٨٤،ص ١١.

[١٣] عقراوي ، المصدر السابق ، ص ٣٠.

فقد ذكر الملك لبت عشتار "١٩٣٤-١٩٢٤ق.م" في مقدمة قوانينه أنه جاء ليزيل العبودية التي فرضت ظلماً على رقاب أولاد وبنات مدينة نفر، وأولاد وبنات مدينة أور وأولاد وبنات مدينة أيسن ، وأولاد وبنات سومر وأكد ويعطيهم حريتهم كهدية لهم[١٤] .

وتسمية الأولاد والبنات هنا جاءت للإشارة إلى المذكر والمؤنث وللدلالة على أهميتهما معاً وعدم التفرقة بينهما مما يعطي تصوراً عن مقدار المساواة التي كانت سائدة بين الجنسين في التشريعات القديمة.

أما حمورابي صاحب أكبر شريعة عرفتها البشرية في تاريخها القديم فقد أكد في المواد من ١٢٧-١٩٤ على قضايا شتى تتعلق بشؤون الأسرة كالزواج والطلاق والأرث والتبني مما يساعدنا كثيراً على إستخلاص صورة واضحة عن مركز المرأة في مراحل العصر البابلي والذي يعتبر بحق وأحداً من أزهر وأزهى العصور التاريخية في تاريخ بلاد ما بين النهرين القديم[١٥].

كان حمورابي ١٧٢٨-١٦٨٦ ق.م دقيقاً بتشريعاته بخصوص تنظيم الحياة الأسرية في المجتمع البابلي القديم، فقد جاءت مواد شريعته على ذكر أدق تفاصيل الحياة الأسرية بدءاً من أولى مراسم الزواج وانتهاءً بحالات الوفاة وارث المرأة ووضعها الاجتماعي وما يترتب عليه من مواقف بعد وفاة زوجها...الخ من التفاصيل التي تهم هذا الجانب أو ذاك من حياة العائلة البابلية، ففي حالات الزواج مثلاً تبدأ شريعة حمورابي بالتطرق إلى بدايات الزواج وهي مراسيم الخطوبة وقد ورد ذكر هدية الخطوبة في ثلاث مواد هي (١٥٩) و(١٦٠) و(١٦١)، لا نريد التطرق إلى نصوص المواد كونها كثيرة وستأخذ حيزاً كبيراً من البحث لذا سنكتفي بالاشارة إلى أهم المواد

---

[١٤] عقراوي ، المصدر السابق ،ص ٣٦ عن مقدمة شريعة لبت عشتار.

[١٥] قاشا ، المصدر السابق ،ص١٢.

وسنتطرق أيضاً إلى نصوص مواد أخرى تبعاً لاهميتها ولخصوصيتها، أما بخصوص المهر. والذي هو "الضمان الحياتي للمرأة ويعود بعد وفاتها إلى أولادها حتى لو كانوا من أزواج مختلفين، فانهم اخوة من أمهم يتقاسمون تركتها بالتساوي، فكل منهم يرث أباه على أنفراد"[١٦]. فقد نظمت عمليته المواد (١٢٦) و(١٢٧) أما المادة (١٢٨) فقد اكدت على أن للمرأة عند تطليقها الحق باسترجاع المهر كاملاً.

أما الزواج وهو المرحلة الثالثة بعد الخطوبة والمهر وهذا ما معمول به في مجتمعنا إلى يوم الناس هذا، فقد كان في المجتمع البابلي القديم على عدة أشكال فضلاً عن كونه "قد بلغ شوطاً بعيداً من الرقي بالقياس إلى نظم الزواج للمجتمعات المعاصرة له، كما بقيت جوانب أحكامه سارية المفعول لفترة طويلة من عمر المجتمع العراقي القديم"[١٧].

وقبل أن ننتقل الى العصر الآشوري لابد من الاشارة إلى أن قانون الأحوال الشخصية في شريعة حمورابي اشار صراحة إلى وجوب تسجيل الزواج في عقد رسمي إذ ان المرأة التي تتزوج دون عقد لا تعتبر زوجةً حتى لو عاشت سنة واحدة في بيت الرجل كما اشارت لذلك المادة (١٢٨) ولكن مع ذلك فهناك حالات زواج بدون عقد كانت تحدث كما في حالة زواج المرأة الحرة من العبد. أما الزوجة التي لم ترزق بأولاد، فيترك لها زوجها مهرها ويعيد اليها بائنتها ثم بعد ذلك يمكن له أن يتخلى عنها، أما إذا آثرت هي البقاء في كنفه فما عليها إلا أن توافق على أن يجلب زوجها معها في البيت خليلة له ولكن دون أن تكون بمنزلتها كزوجة فضلاً عن هذا فان الزوجة العاقر يمكنها أن تقدم لزوجها أمةً أو خادمة، فإذا صارت الأَمَةُ أُمّاً وأخذت في منافسة مولاتها فإنها توسم بوسمة خاصة

---

[١٦] قاشا ، المصدر السابق ص ٧٦، يذكر ديورانت في قصة الحضارة ان حمورابي حكم لمدة ثلاثة واربعون عاماً وللفترة من (٢١٢٣-٢٠٨١ ق م) ج ٢، ص ١٨٨.

[١٧] قاشا ، المصدر السابق ، ص٢٨.

وترد إلى مصاف الخادمات دون أن تستطيع مولاتها بيعها أما إذا لم ترزق بأولاد فيسوغ حينئذ لسيدتها أن تبيعها بالفضة وقد نظمت هذه الحالات المادتين (١٤٤و ١٤٧).

ج- المرأة في العصر الآشوري.

كان العصر الآشوري إمتداداً للعصر البابلي، وكانت الدولة الآشورية دولة قوية معتمدة على الجيش اعتماداً له خصوصية مما انعكس على وضع المرأة، فكانت بعض التصرفات التي تصدر عن المرأة كعلاج لحالة تعاني منها الأسرة كالاجهاض مثلاً جريمة يعاقب عليها بالاعدام[١٨]. وعلى الرغم من أنَّ المرأة الآشورية كانت أقل شأناً من قرينتها في بابل[١٩]. إلا انها كانت تتمتع بحرية القيام بالأعمال التجارية إذ يرد ذكرها في الألواح الآشورية باعتبارها دائنة وكفيلة أو بائعة أومشترية ... الخ، حيث كان للنسوة اللواتي يقمن بهذه الأعمال اختام تحمل أسماءهن[٢٠]. وهذا كله طبعاً في العصر الآشوري الأول أما في بقية العصور فقد أخذ وضعها يتدهور وأصبحت أقل شأناً وأكثر تبعية للرجل كما أصبح عليها أن تتحمل مع زوجها ما يقع عليه من ديون وفي حالة عدم مقدرة الزوج على ايفاء ديونه، كان يحق له بيعها مع أطفالها أو وضعها تحت عبودية الدائن كما نصت على ذلك المادة (٣٧) من اللوح الأول من القوانين الآشورية[٢١].

أما ما يخص نظام الزواج والطلاق وما يترتب عليه من طقوس وعادات فقد كانت هي الآخرى متشابهة إلى حد ما مع ما كان سائداً في العصر البابلي، إلا أن المرأة الآشورية خضعت لسلطة الرجل أكثر من المرأة البابلية، إذ فرض القانون الآشوري عليها الحجاب

---

(١٨) دبورانت،المصدر السابق ،ص ٢٨١.

(١٩) المصدر نفسه،ص ٢٨١.

(٢٠) عقراوي ،المصدر السابق ،ص٣٩.

(٢١) المصدر نفسه، ص٤١.

فضلاً عن كونه لم يسمح للمتزوجات أيضاً أن يخرجن إلى الطريق دون حجاب وكان يطلب منهن أن يكن أمينات على أعراضهن وكان يسمح للرجل أن يقتل رجلاً آخر رآه يزني بزوجته[٢٢].

"والآشوريون من أقدم الشعوب التي أخضعت النساء للحجاب، وذلك ما أكدته الحفريات في آشور القديمة حيث عثر على لوحات طينية ترجع إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد تحتوي على قواعد قانونية اقدم من ذلك العهد. وفي إحدى فقرات اللوحة الأولى منها نرى بياناً مفصلاً عن نظام الحجاب، نلمس منه ان الحجاب كان مطبقاً على الحرائر دون الإماء والعواهر والداعرات، بل كانت توقع على الأَمَة أو العاهرة التي تتحجب عقوبات شديدة، فالأمة كانت تصلم اذنها على سبيل المثال والعاهر كانت تجلد خمسين جلدة ويصب القطران على رأسها... بينما نلاحظ ان الأمة إذا خرجت مع سيدتها وجب عليها أن تتحجب، كذلك تفعل العاهرة أو الداعر إذا تزوجت[٢٣]".

نستنتج من خلال النص أعلاه إن فرض الحجاب جاء لتميز المرأة الحرة عن الأمة ولاعطاء قيمة لها باعتبارها شريفة ونبيلة، بالشكل الذي فرض على جاريتها أن تكون محجبة هي الآخرى عندما تخرج معها وذلك اعتزازاً بها، أما ما يخص العاهر وحجابها بعد الزواج فهو الآخر له دلائل تشير إلى أهمية الزواج وقدسيته في حياة الأسرة الآشورية والمجتمع الآشوري بشكل عام.

---

[٢٢] ديورانت ،المصدر السابق ،ص٢٨١.

[٢٣]) كيال،باسمه، تطور المرأة عبر التاريخ ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨١م ،ص ٣١.

ثانياً: المرأة في حضارة وادي النيل:

حضارة وادي النيل هي توأم حضارة وادي الرافدين إذ سكنت الاراضي المصرية تجمعات سكانية واغلة في القدم هي الآخرى. وحضارة كحضارة وادي النيل لابد وأن تكون قد تركت بصماتها على الحياة الاجتماعية بشكل عام والحياة العائلية بشكل خاص، لاسيما وان المرأة في مصر قد وصلت إلى أعلى الحلقات السياسية فكانت ملكةً تحكم البلاد. كما هو حال حتشيوت، ابنة الملك تحتمس الأول الذي حكم مصر بعد تحريرها من الهكسوس الرعاة الذين حكموها قرنين من الزمن[٢٤].

حيث رفع هذا الملك ابنته إلى العرش لتكون شريكة له ثم بعد ذلك ملكةً على البلاد، حيث وطدت دعائم الأمن والنظام من غير أن تسرف في الاستبداد. وجاءت بكثير من الطلبات لشعبها وعملت في الدير البحري الهيكل الفخم الذي اختطه أبوها وأصلحت بعض ما خربه الهكسوس من الهياكل القديمة وقالت في أحد النقوش المكتشفة وهي تفتخر بأعمالها "لقد أصلحت ما كان مخرباً من قبل وأكملت ما لم يكن قد تم تشييده حيث كان الآسيويون في وسط الأرض الشمالية يهدمون فيها ما كان قائماً قبلهم"[٢٥].

هذا على المستوى السياسي أما على المستوى الاجتماعي فقد تمتعت المرأة المصرية بامتيازات لم تكن قد تمتعت بها زميلتها العراقية، فقد كان مركزها الاجتماعي أرقى من مركزها عند كثير من الأمم إذ ليس ثمة شعب قديم أو حديث قد رفع منزلة المرأة مثل ما رفعها سكان وادي النيل فالنقوش القديمة كانت تصور النساء يأكلن ويشربن

---

(٢٤) ديورانت ، المصدر السابق، جـ٢، ص٧٦.

(٢٥) ديورانت، ص ٧٧.

بين الناس ويقضين ما يحتجنه من المهام في الشوارع ويمارسن الأعمال الصناعية والتجارية بكامل حريتهن فضلاً عن كونهن كن يمتلكن ويورثن كما تشهد بذلك وثيقة من أقدم الوثائق التاريخية[٢٦].

وقد دلت النقوش أيضاً على إن المرأة المصرية كانت تذهب إلى الأسواق سافرة تحمل اليها ما تريد بيعه وتأتي منها بما ترغب في شرائه ثم تخرج إلى الحقل لمساعدة زوجها في البذر والحصاد. وكانت كذلك تخرج في صُحبة زوجها لزيارة الاقارب والأصدقاء او القيام بنزهة للصيد، فضلاً عن ذلك فقد كانت تستقبل مع زوجها الضيوف من الجنسين، وقد ظلت المرأة المصرية تتمتع بكامل حريتها في الغدو والرواح طيلة العصر الفرعوني، أما العصور التي تعرضت فيها مصر إلى غزو أجنبي والتي تميزت بالاضطرابات والفتن الداخلية، فلم تكن المرأة تأمن على نفسها إذا خرجت لذلك كانت تقبع في بيتها وإذا أحبت الخروج منه فما عليها إلا أن ترتدي الحجاب كي تخفي نفسها[٢٧] .

وعلى المستوى الأسري فقد كانت العلاقة الخاصة بين الرجل وزوجته علاقة مميزة استثمرت بها المرأة مركزها المرموق في المجتمع فراحت تتمادى في ذلك فأخذت تفرض سيطرتها على الرجل مستغلة حبه لها أيما استغلال.

ولكن هذا لم يكن ليضايق الرجل المصري الذي اعتاد على ذلك وتعلم عليه وأصبح جزءاً من حياته وسلوكه اليومي فأنعكس ايجابياً على وضع العائلة المصرية التي وصفها ديوارنت بالمنظمة والتي كانت مبنية على طاعة الزوج لزوجته كشرط من شروط عقد الزواج بينها. يقول ديورانت" ان المكانة السامية التي كانت تتمتع بها المرأة

---

(٢٦) نفسه، ص٩٦.

(٢٧) كيال،المصدر السابق ،ص ٤٠

انما نشأت من ان المجتمع المصري كان أميل إلى تغليب سلطان الزوجة على سلطان الزوج بعض الشيء وشاهد ذلك ان المرأة لم تكن لها السيادة الكاملة في بيتها فقط، بل ان الأملاك الزراعية كلها كانت تنتقل اليها إذ كان الزوج يتنازل لزوجته في عقد الزواج عن جميع أملاكه ومكاسبه، مما أثر على ظهور حالة زواج الأخ من أخته والذي تميز بها المجتمع المصري القديم إذ كانت تبغي الأسر المصرية من ذلك عدم انتقال ميراث الأسرة إلى ناس غرباء"[٢٨] . هذا ما يخص الزواج أما الطلاق فقد كان نادر الحدوث في المجتمع المصري إلا في حالة أن تكون المرأة زانية فيطلقها زوجها دون أن يعوضها شيئاً، أما إذا كان الطلاق لسبب آخر فعلى الرجل في هذه الحالة أن يخصص لها جزءاً كبيراً من أملاك الأسرة[٢٩].

وقبل أن ننهي حديثنا عن المرأة المصرية في التاريخ القديم لا بد من الإشارة إلى أن هذه المرأة باعتبارها تمثل جانباً مهماً من جوانب الحياة الأسرية فقد كان لها اثرٌ رئيسٌ في بناء العلاقة مع الرجل قبل الزواج يضاف إلى اثرها آنفاً بعد أن أصبحت زوجة وأماً، فقد ذكرت قصائد الحب والغزل والرسائل التي وصلت ألينا بأن هذه الرسائل غالباً ما كانت موجهة من المرأة إلى الرجل فهي التي تحدد مواعيد اللقاءات وهي التي تتقدم بالخطبة إلى الرجل مباشرة وتعرض علية الزواج صراحة، فقد جاء في أحدى الرسائل (أي صديقي الجميل أني أرغب في أن أكون بوصفي زوجتك صاحبة كل أملاكك))[٣٠].

---

[٢٨] المصدر السابق ،ص ٩٦.

[٢٩] كيال،ص٤٠.

[٣٠] ديورانت، المصدر السابق، ص ٩٨.

ثالثاً:- المرأة في الديانة اليهودية

تعتبر مرحلة الديانة اليهودية من المراحل الأولية لبداية نزول التشريعات السماوية متمثلة بالكتب الأساسية الثلاث وهي التوراة والإنجيل والقرآن، حيث أن اليهود والنصارى يعرفون لدى المسلمين بأهل الكتاب.

ونزول الكتب السماوية بأعتبارها مرحلة متقدمة من مراحل النظام الأجتماعي على الأرض الذي أكتملت قواعده بعد ظهوره الأسلام، كانت تعني قياساً إلى المراحل السابقة لها مرحلة متقدمة وأكثر تنظيماً من سابقاتها إذ جاءت بثوابت وقواعد فيما إذا تم الالتزام بها فأنها ستكون عاملاً رئيساً بتنظيم الحياة الأجتماعية والأسرية بشكل خاص.

والمرأة بأعتبارها أحد طرفي الحياة وصاحبة اليد الطولى بأستمرارها من خلال الإنجاب الذي أضفى عليها صفة القداسة في العصور السابقة كان لها نصيب من ذلك التشريع السماوي الذي يعرف بالتوراة والذي ذكره الله جل شأنه في أكثر من موضع في القرآن الكريم مثنياً على أهميته ووأصفاً إيَّاه بالفرقان بسم الله الرحمن الرحيم (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ)[٣١] .

وبالنظر لكون اليهود قد حرفوا التوراة التي تتكون من خمسة أسفار وأختلفوا فيها كما جاء في مواضع عدة من القرآن الكريم[٣٢]. فأن ما جاء فيها بخصوص المرأة لايتعدى كونه محرفاً عن الأصل وذلك للأختلاف العام بين ما جاء عنها في التوراة عنه في كل من الأنجيل والقرآن وهذا غير جائز كون التشريعات السماوية ممكناً أن تكون مكملة لبعضها بالتعاقب لكنها من غير الممكن أن تتقاطع في الجوهر والتوجه فقد جاء

---

[٣١] الانبياء،٤٨ .

[٣٢] الطباطبائي، العلامة السيد محمد حسين (صاحب تفسير الميزان)، (ت، ١٤٠٢هـ) ، تاريخ الانبياء ، اعداد الشيخ قاسم الهاشمي ،ط١ ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ،بيروت ،٢٠٠٤م ،ص ٢٣٧.

في كتاب تطور المرأة عبر التاريخ بأن اليهود الأوائل كانوا يعتبرون المرأة لعنة إستناداً الى ما ورد في توراتهم وبعض كتبهم المقدسة لذلك نرى أن بعض الطوائف اليهودية قد إعتبرت المرأة دون مرتبة أخيها ومكانته في الحياة الإجتماعية بحيث لم يكن في مقدورها أن ترث إذا كان لها أخوة ذكور فضلاً عن ذلك فأن لأبيها الحق في بيعها وهي قاصر إذا شاء ذلك أما إذا كان الميراث يؤول لها لعدم وجود أخوة ذكور فأن القانون قد حال بينها وبين الزواج. وقد جاء في التوراة أيضاً أن المرأة أمر من الموت فأن الصالح أمام الله ينجو منها، رجلاً واحداً بين الف وجدتُ، وأما المرأة فبين كل أولئك لم أجد[٣٣] .

وعند قراءة التاريخ اليهودي يبدو لنا وكأن المرأة لا وجود لها فالدور التاريخي لثقافة اليهود معني بالرجال حيث أن تأويل القوانين والعادات فضلاً عن ما يخص الشرع الديني الممثل بالأسفار الخاصة في المرأة في العهد القديم كلها أو جلها موجهة صوب الرجل أما المرأة فالدين فرض عليها الخضوع والطاعة والأستسلام من وجهة نظر مفسريه[٣٤] وبهذا نرى أن اليهودية قد عرفت نظام الأسرة الأبوية الكبيرة على نحو ما نعرفه عند قدماء العبرانيين[٣٥] وقد كان أنحسار دور المرأة اليهودية لدى قدماء العبرانيين جاء بسبب كونهم كانوا يرون بأن المرأة ملعونة من قبل (الإله) لدورها في الخطيئة الأولى التي حدثت والتي راح ضحيتها أن تحول الإنسان من العيش في جنات النعيم إلى النزول إلى الأرض والتعامل التفصيلي مع منغصات الحياة فقد جاء في سفر

---

[٣٣] كيال، المصدر السابق، ص٤٦.

[٣٤] منصور، سهام، المرأة اليهودية ،الماضي والحاضر والمستقبل، مكتبة مدبولي ،القاهرة ،١٩٨٧،ص ١١ .

[٣٥] كيال،المصدر السابق ،ص ٤٨.

التكوين من العهد القديم ما يلي[٣٦] ((رأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهية للعيون، شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فأنفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان.... ونادى الرب آدم وقال له أين أنت؟ فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فأختبأت فقال من أعلمك أنك عريان؟ وهل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟ فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت فقال الرب للمرأة ما الذي فعلت؟ فقالت المرأة الحية غرتني فأكلت، فقال الرب للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه))*.

ونتيجة لذلك ظلت المرأة اليهودية محط عدم تقدير من قبل المجتمع فشهادة الرجل الواحد تعادل شهادة مائة أمرأة فضلاً عند ذلك فأن ممتلكات الزوجة تصبح تحت تصرف زوجها بعد الزواج ولكن مع ذلك فأن القانون اليهودي وكما يقول دل ديورانت في قصة الحضارة قد منع تعدد الزوجات بالنسبة للرجل وبهذا فأن المرأة اليهودية يحق لها طلب الطلاق إذ ما أراد زوجها أن يتزوج بأخرى[٣٧].

---

[٣٦] العقاد ،عباس محمود ، هذه الشجرة، دار النهضة ،القاهرة ،ص٤، وراجع قصة سقوط آدم في كتاب الفلكلور في العهد القديم فريزر، جيمس، الفولكلور في العهد القديم، ترجمة الدكتورة نبيلة ابراهيم، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٢م، ص٤٧-٥٣.

* نقلت العديد من المصادر الاسلامية هذه القصة وأكدت على عداوة الانسان للحية، وأشادت بقتلها، لكن صاحب تفسير الميزان اعتبرها من الروايات الدخيلة، راجع، الطباطبائي، المصدر السابق، ص٣٧.

[٣٧] ديورانت ،المصدر السابق ،ج ١٤ ، ص١١.

رابعاً:- المرأة في الديانة المسيحية

النبي عيسى بن مريم (عليه السلام) هو آخر أنبياء بني أسرائيل والأنجيل التشريع السابق للقرآن هو الكتاب المقدس الذي خصته به العناية الإلهية ليعمل بموجبه مبشراً وهادياً[٣٨]. وولادة السيد المسيح حدث كبير في تاريخ الإنسانية ومنعطف مهم وبارز في العالم القديم آنذاك ترتب عليه أن تم أعتباره بداية لتاريخ مرحلة مميزة في تاريخ البشرية بحيث سميت فيما بعد بالتاريخ الميلادي تيمناً بتلك الولادة المباركة.
"وعندما أنتشر الدين المسيحي كان لظهوره ... أثر كبير على المرأة حيث منحها الدين الجديد الثقة بالنفس للعمل على تطوير مركزها الإجتماعي لتتمكن من التخلص من القيود التي كانت تحد من حيويتها حقبة طويلة من الزمن بأعتبارها كانت مضطهدة ومنبوذة لا تتمتع بأية مكانة مرموقة في المجتمع وفي نطاق علاقتها مع الرجل" [٣٩].

والنص أعلاه يشير إلى اثر أحبار اليهود ورجال الدين الذين قاموا بشكل أو بآخر بتحريف وتشويه مبادئ وقيم ليس التوراة فقط بل زبور نبي الله داود (عليه السلام) إذ أضافوا منهم كتباً وصحفاً وأسفاراً. يقول الطباطبائي "والذي عند اليهود من الكتب المقدسة خمسة وثلاثون كتاباً منها توراة موسى مشتملة على خمسة أسفار ومنها كتب المؤرخين أثنا عشر كتاباً، ومنها كتاب أيوب ومنها زبور داود ومنها ثلاثة كتب لسليمان ومنها كتب النبوات سبعة عشر كتاباً ولم يذكر القرآن من بينها ألا توراة موسى وزبور داود عليهما السلام"[٤٠]. وهكذا فعلت تلك الكتب الوضعية فعلتها بتقليل شأن المرأة والحطّ من قدرها وأهميتها في المجتمع. لذلك جاءت الديانة المسيحية ممثلة بإنجيل

---

[٣٨] الطباطبائي، المصدر السابق ،ص ٣٢٦.

[٣٩] كيال، المصدر السابق ،ص ٤٩.

[٤٠] الطباطبائي، المصدر السابق ،ص ٣٢٦ .

النبي عيسى المنوه عنه في القرآن الكريم. لتمثل مرحلة جديدة ساهمت بشكل مباشر بإعادة الأمور إلى نصابها، فالدين المسيحي أعطى للمرأة حقوقها وفرض عليها واجبات أدت إلى تحقيق حالة من التوازن في العلاقة المصيرية بين المرأة والرجل بإعتبارهما مادة الحياة ولبنتها الأولى.

فقد جاء في كتاب مع المسيح في الأناجيل الأربعة أن الفريسيين سألوا السيد المسيح عليه السلام يوماً قائلين "هل يحق للرجل أن يطلق أمرأته لكل سبب؟ فأجابهم أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويتبع امرأته ويكون الإثنان جسداً واحداً.... فالذي يجمعه الله لا يفرقه أنسان"[٤١].

ولهذا فأن المشرع المسيحي أوجد شروطا قاسية للطلاق فلا يمكن للرجل أن يطلق زوجته أبداً ولا المرأة أن تطلق زوجها إذا لم تتوفر للطرفين الأدلة والإثباتات والأسباب الموجبة وفق الشروط التي فرضتها الكنيسة[٤٢] .

ومن هنا نستنتج بأن مرحلة الديانة المسيحية ربما تكون قد شهدت بالفعل تطبيق بعض من مبادئ وقيم السماء التي تجسدت فيما بعد بالتطبيق الميداني في عصور ما بعد الإسلام.

وبهذا يكون التشريع المسيحي"قد جعل من المرأة شخصية متساوية مع الرجل في الحقوق والواجبات من حيث المبدأ أما من الناحية التطبيقية فالشريعة المسيحية والقانون الكنيسي أقر للزوج الحق في الإشراف والنيابة القانونية عن الزوجة في إدارة أموالها ولا يحق للزوجة أن تبعثر أموالها وتنفقها دون أذن مسبق من زوجها"[٤٣].

---

[٤١] كيال، المصدر السابق، ص ٥٣.

[٤٢] كيال ، ص٥٣.

[٤٣] نفسه ، ص٥٣.

خامساً: المرأة في العصر الجاهلي

العصر الجاهلي هو العصر السابق لظهور الإسلام، والتطرق إليه هو لغرض الإشارة إلى وضع المجتمع العربي في شبه جزيرة العرب ليلة ظهور الإسلام كمتغير روحي وعقائدي القى بظلاله على شرائح المجتمع المكي أولاً ثم توسعت آفاق ذلك الظلال البهي ليشمل الجزيرة وما جاورها.

كان المجتمع العربي في العصر الجاهلي مجتمعاً قبلياً حيث كان للقبيلة دورها وأهميتها بتحديد مسار أفكار وتوجهات أبنائها سواءٌ بعلاقة بعضهم البعض أو بعلاقاتهم مع غيرهم من القبائل فالقبيلة بالنسبة للعربي في العصر الجاهلي كانت مرجعاً إجتماعياً وأقتصادياً فإذا كانت قوية يشعر هو بالقوة والأمان والعكس صحيح.

وهكذا عاش العرب في الجاهلية على نظام قبلي مضطرب تسوده الفوضى في بعض من جوانبه الاجتماعية، ويغلب عليه فكرة الاعتماد على القوة، لذلك دعتهم هذه الفلسفة على تفضيل البنين على البنات[٤٤] وقد تطرق القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)[٤٥].

ومن هنا بدأت فكرة وأد البنات تلك الفكرة اللعينة التي أساءت لتاريخ العرب في الجاهلية كثيراً ثم ظلت تمثل فيما بعد مثلباً تحدث عنه الرواة وكتاب السير والمؤرّخون إلى اليوم.

لم تستطع فكرة الوأد أن تقضي على النساء بل على العكس من ذلك استطاعت المرأة في العديد من مفاصل الحياة أن تثبت وجودها في ذلك المجتمع فكانت عوناً للرجل

---

[٤٤] الهيله،عصمة الدين كركرحرم ، المرأة من خلال الايات القرآنية ،الشركة التونسية للتوزيع ، ص٣١.

[٤٥] سورة النحل/ ٥٨.

شاركت في غزواته وخاضت معه أشد المعارك فكانت تبعث فيه النخوة والحمية حتى لا تستكين عزيمته أو تضعف همته فضلاً عن اثرها الرئيسي بتقديم الغذاء وتضميد الجرحى، وفضلاً عن ذلك فقد تجاوزت المرأة اثرها الثانوي إلى الأثر الرئيس في الحياة "ومما يلفت النظر أن المرأة العربية في العصر الجاهلي كانت تستقبل ضيوف زوجها أو أسرتها في بيتها وتجير من يلوذ بها من الرجال. ومن النساء من كانت تستقبل خطيبها أو الراغب في الزواج منها فتحادثه وتناقشه لتتبين شخصيته وتتعرف على ذكائه وفطنته بدون قيود" [٤٦] .

والأمثلة على ما ذكرنا كثيرة فقد جاء في كتاب المرأة العربية ما يلي: "تجاوزت المرأة موطن الرعاية الى ما هو أسمى وأجل فقد كان حسب الهارب المطلوب ان يعقد رداءه بحبل خبائها فيعود آمناً ليس عليه من سبيل ... ومن أبدع مظاهر ذلك ما حدثوا ان سبيعة ابنة عبد شمس بن عبد مناف كانت زوجاً لمسعود بن مالك الثقفي، فلما عصفت حرب الفجار الأكبر بين كنانة وقيس، كانت سيادة الأولين لحرب ابن أمية ابن اخيها، وقيادة الآخرين لمسعود زوجها، وكان مسعود قد ضرب لها خباء وراء جنده، فدخل عليها، فأبصر بالدموع تجول بين خديها، فقال: ما يبكيك؟ قالت: أبكي لما عسى أن يصيب قومي، فقال لها: من دخل خبائك من قريش فهو آمن، فأخذت تصل بخبائها قطعاً حتى يسع تجمع العديد من قومها، فلما انكشفت قيس وغلب على أمره مسعود، قال لها ابن أخيها: من تمسك بأحبال خبائك فهو آمن، ومن دار حول خبائك فهو آمن، فلم يبقَ من قيس إلا واعتصم بها ودار حول خبائها"[٤٧].

---

[٤٦] كيال، المصدر السابق، ص ٥٣.

[٤٧] عفيف، عبد الله، المرأة العربية في جاهليتها واسلامها، ط٢، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٢، ج١، والرواية منقولة عن كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني.

ومن هنا نستنتج بأن المرأة في الجاهلية قد حظيت باعتزاز الرجل وتقديره في الكثير من جوانب الحياة التي كان لها فيه أثرٌ كبيرٌ وقد تجسد ذلك في الأعراف والسلوك والعلاقات، عبّر عنه الرجل في الشعر والحكاية وغيرها من النشاطات الثقافية الشائعة التي كانت تحتل حيزاً شاسعاً في التراث العربي(٤٨).

وعلى مستوى الأحكام الشرعية فقد كان الكثير من معالم الفوضى سائداً في ذلك العصر إذ كانت المرأة ربما تفقد حريتها مع الكثير من حقوقها كالإرث مثلاً، وفضلاً عن كونها ليس لها أي حق شرعي على زوجها لعدم وجود لوائح وتشريعات سماوية تنظم العلاقة بين الطرفين، وهذا لا يعني عدم وجود ديانات سماوية في شبه الجزيرة العربية بل العكس كان هناك اليهود والنصارى ولكن ليس من الذين كانوا قد طبقوا تعاليم التوراة والإنجيل كما هي.

فترتب على ذلك أن تم أعتبار المرأة كالسائمة تورث مع سوائم زوجها وتصبح ملكاً خاصاً لورثته بعد وفاته وربما أجبرت على أرتكاب الموبقات والفجور لتزيد من ثروة المسيطر عليها .

أما مبدأ تعدد الزوجات فقد كان شائعاً وبدون تحديد(٤٩) إذ كان للرجل أن يختار من النساء العدد الذي يرضاه لنفسه وبالشكل الذي يعجبه حيث تصل نساء بعضهم إلى العشرات وربما المئات وهذا ما كان يحدث مع رؤساء القبائل وشيوخها.

والزواج كان على عدة صور منها الزواج العرفي وهو زواج سري تستطيع المرأة أن تلغيه إذا أرادت، وهناك نوع آخر من الزواج شبيهٌ بالمشاع إذ الملكية وهي مشاعة بين

---

(٤٨) جاسم، المصدر السابق، ص٣٧.

(٤٩) موسى ، محمد ، الزنى والزواج ،ج٢ ، وزارة الاوقاف المصرية ،١٩٤٠م ،ص ١٣٩.

الناس في كل شيء فكانت المرأة أيضاً تمثل جزءاً من هذه الملكية العامة. وهذا ما يعرف بالنكاح الجماعي(٥٠) فضلاً عن زواج الشغار(٥١) .

هناك نوع آخر يسمى زواج الأستبضاع كان معروفاً عند بعض القبائل البدوية حيث كان يسمح للزوج بوضع زوجته أمانة عند رجل آخر حتى إذا حملت ردها اليه ونسب حملها إليه أيضاً وكل ذلك بسبب حالة العقم التي كانت تصيب الرجال(٥٢) .

وقد كان العرب يفضلون في زواجهم النساء من غير قبائلهم لما في هذا الزواج من تأثيرات ايجابية على تحسن النسل ولكن في المقابل تكون الأفضلية في الزواج لأبناء العم بإعتبارهم أشد عصبية وقرابة في النسب والدم(٥٣) ولا أعرف كيف يتم التوفيق بين هاتين الحالتين اللتين تبدوان في حالة من عدم الأنسجام.

---

(٥٠) كيال، المصدر السابق ،ص ٥٧.

(٥١) وزواج الشغار كان مُدَوناً في الجاهلية وسمي بالشغار لخلوه من المهر وموضوعه ان يزوج كل من الرجلين ابنتة للاخر على ان تكون كل واحدة منهما مهراً للاخرى. وقد نهى عنه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ينظر: أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، (ت، ٢٧٥هـ)، شرح أبي الطيب محمد شمس الحق، جـ٦، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ١٩٦٨م، ص٨٥. وينظر : ايضاً، موسى ،المصدر السابق ، ص١٤٢.

(٥٢) كيال ، المصدر السابق ،ص ٥٧.

(٥٣) المصدر نفسه.

الفصل الثاني
ـ حواء الزوجة والأم الأولى ـ

أولاً : آدم في الجنة
ثانياً : حواء المخلوق رقم ـ٢ـ
ثالثاً : ابليس ـ لعنه الله ـ
رابعاً : أثر حواء في الجنة ـ الخطيئة ـ
خامساً : إثر حواء في الأرض

حواء ... الزوجة والأم الأولى

ان الحديث عن أول زوجة لأول نبي، يعني الحديث عن بدء الخليقة، والحديث عن بدء الخليقة هو حديث يستحوذ على اهتمام الناس على اختلاف مشاربهم الفكرية والدينية والسياسية.

فالناس تهتم كثيراً بموضوع كهذا يعود بهم الى الوراء ليقفوا على معلومات تثبت لهم في الذاكرة صورة عن تلك الأحداث التي جرت على الواقع والتي أثرت على مجرى حياتهم سواء كان هذا الواقع في جنات النعيم أو على أرض الشقاء والمعاناة، بعد أن هبط الأبوان بكل ما حملاه من الندم الى الأرض.

فقصة آدم وحواء هي مفتاح لقصة كل ذكر وأنثى تجمعهم رابطة الحب والرغبة والحاجة التي أوجدها الخالق جلّ في علاه في نفس كل منهما تجاه قرينه ..

فآدم عليه السلام، أبو البشر جميعاً، وحواء هي أمهم، ومن الاثنين خلق الله الناس وجعلهم شعوباً وقبائل، وجعل أساس المفاضلة بينهم هي التقوى التي بها نحيا بعيداً عن البغضاء والكراهية والتطرف، وبها نعود ثانيةً الى جنات الخلد التي أبعد الشيطان عنها أبوينا بعد أن عصيا أمر ربهما.

أولاً: آدم في الجنة

كان القص القرآني واضحاً جداً عند حديثه عن بدايات خلق آدم (عليه السلام) وذلك من خلال تناوله للموضوع من نقطة الصفر، حين عرج على مسألة الخلافة في الأرض وقرار الخالق بذلك عندما عرض الموضوع على ملائكة السماء بقوله تعالى ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ))[1].

هذه المحاورة التي أفضت لخلق آدم (عليه السلام) ليكون أول خليفة وأباً للخلفاء تعامل معها المفسرون بدقة لأهميتها متسائلين هل ان اعتراض الملائكة كان لغرض الاستعلام، أم كان اعتراضاً جاءت به رؤيتهم الخاصة لأقوام سفكت الدماء في الأرض، يقول الطبري (ت، سنة ٣١٠هـ) في جامع البيان: إني جاعل، أي خالق، والخليفة من يخلف الذي قبله (وهم ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم ويخلف كل قرن منهم القرن الذي سلف قبله) [2]

أما بخصوص استفهام الملائكة فأن للطبري رأياً يؤيده فيه المسعودي حيث يقول: عندما قال الله تعالى للملائكة (اني جاعل في الأرض خليفة قالوا يا ربنا من يكون ذلك الخليفة ؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً)[3] لذلك قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء.

أما ابن كثير فيوعز علم الملائكة بسفك الدماء الى ما جرى من أحداث أدت الى ذلك قبل خلق آدم فيقول: ان سؤال الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها) كان لغرض الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض، حيث نقل عن قتادة وعبد الله بن عمر، قولهما: كانت الجن قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدماء فبعث الله

---

(1) البقرة / ٣٠.

(2) أبي جعفر محمد بن جرير، (ت،٣١٠هـ) جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق محمود محمد شاكر، ج١، سلسلة تراثنا، دار المعارف، مصر ١٣٧٤هـ ص٤٥١.

(3) المصدر نفسه، ص٤٥٢، وانظر: المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي، (ت/٣٤٦هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهرة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، جـ١، مطبعة السعادة، مصر، ص٣٠.

اليهم جنداً من الملائكة فطردوهم الى جزائر البحور، لـذلك كـان سـؤالهم أعـلاه[٤]، أمـا صاحب تفسير الميزان فله رأي آخر، حيث يقـول في تاريخ الانبياء، بـأن الملائكـة فهمـوا واقع الافساد وسفـك الدماء من سياق الآية اذ ان قولـه تبـارك وتعـالى (إِنِّـي جَاعِـلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) يعني أن الخليفة وهو الموجود الأرضي المقصود وبما أنه مادي مركب من القوى الذهنية والشهوية، ثم أن الدار دار تزاحم، ففهموا من ذلك بأن الخلافة المـرادة لا تقع في الأرض الا بكثرة من الأفراد ونظام اجتماعي بينهم يفـضي بالنهايـة الى الفـساد وسفك الدماء[٥]. ثم تستمر المحاورة فيقول الله تعـالى (وَعَلَّـمَ آدَمَ الأَسْـمَاءَ كُلَّهَـا ثُـمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُـبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)[٦].

اذاً انتهت المحاورة باعتراف الملائكة بتقصيرهم وان علمهم ان وجد فهو لم يكن عـن مقدرة ذاتية بقدر ما هو علم مستنبط من الذات الالهية صاحبة العلم والدرايـة بخبايـا الأمور، وهكذا خلق الله آدم في أحسن تقويم.

لا نريد أن نخوض في هذا الموضوع بشكل موسع كونه موضوعاً فقهياً أكثر من كونه تاريخياً، لذلك سندخل الى عملية خلق آدم مباشرةً. تقول مصادر التـاريخ: عنـدما خلـق الله سبحانه وتعالى آدم (عليه السلام) بعـث جبريـل[*] الى الأرض ليأتيـه بـتراب منهـا،

---

[٤] الحافظ عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر، (ت، ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، جـ١، مكتبة المعارف، بيروت، ص٧٠.

[٥] الطباطبائي، المصدر السابق، ص٨.

[٦] البقرة / الآيتين ٣١و٣٢.

[*] على الرغم من اتفاق أغلبية المؤرخين والمفسرين على أن الله جلّ في علاه عندما أراد خلق آدم بعث جبريل الى الأرض أولاً كما هو مبين في الرواية أعلاه، إلا أن ابن سعد في الطبقات، ذكر بأن المرسل هـو ابلـيس ذاته وليس جبرائيل،راجع، ابن سعد عمر بن محمد، (ت / ٢٣٠هـ) الطبقـات الكـبرى، ج١، تحقيـق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ص٢٨.

فقالت له الأرض اني أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني، فرجع ولم يأخذ منها، ثم بعث الله ميكائيل فعاذت منه وأعاذها ثم رجع فأرسل الله تعالى عزرائيل، فلما هبط اليها وكزها بحربة كانت معه فاضطربت فمد يده، فأقسمت عليه، وقالت مثل ما قالت لجبرائيل وميكائيل، فقال لها: أمرُ الله خيرٌ من قسمك، فقبض من زواياها الأربعة من جميع أديمها من أسودها وأبيضها وأحمرها، من سهلها وجبلها وأعاليها وأسافلها، لذلك خرج بنو آدم مختلطين ثم أمر الله بتراب آدم فدفع اليه فخلق آدم بيده سبحانه ثم نفخ فيه من روحه فتحرك جسد آدم ودبت فيه الحياة بالتدريج[٧] وعن الامام علي (عليه السلام) قوله ((ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربةً سنها بالماء حتى خلصت ولاطها بالبلة حتى لزبت، فجبل منها صورة ذات أحناء، ووصول وأعضاء وفصول أجمدها حتى استمسكت، وأصلدها حتى صلصلت، لوقت معدود واجلٍ معلوم، ثم نفخ فيها من روحه فتمثلت انساناً ذا أذهانٍ يجيلها، وفكر يتصرف به وجوارح يختدمها وأدواتٍ يقلبها ومعرفةٍ يفرق بها بين الحق والباطل، والأذواق والمشام والألوان والأجناس معجوناً بطينة الألوان المختلفة))[٨].

يعلق ابن أبي الحديد على قول الامام "من حزن الأرض وسهلها، وعذبها وسبخها" بالقول "ان المراد من ذلك أن يكون الانسان مركباً من طباع مختلفة وفيه الاستعداد للخير والشر والحسن والقبح"[٩].

---

[٧] الطبري، التفسير، ج١، ص٤٥٤-٤٦٠،المسعودي، المصدر السابق، ص٣٥٠. الحنفي، محمد بن أحمد بن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، دار العلوم العربية، بيروت، ص٥٩. (ت، ٩٣٠هـ).

[٨] ابن أبي الحديد، عبد الحميد المدائني، (ت، ٦٥٦ هـ) شرح نهج البلاغة، مج١، مراجعة وتحقيق لجنة احياء الذخائر، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ص٩٤.

[٩] المصدر نفسه، ص٩٥.

يقول الطبري[١٠] بسنده عن ابن عباس (رض): لما خلق الله آدم مكث أربعين ليلة* جسداً ملقى فكان ابليس يأتيه فيضربه فيصلصل (أي يصوت) فهو قول الله (خلق الانسان من صلصالٍ كالفخار)[١١] فكان يدخل من فيه ويخرج من دبره، ويدخل من دبره فيخرج من فيه، ويقول للملائكة، لا ترهبوا من هذا فان ربكم صمد وهذا أجوف، لأن سلطت عليه لأهلكنه، يقول ثم نفخ الله فيه من روحه، فأتت النفخة من قبل رأسه* فكان لا يجري شيء منها في جسده إلا صار لحماً ودماً فلما انتهت النفخة الى سرته، نظر الى جسده فأعجبه ما رأى من حسنه، فذهب ينهض فلم يقدر فهو قوله تعالى ((وكان الانسان عجولاً))[١٢] ، ويقول فلما تمت في جسده عطس فقال (الحمد لله رب العالمين) بإلهام من الله، فقال له الله تعالى: يرحمك الله يا آدم. ثم قال له اذهب الى هؤلاء النفر (يعني الملائكة) فأنظر ماذا يقولون، فجاء وسلم فقالوا وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقال له الله يا آدم هذه تحيتك وتحية ذريتك الى يوم القيامة. يقول ابن عباس ثم قال للملائكة الذين كانوا مع ابليس خاصة دون الملائكة الذين في السماوات، اسجدوا

---

[١٠] التفسير، المصدر السابق، جـ١، ص٤٥٦ وانظر: ايضاً المسعودي، المصدر السابق، ص٣١.

* وفي رواية أخرى من نفس المصدر تقول أربعين عاماً، وهو قوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا)، الانسان/١،وانظر ايضاً ابن كثير، المصدر السابق، ص٦٧،وكذلك الحنفي، المصدر السابق، ص٦٠.

[١١] الرحمن/١٤.

* يروي الجزائري في قصص الأنبياء رواية غريبة في تفسير قوله تعالى ((خلق الانسان من عجل)) فيقول: عندما أجرى الله الروح في آدم من قدميه الى ركبتيه أراد أن يقوم فلم يقدر فقال الله خلق الانسان من عجل، والرواية أعلاه على مايبدو غير دقيقة اذ من غير المنطقي أن تدخل الروح من القدمين، ثم كيف تحرك آدم عندما وصلت الروح الى قدميه في الوقت الذي رأسه لم تصل اليه الروح وهو مركز الجهاز العصبي، فضلاً عن ذلك فان الجزائري انفرد بالرواية أعلاه دوناً عن بقية المؤرخين، الجزائري، نعمة الله الجزائري، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، مؤسسة الأمير، النجف الأشرف، ص٢٦٠.

[١٢] الاسراء/١١.

لآدم فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر[١٣] وهنا يفصل ابن عباس نوعين من الملائكة، في الوقت الذي يؤكد فيه الحنفي ان الملائكة كلهم مشمولون بأمر الله جلّ في علاه، حيث يقول ان أول من سجد هو جبرائيل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم عزرائيل ثم الملائكة المقربون عليهم السلام[١٤].

وهكذا ولد آدم وأصبح كائناً حياً له من المواصفات ما اختلف بها عن سكنة الجنة* وهنا لا بد لنا من التوقف عند شخصية سيدنا آدم وهو يعيش لحظات حياته الأولى في جنات النعيم، فقد خلق الله آدم ((من صلصال من حمأ مسنون))[١٥] بعد أن خلق الملائكة من نور كما جاء في تفسير الطبري أيضاً[١٦] والجن الذي كان ابليس قائدهم من نار السموم كما جاء في الذكر الحكيم ((قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ))[١٧] وذلك يوم الجمعة كما أشرت وكما جاء عن ابن سعد (ت/ ٢٣٠هـ) في الطبقات الكبرى بسنده عن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله

---

(١٣) يقول ابن كثير: ثم ان الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشراً سوياً ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له وذلك تعظيماً لشأن الله تعالى وحده وليس لأي شيء آخر فأطاعوا الله إلا ابليس أبى واستكبر، ابن كثير، أبي الفداء، اسماعيل بن كثير الدمشقي، (ت، ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، جـ٢، دار احياء الكتب العربية، مصر، ص٢٠٢. والسجود هنا هو سجود تكريم لا سجود العبادة، انظر: بهجت احمد، أنبياء الله، ط١١، دار الشروق، بيروت ١٩٨٣م، ص٢٦.

(١٤) الحنفي، المصدر السابق، ص٦٣.

* والجنة هنا مختلف عليها، يقول ابن كثير واختلف المفسرون في الجنة التي أسكنها آدم وحواء على قولين، أحدهما أنها جنة الخلد، والثاني هو أنها جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء، راجع ابن كثير، البداية والنهاية، المصدر السابق، ص٧٥.

(١٥) الحجر/ من الآية ٢٦.

(١٦) (الطبري) التفسير، ج١، ص٤٥٥، وأنظر: أيضاً القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ج١، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٦.

(١٧) الأعراف/١٢.

وسلم) قوله (ان يوم الجمعة هو سيد الأيام وأعظمها عند الله فيه خلق آدم وفيه هبط الى الأرض وفيه توفي أيضاً)[18].

وقد سمي المخلوق الأول آدم كونه خلق من أديم الأرض، وهو اسم عربي كما هو شأن أسماء أنبياء الله صالح وشعيب وهود وخاتمهم محمد صلوات الله عليهم أجمعين، واسم آدم مشتق من الأدمة وهي السمرة أو الأسوة، يكنى سيدنا آدم بأبي محمد أو أبي البشر[19].

امتاز آدم منذ الوهلة الأولى لحياته بميزتين أساسيتين:

أولهما: اختلاف نوع المادة المخلوق منها قياساً بمادة خلق الملائكة.

وثانيهما: أهميته عند الله تعالى وقيمته العالية بعد أن خلقه الله بنفسه ونفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها[20] حيث أصبح مميزاً عن الملائكة بعلمٍ انفرد به دونهم.

وبعد ظهوره على مسرح الحياة مباشرةً وضعه القدر في معادلة غاية في الحساسية، فهو بين من سجد له طائعاً راغباً في السجود ممتثلاً لأمر الله جلّ في علاه وبين من أبى واستكبر ثم تحدى ((قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ))[21] وهذا ما جعل موقفه قلقاً وما عليه والحال هكذا الا قبول التحدي، والتحدي هنا يكمن بالصمود أمام مغريات الشيطان ودسائسه من خلال الحذر منه والعمل على تفويت الفرصة عليه، ثم بعد ذلك حدث متغيرٌ كبيرٌ في حياة آدم وهو دخول حواء في حياته وكما جاء في

---

[18] المصدر السابق، ج١، ص٢٩.

[19] ابن سعد، المصدر السابق،ح١،ص٢٠.

[20] إشارة الى الآية الكريمة ((وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين)) البقرة/٣١.

[21] الأعراف/١٦.

الذكر الحكيم ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً))[٢٢].

ثانياً: حواء المخلوق رقم -٢-

لا زلنا في دائرة الخلق الأولى والخليفة المراد تنصيبه في الأرض، فالعناية الالهية عندما قررت أن تجعل في الأرض خليفة فهذا يعني أن هناك أمرين سيحدثان كتحصيل حاصل للقرار السماوي أعلاه وهما:

أ. إن آدم (عليه السلام) سوف لن يبقى في الجنة لأنه خلق أساساً ليكون خليفةً في الأرض وما وجوده في الجنة بناءً على الآية الكريمة ((أسكن أنت وزوجك الجنة))[٢٣] إلا كمرحلة أولية تسبق الهبوط الى الأرض.

ب. إن الخلافة في الآية الكريمة ((إني جاعل في الأرض خليفة))[٢٤] لا يمكن أن تستمر بعملية خلق آدم لوحده باعتباره الخليفة الأصل، إذ لا بد هنا من التكاثر لغرض أن تستمر الحياة ثم تسفك الدماء بعد أن يُفسِد في الأرض من قبل أناس أو بشر يأتون بالتكاثر من خلال آدم وزوجٍ له يشتركان في هذه العملية، وعليه فأن خلق زوج لآدم أمرٌ لا بدَّ من حدوثه كي تكتمل حلقة الخلافة المنوه عنها في آية الخلافة أعلاه ..

وهكذا خلق الخالق تبارك وتعالى النصف الثاني للحياة بعد أن خلق النصف الأول ((من صلصال كالفخار))[٢٥] حيث ظهرت على الساحة في جنات الخلد انثى من اجمل

---

[٢٢] النساء/ من الآية ١.

[٢٣] البقرة/ من الآية ٣٤.

[٢٤] البقرة/ ٣٠.

[٢٥] الرحمن/ من الآية ١٤.

الاناث(*)، تؤكد مصادر التاريخ بأن آدم وهو نائم في الجنة استيقظ وإذا بامرأة عند رأسه قاعدة خلقها الله من ضلعه الأيسر، فسألها: من أنتِ؟ فقالت: امرأة. قال ولِمَ خُلِقْتِ؟ قالت لتسكن اليّ، فقالت له الملائكة لتعرف مدى علمه بالأسماء. ما اسمها يا آدم؟ فقال: حواء. قالوا ولم سميت حواء؟ قال لأنها خلقت من شيء حي. وهذا معنى قوله تبارك وتعالى ((الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها))[٢٦]. وفي تاريخ الطبري عن مجاهد قوله في ((وخلق منها زوجها)) ان حواء خلقت من قصيري آدم أي من أسفل

(*) جاء في بدائع الزهور. خلق الله حواء من ضلع آدم الأيسر فكانت على هيئته، وأحسن الله خلقها وأعطاها حُسن ألف حورية فكانت أحسن النساء اللاتي هن بناتها الى يوم القيامة، الحنفي، المصدر السابق، ص٦٤.

[٢٦] الطبري، التفسير، المصدر السابق، ص٥١٣، النساء من الآية / ١، وانظر ايضاً: ابن كثير، المصدر السابق، البداية والنهاية، ص٧٥.، الحنفي، المصدر السابق، ص٦٤. يقول الجزائري في قصص الأنبياء: جاء في علل الشرائع بسند ينتهي الى زرارة قوله: سُئِلَ أبو عبد الله وهو الإمام الصادق (عليه السلام) عن خلق حواء بالقول ان أناساً يقولون ان الله عز وجل خلق حواء من ضلع آدم الأيسر، فأجاب من يقول هذا انما يقول ان آدم نكح بعضه بعضاً، ثم قال ان الله تبارك وتعالى لما خلق آدم من طين أمر الملائكة فسجدوا له وألقى عليه النوم ثم ابتدع له خلقاً ثم جعلها في موضع النقرة التي بين وركيه وذلك لكي تكون المرأة تبعاً للرجل، ثم يقول فأقبلت تتحرك فانتبه آدم لحركتها، ولما نظر اليها نظر الى خلق حسن يشبه صورته غير أنه أنثى فكلمها فكلمته بلغته، فقال آدم يا رب من هذا الخلق الحسن الذي قد آنسني قربه والنظر اليه؟ قال الله: هذه أمتي حواء أفَتُحب أن تكون معك فتؤنسك وتحدثك وتأتمر بأمرك، قال نعم يا رب ولك بذلك الشكر والحمد، فقال لها آدم أقبلي إليّ، فقالت بل أقبل أنت؟ فأمر الله آدم أن يقوم اليها فقام ولولا ذلك لكان النساء هن يذهبن الى الرجال حتى يخطبن على أنفسهن.

يعلق الجزائري على الرواية بالقول: ان القول المشهور بين العامة أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر، وفي بعض الأخبار ما يدل على ذلك، والرواية أعلاه تنفي ذلك القول وهي إما محمولة على التقية أو على أنها خلقت من فضلة الطينة كما يقول الشيخ الصدوق ثم يرجح كفة الضلع استناداً الى قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (المرأة خلقت من ضلع فان ذهبت تقيمها كسرتها وان تركتها وفيها عوج استمتعت بها). الجزائري،المصدر السابق،ص٥٣.

أضلاعه[٢٧] يقول الثعلبي (ت ٤٢٧هـ): لما استيقظ آدم من منامه فوجدها بجانبه فأعجبته، وألقى الله الشهوة في آدم فهمَّ بها فقيل له لا تفعل حتى تؤدي صداقها فقال وما صداقها؟ قيل أن الله تعالى قال: صداقها هو الصلاة على نبيي وحبيبي محمد، فقال آدم: يا رب ومن يكون محمد؟ قال: إنه من أولادك وهو آخر الأنبياء ولولاه ما خلقت خلقاً[٢٨].

هذه رواية الثعلبي يؤيده فيها الحنفي وعلى الرغم من أن العديد من مصادر التاريخ تؤكد المحاورة أعلاه والتي فحواها أن الرسول الأعظم هو أحب خلق الله اليه ولولاه ما خلق خلقاً، وأن من يطلب المغفرة بحقه فإن الله يغفر له ذنوبه[٢٩] لكن لم أجد ما يشير الى أن صداق حواء كان الصلاة على النبي في بقية المصادر. ولكن من خلال سير الأحداث التاريخية وحركة الحياة على الأرض وتسلسل نزول التشريعات السماوية وانتهاء كل ذلك بالقرآن الكريم، الذي أراد الخالق أن يكون آخر كتاب سماوي ينزله على آخر نبي ورسول من رسله وهو خاتمهم وسيدهم، سيدنا المصطفى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، ونظراً لمكانته العالية عند الله جلَّ في علاه حيث أشار الى ذلك الكتاب القيم القرآن الكريم في آيات عديدة من سوره المباركة وأيضاً نظراً لأهمية الصلاة على النبي التي فرضها الله على المؤمنين جميعاً بقوله تعالى ((ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً))[٣٠]. والتي اشارت الى أهميتها كتب الحديث واعتبرت أن الصلاة كطقس عقائدي والخالية من الصلاة على النبي وآل بيته الكرام تُعد

---

[٢٧] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت، ٣١٠هـ) تاريخ الرسل والملوك، ج١، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، مصر ١٩٦٠م، ص ١٠٥.

[٢٨] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٢. وأنظر أيضاً : الحنفي، المصدر السابق، ص٦٤.

[٢٩] أ. ابن كثير، البداية والنهاية، المصدر السابق، ص٨١. الطباطبائي، المصدر السابق، ص٤١.

[٣٠] الأحزاب/٥٦.

باطلة[٣١] لذلك كله وغيره من الذي يؤكد على عظمة الرسول المصطفى وأهميته عند الله واثره التاريخي في الحياة فأنا أقف الى جانب الرواية أعلاه بغض النظر عن مجهولية السند، إذ إن الحنفي نقلها عن وهب بن منبه دون أن يتطرق الى السند الناقل للرواية[٣٢].

اذاً فخلق حواء وزواج آدم منها أمر لا بد منه لاتمام عملية الخلافة في الأرض.

المهم أفاق آدم (عليه السلام) من نومه فوجد الى جواره مخلوقاً أنثى هي أشبه شيء به وهو يحس بإنشداد قوي نحوها وحينها زالت الوحشة وصار العيش أطيب وأهنأ إذ كانت مفاجأة للإنسان الأول أن يجد الى جواره مخلوقاً لم يعهده من قبل، فراح ينشغل بالمعاني الكلية للحدث ولم يغص في تفاصيله، لقد انشغل بالأنس به وحلو الحديث معه فراح يتبادل معه أطراف الحديث[٣٣] فقال آدم لحواء، بعد أن وجدها تحدق في وجهه بعينين جميلتين ورحيمتين وهو قد أفاق للتو من نومة عميقة ولذيذة: لم تكوني هنا قبل أن أنام؟ قالت: نعم، فقال: جئتِ أثناء نومي اذن؟ فقالت: نعم. فقال: من أين جئتِ؟ فقالت: جئتُ من نفسك، خلقني الله منك وأنت نائم .. ألا تريد أن تستعيدني اليك وأنت مستيقظ (في اشارة الى رغبة المرأة بأن يضمها الرجل اليه). قال آدم: لماذا خلقك الله؟ قالت حواء: لتسكن اليَّ فقال آدم حمداً لله، لقد كنت أحس بالوحدة[٣٤].

---

[٣١] أكد الشافعي على وجوب الصلاة على النبي وآله في القعود الأخير في الصلاة، وقصيدته المشهورة في ذلك معلومة للكثير، راجع الميادينى محمد شكور، الأحاديث الأربعين في الصلاة والسلام على النبي الأمين، المكتبة العالمية، بغداد ١٩٨٥م، ص٨.

[٣٢] جاء في صحيح البخاري، عن كعب بن عجرة قوله: خرج علينا النبي (ص) فقلنا يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ فقال: قولوا اللهم صلِّ على محمد وآل محمد كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم. البخاري، محمد بن اسماعيل، (ت/٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، تحقيق الشيخ قاسم الرفاعي، مج٤، دار القلم، بيروت١٩٧٨، ص٤٣٤.

[٣٣] عبد الجبار، شاكر كيف عاش آدم (عليه السلام) مطبعة منير، بغداد/١٩٨٩م، ص٦٥.

[٣٤] صور لنا المحاورة أعلاه الأستاذ أحمد بهجت في كتابه أنبياء الله، بهجت، المصدر السابق، ص٤٠.

ولا بد هنا من التطرق الى مسألة مهمة اختلف عليها المفسرون وهي بخصوص خلق حواء هل كان قبل دخول آدم للجنة أم وهو فيها؟ يقول الطبري في التفسير: من سياق الآية ((أسكن أنت وزوجك الجنة)) نستنتج بأن حواء خلقت بعد أن سكن آدم الجنة فجعلت له سكناً وقال آخرون بل خلقت قبل أن يسكن آدم الجنة[٣٥] ونحن بدورنا نقول إن لم يكن آدم في الجنة حين خلق الله حواء فأين كان اذن؟

جاء في قصص الأنبياء للجزائري: سميت المرأة امرأة لأنها خلقت من المرء وهو آدم (عليه السلام) أما النساء فأنهم سمو نساءً لأنه لم يكن لآدم أنس غير حواء[٣٦] فالنساء اذن من الانس -والله أعلم-.

وقبل أن ننتهي من هذه الفقرة لا بد من ذكر النقاط التالية:

١. سميت أم البشر حواء لأنها خلقت من حي وهو آدم كما مر بنا دون أن يحس هو بذلك أو يتألم لذلك يقول المفسرون لو تألم لما عطف رجل على امرأة قط[٣٧].
٢. هي أول امرأة في الكون وهي أم البشر كما ان آدم هو أبو البشر.
٣. بدخولها حياة آدم ازداد الموقف تأزماً وأصبحت عملية صمود آدم أمام تحدي الشيطان له أكثر صعوبة.
٤. بوجود حواء في موضوع العلاقة بين ابليس الذي طُرد من الجنة وبين آدم الذي أدخله الله اليها تغيرت الموازنة لصالح ابليس بدلاً من حالة التوازن التي كانت قائمة بين الطرفين قبل الدخول في ميدان الصراع.

---

(٣٥) الطبري، التفسير، ج١، ص٥١٤.

(٣٦) الجزائري ، المصدر السابق، ص٢٦.

(٣٧) القرطبي، المصدر السابق، مجـ ٧، ص٥٧.

ثالثاً: ابليس - لعنه الله -

ابليس هو أسم ذو دلالة خاصة مستوحاة من عمق التاريخ، ظهر قبل ظهور الانسان وأصبح نداً له وهو للتو مخلوق ذو خصوصية فردية، وكما جاء بمعتقدات قدماء البشر من سومريين وبابليين وهنود ومجوس وفراعنة، بأن الشيطان هو إله الشر أو إله الظلام كما هو حال إله الخير أو إله الحب وغيرها[٣٨]، فهل هو الشيطان كذلك؟ إله لكن باتجاه السلب. أي إله يأتي بالشر وبالظلام وبمكروه الأمور؟ هذا ما نفاه القرآن الكريم وكذبه فالإله واحد أحد، لا شريك له ولا عديل ولا نظير. والقرآن الكريم تحدث عن الشيطان كثيراً وفي سور عدة من سوره الأربعة عشر بعد المائة، اذ حدد معالمه وبناءه التكويني وما يتعلق بذلك من ظواهر على المستوى الذاتي فضلاً عن مستوى تأثير فعله على المحيط الخارجي وعلاقته السلبية بآدم وذريته. فمن هو الشيطان اذن؟ ولنبدأ بقول الله تعالى الذي جاء على خلفية اعتراض الملائكة على خلافة الأرض وبعد خلقه لآدم (عليه السلام) اذ جاء في الذكر الحكيم ((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ))[٣٩]. يقول الطبري واستكبر يعني أنه تعظم وتكبر عن طاعة الله بالسجود لآدم[٤٠]، وعن ابن عباس (رض) قال: كان ابليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم (الجن) خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان خازناً من خزان الجنة، وفي الوقت الذي خلق الله الملائكة من نور خلق الجان من مارجٍ من نار وهو لسان النار الذي يكون في طرفها اذا التهبت.

---

[٣٨] العقاد، عباس محمود، حقائق الاسلام وأباطيل خصومه، دار الهلال، مصر ١٩٦٥م، ص١٠٤.

[٣٩] البقرة/٣٤.

[٤٠] الطبري، التفسير، ج١، ص٥١٠.

أما الانسان فقد خلقه تبارك وتعالى من طين[٤١] يقول ابن عباس: أول من سكن الأرض هم الجن ففسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضا، فبعث الله اليهم ابليس في جندٍ من الملائكة (وهم من الحي الذي يقال لهم الجن) فقاتلهم ابليس ومن معه وطردوهم الى جزائر البحور وأطراف الجبال فلما فعل ذلك اغتر بنفسه وقال صنعت شيئاً لم يصنعه أحد[٤٢] وبهذا يكون ابن عباس قد أفرز لنا المواد الأولية والأساسية لصناعة الخلق استناداً الى آيات الذكر الحكيم وعلى الشكل التالي:

أ. الانسان من طين.

ب. الملائكة من نور.

ج. الجن من مارج من نار.

د. والحور العين من الزعفران كما يقول ابن كثير[٤٣].

أما ابليس فأنه مصنوع من نار السموم، وهذه الخصوصية التي تمتع بها ابليس بناءً على رواية ابن عباس، علّق عليها الطبري نفسه وأظنه قد أيدها إذ يقول: انه غير مستنكر أن يكون الله جلَّ ثناؤه خلق أصناف ملائكته من أصناف من خلقه شتى، فخلق بعضاً من نور وبعضاً من نار وبعضاً مما شاء من غير ذلك. ويقصد بذلك ابليس حيث يقول: ومن الجائز أيضاً أن يكون قد خلق صنفاً من الملائكة من النار وكان منهم ابليس وربما أيضاً قد أفرد ابليس بأن خلقه من نار السموم دون سائر ملائكته، أما بخصوص قوله تعالى ((إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ))[٤٤] فيبرر ذلك بالقول (فغير

---

[٤١] الطبري، التفسير، ج١، ص٥٠٢، وانظر ايضاً ابن كثير، المصدر السابق، ص٥٥.

[٤٢] الطبري، التفسير، ج١، ص٤٥٥.

[٤٣] ابن كثير، التفسير، ج١، ص٢٠٣.

[٤٤] الكهف/ من الآية ٥٠.

مدفوع أن يسمى ما اجتن من الأشياء عن الأبصار كلها جناً فيكون ابليس والملائكة منهم لإجتنانهم عن أبصار بني آدم)[٤٥].

وبهذا يكون الطبري من المؤيدين للقول الذي يجعل ابليس من الملائكة. وفي رواية أخرى ينقل الطبري بسنده عن سعد بن مسعود قوله: "كانت الملائكة تقاتل الجن فَسُبي ابليس وكان صغيراً، فكان مع الملائكة يتعبد معها، فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا فأبى ابليس، لذلك قال الله إلا ابليس كان من الجن"[٤٦].

اذاً فابليس إما أن يكون من الجن أصلاً ثم سُبِيَ وصعد الى السماء وهناك أبدع بجهوده الذاتية وعبادته لله جلَّ في علاه وهذا أمر يبدو وكأنه غريبٌ بعض الشيء على سير الحدث التاريخي. والمهم هنا أن ابليس كان يتصف بصفات مميزة فقد جاء عن محمد بن اسحق بسنده عن ابن عباس قوله: كان ابليس من سكان الأرض ومن أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً ومن أشرف الملائكة من أولي الأجنحة الأربعة وكان خازناً على الجنان وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض وكان يسوس ما بين السماء والأرض[٤٧]، أما الحسن البصري (رض) فيؤكد ان ابليس لم يكن من الملائكة طرفة عين وانه لأصل الجن كما هو آدم أصل البشر[٤٨] يقول الجزائري: اختلف علماء المسلمين في أن ابليس هل كان من الملائكة أم لا؟ فأكثر المتكلمين يقولون أنه لم يكن من الملائكة بل كان من الجن وكان خازناً للجنان وله سلطان السماء والأرض وقيل كان يسوس ما بين

---

(٤٥) الطبري، التفسير، ج١، ص٥٠٨.

(٤٦) المصدر نفسه، ص٥٠٧. وانظر أيضاً: ابن كثير، البداية والنهاية، المصدر السابق، ص٥٥. الجزائري، المصدر السابق، ص٣٢.

(٤٧) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١، ص٥٥.

(٤٨) الطبرسي، المصدر السابق، ج١٤، ص٢٤. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١، ص٥٥.

السماء والأرض[٤٩] وعن جميل بن دراج قال سُئل أبا عبد الله (عليه السلام) أكان ابليس من الملائكة أم من الجن؟ قال: كانت الملائكة ترى أنه منها وكان الله يعلم أنه ليس منها فلما أُمر بالسجود كان منه الذي كان بعدم انصياعه لأمر الله. وابليس (أفعيل) من الأبلاس، يقول ابن عباس، وقبل المعصية كان ابليس اسمه عزازيل[٥٠] ولما أبى أن يسجد لآدم أبلسه الله، أي آيسه من الخير كله، وجعله شيطاناً رجيماً[٥١].

ومن أسماء ابليس الحارث[٥٢]، ويكنى أبو كردوس[٥٣] وأبو مُره[٥٤]، يقول الامام الصادق (عليه السلام) أول من قاس هو ابليس قال ((خلقتني من نار وخلقته من طين))[٥٥] فأخطأ في القياس وهلك بخطئه ويقال أيضاً أن أول حمية وعصبية ظهرت هي عصبية ابليس وحميته[٥٦].

---

[٤٩] الجزائري، المصدر السابق، ص٣٦.

[٥٠] الطبري، التفسير، ج١، ص٥٠٢. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١، ص٥٨، الحنفي، المصدر السابق، ص٥٨.

وانظر ايضاً: الجزائري، المصدر السابق، ص٣٢.

[٥١] الطبري، التفسير، ج١، ص٤٥٦.

[٥٢] الطبري، التفسير، المصدر السابق، ص٥٠٢.

[٥٣] ابن كثير، البداية والنهاية، المصدر السابق، ص٥٨.

[٥٤] عبد الجبار، المصدر السابق، ص٥٦.

[٥٥] بن بكار، الزبير بن بكار، (ت، ٢٥٦هـ) الأخبار الموفقيات، تحقيق الدكتور سامي مكي العاني، مطبعة العاني، بغداد، ص٧٦، وانظر: الجزائري، المصدر السابق، ص٢٥.

[٥٦] ابن أبي الحديد، المصدر السابق، ص١٢٠.

جاء في شرح نهج البلاغة ان بعض الزنادقة كانوا يتعصبون لابليس ويذهبون الى تصويبه بخصوص رفضه السجود لآدم كونه أراد بذلك أن يقول بأن السجود لله وحده، لذلك اعتبروه سيد الموحدين[٥٧].

وبناء على ما تقدم كان ابليس قد تميز بالخصائص التالية:

أ. كلفه الله جلَّ في علاه بقيادة الملائكة لمطاردة الجن وبعد انتصاره عليهم وبناءً على بغض خصائصه الذاتية كونه من كبار الملائكة أخذه العجب بنفسه فتكبر.

ب. هو الوحيد الذي لم يسجد لآدم دون الملائكة جميعاً وعليه فأن شيطنته تزامنت مع آدمية آدم ومنها بدأ العداء السافر بين الطرفين ((إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواًّ))[٥٨].

ج. كان يسمى عزازيل ثم سمي ابليس وبعد أن عصا ربه سمي بالشيطان ويلقب كذلك بالرجيم، والفاسق والملعون، يقول الجاحظ: عندما أمر الله تعالى النبي نوح (عليه السلام) بأن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين، جاءت الحيوانات لدخول السفينة، وعندما شاهد نوح (عليه السلام) الحمار واقفاً ناداه قائلاً أصعد يا ملعون، وذلك كون الحمار أحد المشتبهين بهم الذين ساعدوا ابليس على دخول الجنة عندما طرده الله منها، لذلك سمي بالملعون، وعندما صعد الحمار صعد معه ابليس، فقال نوح: لماذا صعدت؟ فقال له لقد ناديتني عندما قلت اصعد يا ملعون. ولا يوجد ملعون على وجه الأرض غيري[٥٩].

د. اذن فأول ظهور للشيطان على ساحة الكفر كان ساعة ظهور آدم على مسرح الحياة كرمز محترم ذي قيمة وأهمية عند الله تعالى وملائكته الكرام.

---

[٥٧] ابن ابي الدين، المصدر السابق، ص١٠١.

[٥٨] فاطر/ من الآية ٦.

[٥٩] أبي عثمان بن عمرو بن بحر،(ت، ٢٥٢هـ)، كتاب الحيوان، دار الكتاب العربي ١٩٦٩م، جـ٤، ص٥٧.

رابعاً: اثر حواء في الجنة (الخطيئة)

بعد أن تحدثنا عن الرؤوس الثلاثة وهم أبليس من جانب وآدم وحواء من جانب آخر لا بد لنا هنا من التطرق الى آلية العلاقة بين الأطراف الثلاثة لا سيما وأن آدم الذي رفض ابليس السجود له، قد أكرمه الله بأنثى جميلة أصبحت زوجاً له وأضافت بعضاً من السرور والبهجة على حياته وهو في جنات النعيم حيث تكاملت بذلك رؤوس المثلث أعلاه.

وفي عودة الى امتناع ابليس من السجود، والمناظرة التي أجراها مع الله دفاعاً عن موقفه، قال الله تعالى بعد أن طرده من الجنة: ((أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ))[٦٠]. وهنا جاء الرد الالهي مباشر وقوي جداً فقال تعالى ((قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ))[٦١].

اذاً فالمشهد بعد الموقف أعلاه أصبح كالآتي:

أ. ابليس أصبح مذؤوماً مدحوراً وهو الآن خارج جنات النعيم، لكن المصادر التاريخية لم تحدد لنا بالضبط أين كان لكنها تشير في ذات الوقت أنه لم يكن قد هبط الى الأرض بعد، إذ أن هبوطه الى الأرض تزامن مع هبوط آدم وحواء بعد ارتكاب المعصية[٦٢] وذلك

---

[٦٠] الأعراف/١٤-١٧. (يقول ابن عباس -رض-، الا أن ابليس لم يقل انه يأتي بني آدم من فوقهم ولا جعل الله له سبيلاً الى أن يحول بينهم وبين رحمة الله وعفوه). الثعالبي، ابن محمد مخلوف المعروغ بالثعالبي، (ت، ٨٧٥هـ)، تفسير الثعالبي الموسوم بجواهر الحسان في تفسير القرآن، جـ٢، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ص٧.

[٦١] الأعراف/١٨.

[٦٢] الطبري، التفسير، المصدر السابق، ص٥١٣. الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٥.

عندما نفذ ابليس الصفحة الأولى والأساسية بمسيرة عداءه مع آدم وذريته بعد أن استطاع أن يخرجه وزوجته من الجنة.

ب. أما آدم فقد أدخله الله الجنة بعد أن طرد ابليس منها، ومن ثم خلق له أنثى من نفسه يسكن اليها كما تقدم وبذلك أصبح المشهد أكثر وضوحاً ومن هنا وبناءً على آية التحدي أعلاه قرر ابليس وهو خارج من الجنة أن يقوم بتنفيذ مراحل دوره السلبي في الحياة فراح يتحين الفرص لدخول الجنة.

وفي الجنة آدم ذلك المخلوق العزيز على خالقه الذي خلق له أنثى تليق به وزوجه اياها وذلك يوم الجمعة بعد الزوال[٦٣].

يقول الطبري (ت، ٣١٠هـ) (فلما أسكن الله عز وجل آدم عليه السلام وزوجه أطلق لهما أن يأكلا ما شاء أكله من كل ما فيها من ثمارها، غير ثمر شجرة واحدة ابتلاءً منه لهما بذلك ويمضي قضاء الله فيهما وفي ذريتهما، كما قال عز وجل ((وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ))[٦٤].

كان زواج حواء وزفتها في الجنان والحفاوة والتكريم والعيش الرغيد في جنات النعيم مشروطاً بعدم الأكل من شجرة دون سواها، وذلك كما أشار الطبري في روايته أعلاه، ابتلاءً من الله وآختباراً منه.

وبالفعل فان ما حذرهما الله منه قد وقع، فقد جاء في الذكر الحكيم: ((فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ* فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ

[٦٣] الحنفي، المصدر السابق،ص٥٨.

[٦٤] الطبري، التاريخ، المصدر السابق، ص١٠٦. الأعراف/ ١٩.

عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ))[٦٥]. وهكذا استطاع ابليس بما يملك من قدرة على الاغواء والمناورة وتزييف الحقائق أن يوسوس لقلبين نظيفين طاهرين وهما يقعان بالحب والمودة في أجواء أحاطت بها الرومانسية والشغف بالمقابل من كل جانب. ونتيجة لحجم الهدف وأهميته بالنسبة لإبليس لذلك جاءت عملية تحقيقه على ثلاث مراحل استخدم فيها ابليس سلاح الكذب مستغلاً الى أبعد الحدود جهل آدم وحواء بحقيقة ما يقول لذلك بدأ وسوسته أولاً باستدراجهم الى مكائده من خلال تأكيده على أن عملية المنع من أكل الشجرة لم تكن إلا لغرض أن لا يكونا ملكين أو من الخالدين في الجنان، وهذا الأمر حرك في نوازع الطرفين الرئيسيين (آدم وحواء) رغبة الخلود في الحياة لا سيما وانهما في الجنان وكل شيء لذيذ ولا يشجع أي مخلوق أن يفكر بالابتعاد عنه. ثم أعقب ذلك بأن حلف لهما انه من الناصحين لهما ونظراً لعمق وجوده الزمني وموقعه قبل معصيته ودرايته بالأمور لذلك استطاع أن يترك في دواخل آدم وحواء شيئاً من القناعة بما جاء به.

أما المرحلة الأخيرة وكما أشار اليها الذكر الحكيم فتتجسّد بأن وضعهما وجهاً لوجه امام الشجرة. وبها أصبح الموقف صعباً للغاية فالشجرة أمامهم، والوسوسة حركت لديهم رغبة كامنة بالخلود في الجنان، والتنعم في الحياة، وهكذا بدأت المعصية، الخطيئة الأولى في التاريخ.

أما بخصوص الشجرة ونوعها فلا يفوتني أن أذكر أنها مختلف فيها بين أن تكون شجرة الكافور أو الحنطة أو شجرة العلم وفيها من كل شيء علامة أو هي السنبلة أو

---

[٦٥] الأعراف / ٢٠-٢٢.

شجرة الكرمة[٦٦] وذلك لكون القرآن لم يذكرها بالاسم. أما من ناحية تعيين شخصية الذي بدأ بالأكل من الشجرة قبل غيره آدم أم حواء؟ فهذا هو الآخر أمرٌ لم يحدده القرآن الكريم، لكن المؤرخين والمفسرين بشكل عام أكدوا على أن الذي بدا بالأكل هو حواء مستندين بذلك على حديث الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم): يقول فيه (لولا حواء ما خانت امرأة زوجها)[٦٧].

وضمن سياق تحليلهم للرواية ذكر بعض المؤرخين أسباباً مرتبطة بتركيبة الانسان ورغباته وحاجاته وجعلوها دوافع مهمة وراء فعل المعصية، فالطبري في التاريخ يؤيده ابن الأثير (ت،٦٣٠هـ) وابن كثير (ت، ٧٧٤هـ) ينقلون لنا الرواية التالية: (فوسوس الشيطان الى حواء في الشجرة حتى أتى بها اليها، ثم حسنتها في عين آدم، قال: فدعاها آدم لحاجته، قالت: لا: إلا أن تأتي ها هنا، فلما أتى قالت: لا إلا أن تأكل من هذه الشجرة، قال: فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما)[٦٨] وبهذا يربط الطبري اندفاع آدم للأكل من الشجرة على أنه جاء بناءً على رغبته الجنسية، حيث ان امتناع حواء عنه ثم وضعها شرط الموافقة على الجماع منه هو الأكل من الشجرة من قبله جاء كتعبير فعلي وتطبيقي لتأثير غرائز الانسان على سلوكه ومدى التزامه بما يمليه عليه العقل. أما الجزائري، فيقول: لما آيس ابليس من اقناع آدم، خاطب حواء وهو في جوف الحية قائلاً:

---

[٦٦] الثعالبي، المصدر السابق، ص٣٣، وابن الأثير يؤكد بأن الشجرة هي شجرة الحنطة، أنظر ابن الأثير، عز الدين علي بن ابي كرم الشيباني، (ت،٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ط١، تحقيق الدكتور علي بشري المصدر السابق، ص٤٩.

[٦٧] جاء في صحيح البخاري، حدثنا بشر بن محمد، اخبرنا عبد الله، اخبرنا معمر عن همام عن أبي هريرة (رض) عن النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" قوله (لولا بنو اسرائيل لم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها)، البخاري، ابي عبد الله، محمد بن اسماعيل، (ت، ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، جـ٤، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ميدان الأزهر، مصر، باب بدء الخلق، ص١٦١.

[٦٨] التاريخ، المصدر السابق، ص١١١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ١، ص٤٩، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١، ص٧٨.

يا حواء أرأيت هذه الشجرة التي حرمها الله عليكما لما عرف من حسن طاعتكما، وأبشري بأنك إن تناولت منها قبل آدم كنت أنت المسلطة عليه وأنت الآمرة والناهية، فوافقت حواء وتناولت منها[٦٩] وهنا اضاف لنا الجزائري سبباً نفسياً آخر. ولا زلنا في دائرة اثر حواء بخصوص الأكل من الشجرة المنهى عنها، فالطبري يؤيده الثعلبي يذهبان أبعد من ذلك حين يقولان: لما قطعت حواء الشجرة "دميت الشجرة" لذلك كان رد الله عليها قاسياً حين قال فكما أدميت الشجرة تدمين في كل هلال أنت وبناتك الى يوم القيامة[٧٠] أما آدم فأنه أكل من الشجرة وهو ناسي وهو قول الله تعالى (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ)[٧١].

أما المسعودي (ت، ٣٤٦هـ) فانه لن يتحدث عن الأكل من الشجرة أبداً، حيث ينتقل من عملية خلق حواء من آدم الى هبوطها للأرض مباشرة فيقول (ان ابتداء الخلق كان يوم الأحد والفراغ منه كان يوم الجمعة وفيه نفخ في آدم الروح وهو اليوم السادس من نيسان، ثم خلقت حواء من آدم وأسكنا الجنة لثلاث ساعات مضت منه فمكثا ثلاث ساعات، وهو ربع يوم بمائتي سنة وخمسين سنة من أعوام الدنيا وأهبط الله آدم بسرنديب وحواء بجدة وابليس بنبيسان)[٧٢]. ابن الأثير له رأي يؤيد في بعض جوانبه رواية الطبري حيث يقول (وكان انفعال حواء لوسوسة الشيطان أعظم فدعاها آدم لحاجته، فقالت: لا إلا أن تأتي هنا، فلما أتى قالت لا إلا أن تأكل من هذه الشجرة وهي الحنطة فأكلا منها)[٧٣].

---

[٦٩] الجزائري المصدر السابق، ص٤٦.

[٧٠] الطبري التاريخ، المصدر السابق، ص١٠٩، الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٦

[٧١] طه/ من الآية ١١٥.

[٧٢] المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص٣٤.

[٧٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ١، ص٥٠.

أما ابن كثير فيقول "وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم وهي التي حثته على أكلها والله أعلم"[٧٤].

يروي الطبري في التاريخ، تأكيداً لما ورد أعلاه قائلاً: حدثنا إبن حميد، قال حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن اسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قوله: ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل، ولكن حواء سقته الخمر حتى اذا سكر قادته اليها فأكل منها[٧٥].

يعلق ابن الأثير على قول سعيد بن المسيب قائلاً "والعجب من سعيد كيف يقول هذا والله يقول في صفة خمر الجنة لا فيها غول"[٧٦] أي أن خمر الجنة لا يسكر، فهو لذة للشاربين.

أما الحنفي فله رأي يبرر فيه لحواء معصيتها فيقول "فمن حرص حواء على الخلود في الجنة تقدمت وأكلت، فلما نظر لها آدم حين أكلت ووجدها سالمة تقدم وأكل بعدها فلما وصلت الحبة الى جوفه طار التاج من رأسه وطارت الحلل أيضاً"[٧٧].

ثم يسأل عن الحكمة من عدم سقوط الكسوة عن حواء عندما أكلت من الشجرة، فيقول: "لو سقطت في الحال عن حواء كسوتها لرجع آدم ولم يأكل"[٧٨].

ولا زلنا نستطلع آراء الكتاب والمؤرخين، الأستاذ شاكر عبد الجبار يقول: يبدو أن آدم كان عصياً على الشيطان ولم تفلح معه المحاولات لأنه ممتلئ بمرارة العداء الشيطاني بسبب ما رآه منه في مبتدأ الخلق حيث أبى أبو مرة اللعين السجود له بكل الصلف والتكبر

---

[٧٤] ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١، ص٧٨.

[٧٥] الطبري، التاريخ، المصدر السابق، ص١١٢. الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٤. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ١، ص٥٠.

[٧٦] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ١، ص٥٠.

[٧٧] الحنفي ، المصدر السابق، ص٦٧.

[٧٨] الحنفي، المصدر السابق، ص٦٧.

وكان أبو البشرية أيضاً ممتلئاً كذلك بتحذير ربه عز وجل من هذا العدو الخبيث. لذلك راح اللعين يحاول مع حواء حتى أقنعها بضرورة الأكل من الشجرة فأكلت وتبعها آدم، وقد استند بذلك على الحديث الشريف "لولا حواء لم تخن أنثى زوجها")[٧٩]. الذي تمت الاشارة اليه.

أما الأستاذ العقاد فيعلق على ما كان يدور في خلد حواء لحظة وسوسة الشيطان لها فيقول: والشيطان حين قال لآدم وحواء ((ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين)) قد ألهب في حواء كل علة من علل المخالفة والولع بالممنوع وسول لها الغواية والاغراء فأكلت وزينت لآدم أن يأكل مثلها وذلك لأنها نهيت عنها، فالولع بالممنوعات خلاصة طبائع المرأة التي تنتمي الى اسباب كثيرة ولا تنحصر في سبب واحد[٨٠]. أما الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني فله رأي يختلف فيه بعض الشيء عن رأي الأستاذ العقاد فيقول: ان ما فعلته حواء لم يكن من قبيل الاغواء والغواية ولكن من قبيل الايثار أو الرغبة في مشاركة آدم لها فيما استطابت له ووجدت طعمه لذيذاً [٨١]. اما المرأة فقد كان لها رأي أيضاً وبعد أن اطلعت بنفسها على مصادر التاريخ اقتنعت بعض الشيء باثر حواء السلبي، تلك هي السيدة الخرساني حيث قالت في كتابها "الاسلام وتحرير المرأة" ما يلي: برغم التكافل والتضامن في تحمل المسؤولية بالأكل من ثمار الشجرة، فقد انصبت كل الاتهامات على حواء بأنها وحدها المسؤولة والمذنبة حيث كانت السبب من وجهة نظر العديد من المؤرخين في طردها هي وزوجها من الجنة لسعيها المستميت والمميت وراء الجمال فقد أقنعها ابليس انها اذا أكلت من الشجرة سوف تظل جميلة الى الأبد، فصدقته وخالفت أمر ربها[٨٢].

---

[٧٩] عبد الجبار، المصدر السابق، ص٧٦.

[٨٠] العقاد. هذه الشجرة، المصدر السابق، ص٩.

[٨١] الخرساني، الاسلام وتحرير المرآة، مجهول الطبع، ص٢٦.

[٨٢] الخرساني، المصدر السابق، ص٢٦.

وبعد ان اطلعنا على الآراء أعلاه والتي أكدت على ان حواء هي التي بدأت بالخطيئة اولاً، لا بد من القول ايضاً أن هناك من يعتبر وقوع الخطيئة عملاً مشتركاً قام به كل من أدم وحواء سويةً رافضاً الأقوال التي تنسب للمرأة هذا الفعل وتعتبرها السبب في هبوط الانسان الى الأرض معتبراً اياها اساطير بعيدة عن الواقع لعدم الاشارة اليها في القرآن الكريم[٨٣].

من خلال ما تقدم يتبين لنا بأن نسبة المؤيدين لدور حواء السلبي بموضوع الشجرة هم الأكثرية، وعليه لا بد من التوقف عند هذا الأمر لنرى مدى صحة ما تمت الاشارة اليه، فالذين أكدوا دور حواء السلبي استندوا على حديث للرسول تمت الإشارة اليه، والذين أبعدوا الشبهات عن حواء استندوا على عدم اشارة القرآن لذلك، صحيح أن القرآن الكريم لم يشر الى أن حواء بالذات هي التي بدأت بالمعصية، بل أشار في نفس الوقت الى أن آدم هو الذي عصى ربه فغوى[٨٤]، وهو الذي عُهد اليه من قبل فنسى[٨٥]، وهو أيضاً الذي وسوس له الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى[٨٦]، وهو الذي تلقى من ربه كلمات فتاب عليه وهو أيضاً صاحب الخطاب الأول حيث قال الله تعالى ((وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغداً))[٨٧] و ((فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى))[٨٨] وأخيراً ان آدم هو الذي ((ثُمَّ

---

[٨٣] أحمد، أنيس، النساء المسلمات والتعليم العالي، مكتبة التربية العربية لدول الخليج العربي، الرياض، ١٩٨٧م، ص٥٩.

[٨٤] طه/ اشارة للآية ١٢١.

[٨٥] طه/ اشارة للآية ١١٥.

[٨٦] طه/ اشارة للآية ١٢٠.

[٨٧] البقرة/ اشارة للآية ٣٥.

[٨٨] طه/ من الآية ١١٧.

اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى))[٨٩] ولكن هذا لا يعني ان آدم هو الذي بدأ بالمعصية، فالخطابات القرآنية الموجهة لآدم لها ما يبررها وسنأتي على ذكر ذلك لاحقاً، أما الخطابات الموجهة للطرفين في المواضع الرئيسة التي جاء بها الحديث عن الخطيئة الأولى في السور الثلاث (البقرة والأعراف وطه) وعددها بحدود العشرين خطاباً بدءاً من (وكلا منها رغداً) و(وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)، (فقاسمهما)، (وسوس لهما)، (أزلهما)، (فأكلا)، (فبدت لهما سوآتهما)، (وطفقا يخصفان) ثم أخيراً (قال اهبطا منها).

من هنا نستنتج بأن الخطاب الأول كان موجهاً لآدم لأنه هو المعني بالأمر للأسباب التالية:

١.هو خليفة الأرض المذكور بآية الخلافة المنوه عنها في سورة البقرة، ((إني جاعل في الأرض خليفة)).

٢.هو الذي سجدت له الملائكة، ((واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)).

٣.هو الذي لم يسجد له ابليس، ((إلا ابليس أبى وأستكبر)).

اذاً فالخطابات اللاحقة جاءت مكملة للمرحلة الأولى التي خلق بها الله آدم وأسجد له الملائكة، ثم عصيان ابليس وخروجه من الجنة، وكل ذلك حدث وحواء لم تكن موجودة بعد. وعندما خلق الله حواء لم يشِر اليها بالاسم، ولا توجد آية واحدة تشير الى أن اسم زوجة آدم هي حواء لكن ذلك جاء به المفسرون مستندين على السنة النبوية وأحاديث العلماء أصحاب الشأن، كما أن القرآن لم يشر أيضاً الى اسماء بقية الزوجات حيث اكتفى بالحاق المرأة بزوجها حيث قال (امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة ابراهيم ..) لكنه أشار الى اثر امرأتي نوح ولوط السلبي لآن أثرهما كان منفصلاً عن اثر أزواجهما على العكس من اثر حواء الذي جاء متزامناً أو متقارباً مع اثر آدم.

---

[٨٩] طه/ من الآية ١٢٢

لذلك نظر الله الى آدم بأنه هو المعني بالأمر، وهو الذي يعاتب، وهو الذي عصى، اذ أن القرآن لا يهمه من الذي بدأ بدليل انه لم يشر الى ذلك، أي أن القرآن حمّل آدم المسؤولية لأنه أكل من الشجرة فقط وليس لأنه هو الذي بدأ، وهنا أخذ القرآن بنظر الاعتبار النتائج وغض النظر عن التفاصيل وذلك لأن آدم هو الأصل وما وجود حواء ودخولها الى ميدان الصراع مع الشيطان إلا لكونها زوجاً لآدم فقط.

لذلك ركز القرآن على آدم كونه أخطأ بعدم توبيخه لزوجته أولاً وأخطأ بموافقتها على ما قامت به ثانياً، حيث أنه تناول من الشجرة بعدما أقدمت هي على العملية قبله، في الوقت الذي كان يجب فيه عليه أن يكون موقفه أكثر جدية كونه هو المسؤول، وعندما يقول القرآن ((يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)) فهذا يعني ان آدم المقصود بهذا الأمر أولاً كون الخطاب موجهاً له. لذلك عندما لا يلتزم بأمر الله ويأكل من الشجرة، سواءٌ قبل حواء أو بعدها، فهو قد أخطأ وعليه أن يتحمل نتائج خطئه، أما حواء فلو كان أكلها من الشجرة بعد آدم لتحمل آدم لوحده المسؤولية ولأعتبر الله، خطأ حواء تحصيل حاصل لخطأ آدم وقد جاء نتيجة لتأثيرات آدم عليها والتزامها بما يمليه عليها من توجيهات باعتبارها زوجته ولكونه نبياً وعليها طاعته فضلاً عن كونها خلقت منه وتشعر بالرغبة بالانتماء اليه والسير على نهجه لاحساسها بكونه أقدم منها والأكثر معرفة بما يجري وبما مطلوب. أما ما تحملته حواء من عواقب وما طرأ عليها من تغيرات فسيولوجية ومتاعب حياتية فقد كان بسبب اثرها السلبي في موضوع الشجرة المنهى عنها. هذا كله زائد الحديث الشريف المنقول في صحيح البخاري والذي أكدته العديد من المصادر[٩٠]، يجعلنا مقتنعين تماماً بأن حواء هي التي بدأت بالأكل من الشجرة أولاً.

---

[٩٠] ابن كثير، أبي الفداء اسماعيل بن كثير، (ت، ٧٧٤هـ)، قصص الأنبياء، منشورات مكتبة النهضة، بغداد ١٩٨٣، ص٢١.

خامساً: أثر حواء في الأرض

هبطت حواء الى الأرض بعد أن جُردت هي وزوجها من كل ما كانا فيه من النعم[٩١] بعد أن خلقهما الله في أحسن تقويم. هبطت وهي تحمل من الندم والآهات ما يكفيها أن تعيش عمرها كله في حزن ونكد وألم يعصر الأفئدة التي طالما تنعمت بالبهجة والمسرة في جنة كل ما فيها كان لها ولزوجها، بعد أن فقدت كل شيء وأصبحت بين ليلة وضحاها في وضع لا تحسد عليه، فلا خبرة لها في الحياة ولا قدرة على الصبر والتفاعل خاصة في أيامها الأولى، حيث لا أنيس ولا حبيب، فالأرض رغم وسعها كانت تضيق بها للفرق الشاسع بين ما فيها من مستلزمات الحياة وضروريات الوجود، وتلك التي كانت تحت متناول أناملها وهي تنعم بالراحة والسرور مع رجل آية في الروعة والجمال والهيبة[٩٢] وجدت نفسها بالقرب منه وهي تفتح عينيها للنور أول مرة في حياتها فأصبح بالنسبة لها نصفها الثاني تجد فيه كل ما ترغب وتريد في ضيافة الرب المجيد ..

وكما هو شأن العديد من الأحداث المهمة فقد اختلف المؤرخون في المكان الذي أُهبط به آدم وحواء. استناداً الى ما جاء به القرآن الكريم ((قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ))[٩٣].

فالطبري نقلاً عن ابن عباس (رض) (ت، ٦٨هـ) قوله: بعضهم لبعض عدو هم آدم وحواء وابليس والحية[٩٤]، ثم يقول بسنده عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)

---

[٩١] أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل (ت، ٧٣٠ هـ)، المختصر في أخبار البشر، ج١، دار الفكر، ص١٧.

[٩٢] يقول ابن الأثير، (وكان آدم حسن الصورة لا يشبهه من ولده غير يوسف)، ابن الأثير، المصدر السابق، ص٥٣.

[٩٣] الأعراف/٢٤.

[٩٤] الطبري، التفسير، ج١، ص٥٣٩.

(ت/٤٠هـ) (أطيب أرض في الأرض ريحاً الهند، أهبط بها آدم فعلق شجرها من ريح الجنة))[٩٥]. أما حواء فينقل ابن عباس قوله: أهبط آدم بالهند وحواء في جدة[٩٦].

أما المسعودي فيؤيد رواية الطبري قائلاً أهبط الله آدم بالهند على جزيرة سرنديب وحواء في جدة وابليس في بيسان والحية بأصبهان[٩٧] أما الثعلبي فيؤيد رواية الهند أعلاه ثم يقول بأن آدم بعد نزوله الى الأرض أصاب جسده الهواء البارد، فشكا ذلك لجبريل، فجاء له بالثمانية أزواج المذكورة في سورة الأنعام، من الضأن إثنان ومن الماعز إثنان ومن الابل إثنان ومن البقر إثنان، ثم أمره أن يذبح كبشاً منها فذبحه ثم أخذ صوفه فغزلته حواء ونسجه آدم فجعل منه جبة لنفسه وجعل لحواء درعاً وخماراً فلبساه وبكيا على ما فاتهما من لباس الجنة، ثم يقول فحواء أول من غزلت وآدم أول من نسج[٩٨] وفي الوقت الذي يؤيد فيه ابن الأثير رواية الهند وجدة[٩٩].

يقول ابن كثير في قصص الأنبياء بسنده عن ابن عباس، هبط آدم (عليه السلام) في أرض يقال لها (دحنا) بين مكة والطائف وعن ابن عمر ينقل رواية تقول: أهبط الله آدم بالصفا وحواء بالمروة[١٠٠].

لا نريد أن ندخل في متاهات المكان الذي هبط فيه كل من آدم وحواء فمهما يكن المكان فهو جزء من الأرض التي أصبحت فيما بعد سكناً لآدم وذريته من بعده، المهم فقد بكت حواء على نعيم ذهب ولم يعد، وغزلت بعد أن ضرب البرد عظامها وارتدت درعاً

---

(٩٥) الطبري، التاريخ، ج١، ص١٢١.

(٩٦) المصدر نفسه.

(٩٧) المسعودي، المصدر السابق، ص٣٤.

(٩٨) الثعلبي المصدر السابق، ص٤٠.

(٩٩) ابن الأثير، المصدر السابق، ص٥٣.

(١٠٠) ابن كثير، قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص٢٥.

تحمي به جسداً لا يقوى على البرد بعد أن كانت قبل أن تأكل من الشجرة المنهى عنها في جنة لا تجوع فيها ولا تعرى.

بدأت حواء مشوارها على الأرض بأعمال شاقة متعبة ومرهقة وكان لجبرائيل عليه السلام دورٌ كبيرٌ بتعليمها وزوجها كيفية التعامل مع تفاصيل حياة لم تألفها من قبل لغرض تذليل الصعوبات والسير بالحياة الى الامام، ونتيجة لخطأ حواء الكبير والمؤثر الذي أفقدها كل شيء، كانت عقوبتها الشخصية على ذلك الفعل قد زادت من صعوبة حياتها على الأرض، فما تعانيه المرأة الآن والذي أصبح صفة من صفات تركيبها البايولوجي والفسلجي يوعزه المؤرخون الى اثرها بالأكل من الشجرة، فالثعلبي في قصص الأنبياء يحدد عشر حالات ابتلى الله سبحانه بها آدم بسبب معصيته منطلقاً في ذلك بما جاء به القرآن الكريم من آيات، تحدثت عن حادثة الخروج من الجنة والهبوط الى الأرض وما ترتب على ذلك من متاعب وشقاء، وبعد أن يعددها وهي معاتبة الله له على أكله من الشجرة، والثانية فضيحته وحواء حين بدت سوآتهما، والثالثة هي أن الله أوهن جلده وجعله رقيقاً بعد أن كان كالظفر وأبقى منه شيئاً صغيراً على أنامله ثم بعد ذلك أخرجه من جواره وفرق بينه وبين حواء حيث أهبطه في الهند وأهبطها في جدة، ثم ألقى العداوة بين أبناءه وبين ابليس والحية ونسلهما، أما الحالة السابعة فيسميها الثعلبي (النداء عليهم بالعصيان) مستنداً على الآية الكريمة (وعصى آدم ربه فغوى) والثامنة هي تسليط عدو على أبناءه وهو ابليس مستنداً على قوله تعالى (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ.. الخ) أما الحالة التاسعة فقد حددها الثعلبي بأنها تتجسد بكون الله تعالى قد جعل الدنيا سجناً لآدم وأولاده وابتلاهم بهواء الدنيا ومقاساة الحر والبرد فيها في الوقت الذي لم يألف فيه هذا الأمر اذ كان في جنة لا يرى فيها شمساً ولا زمهريراً، أما الحالة الأخيرة فهي التعب والشقاء مستنداً إلى الآية الكريمة (إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)، وبعد أن عدد الثعلبي كما أشرت

هذه الحالات العشر يقول (وابتليت حواء وبناتها بهذه الخصال وبخمس عشرة خصلة سواهن)[١٠١]، أما الخصال الخاصة بحواء وبناتها والتي جاءت كما تقدم بناءً على اثرها السلبي في الموضوع الخاص بالأكل من الشجرة، فهي ما يتعلق بالحمل والطلق والولادة والطمث ونقصان الدين والعقل والشهادة والميراث وكون الرجال قوّامين عليهن، فضلاً عن كون ليس منهن نبي وحرمانهن من الجهاد، وأمور أخرى تتعلق بصميم حياتهن كاناث، حددها الثعلبي على أنها تمثل نوعاً من أنواع العقوبة الربانية لا بد من أن تتحملها حواء وذريتها من الإناث لاثرها المشار اليه أعلاه[١٠٢].

وبهذا تكون حواء قد تحملت ما تحمله آدم زائداً خصال أخرى تخص كيانها وحياتها هي بالذات أولاً وانسحاب ذلك على بناتها من بعدها ثانياً، ومن هنا نستنتج مقدار الأذى والألم الذي تحملته حواء جراء خروجها من الجنة حيث بدأت مرحلة جديدة من حياتها على الأرض وهي مرحلة غاية في الصعوبة بدأتها بالبعد عن آدم ثم اللقاء به بعد مدة من الزمن وما ترتب على ذلك اللقاء من تعاون ثنائي بخصوص التكيف مع الطبيعة الجديدة، حيث وجد الاثنان نفسيهما في وضع جديد وما عليهما والحال هكذا الا التعاون من أجل تأمين احتياجاتهما اليومية وكان لجبريل دور كبير بتسهيل عملية التكيف هذه حيث كان قد وجه وبأمر الله تعالى بكل ما من شأنه أن يساعد على إدامة الحياة من زرع وحرث وخبز وغزل ولبس وسكن .. الخ[١٠٣] ثم ان اللقاء مع آدم بعد الهبوط ترتب عليه

---

(١٠١) الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٦.

(١٠٢) المصدر نفسه.

(١٠٣) يقول الطبري، (وكانت حواء قد غزلت ونسجت وعجنت وخبزت وعملت أعمال النساء كلها)، الطبري، التاريخ، ج١، ص١٦٢. وانظر ايضا: الثعلبي المصدر السابق، ص٤٠. راجع ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٤٦. الحنفي المصدر السابق، ص٧٠.

عملية انجاب قامت بها حواء حيث تحولت من كونها انثى فقط الى امرأة وأم وبهذا تحول اثرها من اثر الزوجة المرتبطة بزوج فقط الى دور أكثر شمولية وهو اثر الأم التي حملت ثم وضعت لترضع وترعى وتربي جنباً الى جنب مع رعايتها لزوجها وتلبيتها لطلباته وبهذا تكون حواء أول امرأة وضعت الأسس الأسرية وشكلت بالتعاون مع آدم أول أسرة عرفتها الأرض لتصبح نواة لأسر لاحقة شكلت عبر التاريخ شعوباً وقبائل أسست الحضارات وعمّرت الأرض وأغنت العالم بالكثير.

عانت حواء من صعوبات الحياة ضعف ما عانى رفيقها نظراً لتركيبها وخصوصيتها، لذلك فان ما قامت به في الأرض من تحمل وصبر وتفاعل انما هو يعكس قدرتها على التكيف من جهة مع اصرار واضح على أن يكون اثرها في الأرض ايجابياً من جهة أخرى، بعد أن أصبحت أماً[١٠٤] وعرفت أن عليها واجباً يتمثل بتربية أبنائها ورعايتهم وتوجيههم خاصة وأنها أصبحت زوجة أول نبي عرفته الأرض[١٠٥]، فحواء اذن أول أنثى وأول امرأة وأول جدة أيضاً[١٠٦]، وبهذا تكون مارست كل أدوار المرأة في الحياة وعاشت تلك التفاصيل وما ترتب عليها من حب وحنان وشوق ومودة وبسبب هذه المراحل المتباعدة في الزمن، جعلت منها امرأة وعت دورها الحقيقي وتعاملت مع الحياة

---

[١٠٤] يقول ابن كثير، في قصص الأنبياء، (واختلفوا هل ولد لهما بالجنة شيء من الاولاد، فقيل: لم يولد لهما إلا في الأرض، وقيل: بل ولد لهما فيها، فكان قابيل واخته ممن ولد بها: والله أعلم)، ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٤٦.

[١٠٥] جاء في قصص الأنبياء لابن كثير، عن أبي ذر (رض) قوله، قلت يا رسول الله من كان أول الأنبياء؟ قال آدم، قلت يا رسول الله .. نبي مرسل؟ قال (نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً)، ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٥٤.

[١٠٦] جاء في قصص ابن كثير ايضاً (وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة الف نسمة .. والله أعلم)، المصدر نفسه، ص٥٣.

بجدية، عانت من منغصاتها، ثم حزنت بكل حزن الامهات وهي ترى بـأم عينيهـا ابنهـا وهو يقتل أخاه.

وهكذا عاشت حواء حزن الـدنيا دون أن تـشاركها انثـى بـذلك ودون أن تجلـس الى جانبها وهي تنعى ابنها أية صديقة أو جارة أو رفيقة، كـل ذلـك كـي تؤسـس لبناتهـا طقوساً وأساليب للتعامل مع تفاصيل الحياة بحلوها ومرها يتوارثنها جيلاً عن جيـل، فالوحدة القاسية التي عانتها حواء أصبحت فيما بعـد أسراً ومجتمعـات تتعـاون مـع بعضها وتتآزر تتفق وتختلف، المهم هـو ازالـة الوحـشة والتعامـل مـع الحيـاة بـروح الجماعة التي افتقدتها حواء خاصة في مراحل حياتها الأولى على الأرض.

ثم ان صعوبة الحياة على الأرض التي أفقدت حواء الكثير من خصائصها الذاتية ومن أهمها الحسن والجمال[١٠٧] قد جعل آدم يذكرها بلحظات الضعف التـي أودت بهمـا لأن يكونا على ذلك الحال، حيث تذكر مصادر التاريخ أن آدم وهو يحتضر نزلت اليه ملائكـة السماء فأحاطت به وكانت حواء قد عرفتهم فأخذت تدور حولهم فقال لهـا آدم: أخـلي السبيل، لملائكة ربي فان ما أصابني الذي أصـابني إلا منـك[١٠٨]. وبعـد وفـاة آدم يقـول الطبري "وذكر أن حواء عاشت بعده سنة، ثم ماتت رحمها الله"[١٠٩].

---

[١٠٧] جاء في بدائع الزهور، (أما حواء فقد ذهب عنها حسنها وجمالها، وابتليت بـالحيض وانقطـع عنهـا ذكر النسب فيقال أولاد آدم، ولا يقال أولاد حواء لأنها أغرت آدم مع ابليس حيث ابتدأت بالأكل مـن الشجرة)، الحنفي، المصدر السابق، ص٦٨.

[١٠٨] الطبري، التاريخ، ج١، ص١٦١ وانظر ايضاً: ابن كثير، البداية والنهاية، ص٩٨.

[١٠٩] الطبري، التاريخ، ج١، ص١٦١.

الفصل الثالث

امرأة نوح ـ عليه السلام ـ

أولاً: من هو نوح؟
ثانياً: امرأة نـوح
ثالثاً: الطوفـان

امرأة نوح (عليه السلام)

بعد أن توفي آدم (عليه السلام) ثم لحقته بعد عام كما مر بنا زوجته حواء، ظلت الأرض تحوي من ولدوا وترعرعوا فيها من أبناء آدم، فكان شيث وهو أحد أبناء آدم، ولد بعد وفاة هابيل[1] قد قام بالأمر بعد والده، وكان يأمر قومه بتقوى الله سبحانه وبالعمل الصالح، وكان هو وابناءه وأحفاده ونساءهم يسبّحون لله ويقدسونه وكانوا متحابين فيما بينهم حيث لا عداوة ولا تحاسد ولا تباغض ولا كذب[2] وكانوا يعيشون في معزل عن أبناء وأحفاد قابيل الذين إتّسموا بالفجور والعصيان بناء على كونهم من سفاح على ما جاء في كتب الروايات نتيجة لاقتران قابيل بأخته التي ولدت معه في بطن واحدة متجاوزاً بذلك أمر أبيه، بعد أن قام بأول جريمة على الأرض بقتله لأخيه هابيل[3] لذلك أوصى آدم حين وفاته ابنه شيث وأبناءه بتقوى الله وحسن عبادته

---

[1] يقول البلاذري، (لما قتل قابيل بن آدم أخاه هابيل، ولد لآدم شيث، فقال آدم: هذا هبة من الله وخلف صدق عن هابيل، فسمي شيث: هبة الله. البلاذري، أحمد بن يحيى (ت، ٢٧٩هـ) أنساب الأشراف، ج١، تحقيق د. محمد حميد الله، دار المعارف، مصر، ص٣، وانظر ايضاً: الطبري،التاريخ، المصدر السابق، ص١٥٢.

[2] اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، (ت/٢٨٢هـ) تاريخ اليعقوبي، مج١، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص٨.

[3] يقول اليعقوبي: بعد نزول آدم وحواء الى الأرض (وقع آدم على حواء فحملت، وولدت له غلاماً وجارية، فسمى الغلام قابيل والجارية لبودا، ثم حملت حواء فولدت غلاماً وجارية، فسمي الغلام هابيل والجارية اقليما، فلما كبر ولداه وبلغا النكاح، قال آدم لحواء: مري قابيل فليتزوج أقليما التي ولدت مع هابيل، ومري هابيل فليتزوج لبودا التي ولدت مع قابيل، فحسده قابيل أن يتزوج بأخته التي ولدت معه) واليعقوبي هنا لم يذكر السبب أي لماذا حسد قابيل أخاه، ثم يروي رواية أخرى قائلاً: (وقد روى بعضهم ان الله عز وجل أنزل لهابيل حوراء من الجنة، فزوجه بها، وأخرج لقابيل جنية فزوجه بها فحسد قابيل أخاه على الحوراء، فقال لهما آدم=

=قربا قرباناً، فقربا، فقبل الله قربان هابيل دون قابيل فازداد حسداً وزين له الشيطان قتل أخيه فقتله. لم يذكر لنا اليعقوبي لماذا الله تعالى ميز بين هابيل وقابيل بأن منح للأول حورية وللثاني جنية، إلا أنه أراد أن يقول أنه من غير الممكن أن يتزوج الانسان من أخته وإن كانت من بطن أخرى أولاً وليضع مبرراً منطقياً لعملية القتل.اليعقوبي، التاريخ، المصدر السابق، ص٧.
أما الطبري فيتحدث عن أول عملية زواج على الأرض بشكل مختلف عن رواية اليعقوبي بعض الشيء فيقول: وكانت حواء لا تحمل إلا توأماً ذكراً وأنثى، فولدت لآدم أربعين ولداً من ذكرٍ وأنثى في عشرين بطناً، وكان الرجل منهم يختار أي اخواته شاء يتزوجها إلا توأمته التي تولد معه فأنها لا تحل له وذلك انه لم يكن هناك يومئذٍ إلا اخواتهم وأمهم حواء، لذلك أمر آدم قابيل أن ينكح توأمة هابيل، وأمر هابيل أن ينكح توأمة قابيل فرضي هابيل وأبى قابيل كون أخته كما يصفها الطبري من أحسن الناس فضن بها عن أخيه وأرادها لنفسه، فقال له أبوه يا بني انها لا تحل لك فأبى عليه، فوكل آدم ذلك الأمر لله وطلب من الطرفين أن يقدما قرباناً لله وبعد أن قدما تقبل الله قربان هابيل دون قابيل وهو قوله تعالى (وأتلُ عليهم نبي ابني آدم بالحق اذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما)المائدة/٢٧ ثم بعد ذلك قتل قابيل هابيل بوسوسة من الشيطان (الطبري، التاريخ، ج١، ص١٤٠). أما الكليني وهو أحد الرموز العلمية الشيعية الذي يتبنى فكرة أخرى لزواج أبناء آدم فيقول: لما أكل آدم من الشجرة وهبط الى الأرض ولد له هابيل وأخته توأم وولد قابيل وأخته توأم ثم ان آدم أمر هابيل وقابيل أن يقربا قرباناً وكان هابيل صاحب غنم وقابيل صاحب زرع فقرب هابيل كبشاً وقرب قابيل زرعاً فتقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل .. الخ الرواية إلا أن الكليني هنا لم يذكر سبب تقديم القربان مما جعل روايته ناقصة، الكليني، أبي جعفر محمد بن يعقوب الرزاي، (ت، ٣٢٩هـ) الروضة من الكافي، تحقيق على أكبر الغفاري، ج٨، دار الكتب الاسلامية، طهران، ١٣٨٩هـ ص١١٣. أما الجزائري فقد وضح الأمر أكثر فيقول في قصص الأنبياء: عن أبي عبد الله الصادق -عليه السلام- لما ولد قابيل وأدرك أظهر الله عز وجل جنية من ولد الجان يقال لها جهانة في صورة انسية فلما رآها قابيل أحبها فأوحى الله الى آدم أن يزوجه اياها، ثم ولد لآدم هابيل ولما أدرك أظهر الله له حورية وأسمها نزلة الحوراء فلما رآها هابيل أحبها فأوحى الله الى آدم أن يزوجه اياها ففعل، ثم ان الله أمر آدم أن يضع ميراث النبوة والعلم ويدفعه الى هابيل ففعل ذلك، فلما علم قابيل غضب محتجاً بأنه هو الأكبر والأحق بذلك، فأجابه آدم ان ذلك أمر الله وأن الله خصه به فان لم تصدق فقرب قرباناً .. الخ الرواية، وبهذا يكون الجزائري قد أبعد سبب قتل قابيل لهابيل كما هو شائع وهو حبه ورغبته بأخته التي ولدت معه لجمالها. ،ابعد أيضاً السفاح عن أولاد قابيل وكذلك هابيل اذ مهما يكن الأمر فان زوجة هابيل وان لم تكن اخته من بطن واحدة فهي اخته من أمه وأبيه، الجزائري، المصدر السابق، ص٥٥.

وان لا يخالطوا قابيل اللعين وولده[٤] ثم أمره بأن يحفظ جسده (أي جسد آدم) ويجعله اذا مات في مغارة الكنز وأن يوصي أبناءه عند هبـوطهم مـن الجبـل أن يأخـذوا جـسده معهم، ويدفنوه وسط الأرض[٥] وهكذا ظل أبناء شيث على الجبل بينمـا كـان في الـسهل أبناء قابيل، يقول ابن عباس رضي الله عنه، وكان بطنان من ولـد آدم أحـدهما يـسكن السهل والآخر يسكن الجبل، وهما أبناء قابيل وأبنـاء شـيث، وكـان آدم قـد أوصى أن لا ينكح بنو شيث بني قابيل فجعل بنو شيث جسد آدم في مغارة وجعلوا عليه حفاظاً لـئلا يقربه أحد من أولاد قابيل، ولما كان أبناء شيث على الجبل لذا قرر مائة شخص مـنهم أن ينزلوا الى السهل، فقالوا لو نظرنا ما فعل بنو عمنا، يعنون بني قابيل، فجاءت مائة مـن نساء السهل وكن جميلات من بنات قابيل، فاحتبسن الرجـال مـن أبنـاء شـيث فبقـوا معهن في حالة من الانسجام ولم يصعدوا الى الجبل فقرر مائة رجل آخر أن ينزلـوا لـيروا

---

[٤] اليعقوبي، المصدر السابق، ص٧.

[٥] المصدر نفسه، يتحدث المؤرخون عن وسط الأرض وهو المكان الذي دفن فيه آدم فمـنهم مـن يؤكـد أن وسط الأرض هي المساحة الممتدة من النيل وبلاد الشام والحرم الى دجلة والفرات، كما جاء في تـاريخ دمشق وغيره. وأظن هذه الرواية من الاسرائيليات إلا أن هناك العديد من المؤرخين يؤكـد بـأن وسـط الأرض بالذات هو العراق، فاليعقوبي يتحدث في كتابه (البلدان) عن بغـداد فيقـول: أن بغـداد وسـط الدنيا لأنها على ما أجمع عليه قول الحساب وتضمينه كتب الأوائل من الحكماء في الاقليم الرابع وهـو الاقليم الذي يعتدل فيه الهـواء في جميـع الأزمـان والفـصول: اليعقـوبي، أحمـد بـن أبـي يعقـوب، (ـ/٢٨٤هـ) البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٥٧م، ص٣. أما المسعودي فيقول: العـراق منارة الشرق وسرة الأرض وقلبها، عنده وقف الاعتدال، فصفت أمزجة أهله وقويت عقـولهم، وقلـب الأرض هو العراق. وهو المجتبى منذ قديم الأزمان وهـو مفتـاح الـشرق ومـسلك النـور، المـسعودي، المصدر السابق، ص٢-ص١٣. (أما الحميري فيقول في كتابه (الروض المعطار في خبر الأقطار) والعراق وسط الدنيا وعينها ومستقر الممالك الجاهلية والاسلامية. الحميري، محمد عبد الـنعم (ت/٧٢٧هـــ) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، مؤسسة نـاصر للثقافـة، ص٥٠١. واذا تأكـد بأن وسط الأرض هو العراق فان رواية دفن آدم وسط الأرض تعني أنه مدفون في العـراق وفي الـوادي المقدس بالذات، كما هو مثبت في مرقد الامام علي (عليه السلام).

ما فعل اخوتهم فاحتبستهم مائة من النساء الصبوحات الحسناوات من بنات قابيل وهكذا حتى هبط بنو شيث كلهم، فظهرت المعصية وتناكحوا واختلطوا وكثروا حتى ملئوا الأرض وأكثروا الفساد، فبعث الله اليهم نبيهم نوحاً وهو ابن خمسين سنة[٦] يقول الكليني كان الناس قبل نوح أمة ضلال وذلك قوله تعالى (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ)[٧] فأرسل الله اليهم نوحاً عليه السلام[٨].

أولاً: من هو نوح (عليه السلام)

هو نوح بن لامك بن متوشالخ بن أخنوخ (وهو ادريس عليه السلام) بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم[٩] واسم أمه قينوش بنت راكيل وقيل بنت كابيل بن مخوئيل بن آخنوخ[١٠] ولد بعد وفاة آدم بمائة وستة وعشرين سنة[١١]، يقول الكسائي، كان اسم نوح (عبد الغفار أو يشكر، وسبب تسميته نوحاً ما قيل انه رأى كلباً له أربع أعين فقال: ان هذا الكلب شنيع فقال له الكلب: يا عبد الغفار أتعيب النقش أم النقاش، فان كان العيب على النقش فان الأمر لو كان إلي لما اخترت أن أكون كلباً، وان كان العيب على النقاش فهو لا يلحقه عيب لأنه يفعل ما يشاء)[١٢] يقول: فكان كلما

---

(٦) الثعلبي، المصدر السابق، ص٥٧.

(٧) البقرة، من الآية ٢١٣.

(٨) الكليني، المصدر السابق، ص٨٢.

(٩) البلاذري، المصدر السابق، ص٣. الدينوري، المصدر السابق، ص١. اليعقوبي، المصدر السابق، ص٦-١٣. ابن كثير، قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص١٠٠.

(١٠) الثعلبي، المصدر السابق، ص٥٧.

(١١) ابن كثير، قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص١٠٠.

(١٢) الحنفي، المصدر السابق، ص٨٧.

ذكر ذلك ينوح ويبكي على خطئه لذلك سمي نوحاً[١٣]. وعن الامام الصادق عليه السلام، كان اسم نوح عبد الغفار أو عبد الملك وانما سمي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه[١٤].

يقول صاحب تفسير الميزان: ذُكر اسم نوح في القرآن الكريم في بضع وأربعين موضعاً وقد تم تفصيل قصته في ست من السور القرآنية الكريمة وهي الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر وسورة نوح[١٥]، أما ما يتعلق بآثر امرأته فقد جاء ذكرها في القرآن الكريم في سورة التحريم، وأما سبب بعثه: فقد شاع في زمنه الفساد في الأرض، وأعرض الناس عن دين التوحيد وعن صفة العدل الاجتماعي، وأخذوا يعبدون الأصنام التي تطرق اليها القرآن الكريم في سورة نوح وهي (وِداً وسُوَاعَاً ويَغُوقَ وَنَسْراً) ونتيجة لذلك صار هناك تفاوت طبقي واجتماعي بين الناس فأخذ الأقوياء بالأموال والأولاد يضيعون حقوق الضعفاء ويسيطرون عليهم لذلك بعث الله نوحاً (عليه السلام) وأرسله اليهم بالكتاب والشريعة ويدعوهم الى توحيد الله سبحانه وتعالى وخلع الأنداد والمساواة بينهم[١٦] ويحذرهم من عذاب يوم عظيم، قال تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[١٧].

اذاً فنوح أرسل الى أمة كانت على الضلالة بكامل شرائحها واتجاهاتها، وقد كانوا كما قال الثعلبي[١٨] منحدرين من اثنين من أبناء آدم، وهما قابيل الذي عصى

---

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) الجزائري، المصدر السابق، ص٦٧.

(١٥) الطباطبائي، المصدر السابق، ص٦١.

(١٦) المصدر نفسه، ص٦١.

(١٧) الأعراف/٥٩.

(١٨) المصدر السابق، ص٥٧.

ربه وأساء لوالديه وقام بأول جريمة على الأرض[١٩] وشيث ذلك الابن الرائع الذي خلقه الله ليكون عوضاً لآدم وخلفاً لابنه هابيل[٢٠] الذي كان يمثل جانب الخير حتى قضى عليه قابيل وأحدث بذلك حالة من عدم التوازن على الأرض تغلب فيها اتجاه الشر على الخير، فجاء شيث ليكون أول نبي بعد أبيه[٢١] وليعيد حالة التوازن وليشكل هو وأبناءه وأحفاده تياراً يواجه تيار الشر القابيلي لكنه فشل فشلاً ذريعاً حيث استطاع تيار أبناء قابيل ترويضه وتفريغه من محتواه ليصبح هو السائد[٢٢] وحينها كما أشرت بعث الله تعالى نوحاً كأول رسول الى الأرض حيث نظم الحياة الاجتماعية وقام بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات[٢٣] بعد أن كانت الأرض مملوءة بالفساد والخروج عن القانون وعبادة الأصنام بطريقة الاندفاع المجنون، يقول ابن كثير: لما بعث الله نوحاً عليه السلام دعا قومه الى افراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن لا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره[٢٤] هذا من ناحية نوح، أما ما يتعلق بقومه فقد كان ردهم قوياً وأصروا على الكفر طيلة فترة لبث نوح فيهم، قال تعالى (قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ

---

[١٩] وجريمة قابيل هنا أخذت اتجاهين، الأول قتله لأخيه، والثاني زواجه من أخته متحدياً ارادة الله تعالى، لذلك جاءت ذريته كلها شريرة وفاسقة أشاعت الفساد في الأرض وكما جاء في الذكر الحكيم (وقوم نوحٍ من قبل انهم كانوا قوماً فاسقين).

[٢٠] البلاذري، المصدر السابق، ص٣، وأنظر ايضاً: الطبري، التاريخ، ج١، ص١٥٢.

[٢١] الطبري، التاريخ، ج١، ص١٥٢، وأنظر ايضاً: ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٥٦.

[٢٢] راجع الثعلبي، المصدر السابق، ص٥٧.

[٢٣] القرطبي، المصدر السابق، مج٨، ص٢٣٢.

[٢٤] ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١، ص١٠٧.

مُبِينٍ)[٢٥]. والملأ هنا أشراف القوم ورؤساؤهم وهم الجهة الممثلة لعموم الناس في تلك الفترة، والضلالة هي العدول عن طريق الحق ومعناها انا لنراك في دعائنا الى اله واحد في ضلال عن الحق[٢٦].

اذاً فالحق لدى قوم نوح هو بقائهم على ما هم عليه من فساد وشذوذ وبُعد عن التوحيد ونسيان شبه مطلق لواجبات المرء تجاه ربه، لذلك كان ردهم على نوح قاسياً وتصرفاتهم اتجاهه لا تتم عن بعد أخلاقي أو ديني أو تربوي، يقول الطبري: كان قوم نوح قد أجمعوا على العمل بما يكرهه الله من ركوب الفواحش وشرب الخمور والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله عز وجل[٢٧].

لذلك كان اثر نبي الله نوح (عليه السلام) بتحويلهم عن نهجهم، صعباً ومركباً، فقد كان فضلاً عن كونه لم يكن من وجهاء القوم ومن أغنيائهم[٢٨] كان يتمتع بأخلاق عالية جداً ترتب عليها سلوك هادئ ومتزن وهذا هو طبعاً شأن الأنبياء فهم من خيرة خلق الله تعالى، في الوقت الذي لا يعرف فيه قومه من تلك المفردات الاجتماعية الراقية شيئاً لذلك تعاملوا مع دعوته باستهجان ونعتوه بأقبح الصفات حتى قالوا عنه مجنون[٢٩]، وما الى ذلك من النعوت السلبية الأخرى، يروي الثعلبي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه قوله (ان نوحاً كان يُضرب من قبل قومه ثم يلف في لبد ثم يلقى في بيته

---

[٢٥] الأعراف/٦٠.

[٢٦] القرطبي، المصدر السابق، مج٨، ص٢٣٤.

[٢٧] التاريخ، جـ١، ص١٧٩.

[٢٨] وهو قول قومه له ولجماعته كما جاء في الذكر الحكيم (ما نرى لكم علينا من فضل) هود/٢٧.

[٢٩] انظر :الثعلبي، المصدر السابق، ص٥٨.

فيرون انه قد مات)[٣٠] فاذا فاق اغتسل وخرج اليهم يدعوهم الى اللـه، فلمـا طـال ذلـك عليه ورأى الأولاد شراً من الآباء قال رب قد ترى ما يفعل بي عبادك[٣١]، فأوحى اليه اللـه (أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلا مَنْ قَدْ آمَنَ)[٣٢].

وهكذا كانت الحياة سجالاً بين نوح ذلك الرسول الكريم الـصبور وبـين قومـه الفاجرين الذين كانوا لا يقيمون للعلاقات بين الناس اعتبـاراً، ومـن المفارقـات المهمـة بعلاقة نوح بقومه انه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم الى عبادة اللـه كمـا جاء في الذكر الحكيم إلا أنه لم يؤمن معه الا القليل جداً، وان قومه عـلى الاطـلاق كـانوا قوماً ظالمين، لذلك وبعد أن أفنى حياته يدعوهم الى الحق مستخدماً معهم كل الأسـاليب، وبعد أن بشرهم بالكثير وأنذرهم من العواقب، وبالنظر لعدم امتثـالهم لدعوتـه، وكمـا جاء في الذكر الحكيم (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَـوْتُ قَـوْمِي لَـيْلاً وَنَهَـارًا فَلَـمْ يَـزِدْهُمْ دُعَـائِي إلا فِرَارًا)[٣٣].

وبعد أن أعلمه الله بأن قومه لا يؤمن منهم غير الذي آمن، لذلك دعـا علـيهم قـائلاً (رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَـاجِرًا كَفَّارًا)[٣٤]. يعلق ابن عباس على هذه الآية الكريمة قـائلاً، كـان الرجـل مـن قـوم نـوح

---

[٣٠] المصدر السابق، ص٥٨.

[٣١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ١، ص٧٠.

[٣٢] هود/ من الآية ٣٦.

[٣٣] نوح / ٥-٦، يقول ابن عساكر، (بعث الله نوحاً عليه السلام، وعمره يومئذٍ أربعمائـة وثمـانون سـنة فلبث في قومه الف سنة الا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين عاماً)، ابن عـساكر، علي بن الحسن الشافعي، (ت/٥٧١هـ)، تاريخ دمشق الكبير، هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بـدران، ج١، دار المسيرة، بيروت ١٩٧٩، ص٢١.

[٣٤] نوح / ٢٧.

ينطلق بابنه الى نوح فيقول له احذر هذا الشيخ فانه كذاب وان أبي حذرني منه، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك[٣٥]، ويقول ابن الأثير (ت،٦٣٠هـ) لما شكا نوح عباده الى الله واستنصره عليهم. أوحى اليه الله أن (أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)[٣٦].

وهنا بدأت مرحلة جديدة من علاقة نوح (عليه السلام) بقومه، وقبل أن ننتقل للفقرة التالية لا بد من التوقف عند أهم خصائص نبي الله نوح، فنوح عليه السلام هو من أولي العزم[٣٧] ويقال له شيخ المرسلين وآدم الثاني[٣٨]، يحدد الثعلبي خمس عشرة خاصية لنبي الله نوح لم يتصف بها غيره فيقول، لم يسمَّ أحد من الأنبياء باسمه (ولا أعرف ماذا يقصد بذلك فان أسماء الأنبياء جميعاً خاصة بهم ولم يسمى نبي باسم نبي آخر)، ثم يقول كان نوح أول نبي من أنبياء الشريعة، وأول داعي من الله تعالى، وأول نذير عن الشرك وأول من عذبته أمته لردهم دعوته، وأول من أهلك أهل الأرض بدعوته، وهو أطول الأنبياء عمراً وهو أكبر الأنبياء ومعجزته في نفسه، ورغم كبر سنه لم ينقص له سن ولم تنقص له قوة، ثم يقول: ولم يبالغ أحد من الرسل في الدعوة مثل ما بالغ، حيث كان يدعو قومه ليلاً ونهاراً، اعلاناً واسراراً، ولم يلقَ نبي من الأنبياء من أمته من الضرب والشتم وأنواع الأذى ما لقي(بعد الرسول المصطفى)، ثم أن الله

---

[٣٥] البغدادي، علاء الدين علي بن محمد، (ت، ٧٢٥هـ)، تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، جـ٤، دار الكتب العربية، مصر، ص٣٣٧.

[٣٦] هود/٣٧.

[٣٧] جاد المولى، محمد أحمد قصص القرآن، مطبعة منير، بغداد، ١٩٧٨م، ص١٨.

[٣٨] أبي حيان، أثير الدين، محمد بن يوسف، (ت، ٧٥٤هـ)، تفسير البحر المحيط، ج٨، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض، ص٣٣٨.

جعله ثانياً في الميثاق والوحي بعد الرسول المصطفى ايضا (صلى الله عليه وآله وسلم) حين قال: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ) ، ثم قوله تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) ومن خصائصه أيضاً أن أعطاه الله الفلك وعلمه صنعته وسماه عبداً شكوراً وأكرمه بالسلامة والبركة حين قال (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ) ، وأخيراً كان نوح هو أصل النسل، وان ذريته هم الباقون[39] وفضلاً عن ذلك خصه الله تعالى بسلام عام لم يشاركه فيه أحد غيره حين قال جلّ في علاه، (سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ)[40]. يقول اليعقوبي:عاش نوح بعد خروجه من السفينة بحدود ثلاثمائة وستين سنة، ولما حضرته الوفاة اوصى ابناءه بدفنه مع آدم في وسط الأرض[41]. وذلك في العراق في نواحي مدينة الكوفة[42].

ثانياً: امرأة نوح

ان حديثنا عن امرأة نوح واثرها السلبي في (الدعوة النوحية) يعني وصولنا الى صلب الموضوع، فالمرأة لا يخفى على أحد ما لأثرها من أهمية في حياة كل رجل مهما صغر أو كبر اثره هو في الحياة سواء على مستوى العائلة والحياة الخاصة أو على مستوى المجتمع والحياة العامة، فالمرأة التي خلقها الله كما مر بنا من ضلع الرجل وجعلها سكناً له، وجعله بالمقابل ملاذاً لها ومرجعاً مهماً في حياتها، هذه المرأة جاءت

---

[39] الثعلبي، المصدر السابق، ص٦٣.والآيات الاولى من الاحزاب/٧ والثانية النساء/من الاية١٦٣ والثالثة هود/من الاية ٤٨.

[40] الطباطبائي، المصدر السابق، ص٦٤. الصافات/٧٩.

[41] اليعقوبي، التاريخ، ص١٦.

[42] ابن عاشور، المصدر السابق، ص٢٣٠.

لتؤثر في الرجل، وليؤثر هو فيها ايضاً من خلال حاجة كل طرف منهما لما موجود في الطرف الآخر. ونتيجة للحاجة أعلاه بجوانبها النفسية والاجتماعية والغريزية، أصبح الطرفان، الرجل والمرأة في معادلة يصعب الفصل بينهما لذلك كان لتأثير طرف على آخر أمر له نتائج كبيرة على المستويين الايجابي والسلبي بناءً على نوع المثير ودرجة شدته منذ أن خلق الله حواء وحتى يوم الناس هذا. ومن هنا نرى أن دور المرأة كان كبيراً في التأثير سلباً على آدم كأول المخلوقات، وكان تأثيرها كبيراً أيضاً على ابنه قابيل الذي سرّه جمالها وأنوثتها فقتل أخاه وتزوجها متحدياً بذلك الناموس الاجتماعي الذي كان سائداً، هذا اذا أخذنا بنظر الاعتبار صحة الروايات التاريخية التي جاءت بهذه التراجيديا، ثم ان رواية الثعلبي التي مر ذكرها[٤٣] والتي أشار فيها الى دور بنات وحفيدات قابيل الحسان بالتأثير على أبناء وأحفاد شيث الذين نزلوا من الجبل، حيث تزوجوهن وما ترتب على ذلك الزواج من سلوك ميداني أبعدهم عن الايمان بالله ونسيان وصية شيث التي هي بالأساس وصية أبيه آدم (عليه السلام). هذه الرواية اذا صحت يتبين لنا مقدار الاثر السلبي الكبير للمرأة في الحقبة الأولى من وجودها على الأرض، حيث استخدمت جمالها وجسدها كسلاح سريع ومؤثر أطاح بالسلوك الايماني الذي تجسد على الأرض من خلال دور أبناء وأحفاد شيث الايجابي، وهذا كله امتداد لاثر تلك المرأة التي كانت من نصيب رسول الله نوح (عليه السلام) الذي ما انفك طيلة ألف عام تقريباً يدعو الى الايمان بصبر لا مثيل له فكانت له زوجته بالمرصاد تتحرك سلباً كلما يتحرك هو ايجابياً على الرغم من كثرة حركته وشمولية أوقاتها.

---

[٤٣] المصدر السابق، ص٥٧.

لا أعرف مدى صحة رواية اليعقوبي عندما نقل لنا قصة زواج نوح قائلاً ((وأوصى الله عز وجل الى نوح في أيام جده اخنوخ، وهو ادريس النبي، وقبل أن يرفع الله ادريس، وأمره أن ينذر قومه وينهاهم عن المعاصي التي كانوا يرتكبونها، ويحذرهم العذاب، فأقام على عبادة الله تعالى والدعاء لقومه، وحبس نفسه على عبادة الله تعالى والدعاء لقومه لا ينكح النساء خمسمائة عام، ثم أوحى الله اليه أن ينكح هيكل بنت ناموسا بن اخنوخ وأعلمه أنه باعث الطوفان على الأرض))[٤٤].

فاعتكاف نوح وامتناعه عن مناكحة النساء مدة خمسمائة عام بناءً على الرواية أعلاه يوحي بأنه أراد أن يتفرغ للعبادة أولاً ولدعاء قومه ثانياً دون أن تشغله امرأة عن هذا الأمر، اذ ربما يكون قد توقع اثراً سلبياً لامرأة يتزوجها على مهمة كبيرة كمهمته وذلك من خلال النظرة السائدة على سلبية اثر المرأة في تلك الفترة، اذ حتى تاريخ زواج نوح كان الدور السلبي للنساء هو السائد في المجتمع من خلال ما تقدم ذكره، وعليه فان امتناع نوح عن الزواج طيلة تلك الفترة الطويلة، اذا صحت رواية اليعقوبي والتي لم أعثر على ما يؤيدها، هو دليل قاطع على أن المرأة لم تتحول بعد لتأخذ دوراً ايجابياً أو على الأقل ان نظرة الناس لاثر حواء السلبي في عملية التناول من الشجرة المنهى عنها ربما كان لا يزال مؤثراً على الرجل أولاً. فكان الصالح منهم يبتعد عنها وعلى المرأة نفسها اذ اعتبرت ان خطأ حواء ربما قد يبرر لها بعض ما تقوم به.

وامرأة نوح التي تطرق القرآن الى اثرها السلبي في سورة التحريم والتي سنتطرق لها لاحقاً، هل كانت هي المرأة الوحيدة لرسول الله نوح (عليه السلام)؟ أم ان لنوح امرأة أخرى غيرها؟ هذا ما اختلف عليه المفسرون والمؤرخون من أصحاب الشأن ففضلاً عن

---

[٤٤] اليعقوبي التاريخ، المصدر السابق، ص١٢.

رواية اليعقوبي أعلاه، فان هناك من يتعرض الى ذات الموضوع بطرق أخرى، فالنويري في نهاية الأرب يتحدث عن امرأتين لنوح (عليه السلام) فيقول ان أول من آمن "بنوح امرأة من قومه يقال لها عمره فتزوجها فأولدها سام وحام ويافث وثلاث بنات ثم آمنت به امرأة أخرى من قومه يقال لها والعه تزوجها فأولدها كنعان ثم نافقت وعادت الى دينها"[٤٥] ورواية النويري هذه يؤيدها الحنفي حيث يقول: "يروى انه آمن بنوح .. امرأة يقال لها عمره فتزوجها فولدت منه ثلاثة أولاد ذكور وهم سام وحام ويافث، وولدت له ثلاث بنات وهن حصوة وسارة وبحيورة، ثم آمنت به امرأة أخرى يقال لها (ولعب بنت عجويل)، فتزوجها فولدت له ولدين وهما بالوس وكنعان ثم انها عادت الى دينها بعد اسلامها[٤٦] وهنا يختلف الحنفي مع النويري في اسم المرأة الثانية وفي اضافة ولد آخر لنوح، أما ابن كثير فيختلف عن الاثنين حيث يقول في قصص الأنبياء "وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم وهم حام وسام ويافث ويام ويسميه أهل الكتاب (كنعان) وهو الذي غرق وعابر ومات قبل الطوفان وقيل – أي امرأة نوح – انها غرقت مع من غرق وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها"[٤٧] ثم يقول وعند أهل الكتاب انها كانت في السفينة[٤٨] مع الذين كانوا مع نوح وهم زوجته نعمه وابنه انوش وأولاده الثلاثة

---

(٤٥) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت/٧٣٣هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١٣، وزارة الثقافة والارشاد، مصر، ص٢٤.

(٤٦) الحنفي، المصدر السابق، ص٨٩.

(٤٧) القصص، المصدر السابق، ص٨٠.

(٤٨) الجزائري ، المصدر نفسه.

وزوجاتهم[٤٩] وفي الوقت الذي لم يتطرق فيه الثعلبي في قصص الأنبياء الى عدد نساء نوح واثر امرأته السلبي في الموضوع[٥٠] فان الجزائري في قصصه تطرق الى رواية ارتأينا ان ننقلها نصاً، تقول الرواية جاء جبرائيل الى نبي الله نوح (عليه السلام) وقال له: "أنا صاحب أبويك آدم وادريس والرحمن يقرؤك السلام وقد أتيتك بالبشارة وهذا ثوب الصبر وثوب اليقين وثوب النصرة وثوب الرسالة والنبوة وآمرك أن تتزوج بعمارة بنت ضمران بن اخنوخ فانها أول من تؤمن بك، فمضى نوح عليه السلام يوم عاشوراء الى قومه وفي يده عصا بيضاء وكانت العصا تخبره بما يكن به قومه وكان رؤساؤهم سبعين ألف جبار عند أصنامهم في يوم عيدهم فنادى لا اله الا الله فارتجفت الأصنام وخمدت النيران وأخذهم الخوف وقال الجبارون من هذا؟ فقال نوح أنا عبد الله وابن عبديه بعثني اليكم رسولاً. فسمعت عمره كلام نوح فآمنت به فعاتبها أبوها: أيؤثر فيك قول نوح في يوم واحد وأخاف أن يعرف الملك فيقتلك، فقالت عمره: يا أبتِ أين عقلك وحلمك: نوح رجل وحيد ضعيف يصيح فيكم تلك الصيحة فيجري عليكم ما يجري، فتوعدها فلم ينفع فأشاروا عليه بحبسها ومنعها الطعام فحبسها فبقيت بالحبس سنة وهم يسمعون كلامها، فأخرجها بعد سنة وقد صار عليها نور عظيم وهي في أحسن حال فتعجبوا من حياتها بغير طعام. فسألوها فقالت انها استغاثت برب نوح وأن نوحاً (عليه السلام) كان يحضر عندها بما تحتاج اليه ثم ذكر تزويجه بها وأنها ولدت له ساماً بن نوح

---

[٤٩] هذا ما جاء في قصة الطوفان العبرية، فريزر، جيمس، الفولكلور في العهد القديم، ترجمة د. نبيلة ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص١١٨.

[٥٠] انظر : قصة نوح، الثعلبي، المصدر السابق، ص٥٧-٦٤.

وذكر أنه كان لنوح امرأتان احداهما رابعه وهي الكافرة فهلكت وحمل نوح معه في السفينة امرأته المسلمة"[٥١] الى هنا انتهت رواية الجزائري.

والظاهر أن المؤرخين وربما استند قسم منهم على الاسرائيليات أو على روايات أهل الذمة من الأديان السابقة للاسلام، افترضوا ان لنوح إمرأتين وهذا الافتراض ربما يكون صحيحاً، فالقرآن الكريم تطرق الى امرأة واحدة وصفها بالخائنة وذلك لكونها تميزت ربما عن امرأة اخرى كانت صالحة وكان اثرها طبيعياً فلم يتطرق لها القرآن لعدم وجود خصوصية تستوجب ذلك، وعليه فان وجود امرأتين لنوح أمر ربما يكون مقبولاً، أما ما يتعلق برواية الجزائري التي وصف بها امرأة نوح المسلمة بأنها عانت الكثير من قومها من أجل نوح ورسالته وحبها له، وهذه الرواية ان صحت تكون قد رفعت أهمية امرأة نوح المسلمة وأعطتها دور كبير في الحياة الاجتماعية والعقائدية في تلك الفترة، وهذا الأمر يدفعنا الى التساؤل عن سبب عدم ذكرها في القرآن اذا كانت بتلك المواصفات التي تضعها في خانة ايجابية تقابل تماماً الخانة السلبية التي كانت فيها زوجة نوح الكافرة التي ورد ذكرها في القرآن، ثم ان موقف امرأة نوح المسلمة بناء على رواية الجزائري قد يتشابه في بعض تفاصيله مع موقف امرأة فرعون، إذ ان امرأة فرعون كما هو معلوم كان زوجها كافراً وجباراً وطاغيةً، فصمدت بوجهه وفضلت الايمان بالله على العيش معه في حياة ترف ونعيم تتمناها كل امرأة، وكذلك امرأة نوح كان أبوها وقومها من الكافرين والجبارين ثم صمدت بوجههم وتزوجت نوحاً رغماً عنهم، فلماذا لم يتم ذكرها لا في القرآن ولا حتى أشير لها من خلال السنة النبوية الشريفة أو احاديث الصحابة، لذلك أقول ان رواية الجزائري نصيبها من الصحة قليل

[٥١] الجزائري ، المصدر السابق، ص٨٠.

جداً. مع احتمال كبير أن يكون لنوح امرأتان كما تقول الروايات أعلاه احداهما كافرة والأخرى مسلمة ولكن ليس كما وصفها الجزائري.

ولا زلنا في دائرة الأثر السلبي لامرأة نوح، فالقرآن الكريم كان واضحاً عندما قال: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)[٥٢].

وامرأة نوح هنا تم التطرق اليها في هذه الآية فقط وهي الآية العاشرة من سورة التحريم. اذ لم يتطرق القرآن الى دورها في السور الستة الرئيسية المذكورة سابقاً والتي تحدثت عن قصة نوح مع قومه، على العكس من امرأة لوط التي تم ذكرها في مواضع أخرى غير سورة التحريم. فأين يكمن الاثر السلبي لامرأة نوح؟ وهل ان الخيانة الواردة في الآية الكريمة أعلاه هي الخيانة بالمفهوم الدارج عند الناس وهي الخيانة الزوجية المتعلقة بالجنس والغرائز، أم انها خيانة عقائدية، أي انها اساءت لزوجها بخيانته على مستوى الرسالة فلم تقف الى جانبه وهو يدعو قومه لطاعة الله تعالى، وهذا ما أجمع عليه المفسرون والمؤرخون حين أكدوا بأن امرأة نوح وقفت بالضد من زوجها. يقول الطبري في التفسير، ذكر ان خيانة امرأة نوح لزوجها أنها كانت كافرة وكانت تقول للناس انه مجنون[٥٣] وقد نقل الطبري الخبر عن ابن عباس (رض) بعدة طرق وكذلك عن عكرمة والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة. حيث قال حدثنا ابن حميد قال حدثنا مهران عن سفيان عن أبي عامر الهمداني عن الضحاك عن ابن عباس قوله ما بغت

---

[٥٢] التحريم/١٠.

[٥٣] الطبري، التفسير، المصدر السابق، ج٢٨، ص١٠٩.

امرأة نبـي قط أما خيانتها فهي في الدين حيث كانت امرأة نوح تطلع على سر نوح فـاذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قومه به فكان ذلك من أمرها[٥٤].

يقول النيسابوري في تفسيره للآية أعلاه: امرأة نوح واسمها قيل واعلة وامرأة لـوط واهلة وخيانتهما ليست هي الفجور وانما هي نفاقهما وابطانهما الكفـر وتظاهرهمـا على الرسولين فامرأة نوح قالت انه مجنون[٥٥] وينقل النيسابوري عن ابن عباس قولـه: ما بغت امرأة نبي قط[٥٦]. أما النسفي في مدارك التنزيل فيفسر الآية أعلاه قائلاً "مثل الله عز وجل حال الكفار في انهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمـؤمنين بـلا محابـاة ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبين المؤمنين من النـسب والمـصاهرة وان كـان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبياً كحال امرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين بافشاء أسرارهما فلم يغن الرسـولان عنهمـا أي عـن المـرأتين بحـق مـا بينهمـا وبـين زوجاتهم من الزواج اغناءاً من عذاب الله وقيل لهما عند موتهما أو يوم القيامـة ادخـلا النار مع سائر الداخلين الذين لا صلة بيـنهم وبـين الأنبيـاء)[٥٧]. وقـد جـاء في التفـسير المحيط فخانتاهما وذلك بكفرهما وقول امرأة نوح على زوجها انه مجنـون، يقـول أبـو حيان وقال ذلك ابن عباس وأضاف انه لم تزن امرأة نبي قـط ولا إبـتلي نـساؤه بـالزنى. يعلق أبو حيان على ذلك بالقول وهذا اجماع من المفسرين الا أنه يستثني قـولاً للحـسن

---

[٥٤] الطبري، التفسير، ج٢٨، ص١٠٩، وانظر: البغدادي، المصدر السابق، ص٣٠٩.

[٥٥] النيسلبوري ، نظام الدين الحسن بن محمد، (ت، ٨٥٠هـ)، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان على هامش تفسير جامع البيان، ج٢٨، ص١٠٩.

[٥٦] نفسه، ص١٠٩.

[٥٧] النسفي، أبي البركات عبد الله بن أحمد (ت، ٧١٠هـ)، مـدارك التنزيـل وحقـائق التأويـل، ج٤، عـلى هامش تفسير الخازن، دار الكتب العربية، مصر، ص٣٠٩.

البصري، (ت/ ١١٠هـ) في كتاب النقاش قوله، فخانتاهما بالكفر والزنا وغيره، إلا أن الزمخشري (ولا زال القول لأبي حيان) قد اختلف مع الحسن البصري حين قال ولا يجوز أن يراد بالخيانة هنا هو الفجور لأنه سمج بالطباع ونقيصة عند كل أحد بخلاف الكفر يستهجنونه ويسمونه حقاً، أما الضحاك فيقول خانتاهما بالنميمة والنفاق[٥٨].

وفي تفسير قوله تعالى (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[٥٩] يقول الجزائري المراد بذلك "ليس على دينك فكأن كفره أخرجه عن أن يكون له أحكام أهله وهذا كما قال النبي (ص) سلمان منا أهل البيت وانما أراد على ديننا ويؤيد هذا التأويل أن الله سبحانه قال على طريق التعليل انه عمل غير صالح فبين انه انما اخرج عن أحكام اهله لكفره وشر عمله"[٦٠] ثم ينقل الجزائري رأياً للحسن البصري أيضاً يشاركه به مجاهد، ومفاده ان الذي غرق لم يكن ابن نوح وانما ولد على فراشه وان الله أعلمه بذلك ونبهه لخيانة زوجته، يعلق الجزائري على ذلك قائلاً "وهذا الوجه بعيد من حيث أن فيه منافاة للقرآن لانه تعالى قال ونادى نوح ابنه ولأن الأنبياء يجب أن ينزهوا عن مثل هذا الحال لأنها تعيير وتشيين وقد نزه الله أنبياءه عما دون ذلك"[٦١]. اذاً فالخيانة هنا هي خيانة عقائدية ومبدئية حيث وقفت امرأة نوح نداً لزوجها وساهمت بشكل مباشر بافشال دعوته وقد ذكر الله اثرها السلبي في القرآن لسببين من وجهة نظري المتواضعة والله أعلم بكل شيء جل شأنه) أولهما أنه تعالى أراد أن يبين للمرأة بشكل عام بأن لها أهمية

---

[٥٨] ابن حيان، المصدر السابق، ص٢٩٤.

[٥٩] هود/٤٦.

[٦٠] الجزائري، المصدر السابق، ص٧٣.

[٦١] المصدر نفسه.

ولاثرها في الحياة ذكراً سلباً كان أم ايجاباً وقد يأتي من باب حث النساء على الفعل الايجابي كي يكون لهن ذكرٌ حسن، وثانيهما ليؤكد للناس عظمة دور نبي الله نوح (عليه السلام) الذي ما برح يجاهد الكفار ويدعوهم الى الطريق الحق في الوقت الذي لم يساعده في هذه الدعوة حتى زوجته والتي يكون لمساعدتها له أهمية كبيرة كونها أقرب الناس اليه وأكثرهم فهماً لنفسيته وقدرته على العمل، لذلك يكون لوقوفها معه أهمية كبيرة كما حدث مع السيدة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد (ع) التي كانت أول من آمن بالرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان لوقوفها معه بالقول والفعل أثرٌ كبير في الدعوة المحمدية الخالدة وسنأتي الى ذكر ذلك بالتفصيل ان شاء الله في الفصل الخاص بنساء الرسول محمد المصطفى .

ثالثاً: الطوفان

كانت آخر مرحلة من مراحل علاقة نبي الله نوح (عليه السلام) بقومه وبعد أن أخبره الله جل شأنه بأنه لا يؤمن من قومك إلا من آمن كما تمت الاشارة اليه سابقاً، أمره الله تعالى بأن يصنع الفلك والتي وصفها ابن كثير بالقول "هي سفينة عظيمة لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها"[٦٢] والأمر بصناعة الفلك مثل بدايات الغضب الالهي على الذين أساءوا السلوك في الأرض. قال تعالى (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)[٦٣].

---

[٦٢] ابن كثير ، القصص، المصدر السابق، ص٧٦.

[٦٣] هود/٣٦.

بدأ نبي الله نوح مهمته بصناعة الفلك وذلك من خلال تهيئة المادة الأولية لصناعتها وهي الخشب حيث ذكرت مصادر التاريخ[٦٤] أنه بدأ بزراعة الأشجار أولاً كي تكون فيما بعد مصدراً مهماً للخشب باعتباره المادة الرئيسية المطلوب توفرها أولاً قبل البدء، ببناء الفلك، وبعد عشرات السنين أصبح الخشب جاهزاً حينها قام نبي الله نوح بصناعة الفلك وكما جاء في الذكر الحكيم (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)[٦٥].

يقول أحمد بهجت في كتابه أنبياء الله. وبدأ نوح يغرس الشجر ويزرعه ليصنع منه السفينة، انتظر سنوات، ثم قطع ما زرعه، وبدأ بصناعة الفلك، ويمر عليه الكفار، فيرونه منهمكاً في صنع السفينة. لكن الجفاف هو السائد على الأرض. فكيف ستجري هذه السفينة ولا يوجد هناك بحار قريبة، هل ستجري على الأرض؟ أين الماء الذي ستسبح فيه سفينتك يا نوح؟ هذا ما كان يصدر عن قومه وهم يسخرون منه بكركرات

---

[٦٤] يقول الكليني بسنده عن الامام الصادق (عليه السلام) ان نوحاً (عليه السلام) لما غرس النوى مر عليه قومه فجعلوا يضحكون ويسخرون منه ويقولون قد قعد غراساً، حتى اذا طال النخل وصار جباراً قطعه ثم نحته، فقالوا: قد قعد نجاراً، ثم ألفه فجعله سفينة فمروا عليه فجعلوا يضحكون ويسخرون منه ويقولون: قد قعد ملاحاً، الكليني المصدر السابق، ص٢٨٣.

أما الثعلبي فيروي قصة زراعة الأشجار قائلاً: عندما أمر الله تعالى نوحاً بصناعة الفلك، قال نوح يا رب وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء، قال نوح: يا رب أين الماء؟ قال يا نوح اني على ما أشاء قدير. ثم قال نوح يا رب وأين الخشب؟ قال: أغرس الشجر، يقول الثعلبي فغرس الساج وأتى على ذلك أربعون عاماً، ولما أدرك الشجر أمره ربه أن يقطعه فقطعه وجففه ثم قال يا رب كيف اتخذ هذا البيت، فبعث اليه جبرائيل يعلمه صناعة الفلك فجعلها ثلاثة طوابق وجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين، وطولها في السماء ثلاثين. الثعلبي، المصدر السابق، ص٥٨.

[٦٥] هود/٣٨ و ٣٩.

لا تدل الا على التكبر والعنجهية، ثم يقولون لقد جن نوح - هكذا كان الباطل جباراً متعنتاً شيطانياً في روحه وجسده يسخر من الحق دائماً متصوراً أن الدنيا ملكه وان الأمن نصيبه وأن العذاب غير واقع أبداً[٦٦].

صحيح ان الله تعالى لم يتطرق الى مواصفات السفينة، حيث أشار فقط على أنها فلك مشحون بكل زوجين اثنين، إلا أن عظمة الحدث والموقف الذي تجلى أثناء الطوفان وبعده، ولكون الفلك حمل المخلوقات التي أراد لها الله أن تواصل الحياة ولا تنقرض، كل ذلك كان سبباً للمؤرخين والمفسرين أن يعطوا تصوراتهم لتلك الآلة العملاقة التي حملت الخلق الى المرحلة التالية للحياة*.

---

[٦٦] المصدر السابق، ص٥٤.

- ليس الروايات المأخوذة عن قدامى اليهود والنصارى كانت أساساً لما نقله المؤرخون المسلمون عن سفينة نوح (عليه السلام) بل كان لتصوراتهم الشخصية عن ذلك الحدث التاريخي العظيم أثر كبير بتدوينهم لتلك التصورات على الرغم من عدم ورودها في النص القرآني، فاليعقوبي (ت/٢٨٤هـ) مثلاً تحدث عن تصوراته للسفينة قائلاً: أمر الله نوحاً أن يعمل السفينة التي نجاه وأهله فيها من الغرق، وأن يجعلها ثلاثة طوابق وأن يجعل طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين وسمكها ثلاثين ويعمل فيها الرفوف على أن يكون الطابق الأسفل للدولاب والوحوش والسباع والأوسط للطير والأعلى لنوح وأهل بيته، اليعقوبي، التاريخ، ، ص١٤. أما الطبري(ت/٣١٠هـ) فيتفق مع اليعقوبي على طول السفينة برواية سعيد بن المسيب عن قتادة، لكنه اختلف معه عندما نقل رواية الحارث عن الحسن البصري التي تقول: كان طول سفينة نوح ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع، الطبري، التاريخ، ج١، ص١٨١. أما الكليني (ت/٣٢٩هـ) فانه يتفق مع الحسن البصري في طول السفينة والذي هو ألف ومائتي ذراع لكنه يختلف معه بخصوص عرضها الذي حدده بثمانمائة ذراع، أما ارتفاعها فيحدده الكليني بروايته المنقولة عن الثوري عن الامام الصادق (عليه السلام) بـ ثمانين ذراعاً. الكليني، المصدر السابق، ص٢٨٣. أما ابن الأثير (ت/٦٣٠هـ) فقد ذكر ما نقله المؤرخون قبله قائلاً (أمر الله نوحاً أن يصنع الفلك من خشب الساج وأن يجعل طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراع وطولها في الماء ثلاثين ذراعاً وقال الحسن: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع والله أعلم). ابن الأثير، المصدر السابق، ص٧٠.

ما كان قبل الطوفان سائداً قد ذهب الى الأبد أما من بقي وأصبح نواة للحياة اللاحقة فهو كله كان على متن تلك السفينة العجيبة الرائعة، لذلك لا بد وأن تكون من الناحية المادية كبيرة تستوعب هذا الكم الهائل من المخلوقات ومن الناحية الفنية لا بد وأن تكون على قدر من التقنية كي تستطيع مجاراة ذلك الطقس الصعب الذي بسببه غرقت الأرض وأصبحت كلها تحت تأثير منخفض جوي أغرق العالم ولم يبق منه الا تلك السفينة وهي تموج وسط بحر لا قرار له من المياه التي سقطت من السماء وتلك التي نبعت من ينابيع لها في الأرض[٦٧]. كان عمل السفينة شاقاً جداً وقد استمر فترة طويلة جداً، فعن الصحابي الجليل سلمان الفارسي (رض) ينقل الطبري رواية الضحاك التي تقول: أنبت نوح الساج أربعين سنة واستمر يعمل السفينة أربعمائة عام[٦٨]. أما الكليني فينقل عن المفضل قوله: قلت للامام الصادق عليه السلام (جعلت فداك في كم عمل نوح سفينته حتى فرغ منها؟ قال في دورين، قلت: وكم الدورين؟ قال ثمانين سنة. قلت وان العامة يقولون: عملها في خمسمائة عام، فقال: كلا كيف والله يقول (ووحينا)[٦٩] يقول علي أكبر غفاري"ولعل المراد أن ما أوحاه الله تعالى وأمره لا يناسب هذا التأخير"[٧٠].

---

[٦٧] الماء الذي أحدث الطوفان كان على نوعين، النوع الأول هو الماء المتدفق من الأرض، وكما جاء في الذكر (اذا جاء أمرنا وفار التنور) يقول ابن عباس: انبجس الماء من وجه الأرض، أما السماء فقد أمطرت أربعين يوماً وكما جاء في الذكر الحكيم، (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر)، البقرة/١١-١٤، انظر : الطبري، التاريخ، ج١، ص١٨٤، والثعلبي، المصدر السابق، ص٥٩.

[٦٨] التاريخ، المصدر السابق، ص١٨١.

[٦٩] الكليني، المصدر السابق، ص٢٨٠.

[٧٠] المصدر نفسه.

وبعد الانتهاء من السفينة أمره الله تعالى أن يحمل بها من كل زوجين اثنين وكما جاء في الذكر الحكيم (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)[٧١]. وعن الامام علي (عليه السلام) قوله: ان نوحاً (عليه السلام) لما فرغ من السفينة وكان ميعاده فيما بينه وبين ربه في اهلاك قومه أن يفور التنور ففار فقالت امرأته: ان التنور قد فار فقام اليه فختمه فقام الماء أي جمد)[٧٢].

يقول الثعلبي: لما فرغ نبي الله نوح من صنع السفينة أوحى الله اليه: أن احمل فيها من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات كلها حتى لا تنقرض، ثم حشرها الله اليه من البر والبحر والسهل والجبل. وقد جعل الله فوران التنور آية بينه وبين نوح وعهد اليه اذا رأيت التنور فار فاركب أنت ومن معك على الفلك. وفوران التنور هنا هو الطوفان عذاب الله الواقع[٧٣]. وقبل أن ننتقل الى وصف الخلق الذي كان على متن السفينة لا بد من الوقوف عند مفردة التنور، وما المقصود منها. فالمؤرخون وكما هو شأنهم مع الأمور القابلة للرأي والاجتهاد اختلفوا بخصوص تعريفهم لمفردة التنور فمنهم من أكد انه التنور العادي الذي تستخدمه النسوة في عمل الخبز ومنهم من أكد على غير ذلك، يقول الطبري "وكان التنور الذي جعل الله تعالى ذكره آية ما بينه وبين نوح فوران الماء منه كان تنوراً لحواء من حجارة وصار الى نوح"[٧٤]. وعن ابن عباس قوله وفار التنور أي انبجس الماء من وجه الأرض والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً[٧٥].

---

[٧١] هود/٤٠.

[٧٢] الكليني، المصدر السابق، ص١٨٢.

[٧٣] الثعلبي، المصدر السابق، ص٥٩.

[٧٤] الطبري، التاريخ، المصدر السابق، ص١٨٦.

[٧٥] الثعلبي، المصدر السابق، ص٥٩.

أما قتادة فيقول: التنور هو أشرف موضع في الأرض وأعلى مكان فيها في الوقت الذي يتحدث فيه الحسن البصري عن التنور ويعرفه تعريفاً آخر فيقول: التنور هو الذي يخبز فيه وكان تنوراً من حجارة وكان لآدم ثم انتقل الى نوح[٧٦] ورواية الحسن هنا هي ذاتها رواية الطبري ولعل الأخير نقلها عنه على الرغم من انه لم يذكر سندها، وقد اختلف في المكان الذي كان به التنور فقال بعضهم كان بالهند وقال آخرون كان ذلك بناحية الكوفة، وعن مجاهد قوله: نبع الماء في التنور، فعلمت به امرأته (أي امرأة نوح) فأخبرته وكان ذلك بناحية الكوفة[٧٧].

يتحدث الامام علي (عليه السلام) عن أهمية مسجد الكوفة فيقول: هو أحد المساجد الأربعة ركعتان فيه تعادل عشراً فيما سواه من المساجد في زاويته فار التنور وفيه مصلى ادريس ونوح وابراهيم[٧٨].

أما عائدية التنور فالطبري يؤيده الثعلبي وابن الأثير يروي بأن التنور كان لامرأة نوح وهي التي أبلغته بفوران التنور[٧٩]، أما الكليني فيقول: كان التنور في بيت عجوز مؤمنة في دبر قبلة ميمنة مسجد الكوفة[٨٠].

وفي بدائع الزهور يختلف الحنفي عن أسلافه من المؤرخين أعلاه فيذكر بأن التنور كان لامرأة سام بن نوح واسمها رحمة وهو تنور مصنوع من الحجر الأسود ثم يقول: "فجاء نوح الى بيت ابنه سام وقال لزوجته: يا رحمة ان مبدأ الطوفان يكون من هذا

---

[٧٦] الثعلبي، المصدر السابق، ص٥٩.

[٧٧] الطبري، التاريخ، ج١، ص١٨٦. الثعلبي، المصدر السابق، ص٥٩. ابن الأثير، المصدر السابق، ص٧٠.

[٧٨] الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت/٦٢٦هـ)، معجم البلدان، ج٤، دار صادر بيروت، ١٩٥٥، ص٤٩٢.

[٧٩] الطبري، التاريخ، ج١، ص١٨٦. وأنظر ايضاً: الثعلبي، المصدر السابق، ص٥٩. ابن الأثير، المصدر السابق، ص٧٠.

[٨٠] الكليني، المصدر السابق، ص٢٨١.

التنور الذي تخبزين فيه فاذا رأيت التنور قد فار فأسرعي الي من وقتك وأخبريني"[٨١] ثم يقول وعندما كانت رحمة تخبز وعند آخر رغيف واذا بالماء وقد فار من التنور وهو قوله تعالى (إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ) فلما رأت رحمة ذلك صاحت الله أكبر قد جاء ما وعد الله به من العذاب وقد صدق نبي الله نوح فبادرت من حينها رحمة وأبلغت نوح بذلك[٨٢].

والعائدية هنا ضرورية بسبب كون امرأة نوح كانت كافرة كما مر بنا، وعليه فان تبليغه بفوران التنور لا بد وأن يكون من قبل امرأة متعاطفة مع دعوته ومؤمنة بها، لذلك فان عائدية التنور لاحدى كنائن نوح أو لامرأة مؤمنة كما يقول الكليني هو أقرب للحقيقة منه أن تكون عائديته لامرأة نوح ذاتها. الا اذا كانت فرضية أن يكون لنوح امرأتان صحيحة وعليه فان التي بلغته بفوران التنور هي امرأته المؤمنة.

حمل نوح معه في السفينة كما أمره الله جل في علاه من كل زوجين اثنين. يقول اليعقوبي "ولما فرغ نوح من عمل السفينة، وكان ولد قابيل ومن اختلط بهم من ولد شيث، اذا رأوه يعمل الفلك سخروا منه، فلما فرغ دعاهم الى الركوب فيها وأعلمهم ان الله باعث الطوفان على الأرض كلها حتى يطهرها من أهل المعاصي فلم يجبه أحد منهم، فصعد هو وولده الى مغارة الكنز، فحملوا جسد آدم فوضعوه في وسط البيت الأعلى من السفينة، يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من آذار، وأدخل الطير البيت الأوسط وأدخل الدواب والسباع البيت الأسفل وأطبقها حين غابت الشمس"[٨٣]. ثم أرسل الله الماء من السماء وفجر عيون الأرض، فالتقى الماء على أمر قد قدر فغطى الأرض كلها

---

[٨١] الحنفي، المصدر السابق، ص٩٩.

[٨٢] المصدر نفسه، ص٩٩.

[٨٣] اليعقوبي، التاريخ، المصدر السابق، ص١٤.

والجبال وأظلمت الدنيا وذهب ضوء الشمس والقمر[٨٤]. وبهذا يكون اليعقوبي (ت/٢٩٢هـ) قد ترك لنا منذ أكثر من ألف عام مضى وصفاً عاماً لما حدث أثناء الطوفان، أرض يابسة رغم خصوبتها، وسفينة عملاقة تشد الناظر اليها لجمالها وعظمتها، قومٌ أساءوا وهم متكبرون، وهناك من يدعو الله بكرة وأصيلاً وهم قليل، وفجأة يفور التنور، فيأخذ الكم القليل المؤمن مكانه وسط سفينة النجاة، ثم تبدأ السماء برمي قطرات الموت على الأرض لتغسلها من الخطايا والذنوب والدم المسفوك بغير حق، فتغيب الشمس ويختفي القمر، وتصبح الأرض كلها قطعة مترامية الأطراف من المياه التي غطت كل شيء واحتوت على كل شيء. أما الطبري فيقول كان أول ما حمل نوح في الفلك من الدواب الدرة* وآخر من دخل الحمار فلما دخل الحمار تعلق ابليس لعنه الله بذنبه فلم يستطع الحمار الدخول فصاح به نوح (عليه السلام) قائلاً ويحك ادخل فنهض الحمار ولم يستطع الدخول وهنا صاح نوح به ثانية ادخل وان كان الشيطان معك يقول الطبري قالها زلت عن لسانه وحينها خلى الشيطان سبيل الحمار فدخل الحمار ودخل الشيطان بعده[٨٥] ورواية الطبري هذه اختلفت بعض الشيء عن رواية الجاحظ التي نقلناها في الفصل السابق. والتي تقول ان نوحاً عليه السلام، وعندما كان الحمار واقفاً في باب السفينة يريد الدخول، قال له: ادخل يا ملعون كون الحمار كان أحد المشتبهين بمساعدة ابليس على الدخول للجنة لذلك يقال له ملعون، وبما ان ابليس كان خلف الحمار واقفاً فدخل مع الحمار، ولما رآه نوح قال له من الذي أدخلك؟ قال له ابليس، أنت، فقال له نوح: كيف؟ فأجابه قلت أدخل يا معلون، ولا يوجد ملعون غيري، لذلك دخلت[٨٦].

---

(٨٤) اليعقوبي ، التاريخ، المصدر السابق،ص١٤.

* عن ابن كثير، الدرة هي نوع من الببغاوات، ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٧٩.

(٨٥) الطبري، التاريخ، المصدر السابق، ص١٨٤، وانظر ايضاً: الثعلبي، المصدر السابق، ص٦١.

(٨٦) الجاحظ، المصدر السابق، ص٥٧.

ومهما تكن تفاصيل عملية دخول ابليس السفينة، فان دخوله لهـا لا بـد منـه لغـرض استمرارية الصراع الذي سيبقى قائماً بين ابليس وذريته وأعوانه من جهة وآدم وذريتـه والصالحين منهم بالذات من جهة أخرى فضلاً عن ذلك فان ابليس من المنظرين، أي مـن الذين سيبقون أحياءً الى يوم القيامة وكما جاء في الذكر الحكيم (قَـالَ رَبِّ فَـأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنْ الْمُنظَرِينَ)[٨٧]. يقول ابن عبـاس (رض) كـان جميـع مـن في السفينة من البشر ثمانين انساناً، أربعين رجلاً وأربعين امرأة ثم ان نوحاً حمل جسد آدم (عليه السلام) معه وجعله حاجزاً بين الرجال والنساء[٨٨].

يقول الثعلبي فلما ركب نوح في الفلك وأدخل معه كل من آمن كان ذلك بـشهر آب[٨٩] وهنا اختلف الثعلبي مع اليعقوبي الذي يقـول كمـا أسـلفنا ان بـدء الطوفـان كـان في آذار[٩٠]، ثم يواصل الثعلبي كلامه فيقول: وحينها تحركت ينابيع الأرض والغـوط الأكـبر وأمطرت السماء مطراً كأفواه القرب فكان الماء ينزل من السماء وينبع من الأرض في آن واحد حتى كثر واشتد ثم حمل الفلك وطاف به الأرض كلها في ستة أشهر وقد باد ما على وجه الأرض من المخلوقات ولم يبقَ إلا نوح ومن معه في الفلك[٩١].

اذاً فالطوفان حدث عظيم وكبير جداً وهو مرحلة انتقالية كبـيرة ومهمـة في حيـاة البشرية وقبل الطوفان حمل الملائكة البيت المعمور الى السماء السابعة صـيانة لـه مـن الغرق كما يؤكد ذلك الأزرقي في أخبار مكة[٩٢]، وقد اختلف حول الطوفان هل كان شاملاً

---

[٨٧] سورة ص الآية، ٧٩-٨٠.

[٨٨] الطبري، التاريخ، المصدر السابق، ص١٨٤، وانظر ايضاً: الثعلبي، المصدر السابق، ص٦٠.

[٨٩] الثعلبي، المصدر السابق، ص٦١.

[٩٠] اليعقوبي، التاريخ، المصدر السابق، ص١٤.

[٩١] الثعلبي، المصدر السابق، ص٦١.

[٩٢] أبي الوليد محمد بن عبد الله، (كان حياً/٢٢٣هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح، ج١، ١٩٦٥م، ص٥٣.

للأرض كلها أم لأجزاء منها[٩٣] ثم استوت السفينة على الجودي كما جاء في الذكر الحكيم (وأستَوَتْ عَلَى الجُودِيّ)[٩٤] والجودي هو جبل في الموصل كما يؤكد أغلب المفسرين، أما الكليني فيقول (وطافت السفينة بالبيت اسبوعاً ثم استوت على الجودي وهو فرات الكوفة)[٩٥]. يقول ابن سعد، (ت/ ٢٣٠هـ): عندما هبط نوح وأبناؤه والمؤمنون الذين معهم وعددهم ثمانون نفراً بنوا قرية سميت قرية الثمانين نسبةً الى العدد الكلي الموجود في السفينة، "فلما ضاقت بهم سوق الثمانين تحولوا الى بابل فبنوها وهي بين الفرات والصراة"[٩٦]، ثم تبلبلت ألسنتهم في بابل[٩٧] وكانت احداها العربية تكلمت بها العرب العاربة[٩٨] وذلك بعد ستمائة وسبعين سنة[٩٩] يقول الدينوري ثم خرجوا من أرض بابل وتوزعوا على الأرض[١٠٠].

---

(٩٣) انظر: الطباطبائي، المصدر السابق، ص٧٧-٨٥، ومن الجدير بالذكر (أن الطباطبائي يؤيد بأن الطوفان كان عاماً مستنداً بذلك على الأمر الالهي الموجه الى نوح بأن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين حيث يقول: لو كان الطوفان خاصاً بمكان معين لم تكن هناك حاجة لأن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين .وانظر ايضاً: فريزر، المصدر السابق، ص٩١-٢١٠.

(٩٤) هود/من الآية ٤٤.

(٩٥) الكليني، المصدر السابق، ص٢٨١.

(٩٦) ابن سعد، المصدر السابق، ص٤٢، وانظر: الطبري، التاريخ، ج١، ص١٨٩، والنويري، المصدر السابق، ص٤٩.

(٩٧) الدينوري، المصدر السابق، ص١.

(٩٨) البلاذري، المصدر السابق، ص٥.

(٩٩) المسعودي، علي بن الحسين، (ت/٣٤٦هـ)، التنبية والاشراف، مراجعة وتصحيح، عبد الله اسماعيل، القاهرة، ١٩٣٦، ص١٨١.

(١٠٠) الدينوري، المصدر السابق، ص٢.

الفصل الرابع
امرأتا ابراهيم - عليه السلام -

أولاً: من هو ابراهيم؟

ثانياً: سارة الزوجة الأولى

ثالثاً: هاجر الزوجة الثانية

رابعاً: اسماعيل بن هاجر

امرأتا ابراهيم (عليه السلام)

بعد أن ارسل الله جل في علاه الرسول نوح (عليه السلام) ارسل بعده النبيين العربيين هود وصالح[1] (عليهما السلام). إلا ان القرآن الكريم لم يشر الى زوجتيهما لـذلك سـوف لن تكون هناك حاجة للتطرق اليهن، وعليه سنتحول للحديث عن امرأتي ابـراهيم كـون تسلسله جاء بعد نبي الله صالح كما هو في قصص الانبياء.

لم يتطرق القرآن الى دور امرأتي ابراهيم بشكل مباشر، إلا أن حياة نبي الله ابـراهيم (عليه السلام) المملوءة بالمواقف الكبيرة، واثره الرائد بالوقوف ضد الظلـم والباطـل ومـا ترتب على ذلك من هجرته من بلده الأصلي ومسقط رأسه (العـراق) ونزوحـه الى الـشام والحجاز كما ورد في القرآن الكريم . فتح لنا نافذة توقفنا من خلالها على أهم الخطـوات التي رافقت علاقة ابراهيم بزوجتيه وما ترتب على تلك العلاقة من مواقف.

فالقرآن كان واضحاً عندما تحدث عن واحدة من نساء ابراهيم بقوله تعالى (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَـتْ يَاوَيْلَتَـا أَأَلِـدُ وَأَنَـا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)[2].

وفي مرحلة أخرى من حياة ابراهيم وهـي مرحلـة وجـوده في الحجـاز يـذكر القـرآن الكريم قولاً لابراهيم يناجي به ربه قائلاً (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَـيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ)[3].

ومن ذريتي في الآية الكريمة أعلاه واضحة، ومن للتبعـيض، أي ان بعـضاً مـن ذريـة ابراهيم أسكنها عند البيت الحرام[4] وهذا يعني فضلاً عما ورد في السنة النبويـة وكتـب

---

[1] عن الامام الصادق (عليه السلام) قوله:لم يبعث الله عز وجـل الانبيـاء العـرب إلا خمـسة وهـم هـود وصالح واسماعيل وشعيب ومحمد خاتهم صلوات الله عليهم جميعا.. التفسير المعين، المـصدر الـسابق، ص٤٧٨.

[2] هود / ٧١-٧٢.

[3] ابراهيم/من الآية ٣٧.

التاريخ والسير ان لابراهيم زوجة أخرى وهي أم ولده اسماعيل الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، في الوقت الذي كانت فيه زوجته الأولى أماً لابنه اسحق وكما جاء في القرآن الكريم أيضاً، ومن هنا سنقوم بالتطرق للفقرات التالية:

أولاً: ابراهيم -عليه السلام-

قبل أن نبدأ بالبحث في حياة واثر امرأتي ابراهيم. لا بد لنا من التوقف عند حياة بعلهما، ذلك النبي العظيم الذي اتخذه الله خليلاً له[٥] وقال عنه انه حليم وأواه منيب[٦] ومدحه في العديد من الآيات التي وردت في القرآن الكريم[٧].

وابراهيم هو "ابن تارح "(ويسمى آزر)" بن ناحور بن ساروغ ين ارعو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح"[٨]. واسم آزر هنا كما ورد في القرآن أما شارح فهو الاسم الذي جاءت به التوراة فلما صار مع النمرود قيماً على خزائن الهته

---

[٤] انظر: المحلي، جلال الدين محمد بن أحمد، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي تفسير الجلالين، تحقيق الشيخ مصطفى الحديدي، مكتبة مصر، القاهرة ١٤٠١هـ ص٢٢٤.

[٥] وكما جاء في الذكر الحكيم (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) النساء/١٢٥، وعن الامام الصادق -عليه السلام- قوله: ان الله تبارك وتعالى اتخذ ابراهيم -ع- عبداً قبل أن يتخذه نبياً وان الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً وان الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً واتخذه خليلاً قبل أن يجعله اماماً فلما جمع له الأشياء قال اني جاعلك للناس اماماً، قال فمن عظمها في عين ابراهيم، قال ومن ذريتي، قال لا ينال عهدي الظالمين. الجزائري، المصدر السابق، ص٩٤.

[٦] هود/٧٥.

[٧] ورد اسم نبي الله ابراهيم عليه السلام في القرآن خمس وستين مرة في خمس وعشرين سورة، أنظر: الطباطبائي، المصدر السابق، ص٩٧ وايضاً البدري، جمال عبد الرزاق، نبي العراق والعرب، مطبعة الدار العربية، بغداد ١٩٨٩، ص٧٣.

سماه آزر[٩] يلقب ابراهيم (عليه السلام) بـ امام الموحدين وأبو الضيفان[١٠] (اذ كـان لا يتغذى ولا يتعـشى إلا مـع ضيف وربما مشى ميلين أو أكثر حتـى يجـد ضـيفاً)[١١] وإلا نوى الصوم[١٢]. وابراهيم أول من اختتن وأول من قاتل بالسيف في سبيل الله[١٣] وهو أول من شاب رأسه فقال ما هذا؟ فقيل له: وقار في الدنيا ونور في الآخرة، وعن الامام الصادق (عليه السلام) قوله: كان الناس يموتون أول الأمر فجأة فلما كان زمن ابـراهيم -عليـه السلام- قال يا رب اجعل الموت علة يؤجر بها الميت ويسلى بها عن المصائب فـأنزل اللـه عز وجل البرسام ثم أنزل بعده الداء [١٤].

وبناء على متابعة النص القرآني الذي تحدث عـن قـصة ابـراهيم الخليـل في خمـس وعشرين سورة من سور القرآن الكريم[١٥] يمكن تقسيم حياة النبـي ابـراهيم الى ثلاثـة أقسام بثلاث مراحل تاريخية مهمة كان لكل منها دور كبير وفعل مؤثر ترك بـصماته في تاريخ البشرية الى يوم الناس هذا.

---

[٨] ابن اسحق، محمد بن اسحق بن صبار، (ت ١٥٠هـ) سيرة ابن اسحق المسماة بكتـاب المبتـدأ والبعـث والمغازي، تحقيق، محمد حميد الملـك، ص١. وانظـر ايـضاً، اليعقـوبي، التـاريخ، ص١٧-٢٤، وايـضاً المسعودي، المصدر السابق، ص٢٤. وعند الثعلبي شالخ بـن قينـان بـن ارفخـشد، الثعلبـي، المـصدر السابق، ص٧٥.

[٩] الثعلبي، المصدر السابق، ص٧٥.

[١٠] المصدر نفسه، وانظر ايضاً ابن كثير، قصص الأنبياء، ص١٢٨.

[١١] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٠١.

[١٢] ابي حيان، المصدر السابق، ص١٦٧.

[١٣] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٠١.

[١٤] الجزائري، المصدر السابق، ص٩٤.

[١٥] البدري، المصدر السابق، ص٧٣.

المرحلة الأولى:

فالمرحلة الأولى كانت مرحلة الدعوة الى الحق وهي المرحلة التي بدأت بالصراع مع الذات لاكتشاف كينونة الرب العظيم إذ بدأ ابراهيم حياته بالبحث عنه لتكون سيرته صحيحة وليتمكن من رؤية الحق ليتغلب به على الباطل الذي كان سائداً آنذاك.

لم يتحدث القرآن الكريم بشكل تفصيلي عن مكان وزمان ولادة ابراهيم -عليه السلام- إلا أن المؤرخين وبالاستعانة بمعلومات الرواة من اليهود والنصارى. أكدوا ان ولادته كانت في العراق* وتحديداً في أور أو بابل أثناء حكم الملك النمرود الذي ملك الشرق والغرب[16] وكان جباراً قاسياً عنيداً وكان فضلاً عن ذلك مهتماً بعلم النجوم حيث جلب المنجمين من آفاق الأرض[17] فقالوا له كما يقول اليعقوبي "يولد في مملكته مولود يعيب دينه ويزري عليه ويهدم أصنامه ويغرق جمعه فجعل لا يولد مولود في مملكته إلا وشق بطنه"[18]، يقول بن اسحق (ت/ ١٥٠هـ) بعث النمرود الى كل امرأة حبلى فحبسها إلا أم

---

* ذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد بسنده عن معاذ بن جبل (رض) قوله: قال النبي (ص) ((اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا في شامنا وفي يمننا وفي حجازنا)) قال فقام اليه رجل فقال: يا رسول الله وفي عراقنا، فأمسك النبي (ص)، فلما كان اليوم الثاني، قال النبي مثل ذلك، فقام اليه الرجل، فقال: يا رسول الله، وفي عراقنا، فأمسك النبي (ص) فلما كان اليوم الثالث قام اليه الرجل فقال يا رسول الله وفي عراقنا، فأمسك النبي (ص) فولى الرجل وهو يبكي، فدعاه النبي (ص) قائلاً أمِنَ العراق أنت؟ أجاب نعم فقال النبي (ص) (ان أبي ابراهيم -عليه السلام- همَّ أن يدعو عليهم فأوحى الله اليه لا تفعل فاني جعلت خزائن علمي فيهم وأسكنت الرحمة قلوبهم). الخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي، (ت/٤٦٣هـ) تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج١، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ص٢٤.

(16) الدينوري، المصدر السابق، ص٨، وانظر: بتوسع ايضاً، سليم، محمد ابراهيم، الأربعة الذين ملكوا العالم، مكتبة القرآن، القاهرة، ص٦٩-٧٩.

(17) الدينوري، المصدر السابق، ص٨.

(18) اليعقوبي، التاريخ، ص٢٣.

ابراهيم كونها كانت جارية حديثة السن لم تعرف الحبل ولم يظهر عليها[١٩] وكان اسمها اميلة ويقال اسمها بونا بنت كريتا بن كرشي من بني ارفخشد ابن سام بن نوح[٢٠] فلما دنت ولادتها وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها النمرود فيقتل ولدها، فوضعته في نهر يابس ثم لفته في خرقة ووضعته في حلفاء ورجعت فأخبرت زوجها بابنها، وانها قد ولدت وأن الولد في موضع كذا، فانطلق أبوه فأخذه ووضعه في سرداب وسد عليه الباب مخافة السباع، فكانت أمه تختلف عليه وترضعه[٢١] حتى شب بقدرة الله أسرع من غيره حيث كان يكبر في اليوم كما يكبر غيره في شهر ويكبر في شهر كما يكبر غيره في سنة[٢٢].

وحكاية النمو السريع هذه ان صحت فهي استجابة لقرار النمرود بذبح الأطفال حيث تم التعامل مع ابراهيم وهو في عمر الصبيان وكأنه مولود في فترة سابقة سبقت أمر النمرود بالقضاء على الأطفال حديثي الولادة.

وهكذا شاءت ارادة الله أن يظل ابراهيم حياً رغم ارادة الطغاة، حيث كبر وأصبح صبياً فأخذ يبحث عن الخالق بروح طيبة نقية مملوءة بالايمان يقول اليعقوبي (ت،٢٨٢هـ) "وفي ذلك العصر تعاطى الناس علم النجوم وحسبوا الكسوف للشمس والقمر والكواكب السائرة والراتبة وتكلموا في الفلك والبروج"[٢٣] .. لذلك لما خرج ابراهيم من المغارة التي حجبه بها والداه عن الأنظار وبعد أن أصبح صبياً بقدرة الله تعالى قلب طرفه في السماء قائلاً: وكما جاء في الذكر الحكيم (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ

---

[١٩] الثعلبي، المصدر السابق، ص٧٦.

[٢٠] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص١٢٨.

[٢١] الثعلبي، المصدر السابق، ص٧٦.

[٢٢] المصدر نفسه.

[٢٣] اليعقوبي، التاريخ، ص٢٣.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)[٢٤].

لقد أيقن ابراهيم ان الله اكبر من النجوم وانه حاضر لا يغيب وهو رب السموات والأرض جميعاً لذلك جاء في الذكر الحكيم (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)[٢٥].

وهكذا دخل ابراهيم صراعاً قوياً مع الباطل بدأه مع أبيه وأمه وأسرته، ثم توسعت دائرة ذلك الصراع لتشمل بيئته بأكملها. بناسها العاديين وكبرائها ورموزها وعلى رأسهم النمرود ذلك المتحزم بحزام الشيطان.

كان الناس في تلك البيئة الخصبة وفي ذلك الزمن الواغل في القدم كانوا يعبدون دون الله جلَّ في علاه أشياء ثلاثة. فئة كانت تعبد الأصنام والتماثيل الخشبية والحجرية، وفئة أخرى تعبد الكواكب والنجوم والشمس والقمر، أما الفئة الثالثة فهي التي كانت تحسب للحكام والملوك حساباً خاصاً حتى أخذت تعبدهم من دون الله[٢٦] أما ابراهيم فلم يكن يروق له فعل أي من هذه الفئات الثلاث، فبعد أن سفه عبدة الكواكب واستاء ممن يعبدون الملوك والحكام، استغل عيداً لقومه ليطيح بآمال عبدة الاصنام والتماثيل، حيث

---

[٢٤] الأنعام / ٧٥ – ٧٩.

[٢٥] الأنبياء / ٥١، يقول صاحب تفسير روح البيان (الرشد هو خلاف البغي وهو الابتداء بمصالح الدين والدنيا وكماله يكون بالنبوة)، البرسوي، اسماعيل حقي، (ت، ١١٣٧هـ)، تفسير روح البيان، ج٥، دار احياء التراث العربي، بيروت، ص٤٩٠.

[٢٦] بهجت، المصدر السابق، ص٧٦.

اعتذر عن الخروج معهم للنزهة والاستجمام وبقي في المدينة فقام بفعل خلده التاريخ وأشاد به الرب العظيم وكما جاء في الذكر الحكيم (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ)[٢٧].

تقول مصادر التاريخ: أوقد قوم ابراهيم النار بأمر من النمرود لمدة سبعة أيام وشارك بها الجميع حتى ان المرأة لو مرضت نذرت ان عوفيت لتحطبن في نار ابراهيم، وعندما اشتعلت النار صار الهواء بحيث لو مر الطير في أقصى الجو لاحترق من شدة وهجها وهنا احتار القوم بكيفية القاء ابراهيم فيها، فتمثل لهم ابليس في صورة شيخ وعلمهم صنع المنجنيق، ثم أشار عليهم بوضع ابراهيم فيه ثم رميه في النار ففعلوا ذلك[٢٨] وبينما هو في النار أدركته العناية الالهية، بقوله تعالى (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)[٢٩]. يقول ابن عباس: لولا ان الله قال وسلاماً على ابراهيم لآذى ابراهيم بردها[٣٠]. وهكذا خرج ابراهيم منتصراً مزهواً محفوفاً برعاية الرب الكريم، فأرسل اليه

---

(٢٧) الأنبياء/٥٧-٦٨.

(٢٨) الثعلبي، المصدر السابق، ص٨٠. وانظر ايضاً : ابن الأثير، المصدر السابق، ص٨٧. ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص١٣٩. د. البرسوي، المصدر السابق، ص٤٩٨.

(٢٩) الأنبياء/٦٩.

(٣٠) ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص١٤٠.

النمرود[٣١] وهو في حيرة من أمره وحاجه في ربه وكما جاء في الذكر الحكيم (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[٣٢].

وبعد هذه المناظرة تأكد النمرود من ان ابراهيم وربه على حق[٣٣] فخشي على رعيته من الايمان بدعوة ابراهيم بعد تلك المعجزة، معجزة النار التي لم تحرق سوى وثاقه[٣٤] فأمره أن يرحل عن مملكته.

المرحلة الثانية:

وهي المرحلة التي بدأت بمغادرة ابراهيم لمسقط رأسه الى الشام مع زوجته التي لم يذكر القرآن اسمها لكن المؤرخين يقولون ان اسمها (سارة)[٣٥] مع ابن أخيه النبي لوط -عليه السلام- وكما جاء في الذكر الحكيم (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[٣٦].

يقول اليعقوبي "وأمر الله عز وجل ابراهيم أن يخرج من بلاد نمرود الى الشام والأرض المقدسة، فنزح ابراهيم وامرأته سارة بنت خاران بن ناحور عمه ولوط ابن خاران، مهاجرين حيث أمرهم الله فنزلوا أرض فلسطين، وكثر ماله ومال لوط، فقال

---

[٣١] يقول السدي، ان المناظرة حدثت بين ابراهيم والنمرود يوم خرج من النار، ابن كثير، المصدر السابق، ص٤٩٩.

[٣٢] البقرة/٢٥٨.

[٣٣] انظر: اليعقوبي، التاريخ، ص٢٤، وانظر ايضاً: البرسوي، المصدر السابق، ص٤٩٩.

[٣٤] البرسوي، المصدر السابق، ص٤٩٩.

[٣٥] الدينوري، المصدر السابق، ص٨، وانظر: اليعقوبي، التاريخ، ص٢٤.

[٣٦] العنكبوت/٢٦.

ابراهيم للوط: ان الله قد كثر مالنا وماشيتنا، فانتقل منا حتى تنزل مدينة سدوم وعموره، بالقرب من الموضع الذي كان فيه ابراهيم، فلما صار لوط الى مدينة سدوم وعموره، ونزلها أتاه ملك تلك الناحية، فقاتله وأخذ ماله، فمضى ابراهيم حتى استنقذ ماله، ووسع الله عز وجل على ابراهيم في كثرة المال، فقال: رب ما أصنع بالمال ولا ولد لي؟ فأوحى الله عز وجل اليه اني مكثر ولدك حتى يكونوا عدد النجوم"[٣٧].

كانت سارة عاقر وكما جاء في الذكر الحكيم[٣٨] فتزوج ابراهيم امرأة أخرى تقول مصادر التاريخ ان اسمها هاجر[٣٩] إذ لم يذكر القرآن اسمها هي الأخرى فولدت له اسماعيل -عليه السلام- وسنتطرق الى تفاصيل هذا الموضوع لاحقاً. حيث أحدثت ولادته متغيراً كبيراً في حياة ابراهيم اذ أسره الله جل في علاه واستكمالاً لامره العظيم في الأرض أن يرحل باسماعيل وأمه الى أرض الحجاز لتبدأ من هناك مرحلة ثالثة في حياة ابراهيم.

المرحلة الثالثة:

بدأت هذه المرحلة منذ مغادرة ابراهيم وزوجته هاجر وابنهما الرضيع اسماعيل الى أرض الحجاز وكما جاء في الذكر الحكيم (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[٤٠] يقول ابن عباس: لو قال أفئدة الناس (ولم يقل أفئدة من الناس) لحنت اليه فارس والروم والناس كلهم[٤١].

---

[٣٧] اليعقوبي، التاريخ، ص٢٥.

[٣٨] الذاريات/٢٩.

[٣٩] الثعلبي، المصدر السابق، ص٨٣. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ١، ص٨٩. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١، ص١٥٣.

[٤٠] ابراهيم/٣٧.

[٤١] المحلي، المصدر السابق، ص٢٢٤.

فالحجاز كانت بالنسبة لابراهيم -عليه السلام- تشكل هاجساً كان يبحث عنه ويريد من خلال بيئته وخصوصيته ان يكون منطلقاً لاستمرار رسالته، لذلك جاء أمر الله بالمغادرة الى الحجاز ملبياً تماماً لرغبته الشخصية بأن تكون له ذرية يكون لها شأن عظيم في شبه جزيرة العرب[٤٢] لذلك شد الرحال وتوكل على الله، فالآتي من الأيام سيحقق الأمنيات وسيكون لابراهيم الذي ظل دون ولد عشرات السنين ذرية عدد النجوم، يقول أحمد بهجت: استيقظ ابراهيم ذات صباح فأمر زوجته هاجر أن تحمل ابنها الرضيع الذي لم يفطم بعد وتستعد لرحلة طويلة، قد تكون شاقة حيث أمره الله بذلك. ظل ابراهيم يسير وسط أرض مزروعة تأتي بعدها صحراء ثم تلال ووديان حتى دخل الى صحراء الجزيرة العربية وقصد ابراهيم وادياً ليس فيه زرع ولا ثمر ولا شجر ولا طعام ولا مياه فهبط من فوق دابته وأنزل زوجته وابنه مع قليل من الماء ثم استدار ليرجع، فقالت له هاجر أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه شيء؟ وهو صامت لا يتكلم ففهمت ان عمله هذا لم يكن الا أمراً من الله فسألته هل أمرك الله بذلك؟ فأجابها ابراهيم -عليه السلام- نعم. فقالت زوجته المؤمنة لن نضيع اذن ما دام الله معنا وهو الذي أمرك بهذا[٤٣].

وبالفعل لم تضيع هاجر ولا ابنها بل على العكس من ذلك تركت تلك المرأة الطيبة أثراً كبيراً في التاريخ، فكان لكل حركة تحركتها صدىً في عمق الزمن.

أما ابراهيم ذلك الشيخ الجليل فلم يترك بعضاً من ذريته بل كان مع اتصال بها، حتى أنهى تلك الرحلة العظيمة ببناء البيت العتيق، وكما جاء في الذكر الحكيم (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ

---

[٤٢] انظر: البدري، المصدر السابق، ص٦٥.

[٤٣] بهجت، المصدر السابق، ص٩٢.

السُّجُودِ)[٤٤] وكما جاء أيضاً (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)[٤٥] يقول ابن كثير، (ت/٧٧٤هـ) ان ابراهيم الخليل -عليه السلام- "بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في وادٍ غير ذي زرعٍ، ودعا لأهلها بالبركة، وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم وجود الاشجار والزروع والثمار وأن يجعله حرماً محرماً وآمناً محتماً"[٤٦].

وقبل أن ننهي الحديث عن ابراهيم لا بد من التطرق الى الصحف التي أنزلها الله عليه وكما جاء في الذكر (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)[٤٧] يقول ابو الفداء (وقد اختلف في معنى الصحف الأولى التي أنزلها الله تعالى على ابراهيم، وقد روى ابو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم انها أمثال فمنها: أيها المتسلط المغرور انني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فاني لا اردها ولو كانت من كافر، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه)[٤٨].

ثانياً: سارة الزوجة الأولى

عندما غادر ابراهيم -عليه السلام- العراق بعد مناظرته مع النمرود قال القرآن الكريم وعلى لسان ابراهيم قوله (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنْ

---

[٤٤] الحج/٢٦.

[٤٥] البقرة/١٢٧-١٢٨.

[٤٦] ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص١٧١.

[٤٧] الأعلى/١٨-١٩.

[٤٨] ابو الفداء، المصدر السابق، ص٢٤.

الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)[٤٩] ودعوة ابراهيم تلك تؤكد بما لا يقبل الشك أنه كان متزوجاً وربما قد مر عليه زمن طويل دون أن يكون قد رزق بولد لذلك دعا ربه أن يرزقه بولد صالح[٥٠].

أما زوجته فهي سارة بنت خاران بن ناحور[٥١] أما صلتها بابراهيم فقد اختلف بخصوصها المؤرخون فاليعقوبي يقول انها ابنة عمه[٥٢] أما المسعودي فيتفق مع اليعقوبي على انها ابنة عمه ولكنه يقول ان اسمها سارة بنت بتوايل بن ناحور[٥٣]. والثعلبي في قصص الأنبياء ينقل روايتين مختلفتين فيقول "وآمنت أيضاً به سارة وهي بنت عمه وهي سارة بنت هاران الأكبر عم ابراهيم عليه السلام"[٥٤] ثم ينقل عن السدي قوله "كانت سارة بنت ملك حران، وذلك ان ابراهيم ولوط عليهما السلام انطلقا قِبَلْ الشام فلقى ابراهيم سارة وهي بنت ملك حران، وكانت قد طعنت على قومها في دينهم، فتزوجها ابراهيم -عليه السلام-"[٥٥] والثعلبي هنا نقل رواية السدي عن الطبري اذ يقول ابن كثير في قصص الأنبياء قال السدي، ثم يروي الحديث اعلاه كاملاً ويعلق عليه قائلاً وقد رواه ابن جرير وهو غريب والمشهور عنها انها ابنة عمه هاران[٥٦] يؤيد هذه

---

[٤٩] الصافات/٩٩-١٠١.

[٥٠] أنظر : البغدادي، المصدر السابق، ص٣٢، وايضاً النسفي، المصدر السابق، ص٣٢.

[٥١] اليعقوبي، التاريخ، ص٢٤.

[٥٢] المصدر نفسه.

[٥٣] المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص٤٥.

[٥٤] الثعلبي، المصدر السابق، ص٨٢.

[٥٥] المصدر نفسه.

[٥٦] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص١٤٦.

الرواية ابو الفداء في أخبار البشر[٥٧] أما ابن الأثير فيؤيد رواية الثعلبي الأولى حيث يقول "وآمنت به سارة وهي ابنة عمه وهي سارة ابنة هاران الأكبر عم ابراهيم"[٥٨] الجزائري في قصص الأنبياء ينقل عن الكافي الرواية التالية بسند ينتهي الى الامام الصادق -عليه السلام- تختلف عن الروايات أعلاه يؤيده فيها صاحب تفسير الميزان، يقول الجزائري: "كان مولد ابراهيم بكوتا وهي قرية من قرى الكوفة وكان أبوه من أهلها وكانت أم ابراهيم وأم لوط أختين ابنتين للاحج .. وان ابراهيم تزوج سارة وهي ابنة خالته وكانت صاحبة ماشية كثيرة وأرض واسعة وحال حسنة فملكته ابراهيم -ع- فقام فيه وأصلحه"[٥٩].

وبهذا أصبح لدينا رأيان بخصوص صلة سارة بابراهيم، أحدهما يقول انها ابنة عمه والآخر يقول ابنة خالته، إلا أن هناك من المؤرخين من لم يتطرق الى هذه الصلة فالدينوري مثلاً يكتفي بالقول "وكان أول من آمن بابراهيم امرأته سارة وكانت من أجمل أهل عصرها"[٦٠]، أما الحنفي في بدائع الزهور فيقول: قال النمرود لابراهيم "أخرج من أرضنا لئلا تفسد علينا ديننا، فخرج ابراهيم وصحبته سارة وكانت ممن آمن به وصحبه ابن اخيه لوط -عليه السلام- وتوجه ابراهيم بها نحو أرض حوران فأوصى الله اليه أن يتزوج سارة فتزوج بها"[٦١] ثم يقول وكانت سارة ذات حسن وجمال وقد واعتدال حتى لم يكن في زمانها أجمل منها[٦٢]. اذاً فسارة (رض) رافقت ابراهيم الخليل

---

[٥٧] ابو الفداء، المصدر السابق، ص٢٣.

[٥٨] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ١، ص٨٨.

[٥٩] الجزائري، المصدر السابق، ص١٠١، وانظر ايضاً: الطباطبائي، المصدر السابق، ص١١٠.

[٦٠] الدينوري، المصدر السابق، ص٨.

[٦١] الحنفي، المصدر السابق، ص١٢٧.

[٦٢] نفسه، ص١٢٧.

-عليه السلام- منذ مراحل انطلاقته الأولى فكانت عوناً له وسنداً استطاعت بصبرها وقوة شخصيتها فضلاً عن خصائصها الذاتية الأخرى المرتبطة بالحسن والجمال ورقة النساء أن ترافق ابراهيم في حله وترحاله لتطّلع عن قرب عما كان يدور بينه وبين ربه، لذلك كرمها الله وبشرها باسحق ويعقوب واعتبرها من آل البيت الكرام وشملها برحمته وبركاته وكما جاء في القرآن الكريم (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)[٦٣].

يتحدث البدري في كتابه (نبي العراق والعرب) عن سارة بعد أن يقارن بين الحالة الأسرية للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبيه النبي ابراهيم (عليه السلام) مؤكداً بأن كلاً منهما وجد الى جانبه زوجة مؤمنة صالحة ذات أصل ومنبت طيبين، قائلاً (وسارة شخصية ذات أصل من وادي الرافدين والمشهور انها ابنة عم ابراهيم المسمى هاران .. وتتجلى صفاتها الظاهرة في القرآن الكريم على أنها سيدة شرقية عراقية الطبع والطباع، ويبدو ان سيدنا ابراهيم اقترن بها في وقت مبكر من شبابه وهو في العراق، إلا أنها لم تلد له إلا بعد أن تجاوزت سن الشباب وبمعجزة أشارت اليها الكتب المقدسة)[٦٤].

كانت سارة تتصف بثلاث صفات رئيسة وهي:

أ. جمال الشكل والصورة.

ب. قوة الشخصية.

---

[٦٣] هود/ ٧١-٧٢-٧٣.

[٦٤] البدري، المصدر السابق، ص٤٧.

ج. كانت غنية وذات ثروة وكانت تحب ابراهيم كثيراً وثقتها به عالية، هذا فضلاً عن ايمانها المبكر بدعوته وعمق علاقتها التاريخية به، لذلك كان ابراهيم يعتز بها كثيراً ويحبها حباً كبيراً، يقول ابن كثير (كان ابراهيم يحب سارة حباً شديداً لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر، فانه قد قيل لم تكن امرأة بعد حواء الى زمانها أحسن منها رضي الله عنها)[٦٥].

تعرضت سارة كما تعرض زوجها النبي ابراهيم -عليه السلام- الى الاساءة والتجريح من روايات اسرائيلية بعيدة عن المنطق اساءت لهما اساءة مباشرة، إلا أن أغلب المؤرخين وللأسف لم يشيروا الى ذلك بل نقلوا تلك الروايات على انها حقائق في الوقت الذي يشير فيه المنطق والعقل على انها روايات موضوعة لا صحة لها. ومن تلك الروايات ما يتعلق منها بوفود ابراهيم الى مصر وقوله لزوجته ان فيها ملكاً سيأخذك مني ويقتلني اذا عرف انك زوجتي فقولي له انك أختي[٦٦] ومن تلك الروايات أيضاً ما ورد في ذات المصادر من ان سارة هي التي أمرت ابراهيم بالزواج من هاجر، ثم بعد ذلك تراجعت وبعد أن ولدت هاجر اسماعيل -عليه السلام- فرضت عليه أن يبعدها عنها ويرميها في أي مكان كونها قد غارت منها ولا تستطيع أن تتحمل رؤيتها، فامتثل ابراهيم لطلبها وأخذ هاجر ورماها في الحجاز وعاد الى زوجته الأولى كونه لا يستطيع الابتعاد عنها أو مخالفة رأيها، وهذه كلها روايات تسيء الى سارة كامرأة مؤمنة وعلى دراية تامة بواجباتها الأسرية والاجتماعية من جهة وعلى أهمية اثرها وزوجها في الحياة كنبي مرسل عليه من الواجبات ما يجب أن يؤديه بالشكل الحسن. وتسيء ايضاً الى

---

[٦٥] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص١٥٠.

[٦٦] الثعلبي، المصدر السابق، ص٨٣. ابن الأثير، المصدر السابق، ص٦٨. ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص١٤٧-١٥٣. الحنفي، المصدر السابق، ص١٢٧-١٣٠.
هـ البرسوي، المصدر السابق، ص٤٩٩.

ابراهيم ذاته ذلك النبي العظيم الذي أشاد بدوره رب العرش عندما قال في محكم كتابه العزيز (وَإِبرَاهِيْمَ الَّذِي وَفَّى)[٦٧] أي قام بكل ما مطلوب منه القيام به[٦٨]. يعلق البدري على تلك الروايات الاسرائيلية قائلاً (ومما دسته الاسرائيليات من تلفيق حول دخول النبي ابراهيم الى مصر الفرعونية قضية لا تليق بالأنبياء تلك هي محاولة زواج الفرعون من سارة زوجة ابراهيم اذ نسب اليه -عليه السلام- تظاهره أمام الفرعون بأن سارة هي أخته وليست زوجته، لكي لا يأخذها الفرعون غصباً .. ولكن الفرعون ردها اليه بعد أن رأى في المنام ان سارة زوجة لرجل صالح فعاتبه وأكرم مثواه ولا نريد أن نقف أمام هذه الحادثة لأنها كما تقدم من الاسرائيليات)[٦٩] هذا رأي واحد من المؤرخين المحدثين، أما القدماء وان تأثر قسم كبير منهم بالاسرائيليات إلا ان القسم الآخر كان منصفاً ودقيقاً بنقله للأحداث، خاصة وأن القرآن كان واضحاً بثنائه على ابراهيم وتكريمه لزوجته ومن هنا فأن سير الأحداث وان لم يشر اليها القرآن بشكل تفصيلي إلا أنها كانت سليمة وواضحة ولا يمكن بأي شكل أن تكون في بعض صورها تتنافى مع عظمة وأهمية اثر ابراهيم الخليل في الحياة الاجتماعية والسياسية آنذاك، فالكليني (ت/٣٢٩هـ) يتحدث عن هذا الموضوع بطريقة أكثر موضوعية فيقول: بعد حادثة النار ومحاججته

---

(٦٧) النجم/٣٧.

(٦٨) يقول الماوردي في النكت والعيون: في شرح قوله تعالى أقاويل ستة اولهما انه وفى وعمل اربع ركعات في أول نهار كل يوم، وثانيهما انه كان يقول كلما اصبح وأمسى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون)، وثالثهما انه قام بكل ما أمره به ربه، ورابعهما تفعيلة للآية الكريمة (وَلَا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) وذلك لأنه كان بين نوح وابراهيم يؤخذ الرجل بجريرة ابنه وابيه فأول من خالفهم هو ابراهيم (عليه السلام)، وخامسهما انه ما أمر بأمر إلا أداه ولا نذر إلا وافاه، وسادسهما انه وفى فيما امتحن به من ذبح ابنه والقاءه في النار وتكذيبه من قبل قومه. الماوردي، أبي الحسن علي بن حبيب البصري، (ت، ٤٥٠هـ)، النكت والعيون، ج٤، تحقيق خضر محمد خضر، ط١، الكويت ١٩٨٢، ص١٢٩.

(٦٩) البدري، المصدر السابق، ص٥٢.

للنمرود خرج ابراهيم ومعه سارة ولوط أيضاً اذ كان لا يفارقه وقال لهم اني ذاهبٌ الى ربي سيهديني يعني الى بيت المقدس فتحمل ابراهيم بماشيته وماله وعمل تابوتاً ووضع فيه سارة وذلك غيرة منه عليها وشد عليها الأغلاق ثم مضى حتى خرج من سلطان النمرود،وسار الى سلطان رجل من القبط يقال له ((عزارة)) فمر بعاشر له فأعترضه العاشر ليعشر ما معه، فلما وصل الى التابوت قال لابراهيم: افتح لنعشر ما فيه فقال ابراهيم -عليه السلام- قل ما شئت فيه من ذهب أو من فضة حتى نعطي عشره ولا نفتحه قال: فأبى العاشر إلا فتحه قال: وغضب ابراهيم على فتحه فلما بدت له سارة وكانت موصوفة بالحسن والجمال قال له العاشر: ما هذه المرأة منك؟ قال ابراهيم -عليه السلام- هي زوجتي وابنة خالتي، فقال له العاشر فما دعاك الى اخبائها في هذا التابوت؟ قال ابراهيم: الغيرة عليها أن يراها أحد فقال له العاشر: لست أدعك تبرح حتى أبلّغ الملك حالها وحالك، قال: فبعث رسولاً الى الملك فأعلمه بذلك، فبعث الملك رسولاً منه ليأتيه بالتابوت فقال له ابراهيم: اني لن افارق التابوت حتى تفارق روحي جسدي فجاءوا جميعاً وأدخلوا على الملك، فقال الملك: افتحوا التابوت، فقال ابراهيم أيها الملك ان في التابوت حرمتي وهي ابنة خالتي وأنا مفتدٍ فتحه بجميع ما عندي قال، فلم يقنع الملك وأصرَّ على فتح التابوت، ولما رأى سارة لم يملك حلمه سفاهته فمد يده اليها، وهنا أعرض ابراهيم -عليه السلام- وجهه عنها وقال: اللهم احبس يده عن حرمتي ابنة خالتي، فاستجاب الخالق لدعوته، فلم تصل يده اليها ولم ترجع اليه حيث ظلت معلقة فقال له الملك. ان الهك هو الذي فعل بي هذا؟ فقال له ابراهيم: نعم ان الهي غيور يكره الحرام، وهو الذي بينك وبيني، فقال له الملك: فأدعُ الهك يرد عليَّ يدي فإن أجابك فلم أعرض لها، فقال ابراهيم داعياً ربه: اللهم رد اليه يده ليكف عن حرمتي: قال فرد عز وجل اليه يده، فأقبل الملك نحوها ببصره ثم عاد فمد يده ثانية، فقال ابراهيم: اللهم احبس يده عنها، فيبست يده ولم تصل اليها، فقال الملك لابراهيم: ان الهك لغيور وانك

لغيور فأدعُ الهك يرد إليَّ يدي فانه ان فعل ذلك لم أعد أبداً، فقال ابراهيم أسأله ذلك على انك ان عدت لم تسألني ان أسأله فقال له الملك: نعم، فقال ابراهيم -عليه السلام- داعياً ربه: اللهم إن كان صادقاً رد اليه يده، فرجعت اليه يده، فلما رأى الملك ذلك من الغيرة ما رأى ورأى الآية في يده كبُر ابراهيم في عينيه فأهابه وكرمه وقال له: قد آمنت من أن أعرض لها أو لشيء مما معك فانطلق حيث شئت ولكن لي حاجة، قال: ما هي، قال: أحب أن تأذن لي ان تخدمها قبطية عندي جميلة عاقلة تكون خادمة لها قال فاذن له ابراهيم، فدعا بها ووجهها لسارة وهي هاجر أم اسماعيل، يقول الكليني، فسار ابراهيم -عليه السلام- بجميع ما معه وخرج الملك معه إعظاماً لإبراهيم وهيبة له، ثم ودعه الملك حتى نزل في الشام، ثم ان ابراهيم لما أبطأ عليه الولد قال لسارة: لو شئتِ لابتعتُ منك هاجر لعل الله أن يرزقنا منها ولداً فيكون لنا خلفاً، فابتاع ابراهيم -عليه السلام- هاجر من سارة فوقع عليها فولدت له اسماعيل (عليه السلام)[٧٠]. وبعد كل ما تقدم يتبين لنا مقدار اثر تلك المرأة المؤمنة التي رافقت النبي ابراهيم منذ أن كان فتى أصر على أن يصارع الظلم، فآمنت به وعشقت مسيرته، وتعلقت بأثوابه راحلة معه أينما ارتحل، أطاعته في كل شيء ووقفت معه بروحها وقلبها، لم تغرها الدنيا، ولم يأخذها سحر جمالها بعيداً، لتبدأ رحلة من الدلال والعناد تتعب ابراهيم وتزيد من شجونه، بل على العكس من ذلك تماماً، كان جمالها عامل قوة وبناء أضاف لشخصيتها منطلقات جديدة وظفتها بكل قوة لتصب في (الدعوة الابراهيمية) التي كان لسارة أثر كبيرٌ بدفعها الى الأمام، لذلك كرمها الله حيث أخذ تبارك وتعالى بنظر الاعتبار رغباتها الأنثوية حتى فاجأها بأمر كان قبل عقود من الزمن يشكل بالنسبة لها أمنية تساوي جلَّ حياتها.

---

[٧٠] الطباطبائي، المصدر السابق، ص١١٢.

وها هي سارة بعد مائة عام من عمرها[٧١] تصبح أماً تسهر الليـالي، تحتـضن وليـدها، تشمه وتلاعبه بمشاعر ظلت حبيسة الوجدان لعشراتٍ من السنين فكـان اسـحق ولـداً ونبياً عظيماً، وكان يعقوب حفيداً ونبياً أيضاً[٧٢]، حتى غادرت سارة الدنيا، بعـد أن رأت ما تمنته وبعد أن تركت وراءها إرثاً عظيماً من المواقف النبيلة الأصيلة التي تعتز بها كل امرأة.

ثالثاً: هاجر الزوجة الثانية*

دخلت هاجر الى حياة ابراهيم في مرحلة متأخرة من حياته وبشكل مفاجئ، وسواء كانت هاجر كما تؤكد بعض مصادر التاريخ احدى جواري فرعون مصر وهبهـا لـسارة بعد أن منعه الله تعالى منها[٧٣] أو قبطية جميلة عاقلة اهداها الـسلطان "عـزارة" أحـد السلاطين الأقباط الى سارة كما يقول صاحب تفسير الميزان [٧٤] أو هي واحدة من أميرات ملوك القبط كما جاء في تاريخ الخمـيس[٧٥]، أوغـير ذلـك فهـي كانـت زوجـة صـالحة لابراهيم دخل بها ليتحقق من ذلك الدخول استجابة الله تعالى له حين دعاه ليلة خروجه

---

[٧١] المحلي، المصدر السابق، ص١٩٧.

[٧٢] المصدر نفسه.

* جاء في صحيح مسلم، عن عبدالرحمن بن شماسة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قولة: ستفتحون ارضاً يذكر فيها القيراط مأستوصوا بأهلها خيراً فأن له ذمة ورحما وفي رواية ذمة وصهراً: قـال العلمـاء المقصود بالرحموالصهر لكون هاجر ام اسماعيل منهم اي الصهر.

[٧٣] الطبري، التاريخ، جـ١، ص٢٣٠-٢٤٠. الثعلبي، المصدر السابق، ص٨٠. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ١، ص٩٠. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١، ص١٥٢.

[٧٤] الطباطبائي، التاريخ، ص١١١.

[٧٥] الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن، (ت، ٩٦٦هـ)، تاريخ الخمـيس في أحـوال أنفـس نفـيس، جـ١، مؤسسة شعبان، بيروت، ص٨٦، وانظر ايضاً: البدري، المصدر السابق، ص٥٨.

من العراق وكما جاء في الذكر الحكيم (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِي * رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)[٧٦].

اذاً فوجود هاجر في حياة ابراهيم جاء استجابة لارادة الله الذي أراد أن يبشر ابراهيم بغلام حليم تأتي به هاجر بعد أن عجزت سارة زوجته الأولى من أن تأتي له بولد كان يشكل بالنسبة له أمنية كبيرة في حياته. ولدت هاجر اسماعيل الابن البكر لابراهيم، فنشأ في كنف أبيه وأمه وزوجة أبيه الذين كانوا يشكلون عائلته الصغيرة التي رعته واعتنت به وأحبته كونه حقق للجميع حلماً طالما تمنوه، اذ ان سارة كان لها دور كبير بتشجيع ابراهيم على الزواج من هاجر يقول الثعلبي: (وكانت هاجر ذات هيئة فوهبتها سارة لابراهيم قائلة: اني أراها امرأة وضيئة، فخذها لعل الله تعالى أن يرزقك منها ولداً وكانت سارة قد مُنعت الولد حتى أسنت فوقع ابراهيم على هاجر فولدت له اسماعيل عليه السلام)[٧٧] فسارة اذا بناءً على رواية الثعلبي أعلاه كان لها دور كبير بوضع هاجر تحت ابراهيم لغرض تحقيق رغبة ابراهيم بولد صالح لذلك فان عملية مغادرة هاجر وطفلها اسماعيل الى الحجاز لم يكن لسارة ضلع فيها. ولم تأتِ بناءً على غيرتها من هاجر كما يحلو للبعض أن يؤكده باعتباره سبباً رئيساً دعا ابراهيم الى أن يأخذ زوجته وابنه الوحيد ويسكنهما في وادي غير ذي زرع[٧٨] بل هو كما تؤكد مصادر التاريخ[٧٩] أمر الهي أراد به الخالق تبارك وتعالى أن يجعل ذرية ابراهيم

---

[٧٦] الصافات/٩٩-١٠١.

[٧٧] المصدر السابق، ص٨٣، أما صاحب تفسير الميزان فيؤكد بأن ابراهيم هو الذي اشترى هاجر من سارة بقوله: (وقال ابراهيم لسارة لو شئتِ لأبتعت منك هاجر لعل الله أن يرزقنا منها ولداً)، الطباطبائي، المصدر السابق، ص١١٢.

[٧٨] اليعقوبي، التاريخ، ص٢٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ص١٥٢.

[٧٩] الثعلبي، المصدر السابق، ص٨٥. ابن الأثير، المصدر السابق، ص٩٠.

تملأ الأرض بعد أن كان لا ولد له إذ من غير المنطقي أبداً أن تأمر سارة زوجها أن يبعد عنها ذات المرأة التي زوجتها اياه لا لسبب يذكر سوى انها غارت منها، ومن غير المنطق ايضاً أن يمتثل رجلٌ كنبي الله ابراهيم، ذلك الرجل الذي يملأ قلبه الايمان والرحمة أن يبعد ابنه وحيده الذي انتظر ولادته عشرات السنين وهو طفل لايتجاوز العامين(٨٠) مع تلك المرأة الطيبة التي شاركته الفرحة بذلك الطفل الحليم أن يبعدها عن الشام الى صحراء قاحلة دون أن يكون هناك أمرٌ إلهيٌّ بذلك، يقول أحمد بهجت: لا نحسب ان ابراهيم كان يلتفت لمشاعر الغيرة الأنثوية ولا يعيرها أي اعتبار، ومن الذي يتأمل شخصية ابراهيم ينقطع بأنه لم يكن يتلقى أوامره من أحد غير الله تعالى أما سارة فأستبعد أن تكون مسؤولة عن رحلة اسماعيل وأمه الى الجزيرة العربية. تلك المرأة التي أشار الله تعالى اليها والى هاجر في كتابه العزيز عندما قال (رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) فالأمر اذاً ليس غيرة نسائية، انما هو تكليف الهي أخفيت حكمته ولعل سارة دهشت أكثر مما دهشت هاجر حين أمرها ابراهيم أن تحمل ابنها اسماعيل وتتبعه(٨١).

ذهب ابراهيم بهاجر مع رضيعها اسماعيل وأنزلهما عند الكعبة وليس بها يومئذٍ أحد وليس بها ماء(٨٢) ثم فارقهما فأخذت هاجر تمسك بأثيابه قائلةً على من تدعنا؟ فقال لها اتركم على رب هذه البنية* الذي أمرني بذلك فقالت له بكل طاعة اذن فان الله

---

(٨٠) الفاسي، محمد بن أحمد الحسني، (ت، ٨٣٢هـ) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج١، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ص١٣٣.

(٨١) بهجت، المصدر السابق، ص١٠٨.

(٨٢) الفاسي، المصدر السابق، ص١٣٣.

* والبنية، هي أثر البيت المعمور الذي بنته الملائكة قبل نزول آدم الى الأرض بألفي عام وكان عبارة عن ياقوتة حمراء من ياقوت الجنة أنزلها الله الى الأرض في مكة زمن آدم ثم رفعها الى السماء السابعة بعد الطوفان ولم يبقَ منها سوى موضعه وهي أكمة حمراء مدورة لا تعلوها السيول، وهي التي =

لن يضيعنا[٨٣] وهكذا ترك ابراهيم فلذة كبده عند البيت الحرام مع زوجة شابة مطيعة مؤمنة جميلة وعاقلة، فحزن على ما فعل حزناً عظيماً لا يقلل من قوته وطغيانه على سلوكه سوى امتثاله لأمر الله الذي بعث في نفسه السرور كونه نفذ لله أمراً لا يستطيع أحد من خلقه أن ينفذه سواه، لذلك ناجى ربه قائلاً (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ)[٨٤] ثم قال عليه السلام وكما جاء في الذكر الحكيم (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ)[٨٥]. ظلت أم اسماعيل مع وحيدها في ذلك الوادي دون رجل تأنس به وتحتمي بظله فكانت الأيام تمر عليها ثقيلة، لا يخفف من وطأتها سوى شعور صادق ملأ وجدان هاجر وخيم على روحها الطيبة، فتذكرت بأن لكل امرئٍ دور في الحياة يصغر ويكبر بناء على اهمية ذلك الدور وقدرة الانسان على أدائه وتأثير ذلك كله على مجرى الأحداث، فإطمأنت نفسها، وعاهدت ربها على أن تكون أهلاً لأداء دور أراد لها الله تعالى من خلاله أن تبقى هاجر بكل ما عانته من ألم وخوف وقلق رمزاً خالداً للمؤمنين يتحركون كما تحركت، ويصبرون كما صبرت، ويؤمنون بالقدر ويعملون بالاتجاه الذي يرضى عنه الله كما فعلت هي حين ارتقت فوق الرغبات الذاتية الضيقة حتى وصلت الى مرحلة الذوبان مع ارادة الله التي شاءت أن تكون تلك الأيام العصيبة مدخلاً لحياة أوسع يكون لابراهيم وهاجر أثرٌ تأسيسيٌّ كبيرٌ فيها، يقول صاحب كتاب العقد الثمين: فارق ابراهيم هاجر بعد أن وضع عندها جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، فجعلت أم اسماعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء حتى نفد ما في السقاء فعطشت وعطش

=أشار اليها ابراهيم عليه السلام. والناس كانوا ما بين الطوفان وبين ابراهيم يعلمون موضع البيت فكان يأتيه المظلوم والمتعوذ ويدعو عنده المكروب، راجع: ابن اسحق، المصدر السابق، ص٧٥. الأزرقي، المصدر السابق، ص٥٣.

[٨٣] ابن الأثير، المصدر السابق، ص٩٠، وانظر ايضاً: بهجت، المصدر السابق، ص٨٦.

[٨٤] ابراهيم/من الآية ٣٨.

[٨٥] ابراهيم /من الآية ٣٧.

اسماعيل فأخذت تنظر اليه وتتلوى[٨٦]، "وبينما هي كذلك فاذا بجبرائيل عليه السلام. فقال لها: من أنت؟ فقالت: سرية ابراهيم -عليه السلام- تركني وابني ههنا، قال: والى من وكلكما؟ قالت:وكلنا الى الله تعالى، قال: لقد وكلكما الى كريم كاف، ثم جاء بها وقد نفد طعامهما وشرابهما حتى انتهى بهما الى موضع زمزم، فضرب بقدمه ففارت عين زمزم، لذلك يقال لزمزم (ركلة جبريل) عليه السلام. فلما نبع الماء أخذت هاجر شنةً لها وجعلت تستقي فيها وتدخره"[٨٧] يقول ابن اسحق (ت/١٥٠هـ) "حدثنا أحمد، حدثنا يونس عن يوسف بن ميمون التميمي، عن عطاء بن أبي رياح ان انساناً سأله عن السعي بين الصفا والمروة فقال: ان هاجر لما وضعها ابراهيم هي وابنها اسماعيل، أصابها عطش شديد، حتى أوجست ان اسماعيل سيقتله العطش، فلما خشيت ذلك منه وضعته في موضع البيت وانطلقت حتى أتت الصفا فصعدت فوقه تنظر هل مات بعد أم لا، فجعلت تدعو الله تعالى له ثم نزلت حتى أتت بطن الوادي فسعت فيه ثم خرجت تمشي حتى أتت المروة فصعدت فوقها تنظر هل مات بعد أم لا، وكانا حجرين الى البيت، ففعلت ذلك سبع مرات فهذا أصل السعي بين الصفا والمروة"[٨٨].

وهكذا مرت الأيام الصعاب بموقف عظيم وقفته تلك المرأة المؤمنة وهي تمتثل لأمر الله. منفذةً اياه على أكمل صورة فكافأها الرب على صبرها والتزامها بأن جعل من

---

[٨٦] الفاسي، المصدر السابق، ص١٣٣.

[٨٧] الثعلبي، المصدر السابق، ص٨٥: ابن الأثير، له رأي آخر فيقول: لما ظمئ اسماعيل جعل يدحض الأرض برجليه فانطلقت هاجر حتى صعدت الصفا لتنظر هل ترى شيئاً، ثم انحدرت الى الوادي فسعت حتى أتت المروة فاستشرفت هل ترى شيئاً، فلم ترَ شيئاً ففعلت ذلك سبع مرات، وذلك أصل السعي، أما بخصوص بئر زمزم فيقول ثم جاءت الى اسماعيل وهو يدحض الأرض بقدميه وقد نبعت العين، وهي بئر زمزم. فأخذت هاجر تلم الماء بيديها وتجعله في سقائها فشربت منه وشرب اسماعيل، ثم يقول فقال النبي (ص) رحم الله هاجر لو تركت العين لأصبحت عيناً سائحة. ابن الأثير، المصدر السابق، ص٩٠، وانظر ايضاً: بهجت، المصدر السابق، ص١١٠.

[٨٨] ابن اسحق، ، المصدر السابق، ص٧٧.

حركاتها وانفعالاتها امراً ملزماً للأجيال اللاحقة التي تقصد الى ذات المكان حاجة ملبية لأمر الله أن تقوم به بذات الطريقة التي قامت بها أم اسماعيل وليكون ذلك الذي فجرته العناية الالهية عيناً دائمة الجريان يشرب منها عباد الرحمن تكريماً لهاجر التي هجرت أحضان ابراهيم ودفأ بيته وحنان قلبه ورقة مشاعره وايمان روحه الطيبة لتختلي باسماعيل ترضعه وترعاه وتربيه ليكون حليماً صادق الوعد ورسولاً نبياً[٨٩] ويرفع قواعد بيت الله حباً لله وايماناً به وتنفيذاً لارادته، وهكذا عاشت هاجر بين نبيين حققت لأولهما رغبة بأن يكون اباً لولدٍ صالح وساعدت الثاني على أن يشب على الايمان والقوة والصبر فلا يعصي لأبيه امراً حتى كرمه الله بأن جعل ذريته تملأ آفاق الدنيا بعد أن كان وحيداً في وادٍ غير ذي زرع جوار البيت الحرام، وليجعل منهم آخر أنبيائه ورسله مبشراً وهادياً ونذيراً ورحمة للعالمين وسراجاً منيراً، ذلك هو المصطفى محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، خاتم الأنبياء والمرسلين، وحبيب رب العالمين، حتى غادرت هاجر الحياة راضية مرضية لتلتقي بربها بعد أن أدت واجباتها على أكمل صورة حين وعت أثرها في الحياة وعلمت ان المواقف العظيمة ليست حكراً على الرجال فقط بل أن المؤمنين والمؤمنات متساوون في التكليف كما هم متساوون في الجزاء، توفيت هاجر رحمها الله قبل سارة وابراهيم[٩٠] وقبرها وقبر ابنها اسماعيل في الحجر عند الكعبة المشرفة[٩١].

رابعاً: اسماعيل بن هاجر

في المرحلة الثالثة من حياة ابراهيم كان لاسماعيل الابن البكر لابراهيم -عليهما السلام- حضور كبير فيها، فبعد ان بدأ ابراهيم مرحلته أعلاه بقرار تاريخي اصر به على أن يلبي دعوة الله، ويسكن من ذريته في الحجاز وعند البيت الحرام أناس هم كل ما يملك

---

[٨٩] مريم/من الآية ٥٤.

[٩٠] ابن الأثير، المصدر السابق، ص٩٠.

[٩١] الفاسي، المصدر السابق، ص١٣٥.

تقريباً ليقيموا الصلاة ويبنوا هناك صرحاً للتوحيد وأساساً لحياة جديدة أصبح فيها اسماعيل وبمرور الزمن في الواجهة حتى أضحى رجلاً صادق الوعد ورسولاً نبياً.

كان اسماعيل رضيعاً ليلة خروجه مع أبويه من الشام الى الحجاز(٩٢) ثم ببركة جسده الطاهر الصغير، فتح الله للعالمين بئر زمزم(٩٣) لترتوي هاجر ويرتوي اسماعيل ويتحول الوادي المقفر الى منتجع لقبائل شبه الجزيرة العربية، يقول الثعلبي .. ومرت رهطة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير على الجبل، فقالوا: ان هذا الطير لحائم على ماء، فأشرفوا فاذا هم بالماء فقالوا لهاجر: ان شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك، فأذنت لهم فنزلوا معها وهم أول سكان مكة، فلذلك كانت العرب تقول في تلبيتها:

لا هم إن جرهماً عبادك ، الناس طارق وهم تلادك ، وهم قديماً عمروا بلادك فكانوا هناك حتى شب اسماعيل وماتت هاجر فتزوج اسماعيل امرأة من جرهم وأخذ لسانهم فتعرب بهم (٩٤). فاسماعيل اذاً أول من تكلم بالعربية من ولد ابراهيم وقد سماه العرب بعرق الثرى يريدون بذلك كما يقول هشام الكلبي انه راسخ وممتد أو كما يقول آخرون سمي بذلك لأن أباه لم تضره النار كما لم تضر الثرى(٩٥).

واذا كان المؤرخون قد اختلفوا على أمور عديدة تخص حياة اسماعيل وأبيه وأمه وأم اخيه، إلا انهم ومن خلال المصادر التي راجعتها على الأقل قد اتفقوا على ان اسماعيل شب مع أبناء قبيلة جرهم العربية وتزوج امرأة منهم(٩٦).

---

(٩٢) راجع الفاسي، المصدر السابق، ص١٣٣.

(٩٣) راجع ابن الأثير، المصدر السابق، ص٩٠، وراجع أيضاً جاد المولى، المصدر السابق، ص٥١.

(٩٤) الثعلبي، المصدر السابق، ص١٨٥.

(٩٥) البلاذري، المصدر السابق، ص٦.

(٩٦) انظر: اليعقوبي، التاريخ، جـ١، ص٢٦. وانظر ايضاً: الثعلبي، المصدر السابق، ص٨٦. ابن كثير، قصص الأنبياء، ص١٥٦. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ١، ص٩٠. الحنفي المصدر السابق، ص١٣١.

احتضنت هاجر رضيعها بعد أن من عليها الله تعالى بأن جعل ذلك الوادي منطقة جذب لبعض من قبائل الجزيرة المهمة، فأخذت هاجر تتكيف مع ظروف البيئة ساعدها كثيراً على ذلك فهمها العميق لطبيعة الدور الملقى على عاتقها وهو تربية نبي عظيم لتلك القبائل التي سكنت ذلك الوادي والى قبائل أخرى في جزيرة العرب وليكون ذلك منطلقاً لتأسيس الفرع الابراهيمي ان صح التعبير في الحجاز قبل أن يؤسس ابراهيم ذاته مع زوجته الأولى الفرع الابراهيمي في الشام متمثلاً باسحق الذي ولدته سارة بعد سنوات على ولادة هاجر لاسماعيل(٩٧).

لم يتطرق القرآن الكريم الى تفاصيل تخص حياة اسماعيل الشخصية، فلم يتحدث مثلاً عن زوجته ولا أبنائه، ولم يتحدث أيضاً عن تاريخ وفاة أمه وكيف حدث ذلك، وهذا ليس غريباً فالقرآن تحدث عن العموميات فقط في كثير من الجوانب المهمة وترك التفاصيل للسنة النبوية وللمفسرين والمؤرخين، وأصحاب الشأن، إلا أن المؤرخين تحدثوا عن ذلك مستنبطين آراءهم من بعض روايات أصحاب الأديان السابقة للاسلام فضلاً عن أحاديث الصحابة التي أخذت من السنة النبوية منطلقاً لأحاديثها عن بعض خصوصيات حياة اسماعيل عليه السلام(٩٨).

(٩٧) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٤٥-٤٦.

(٩٨) يقول اليعقوبي: وكان ابراهيم يزور اسماعيل وأمه في كل وقت، وبلغ اسماعيل حتى صار رجلاً، ثم تزوج امرأة من جرهم، فزارهم ابراهيم مرة فلم يلقه، وكانت أمه قد ماتت، فكلم امرأته فلم يرضَ عقلها وسألها عن اسماعيل فقالت: في الرعي فقال: اذا جاء قولي له ان يغير عتبة بابه، فلما انصرف اسماعيل من رعيه وعاد الى بيته، قالت له زوجته، قد جاء الى هنا شيخ يسأل عنك، فقال اسماعيل: وماذا قال لك؟ قالت: قال قولي له أن يغير عتبة بابه، فقال لها، ذلك أنت وطلقها، وتزوج الحيفاء بنت رضاض الجرهمية، فعاد اليهم في الحول القادم ابراهيم مرة أخرى، فوقف عند بيت اسماعيل، فلم يجده، فكلم امرأته قائلاً كيف حالكم؟ قالت: بخير والحمد لله، فقال اين زوجك؟ قالت: ليس بحاضر انزل وتفضل. فقال لها: لا يمكنني، فقالت له وبكل احترام أعطني اذاً رأسك لأقبله، ففعل ذلك وقال لها قبل انصرافه، اذا جاء زوجك اقرأيه مني السلام، وقولي له تمسك بعتبة بابك، فلما انصرف=

وعن علاقة اسماعيل بأبيه بعد أن تركه في وادي غير ذي زرع تحدث القرآن عن حدثين مهمين في حياة اسماعيل وهما أولاً محاولة الذبح وفداؤه بذبحٍ عظيمٍ وثانيهما بناء البيت العتيق. وسنتحدث عن الاول فقط تاركين الثاني كونه بعيد بعض الشيء عن موضوع الدراسة.

محاولة الذبح:

كما أشرنا سابقا فأن المؤرخين والمفسرين اختلفوا في شخصية الذبيح[99] ومع هذا الاختلاف فأن كفة المؤيدين لاسماعيل باعتباره هو الذبيح كانت الأرجح وذلك استناداً الى ما جاء في الذكر الحكيم والسنة النبوية[100] وقصة الذبح تبدأ من خلال الرؤيا التي حدثت لابراهيم عندما رأى في منامه كأنه يذبح ابنه ولما كانت رؤيا الأنبياء* نوعاً من الوحي، فقد أدرك ابراهيم عليه السلام بأن ذلك أمر من الله عز وجل قد صدر اليه بأن يذبح ابنه، فبادر ابراهيم عليه السلام بالانصياع لما تصوره أمراً صادراً من الله اليه. فعرض الأمر على ابنه الذي انصاع بدوره الى أمر الله عز وجل ووافق أباه على أن يذبحه

=وجاء اسماعيل أخبرته امرأته بذلك، فأخذ يقبل تراب موضع قدمي والده، اليعقوبي، التاريخ، ص٢٧. وانظر ايضاً: الثعلبي، المصدر السابق، ٨٦، ابن الأثير، المصدر السابق، ص٩١، ابن كثير، قصص الأنبياء، ص١٥٦ الى ص٢٢٢ ثم يضيف ابن كثير الرواية أعلاه فيقول كان اسم امرأة اسماعيل الأولى هو عمارة بنت سعد بن أسامة ابن الجليل العماليقي، أما الثانية فكان اسمها هيفاء بنت رضاض بن عمرو الجرهمي وهي التي ولدت له اثني عشر ولداً.

[99] انظر : اليعقوبي، التاريخ، ص٢٦، الطبري، التاريخ، ج١، ص٢٤٠-٢٥٠. المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٤٦.

[100] جاء في شرح مسند أحمد بن حنبل لأحمد البنا المشهور "بالساعاتي" عن ابن عباس قوله (والذي نفسي بيده لقد كان أول الاسلام وان رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد وحش يعني يبس). الساعاتي، احمد بن عبد الرحمن البنا، بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني لترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيباني، جـ١٨، ط١، مصر ١٣٧٢هـ ص٢٥٨.

*روى عبيد بن عمير عن ابن عباس (رض) قوله : (رؤيا الأنبياء وحي)،ابن كثير، قصص الأنبياء، ص١٥٩.

قربة لله عز وجل، وما أن شرع ابراهيم عليه السلام في ذبح ابنه بالفعل، جنبه الله عملية الذبح وقدم له كبشاً ليذبحه فداء عن ولده[101] ، وقد وردت تلك الحكاية في القرآن الكريم من خلال الآيات التالية (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ)[102].

فالقرآن لم يذكر اسم الذبيح صراحة، لذلك اختلف المؤرخون، يعلق الأستاذ أحمد حسين في كتابه نبي الانسانية على رأي كل من الطبري وابن كثير في الموضوع قائلاً (اذا كان الطبري يرى ان سياق القرآن يؤدي الى أن الذبيح هو اسحق، فان ابن كثير يرى على العكس من ذلك ان سياق سورة الصافات يؤدي الى أن الذبيح هو اسماعيل، اذ بعد أن ذكرت قصة الفداء وانتهت، جاءت الآيات تقول وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين فدل على ذلك ان البشارة باسحق تالية على حادثة الفداء)[103].

النجار في قصص الأنبياء يقول: ان قصة الذبح في التوراة بطلها عند اليهود اسحق وفي اعتقادي ان لفظ اسحق حشر حشراً في مجريات القصة وذلك حرصاً من اليهود على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه وهو صغير والدليل على ان الذبيح

---

[101] حسين، أحمد، نبي الانسانية، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، مصر، ص٢٢٢.

[102] الصافات/١٠٢-١١٣.

[103] المصدر السابق، ص٢٢٤.

هو اسماعيل ومن التوراة نفسها*، وهو وصف الذبيح في التوراة بأنه ابن ابراهيم الوحيد، في الوقت الذي لم يكن فيه اسحق الابن الوحيد لابراهيم لأن اسحق ولد ولاسماعيل نحو أربع عشرة سنة، ثم يواصل النجار كلامه فيقول: ثم ان ذبح اسحق يتناقض مع الوعد الذي وعده الله تعالى لابراهيم من ان اسحق سيكون له نسل (وبشرناه باسحق ومن بعد اسحق يعقوب) هذا فضلاً عن ان عملية الذبح حدثت في مكة ومكة كانت مسكن اسماعيل وليس اسحق(١٠٤). يتحدث الماوردي عن محاولة ذبح عبد الله والد الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وكيف تم فداؤه بمائة من الإبل، ثم يعلق أخيراً على القصة بقوله (ولذلك قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنا ابن الذبيحين يعني اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام واباه عبد الله بن عبد المطلب)(١٠٥) أما ابو الطفيل والشعبي فقد أكدا على انهما شاهدا قرني الكبش في الكعبة(١٠٦) وهذا دليل على أن الذبيح اسماعيل وليس اسحق -عليهما السلام-. لقد تعامل اسماعيل مع

---

* وردت قصة الذبح في التوراة الاصحاح الثاني والعشرين نوجزها باختصار على الشكل التالي:
أ. ان الله امتحن ابراهيم، فقال له يا ابراهيم، فقال ها انذا. ب. فقال الرب خذ ابنك وحيدك الذي تحبه -اسحاق- واذهب الى أرض الموريا واصعده على محرقة على أحد الجبال الذي اقول لك. ج. فبكر ابراهيم صباحاً وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه واسحق ابنه وشقق حطباً للمحرقة وقام وذهب الى الموضع الذي قال له الرب. د. فأخذ ابراهيم حطباً ووضعه على اسحق ابنه واخذ بيده النار والسكين. هـ. ثم مد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. و. فناداه ملاك الرب من السماء وقال يا ابراهيم فقال ها انذا. ز. فقال لا تمد يدك الى الغلام ولا تفعل به شيئاً لأني علمت انك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني. النجار، المرحوم عبد الوهاب، قصص الأنبياء، ط٣، دار احياء التراث العربي، بيروت، ص١٠٢.

(١٠٤) المصدر السابق، ص١٠٢.

(١٠٥) أبو الحسن علي بن محمد البصري، (ت، ٤٥٠هـ)، أعلام النبوة، مراجعة طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧١م، ص١٧٩.

(١٠٦) ابن الأثير، المصدر السابق، ص٩٤.

عملية الذبح بطاعة كاملة والتزام خلقي، لم ينزعج، ولم يتمـرد، ولـم يحـاول تـسفيه القـضية بـأي شـكل مـن الأشـكال ليخـرج منهـا دون خـسائر. يقـول ابـن اسـحق (ت/١٥٠هـ) قال اسماعيل لأبيه: يا أبتِ إن أردتَ ذبحي فأشد رباطي كي لا يصيبك من دمي شيء فينقصُ من ذلك أجري، فان الموت شـديد، واشـحذ شـفرتك حتـى تريحنـي، وعندما تضجعني كبني على وجهي فاني أخشى ان نظرت في وجهي تأخـذك بـي رحمـة فتحول بينك وبين أمر الله، وان رأيت يا والدي (والقول لا زال لاسماعيل) ان ترد قميصي الى أمي هاجر فعسى أن يكون أسلى لها عني فأفعل ذلك، فقال ابراهيم حينذاك مستبشراً بطاعة ابنه وايمانه، نعم المعين أنت يا بني على أمر الله. يقول ابن اسحق فربطه ابراهيم كما ورد ثم حد شفرته، ثم أدخل الشفرة، ليذبحه، فقلبها الله تعالى لقفاها، ثم فعل ذلك مرة ثانية فنودي (يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا) هذه ذبيحتك فـداء لابنـك فأذبحهـا[١٠٧]. يقول ابن عباس (رض) لقد فدي اسماعيل بكبش مـن الجنـة قـد رعـى فيهـا أربعـين خريفاً، وهو ذات الكبش الذي قدمه هابيل قرباناً لله[١٠٨].

---

[١٠٧] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ١، ص٩٥.

[١٠٨] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص١٦١.

الفصل الخامس

امرأة لوط - عجوزا في الغابرين -

أولاً: من هو لوط - عليه السلام - ؟

ثانياً: قـوم لــوط

ثالثاً: امرأة لوط - عجوزا في الغابرين -

امرأة لوط – عجوزاً في الغابرين

على العكس تماماً من عمه ابراهيم، عانى لوط بن هاران من زوجته فبدلاً من أن تكون عوناً له في أداء رسالته كما هو حال زوجتي عمه سارة وهاجر كانت واعلة[1] زوجة لوط عوناً عليه اذ كرست حياتها لخدمة قومه والتفاعل معهم والتكيف مع شذوذهم متناسيةً انها زوجة نبي ويفترض أن يكون لها أثر ايجابي في الحياة يمليه عليها وضعها الأسري لذلك كانت عاملاً سلبياً في حياة لوط الاجتماعية والدينية.

وبالنظر لكون التعرض الى اثر امرأة لوط يتطلب الوقوف عند ثلاثة مفاصل رئيسة تعتبر بمثابة الوعاء الذي يحتوي القصة كاملاً وهذه المفاصل هي:

أ. التعرف على شخصية النبي لوط عليه السلام.

ب. التعرف على تصرفات وسلوكيات قوم لوط الرديئة.

ج. الوقوف عند الاثر السلبي لامرأة لوط وتأثير ذلك على الرسالة اللوطية.

لذلك سنبدأ فصلنا بالتعرف على شخصية النبي لوط أولاً:

أولاً: من هو لوط (عليه السلام)؟

ولوط هو بن هاران بن تارخ بن أخ نبي الله ابراهيم عليه السلام[2] ويقال ان لوطاً كان ابن خالة ابراهيم وصهره اذ انه كان شقيق زوجته سارة[3] وهناك من يقول انه ابن

---

[1] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٠٩.

[2] الطبري، التاريخ، ج١، ص٢٩٢. وانظر ايضاً المسعودي، مروج الذهب، ص٤٥. الثعلبي، المصدر السابق، ص١٠٥. ابن الأثير، المصدر السابق، ص٨٨. ابن كثير، قصص الأنبياء، ص١٩٢. و. الحنفي، المصدر السابق، ص١٤٣.

[3] الجزائري، المصدر السابق، ص١٢٥.

أخت ابراهيم اذ ان امه هي بنت آزر[٤] وقد سمي لوط لوطاً لأن حبه لاط بقلب ابـراهيم، يقول الثعلبي (أي تعلق به ولصق)[٥]، وتعلق ابراهيم بلوط لم يأتِ من فراغ فهـو فـضلاً عن كونه ابن أخيه كما تؤكد أغلب المصادر وصلة القرابة بينهما قوية جداً كان ايضاً أول من آمن به وهو صغير وهاجر معه حين هاجر مـن العـراق الى الـشام ورافقـه في حلـه وترحاله حتى انفصل بعد زمن طويل من الرفقة معه عند عودة الطرفين مـن مـصر الى الشام[٦] يقول اليعقوبي "وأمر الله عز وجل ابراهيم أن يخرج من بلاد نمـرود الى الـشام الأرض المقدسة، فخرج وامرأته سارة بنت خاران بن نـاحور عمـه ولـوط ابـن خـاران مهاجرين حيث امرهم الله، فنزلوا أرض فلسطين وكثر ماله ومال لـوط فقـال ابـراهيم للوط: ان الله قد كثّر لنا مالنا وماشيتنا، فانتقل منا حتى تنزل مدينتي سدوم وعمورة .. فلما نزلها أتاه ملك تلك الناحية وأخذ ماله، فمضى ابراهيم حتى استنقذ ماله"[٧].

فلوط اذن ومن خلال سير الأحداث هو ربيب البيت الابراهيمي، رباه ابراهيم واعتبره ولداً له لا سيما وان ابراهيم قد قضى وطراً طويلاً من عمره دون ولـد، لـذلك كـان لـوط يمثل ما يمكن أن يكون ولداً لابراهيم، يقول الجزائري: كان الله تعالى اذا أراد عذاب قـوم لوط أدركته مودة ابراهيم ومحبته ومحبة ابراهيم للوط فيؤخر عذابهم، لذلك عندما قرر عذابهم قضى ان يعوض ابراهيم من عذاب قوم لوط بغلام عليم فجاءه بالبشرى أولاً ثـم أبلغه بعذاب قوم لوط[٨] وكما جاء في الذكر الحكـيم (فَلَمَّـا ذَهَـبَ عَـنْ إِبْـرَاهِيمَ الـرَّوْعُ

---

[٤] الدينوري، المصدر السابق، ص٨.

[٥] الثعلبي، ، المصدر السابق، ص١٢٥.

[٦] الطبري، التاريخ، المصدر السابق، ص٢٩٣، وانظر ايضاً ابو ألفداء، المصدر السابق، ص٢٥، وايـضاً ابـن كثير، التفسير، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٣٠.

[٧] اليعقوبي، التاريخ، المصدر السابق، ص٢٤.

[٨] الجزائري، المصدر السابق، ص١٢٦.

وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)[٩]. وفي سورة العنكبوت قال تعالى (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ)[١٠]. ومجادلة ابراهيم تحدثت عنها المصادر ومنها ما نقله الثعلبي عن ابراهيم (عليه السلام) قوله للملائكة: أتهلكون قرية فيها أربعمائة مؤمن؟ قالوا لا، قال: أفتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا لا، قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا لا، قال أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً الى أن قال ان فيها لوطاً، يقول ابن عباس قالها: اشفاقاً على لوط فقالت له الملائكة نحن أعلم بمن فيها للننجَيهُ وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين[١١]. يعلق جاد المولى على الموقف أعلاه في قصص القرآن قائلاً "عظم حزن ابراهيم وأخذ يجادلهم في قوم لوط، ويرجو تأخير وتأجيل وقوع العذاب.. وقد يكون ابراهيم قد خاف أن يمس لوط بأذى، وهو مؤمن منكر لما يرتكبون، وهو لذلك ليس أهلاً للعقاب ولا مستحقاً للعذاب، فأمره الملائكة أن يهوّن على نفسه ويخفف من حزنه ويدع الانابة الى الله من أجل هؤلاء القوم الذين يصرون على المعصية ويتمسكون بالخطيئة وأنبأوه أن لوطاً لن يصيبه أذى ولن يمسه عذاب وسيكون هو واهله من الناجين إلا امرأته فان هواها معهم ورأيها تبع لرأيهم"[١٢]. كان لوط غريباً على قومه فهو لم يولد بين ظهرانيهم ولم يقضِ طفولته وصباه في مرابعهم، بل هو رسول أمين، أرسله اليهم رب العالمين، مبشراً ونذيراً. ولادته

---

[٩] هود/٧٤-٧٥.

[١٠] العنكبوت/٣١-٣٢.

[١١] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٠٦.

[١٢] جاد المولى، المصدر السابق، ص٦١.

كانت في أرض بابل مع عمه ابراهيم الخليل (عليهما السلام) ثم آمن بعمه وهاجر معه الى الشام ثم الى مصر وهناك وجدوا فرعوناً من فراعنتها ويدعى سنان بن علوان بن عبيد بن عويج بن عملان بن لاوذ بن سام بن نوح -عليه السلام- فرجعوا الى الشام فنزل ابراهيم فلسطين ونزل لوط الأردن فبعثه الله الى أرض سدوم وما يليها وكانوا أهل كفر وركوب فواحش[13].

وكما جاء في الذكر الحكيم (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ)[14].

تحدث القرآن الكريم عن لوط وعلاقته بقومه وانذاره لهم وعن طبيعة الحياة الاجتماعية والجنسية التي كانت سائدة في مجتمع القرى الخمس التي كان لوط نبياً مرسلاً لها. وذلك في العديد من سور القرآن الكريم كالأعراف والنمل والعنكبوت والشعراء والحجر والصافات وغيرها وفي سورة الأنبياء تحدث القرآن الكريم عن خصائص لوط عليه السلام الذاتية ودوره في متابعة الحياة الاجتماعية لقومه حيث قال (وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ)[15].

يقول البرسوي في تفسير روح البيان: الحكم هو ما يجب فعله ويعني ايضاً الفصل بين القوم بالحق والحكم هو أعم وأشمل من الحكمة ويعني الفهم عن الله. أما "علماً"

---

[13] الطبري، التاريخ، المصدر السابق، ص٢٩٢. الثعلبي، ، المصدر السابق، ص١٠٦. ابن الأثير، المصدر السابق، ص٨٨. ابو الفداء، المصدر السابق، ص٢٥.

[14] العنكبوت/٢٨.

[15] الأنبياء/٧٤-٧٥.

فالمقصود به العلم النافع الذي يتعلق بأمور الدين وقواعد الشرع[١٦] لذلك فان قوله (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)[١٧]. لم يكن المقصود به العشيرة أو الجماعة دون الله سبحانه وتعالى كما يتصور البعض فمقتضى المقام الذي كان يجاري فيه لوط -عليه السلام- قومه ويأمرهم بتقوى الله والاجتناب عن الفجور، وظاهر الآية الحاكية للمشاجرة التي كانت بينه وبين قومه ساعة دخولهم عليه داره ان لوطاً كان يتمنى أنصاراً أولي رشد وقوة من بين قومه أو من غيرهم ينصرونه في الدفع عن أضيافه من باب الأمر المفروض في واقع الحال، يقول الطباطبائي: ولم يكن ليغفل في أي حال من الأحوال عن ربه وان كل النصر من عنده حتى ينساه ويتمنى ناصراً غيره، وحاشا مقام هذا النبي الكريم عن مثل هذا الجهل المذموم[١٨].

دخل النبي لوط عليه السلام الى الأردن والى سدوم بالذات بالاتفاق مع عمه ابراهيم بعد عودة الطرفين من مصر كما أسلفت وقبل شروع ابراهيم بالزواج من هاجر، ثم بعد ذلك بعثه الله تعالى الى سكان تلك القرى وما حولها وهي أربع قرى صغيرة أكبرها سدوم[١٩].

يقول المسعودي: وأرسل الله تعالى لوطاً الى المدائن الخمسة: وهي سدوم وعمورة وادمونا وصاعورا وصابورا وهي بلاد ما بين تخوم الشام والحجاز مما يلي الأردن وبلاد فلسطين إلا ان ذلك في حيز الشام، فأقام فيهم بضعاً وعشرين سنة يدعوهم الى الله فلم

---

(١٦) البرسوي، المصدر السابق، ص٥٠٣.

(١٧) هود/ الآية ٨٠.

(١٨) الطباطبائي، المصدر السابق، ص١٥٠.

(١٩) الطبري، التاريخ، ج١، ص٣٠٧.، وانظر ايضاً: الثعلبي، المصدر السابق، ص١٠٧.

يؤمنوا فأخذهم على حسب ما أضر الله من شأنهم، وهم أصحاب المؤتفكة الذين ورد ذكرهم في القرآن، (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى) والمؤتفكة مشتقة من الافك وهو الكذب[٢٠].

لم يتحدث القرآن عن نهاية لوط عليه السلام، ولا عن المكان والزمان الذي عاشه بعد أن أهلك الله قومه ليلة البشرى التي تلقاها ابراهيم بولادة اسحق -عليه السلام- إلا ان المؤرخين تحدثوا عن زواج احدى بناته من أحد ابناء مدين بن ابراهيم، فكان شعيب (عليه السلام) هو أحد أحفاد بنت لوط المذكورة، والظاهر ان بنت لوط التي تزوجها كما تقول المصادر[٢١] عيفا بن ثابت بن مدين بن ابراهيم هي ليست واحدة من بنتي لوط اللتين كانتا موجودتين اثناء تدمير قرى سدوم وهن ريثا وغيثا[٢٢].

فاذا أخذنا بنظر الاعتبار الفترة الزمنية التي عاشت بها ريثا وغوثا وهي الفترة التي سبقت ولادة حتى اسحق وليس مدين الذي ولد بعد زواج ابراهيم الثالث حين تزوج من قنطورة بنت يقطين الكنعانية[٢٣] التي ولدت له مدين واخوته الخمسة وذلك بعد وفاة سارة (رض)[٢٤] حيث ان ابناء مدين وأحفاده الذي تزوج واحد منهم احدى بنات لوط هو متأخر كثيراً عن تلك الفترة الزمنية وهذا يعني اذا صحت رواية كون ابنة لوط جدة شعيب (عليهما السلام) فهذا يعني ان لوطاً عاش لفترة زمنية طويلة بعد هلاك قومه، تزوج بها وأصبحت له بنتاً أخرى تزوج بها فيما بعد أحد أحفاد مدين بن ابراهيم والله

---

(٢٠) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٤٦.

(٢١) الثعلبي، المصدر السابق، ص١٦٧ وانظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٢٠٧.

(٢٢) الثعلبي، المصدر السابق، ص١٦٧، يقول النووي في تفسيره ان بنتي لوط اسمهما زاعورا وريناً: النووي، الشيخ محمد الجاوي، (ت، ١٣١٦هـ)، التفسير المنير لمعالم التنزيل المعروف بمراح لبيد، ج٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٥٧.

(٢٣) الطبري، التاريخ، ج١، ص٣٠٩.

(٢٤) المصدر نفسه.

أعلم. أما ما يتعلق بمكان وفاته وقبره فان المؤرخين تحدثوا عن مكان مقام يحوي قبور أنبياء الله موسى ويونس ولوط (عليهم السلام) في المنطقة الغربية من القدس وأريحا في قرية فاغور ومزرعة وادي نوكين[٢٥].

ثانياً: قوم لوط

كما أشرت كان النبي لوط (عليه السلام) غريباً عن قومه وقد بعثه الله فيهم بعد أن سكن معهم في قرية سدوم في الأردن*.

كان القص القرآني واضحاً بوصفه لقوم لوط حين تحدث عنهم في عشرات الآيات من سوره المباركة واصفاً أفعالهم ومندداً بهم، ففي سورة الأعراف حدد القرآن نوع الفعل الدنيء الذي كان يشكل العمود الفقري لحياة ذلك المجتمع السلبية التي على أساسها أنزل الله عليهم العقاب وهو اللواط، عندما قال (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)[٢٦] وفي سورة هود تطرق اليهم القرآن ايضاً بالقول (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي

---

[٢٥] راجع العسلي، كامل جميل، موسم النبي موسى في فلسطين، ط١، عمان، ١٩٩٠، ص٥٧.

* في الوقت الذي يؤكد فيه اليعقوبي والطبري والثعلبي وابن كثير وغيرهم من المؤرخين بأن لوطاً كان غريباً عن قومه وهو من أهل العراق، إلا أن للدينوري رأياً آخر حيث يقول: ولوط هو ابن أخت ابراهيم اذ ان أباه من أهل سدوم، وأمه هي بنت آزر أبو ابراهيم، وانما قدم لوط الى بابل زائراً لجده آزر فآمن بابراهيم ثم أقام معه ببابل مؤازراً له على أمره، فلما خرج ابراهيم (عليه السلام) مهاجراً خرج معه لوط، فلحق بأبيه وأهل بيته في مدينة سدوم وهي منطقة واقعة بين الأردن وتخوم أرض العرب، الدينوري، المصدر السابق، ص٨.

[٢٦] الأعراف/ ٨٠-٨١.

بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)[٢٧] وفي سورة الحجر وصفهم القرآن بالمجرمين حيث قال (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ)[٢٨]. وفي سورة الشعراء يتحدث القرآن عن لوط وهو يحث قومه للحق بعد أن يوبخهم على أفعالهم فيقول (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ*إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ)[٢٩]. وهنا يتحدث القرآن عن رسل غير معلومة قبل لوط كذبها قومه ولم يمتثلوا لأمرها واستمروا على غيهم اذا ان العذاب الذي لحق بهم لم يكن بسبب تكذيبهم للوط فقط بل لتكذيبهم لأنبياء ورسل قبله .. وفي سورة النمل وصف القرآن قوم لوط بالجهل قائلاً (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)[٣٠]. والجهل هنا بمعنى السفاهة والمجون[٣١] لذلك فضلوا العمل الشنيع على ما أباح الله لهم من النساء[٣٢]. يواصل القرآن الحديث عن صفات قوم لوط السيئة وعن دور لوط بانذارهم وتوجيههم والتعامل التفصيلي مع سلوكهم الشاذ حيث يقول (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ

---

[٢٧] هود/٧٨-٧٩.

[٢٨] الحجر/٥٧-٦٠.

[٢٩] الشعراء/١٦٠-١٦٦.

[٣٠] الانبياء الآية/٥٤-٥٥.

[٣١] النووي، المصدر السابق، جـ٢، ص١٣٠.

[٣٢] الصابوني، محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مجـ٢، دار القرآن الكريم، بيروت ١٩٨٥م، ص٤١٣.

الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنكَرَ)[٣٣]. وقد كرر القرآن الحديث عن تلك الصفات في سور أخرى كالصافات والذاريات والقمر مع ذكر العقوبة التي عاقبهم الله بها كاستحقاق لتمردهم وطغيانهم، واذا أضفنا للسور أعلاه الآيتين المنوه عنهما في الفقرة السابقة المأخوذة عن سورة الأنبياء والخاصة بالثناء على لوط عليه السلام حين أبلغ عنه الله تعالى قائلاً (وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ)[٣٤]. يصبح لدينا كم من الخصائص والسمات السلبية اجتمعت في قوم عانى منهم نبيهم ما عانى حتى أخذوه أخيراً في ضيوفه الكرام، فاتيان الرجال اولى هذه الخصائص وهي الفاحشة الكبرى المعروفة باللواط، واللواط في اللغة هو الالتصاق وتعني الحب اللازق في القلب[٣٥] ولفظ اللواط يرتبط بشكل وثيق من ناحية الممارسة على الاقل وادانتها باسم النبي لوط (عليه السلام)[٣٦] فالفعل اقترن باسم النبي الذي رفض هذه الممارسة ووجه قومه بأمر الله على التخلي عنها لكنهم رفضوا فحقَّ عليهم العذاب وبقي فعلهم مرتبطاً بذلك الاسم الشريف ومشتقاً منه. أما بقية الخصائص فهي عدم الرشد والاجرام المنوه عنه في سورة الحجر والذاريات فضلاً عن تكذيبهم للرسل السابقة للوط وتجاوزهم لحدود الله وجهلهم بأمور الحياة والدين وقطعهم للسبيل واتيان المنكر في النوادي والاجتماعات وأخيراً يصف القرآن كل ذلك بالخبائث يقول البرسوي: الخبائث جمع خبيثة وهي المكروه عملها وهي الباطل في الاعتقاد والكذب في

---

[٣٣] العنكبوت/٢٨-٢٩.

[٣٤] الأنبياء الآية/ ٧٤-٧٥.

[٣٥] المنجد في اللغة، المصدر السابق، حرف اللام.

[٣٦] كمال، علي، الجنس والنفس في الحياة الانسانية، دار واسط، لندن، ١٩٨٦، ص٢٣٨.

المقال والقبيح في الفعال. والدعاء الذي يقول أعوذ بك من الخبث والخبائث أي من ذكور الشياطين واناثها والمراد هنا اللواطة التي وصفت بها قرية قوم لوط والسوء هو كل ما يعم الانسان من الامور الدنيوية والأخروية، أما المقصود بالفاسقين فهو انهماكهم في الكفر والمعاصي وتوغلهم فيهما[٣٧]. اذاً فقوم لوط كانوا عبارة عن تجمع لأناس فقدوا انسانيتهم ورسموا عبر التاريخ مشهداً غير مرغوب فيه أساءوا من خلاله لبني آدم بناة الحضارة.

فاللواط الذي أوجده قوم لوط لم يكن مألوفاً في الأقوام السابقة، فقوم نوح باعتبارهم سابقين لقوم لوط وعلى الرغم من كونهم قوماً وصفهم القرآن بالفاسقين والكاذبين والكافرين والظالمين وعلى الرغم ايضاً من حالة الفساد الاجتماعي والعلاقات غير الطبيعية التي كانت سائدة بين النساء والرجال في تلك الحقبة الزمنية كما جاء في الذكر الحكيم عندما نوه الله عن تبرج الجاهلية الأولى إلا ان تلك الاقوام لم تفعل الفاحشة وهي اتيان الذكور (اللواط) التي جاء بها قوم لوط[٣٨]. يقول الطبري: ان الله تعالى أرسل لوطاً الى أهل سدوم وكانوا أهل كفر بالله وركوب الفاحشة كما أخبر الله عنهم بالقول (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنكَرَ)[٣٩]. والسبيل هو طريق المسافر فكانوا اذا مر بهم عابر سبيل قطعوا به وعملوا به ذلك العمل الخبيث، اما اتيانهم المنكر في ناديهم فان أهل العلم اختلفوا فيه، قال بعضهم يحذفون من مر بهم

---

[٣٧] البرسوي، المصدر السابق، ص٥٠٣.

[٣٨] الثعلبي، المصدر السابق، ص٥٧، وانظر ايضاً: الآلوسي، المصدر السابق، ص١٨.

[٣٩] العنكبوت/٢٨-٢٩.

وقال البعض الآخر كانوا يتظارطون في مجالسهم وقال غيرهم، كان ينكح بعضهم البعض الآخر في نواديهم[٤٠].

ولليعقوبي رأيٌ بالموضوع فيقول (عمل قوم لوط المعاصي وكانوا يأتون الذكران من العالمين، وذلك ان ابليس لعنه الله تعالى، تراءى لهم في صورة غلام أمرد، ثم أمرهم أن ينكحوه، فاشتهوا ذلك حتى تركوا نكاح النساء، وأقبلوا على نكاح الذكران، فنهاهم لوط فلم ينتهوا، وجاروا في الاحكام حتى ضرب بهم في الجور المثل، وقالوا أجور من حكم سدوم، وكان الرجل منهم اذا نال أحداً بمكروه فضربه، أو سجّه قال له: أعطني أجراً على فعلي بك وكان لهم حاكمان يقال لهما شقري وشقروني يحكمان بالجور والظلم والعدوان)[٤١].

وعن الحسن البصري (رض): وتقطعون السبيل أي سبيل الولد باختياركم الرجال وتقطعون الناس عن الأسفار باتيان هذه الفاحشة، حيث ان قوم لوط كانوا يفعلون ذلك بالمجتازين في ديارهم فيرمون ابن السبيل بالحجارة فان اصابه الحجر كان أولى به فيأخذون ماله وينكحونه ويغرمونه ثلاثة دراهم، اما اتيان المنكر في النوادي، فيقال انهم كانوا يأتون الرجال في مجالسهم يرى بعضهم البعض دون حياء أو حشمة. وفضلاً عن ذلك فانهم قوم نجسون اذ كانوا لا يتنظفون من الغائط ولا يتطهرون من الجنابة[٤٢].

لم يكن اللواط الذي أوجده قوم لوط هو فاحشة جاءت بها تلك الأقوام دون أوليات اذ ان حكاية ابليس الواردة في رواية اليعقوبي يتعرض لها كل من صاحب تفسير الميزان والجزائري بشيء من التفصيل حيث ينقلان رواية الكليني في الكافي بسنده عن الإمام

---

[٤٠] الطبري، التاريخ، ص٢٩٣.

[٤١] اليعقوبي،التاريخ، ص٢٥.

[٤٢] الجزائري، المصدر السابق، ص١٢٦.

الصادق (عليه السلام) قوله: كان قوم لوط أفضل قوم خلقهم الله عز وجل فطلبهم ابليس لعنه الله طلباً شديداً وكان من فضلهم وخيرهم انهم اذا خرجوا الى العمل خرجوا بأجمعهم وتبقى النساء خلفهم فحسدهم ابليس على عبادتهم وكانوا اذا رجعوا خرب ابليس ما يعملون فقال بعضهم لبعض: تعالوا نرصد هذا الذي يخرب متاعنا فرصدوه فاذا هو غلام كأحسن ما يكون من الغلمان فقالوا: أنت الذي تخرب متاعنا؟ فقال نعم. مرة بعد مرة فاجتمع رأيهم على أن يقتلوه، فبيّتوه عند رجل منهم فلما كان الليل صاح فقال ما لك؟ فقال له كان أبي ينومني على بطنه فأجابه نعم نم على بطني فلم يزل بذلك الرجل حتى علمه أن يعمل بنفسه ثم انسل ففر منهم، فأصبحوا فجعل الرجل يخبر بما فعل بالغلام ويعلمهم منه شيئاً لا يعرفونه فوضعوا أيديهم فيه حتى اكتفى الرجال بعضهم ببعض ثم جعلوا يرصدون المارين في الطريق فيفعلون بهم حتى ترك مدينتهم الناس، ثم تركوا نساءهم فأقبلوا على الغلمان فلما رأى ابليس لعنه الله ان قد أحكم أمره في الرجال دار الى النساء فصير نفسه امرأة ثم قال ان رجالكم يفعلون بعضهم ببعض قلن نعم قد رأينا ذلك فما زال يوصيهن حتى استكفت النساء بالنساء[٤٣]. وهكذا ظهر اللواط والسحاق في آن واحد، وكما جاء في قول الشاعر:

شغل المرء بالبدال وأضحى	نسوة الناس شغلهم بالسحاقِ
كل جنسٍ بجنسه قد تكفى	قم فراراً من معشرِ الفسّاقِ[٤٤]

---

(٤٣) الجزائري، المصدر السابق، ص١٢٦. وانظر ايضاً: الطباطبائي، المصدر السابق، ص١٤٣.

(٤٤) الثعلبي، المصدر السابق، ص١٤٤.

لا أعرف مدى مقدار صحة الرواية أعلاه التي لم أجد في المصادر التي راجعتها ما يؤيدها فالرواية من جانب تبدو وكأنها صحيحة استناداً الى دور ابليس بإشاعة الفساد في الأرض بعد أن تحدى الله تعالى ليلة خروجه من الجنة قائلاً (فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ)[٤٥]. ومن جانب آخر تبدو على العكس من ذلك. حيث ان صفة أفضل الأقوام التي جاءت في مطلع الرواية تتناقض مع ما جاء في القرآن الكريم من أن قوم لوط كانوا يكذبون الرسل (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ)[٤٦] وهذا يعني ان رسلاً قبل لوط أرسلها الله الى هؤلاء القوم فلم يهتدوا بقولهم مما يعكس صورة سلبية عنهم تختلف عما جاء برواية الكليني، يقول الثعلبي: "أخبرنا عبد الله بن الحسين بن محمد الثقفي، أخبرنا أبو عثمان بن أحمد بن سمعان البراري، أخبرنا عبد الله بن قرطبة، أخبرنا ياسر بن ثوبة، أخبرنا محمد بن راموز، أخبرنا أبو بكر بن عياش قال: سألت ابا جعفر (وأبو جعفر هنا أظنه الامام الباقر عليه السلام): أعذب الله النساء من قوم لوط بعمل رجالهم؟ فقال: الله تعالى أعدل من ذلك، بل استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء فوجب عليهم العذاب جميعاً"[٤٧].

---

[٤٥] الأعراف/١٦-١٨.

[٤٦] الشعراء/١٦٠، يفسر بعض المفسرين قوله تعالى (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ) ان المقصود بذلك من يكذب رسولاً فقد كذب باقي الرسل وقد وردت الآية ذاتها عند الحديث عن قوم نوح وأصحاب الأيكة. انظر: النووي، المصدر السابق، ص١١٤.

[٤٧] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٠٩.

ثالثاً: امرأة لوط - عجوزاً في الغابرين-

لم تحظ امرأة نبي في الاشارة لها في القرآن الكريم كما هو الحال مع امرأة لوط - عليه السلام- والتي أشار لها القرآن في مواقع عدة، وكلها كانت سلبية اذ أنها كانت من الذين ضلوا السبيل لذلك جاءت الاشارة للتأكيد على استحقاقها للعقاب كنتيجة طبيعية لسوء الفعل الذي قامت به أولاً وللتأكيد ايضاً على عدالة السماء التي لا تميز بين امرأة نبي أو أي امرأة أخرى.

ففي سورة الأعراف اشار لها القرآن على انها الوحيدة من الأسرة اللوطية التي قرر الله انها من الغابرين لحجم الخطأ الذي ارتكبته حين قال (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ)[٤٨]. يقول الثعالبي: استثنى الله تعالى امرأة لوط من الناجين وأخبر انها هلكت مع قومها والغابر هو الباقي أي الظال في العذاب وكذلك حكى اهل اللغة غبر بمعنى بقي[٤٩].

أما في سورة هود فقد أشار لها القرآن حين تطرق الى أمر الله للنبي لوط بالسير ليلاً والرحيل عن قرية سدوم طالباً منه ومن أهله عدم الالتفات الى ما سوف يحل بقومه حين قال (قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)[٥٠].

---

[٤٨] الاعراف /٨٣.

[٤٩] الثعالبي، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٥.

[٥٠] هود/ ٨١.

وفي سورة الحجر تتكرر الاشارة ذاتها بقوله تعالى (إِلا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنْ الْغَابِرِينَ)[٥١]. وفي سورة الشعراء تعدت الاشارة هلاك امرأة لوط التي جاءت في السور أعلاه الى وصف شخصية هذه المرأة من حيث العمر حين أشار لها القرآن على انها امرأة في نهاية العمر عندما قال (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)[٥٢]. وفي سورة النمل تكررت الاشارة لها بالقول (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنْ الْغَابِرِينَ)[٥٣]. أما في سورة العنكبوت فقد تكررت الاشارة الى مصير امرأة لوط مرتين وذلك حين أشار لها القرآن بالقول (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ)[٥٤]. في سورة الصافات كرر القرآن صفة العجوز الغابرة التي ورد ذكرها في سورة الشعراء حين قال (وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ*إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ*إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)[٥٥].ونتيجة للموقف السلبي المشترك الذي وقفته كل من امرأة نوح وامرأة لوط من دعوة زوجيهما، وما قامتا به من اثر لم يكن ليتلاءم مع كونهما زوجتي نبيين أشار لذلك القرآن في سورة التحريم مقارناً بينهما وبين امرأة أخرى كان لها موقف ايجابي في الحياة على الرغم من انها كانت تعيش في اسرة يقودها واحد من أعتى طغاة التاريخ كافر وملحد أشرك بالله وأصر على كفره رغم كل الدعوات التي قدمها له نبي

---

(٥١) الحجر/٥٩-٦٠.

(٥٢) الشعراء /١٧٠-١٧١.

(٥٣) النمل /٥٧.

(٥٤) العنكبوت / ٣٢-٣٣.

(٥٥) الصافات /١٣٣-١٣٥.

الله موسى (عليه السلام) ذلك هو فرعون مصر أو ما يسمى فرعون موسى[٥٦] تمييزاً له عن الفراعنة الذين سبقوه. يقول القرآن (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْـرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِـنْ اللَّـهِ شَـيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَـوْنَ إِذْ قَالَـتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِـي مِـنْ الْقَـوْمِ الظَّـالِمِينَ)[٥٧]. يقول المفسرون: الخيانة الواردة في الآية أعلاه كانت في العقيدة أي بكفرها وليس الخيانة الجنسية أو الزوجية كما هو دارج عند الحديث عن خيانة امرأة لزوجها. فعن ابن عباس (رض) قوله (ما بغت امرأة نبي قط)[٥٨].

وبعد أن عرفنا ان الخيانة الزوجية هنا ليست بالخيانة المرتبطة بالجسد[٥٩] بل هي تلك التي كان بطلها عقل امرأة قررت أن تعيش في حالة عـداء فكـري وروحـي مـع زوجها على الرغم من كونه نبياً فحق عليها القول انها في الغابرين. فمن هي هذه المـرأة؟ وما هي أهم الخصائص والسمات التي كانت تتمتع بها، وما هي الدوافع التـي دفعتهـا للوقوف ضد زوجها في مهمته التاريخية هذا ما سنعرفه في السطور التالية.

---

[٥٦] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧٠.

[٥٧] التحريم/١٠-١١.

[٥٨] الطبري، التفسير، ج٢٨، ص١٠٩. وانظر ايضا: ابي حيان، المصدر السابق، ص٢٩٤. النيسابوري، المصدر السابق، ص١٠٩. البغدادي، المصدر السابق، ص٣٠٩. النووي، المصدر السابق، ص٣٨٨.

[٥٩] اختلف الحسن البصري عن غيره من المؤرخين والمفسرين بتأكيده ان الخيانة هنا حدثت بالكفر والزنا وغير ذلك، انظر ابي حيان، المصدر السابق، ص٢٩٤. وايضاً الجزائري، المصدر السابق، ص٧٣.

امرأة لوط اسمها واعلة ويقال هلسفع[٦٠] وهناك من يقول والعة[٦١] اما ابـن كثـير فيؤكد ان اسم امرأة لوط هو والهة[٦٢]، تزوجها لوط (عليه السلام) بعد قدومه الى سدوم والقرى المجاورة لها اذ كانت هي من سكنة تلك القرى[٦٣].

نزل لوط أرض سدوم وهو في شبابه بعد أن قضى وقتاً طويلاً لم يتزوج به قـضاه في بابل مسقط رأسه ثم أكمل رحلته مع عمه ابراهيم (عليه السلام) الى الشام ثم الى مصر ثم العودة الى الشام ثانية حتى افترق عن عمه فنزل سدوم[٦٤].

ربما تكون امرأة لوط أكبر سناً من لوط، اذ ان وصفها بالعجوز في سـورة الـشعراء يعني انها في مرحلة متأخرة من العمر تفوق عمر لوط الذي عاش في قومـه بـين سـبعة وعشرين الى الثلاثين عاماً[٦٥] فاذا أضفناه الى عمره عنـد دخولـه الى سـدوم والـذي هـو مجهول بالنسبة لنا لكون المؤرخون لم يتطرقوا اليه، إلا انه ومن خـلال سـير الأحـداث يتبين وكأنه لا يتعدى عمر الشباب فهذا يعني ان عمر لوط ليلة وصول الملائكة الى سدوم وقيامهم بهلاك قومه ربما لا يتعدى مرحلة الخمسين الى الستين عام في الوقت الذي كان فيه عمر عمه ابراهيم مائة عام[٦٦]. على الرغم من ان القرآن قد تحدث عن خيانة كل من امرأة نوح وامرأة لوط على حدٍ سواء وعن دورهما السلبي في الحياة، الا انه انفـرد بـذكر امرأة لوط دون امرأة نوح في مواضع أخرى من القرآن.

---

[٦٠] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٠٩.

[٦١] النووي، المصدر السابق، ج٢، ص٣٨٨.

[٦٢] ابن كثير، البداية والنهاية، ص١٨١.

[٦٣] الجزائري، المصدر السابق، ص١٢٧.

[٦٤] راجع الفقرة الخاصة بنبي الله لوط (عليه السلام).

[٦٥] المسعودي، المروج، ج١، ص٤٦.وانظر ايضاً الجزائري، المصدر السابق، ص١٢٦.

[٦٦] المحلي، المصدر السابق، ص١٩٧.

ففي الوقت الذي ذكر الله فيه اسم نوح في القرآن أكثر من اربعين[٦٧] مرة لم يشر الى زوجته إلا مرة واحدة هي تلك التي وردت في سورة التحريم، أما ما يتعلق بلوط فقد أشار له القرآن بحدود العشرين مرة رافقتها تسع اشارات الى زوجتـه مؤكـداً عـلى انهـا مـن الغابرين ومن المستثنين من النجاة من الأسر اللوطية[٦٨].

وكما أشرت فان امرأة لوط قد حازت على عدد كبير من الاشارات لها في القرآن فاقت بها على غيرها من نساء الأنبياء، وبالنظر لأن الاشارة كانت واضحة جـداً وهـي اشـارة سلبية أكد فيها القرآن على خيانتها وعدم ايمانها فهذا يعني ان هنـاك تفاصـيل دقيقـة لسلوكيات لم تكن مقبولة أبداً امتنع القرآن عن ذكرها مكتفياً بالاشارات العامـة التـي صدرت عنها معبراً فيها بالتأكيد عن حجم الأثر السلبي الذي تمتعت به تلك المرأة لتكون بذلك مثلاً سيئاً للمرأة التي ابتعدت عن زوجها وتركته يقاتل في الساحة لوحده ضد قـوم وصفهم القرآن بالعادين أي المتعدين على حرمات الله وحدوده، بل ولم تكتـفِ بالابتعـاد فقط بل وقفت ضده وساهمت بشكل مباشر بافـشال دعوتـه مـن خـلال مـساهمتها المباشرة بالعمل ضد توجهاته وانذاره لقومه وما يصدر عنه من كلام وفعل يريد فيهمـا تصحيح مسار الأمور بالاتجاه الصحيح. فكانت كما يؤكـد المفـسرون انهـا تخـبر عـن ضيوفه من الرجال وتتعاون مع قومها على اشاعة فاحشة اللواط في المجتمع، لذلك كان اثرها أكثر سلبية من اثر غيرها من النساء وذلك لسببين أولهمـا هـو الاشـارة الـواردة لاثرها السلبي في القرآن وثانيهما ان وضعها كامرأة نبي يفرض عليهـا اثـراً ايجابيـاً في الحياة لذلك فان تخليها عن هذا الاثر ووقوفها في خانة الكفر قد أساء لها وحملهـا اثمـاً

---

[٦٧] الطباطبائي، المصدر السابق، ص٦٠.

[٦٨] وردت الاشـارة لهـا في الـسور التاليـة، الأعـراف٨٣، هـود٨١، الحجـر٦٠، الـشعراء١٧١، النمـل٥٧، العنكبوت٣٢-٣٣ مرتين ثم التحريم١٠ والصافات١٣٥.

ربما أكثر بكثير من اثم اية امرأة اخرى لم تتمتع بموقع رائع كما هو الحال معها باعتبارها امرأة نبي. تحدث المؤرخون والمفسرون عن تصرفات امرأة لوط كثيراً وأكدوا بالاجماع تقريباً على ان خيانتها الواردة في سورة التحريم هي خيانة عقائدية، اذ لم تكن على وئام فكري مع لوط مما حدا بها للوقوف الى جانب قومه قلباً وقالباً وأمام انظاره، اذ لم تكن منافقة كما هو الحال مع امرأة نوح حينما كانت تضمر شيئاً وتظهر آخر نقيضه[٦٩] فلوط (عليه السلام) كان رجلاً سخياً كريماً يكرم الضيوف ويأويهم[٧٠] والظاهر انه قد تعلم أو اكتسب هذه الخاصية الرائعة من عمه ابراهيم (عليه السلام) الذي اشتهر بها وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من شخصيته، وبالنظر لكون قوم لوط قد جاءوا باللواط كما جاء في الذكر الحكيم حيث كانوا يلوطون بالناس حين يمرون بقرى سدوم وما جاورها، لذلك كانت امرأة لوط تخبر قومها عن ضيوف زوجها حين يبيتون عنده خوفاً من القوم الظالمين، أما عن الطريقة أو الوسيلة التي كانت تستخدمها عجوز السوء كما يسميها الطبري[٧١] فقد اختلف عليها المؤرخون*، فمنهم من يؤكد بأن الاتصال كان مباشراً اذ كانت تذهب لهم بنفسها أو ترسل اليهم رسولاً، ومنهم من يؤكد بأن هناك طرقاً ابتدعتها امرأة لوط لغرض تحقيق غرضها يقول الطبري: لما دخل الملائكة الى بيت لوط وقد كان قد أخذ على امرأته ألا تذيع شيئاً من سر ضيوفه (وهذا يعني انها كانت متواصلة على هذا الفعل) فلما رأتهم في صورة لم ترَ مثلها قط أعجبها

---

[٦٩] انظر : ابو حيان، المصدر السابق، ص٢٩٤.

[٧٠] الجزائري، المصدر السابق، ص١٢٦.

[٧١] الطبري، التاريخ، ص٣٠٢.

* يقول ابن كثير (وامرأة لوط كانت على دين قومها تمالئهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه باشارات بينها وبينهم)، ابن كثير، التفسير جـ٢، ص٢٣١.

حسنهم وجمالهم فانطلقت الى قومها وفي رواية اخرى ارسلت الى قومها قائلة لهم قد تضيف لوط قوماً ما رأيت أحسن منهم وجوهاً وأشد منهم بياضاً وأطيب ريحاً، فاختلفوا يهرعون حتى غشوا دار لوط من كل ناحية فقال لهم لا تفضحوني في ضيفي وأنا أزوجكم بناتي هن أطهر لكم فأبوا ذلك فكان من أمرهم ما كان[٧٢].

الثعلبي له رأي آخر بخصوص علاقة امرأة لوط بقومها والطرق التي كانت تتبعها في توصيل اخبارها اليهم فيقول كان لها رسول ترسله الى قومها يقول لهم ((هيئوا لنا ملحاً)) وهذه الجملة كانت بمثابة كلمة السر بين الطرفين المقصود منها حسب الاتفاق بينهم ان في بيت لوط أضيافاً تدعوهم هي بدورها الى الفاحشة معهم وهي اللواط بهم يقول الثعلبي (فبلغنا ان الله تعالى مسخها ملحاً)[٧٣]. وعن الامام الصادق (عليه السلام) سئل يوماً عن الكيفية التي يعلم بها قوم لوط بأن عند لوط ضيوفاً فقال ان امرأته كانت ((تصفر)) في اشارة الى قومها بأن لدى زوجها ضيوفاً فيفهمون مرادها لذلك كره التصفير[٧٤]. أما صاحب تفسير الميزان فينقل عن الكليني في الكافي بسنده عن ابي يزيد الحمّار عن الامام الباقر (عليه السلام) قوله "فأتوا يعني الملائكة لوطاً وهو في زراعة قرب القرية فسلموا عليه وهم معتمون فلما رأى هيئة حسنة عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قال لهم: المنزل فقالوا: نعم. فتقدمهم ومشوا خلفه فندم على عرضه المنزل عليهم فقال أي شيء صنعت؟ آتي بهم قومي وأنا أعرفهم؟ فقال: انكم لتأتون شراراً من خلق الله، قال جبريل: لا تعجل عليهم حتى يشهد عليهم ثلاث مرات فقال جبريل: هذه واحدة فمشى ساعة ثم التفت اليهم فقال: انكم لتأتون شراراً من خلق الله فقال جبريل هذه

---

[٧٢] الطبري، التاريخ، ج١، ص٣٠٠-٣٠٥.

[٧٣] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٠٧.

[٧٤] الجزائري، المصدر السابق، ص١٢٩.

اثنان، ثم مشى فلما بلغ باب المدينة التفت اليهم ثم قال: انكم لتأتون شراراً من خلق الله فقال جبريل: هذه الثالثة"[٧٥]؟ يقول الثعلبي بسنده عن قتادة راوياً عن حذيفة "بأن الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم اربع شهادات"[٧٦]، يواصل الطباطبائي روايته فيقول: ثم دخلوا جميعاً للمنزل فرأتهم امرأة لوط على هيئة حسنة فصعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمع قومها تصفيقها فأخذت تشعل النار لغرض الدخان فلما زاد الدخان أقبلوا يهرعون حتى جاءوا الى باب المنزل فنزلت اليهم وقالت لهم: عندنا قوم ما رأيت قط قوماً أحسن منهم هيئة[٧٧]، وهنا ينقل الطباطبائي طريقة جديدة من الطرق التي كانت تستخدمها امرأة لوط لتوصل ما تريد توصيله الى قومها وهي طريقة تبدو انها علنية نستنتج من خلالها مدى جرأة هذه المرأة على الفعل المتناقض مع فكر زوجها وارادته.

ان ما تقدم يعطينا دليلاً واضحاً على مدى تمرد امرأة لوط على زوجها، اذ كانت واعية تماماً لما تقوم به وكانت تترجم خلافها الفكري مع لوط الى واقع ملموس متحديةً به لوطاً وبشكل مباشر.

وهنا يتساءل البعض عن سر هذا الاختلاف ودوافعه، قائلين لماذا تصر امرأة لوط على تحدي زوجها؟ وما هي الدوافع الكامنة وراء ذلك؟ خاصةً اذا أخذنا بنظر الاعتبار ان مسألة الاختلاف غريزية في أكثر جوانبها وضوحاً، صحيح ان هناك سلوكيات رديئة في جوانب أخرى كان يأتي بها قوم لوط، إلا أن اللواط والسحاق وما

---

[٧٥] الطباطبائي، المصدر السابق، ص١٤٦.

[٧٦] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٠٧.

[٧٧] الطباطبائي، المصدر السابق، ص١٤٦.

يتعلق بالغريزة الجنسية كانت بمثابة العمود الفقري للسلوك الجمعي في المجتمع السدومي آنذاك والذي نوه عنه القص القرآني بشكل واضح ومباشر.

وفي المجتمعات السليمة يشكل هذا السلوك مصدر قلق بالنسبة للنساء، فالمتعارف عليه انهن يتحاشين الحديث عنه او المساعدة على اتيانه او اتيانه على الأقل بشكله العلني، فكيف بامرأة نبي تعمل المستحيل من أجل ان تتحدى زوجها أولاً ومن ثم تهيئ لقومها طريقاً سهلاً للقيام به كنتيجة تطبيقه لذلك التحدي .. مع علمها بأن الموضوع يمس أخلاق الانسان ويتعامل بالمباشر مع الجانب الوجداني لحياته من خلال قيمة الشرف التي تعتبر من القيم العليا والمهمة في حياة الناس.

فهل يحق القول بأنها كانت تخون زوجها خيانة بالجنس والكفر وغير ذلك كما يؤكد الحسن البصري[٧٨]، بالشكل الذي جعلها تتعاطى مع الموقف بشكل علني دون حياء أم ان شيوع الفاحشة في تلك القرية والقرى المجاورة لها جعل الجميع يتعامل مع هذا الفعل الدوني بشكل طبيعي دون حرج كما هو الحال مع الحالات العامة التي تتعامل معها المجتمعات بشكل نسبي فما هو نشاز ومخل بالشرف والأخلاق في مجتمع ما ليس بالضرورة أن يكون قد أخذ ذات الصفة في مجتمعات أخرى تستند بتعاملها مع بعضها البعض ومع الآخرين على قيم وأعراف خاصة بها، واذا كان الأمر كذلك أي ان شيوع الفاحشة أسقط عن المتعاملين بها والمتحدثين عنها ثوب الحياء والخجل، فلماذا تصر امرأة لوط على موقفها من زوجها بالذات؟ وما مقدار الفائدة التي تجنيها من ذلك الشرخ الذي أحدثته بالأسرة اللوطية من جهة ومن ذلك التعلق الكبير بقومها من جهة أخرى، خاصة وأن المؤرخين تحدثوا عن كونها خرجت مع زوجها ليلة هلاك قومها وعند

---

[٧٨] الطبري، التفسير، ج٢٨، ص١٠٦. أبو حيان، المصدر السابق، ص٢٩٤.

سماعها للصوت الهائل الذي أحدثته عملية الهلاك التي قام بها الملائكة الكرام صاحت بأعلى صوتها واقوماه[٧٩]. ما سر تعلقها بقومها في الوقت الذي كانوا فيه في حالة خراب نفسي وروحي وفكري مباشر مع زوجها وأسرتها المؤلفة فضلاً عن زوجها من ابنتيها ريثا وغيثا[٨٠]؟

عندما اختلف الناس رجالاً ونساءً على عبادة الأصنام وطريقة الوصول الى الله ومعرفة ذاته العظيمة مع كثير من الأنبياء، فهذا أمرٌ ربما فيه شيء من الوضوح نوعزه بشكل أو بآخر الى العقل وما يترتب على ذلك من ادراك للمسميات عن طريق شيوع الأفكار والرؤى التي يختلف بها أبناء آدم مع بعضهم.

وهذا ما لا ينطبق بطبيعة الحال على علاقة امرأة لوط بزوجها، اذ كان الخلاف معه وان كان فكرياً في أساسه إلا أن التطبيق الميداني المتمثل باللواط وبقية الفواحش كانت هي المحك الرئيسي الذي تجلت عنه صورة العلاقة المشوهة بين لوط وزوجته من جهة وبين زوجته وقومها من جهة أخرى، اذ تعتبر علاقة زوجة لوط بقومها مشوهة من وجهة نظر العلاقات الاجتماعية السليمة.

لم يتحدث المؤرخون وخاصة الكبار منهم عن ان لوط (عليه السلام) كانت له امرأتان اذ لم يتطرق القرآن الى ذلك ولا السنة النبوية، إلا أن النووي في تفسيره[٨١] قال ان للوط امرأتين احداهما مؤمنة والأخرى كافرة، وقد ذكر القرآن الكافرة وعدها من الغابرين ولم يتطرق الى المؤمنة اذ كان دورها طبيعياً، ومن خلال سير الحدث التاريخي أتوقع ان رواية النووي صحيحة اذ من خلالها وفي رأيي المتواضع قد تم رسم هذه

---

[٧٩] الطبري، التاريخ، ج١، ص٣٠٢. ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٠٠.

[٨٠] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٠٧.

[٨١] النووي،المصدر السابق، ج٢، ص١١٥.

الصورة غير الطبيعية لعلاقة امرأة نبي بزوجها النبي، فمن الممكن أن تكون امرأة لوط الكافرة هي امرأته الأولى وكانت على درجة من الخلق الذميم وربما كانت غير جميلة وعاقراً في نفس الوقت مما حدا بلوط بأن يقترن بغيرها، وربما كان ايضاً في تركيبتها الداخلية شيء من الرجولة الظاهرة للعيان أي انها (امرأة مسترجلة) وهذا ما نجده عند بعض من النساء وكذلك الرجال ايضاً فهناك نساء مسترجلات وهناك رجال متخنثون وهذا ما انعكس على سلوكها الاجتماعي فأخذت تميل في رغباتها الجسدية الى جنس الرجال للتشابه بينهما في بعض المزايا، عمق لديها ذلك الفعل زواج لوط من غيرها مما جعلها تشعر بالاحباط والانعزال داخل الأسرة فأخذت تنتقم من لوط بطريقة تصورتها هي صحيحة وبدوافع كانت خليطاً من الغيرة والحسد ورغبات نفسية مصدرها الغريزة.

وقد تحدث علماء النفس المعاصرون عن امكانية وجود عقل ذكري الوظيفة يحتل جسد الأنثى أو العكس متحدثين عن نساء تحولن الى رجال بعد أن ظهرت عليهن علامات بيولوجية من خلال بروز الشعر في الصدر والبطن وتغير في الصوت والمزاج مع ظهور سلوكيات عدوانية واضحة، وهناك من العلماء من يعتقد بأن كل كائن انساني يتراوح بين الذكر والأنثى وهذا ما يطلق عليه بثنائية الجنس وان ما يحدث بعد ذلك هو غلبة طرف على الآخر، وهذا يعني بأن تغلب جنس الانثى يؤدي الى كبت الجنس الذكري في الانسان والعكس صحيح وتظل قوته كامنة في اللاشعور، تظهر حين توفر الظروف المساعدة لها[٨٢] والظروف البيئية التي كانت سائدة آنذاك في المجتمع السدومي حيث انتشار اللواط والسحاق وعدم اتفاق والهة كما يسميها ابن كثير[٨٣] مع زوجها في نبذه

---

[٨٢] كمال، المصدر السابق، ص٤٠.

[٨٣] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص١٨١.

لتلك الأفعال كان عاملاً قوياً لاظهار ما مكبوت في لاوعيها مما أعطاها دفعة أخرى للمضي قدماً في مشروعها الخاص بافشال الدعوة اللوطية.

وهذا الأمر يؤكد ما ذهبنا اليه أعلاه وربما يكون قد دفع بامرأة لوط الى التعامل مع الشذوذ العام الذي ظهر جلياً في المجتمع كونه جاء ملبياً لرغباتها النفسية فوقفت بقوة ضد توجهات زوجها الداعية الى ترك ذلك الفعل لعدم انسجامه مع مبادئ السماء.

اذاً فنحن أمام خليط من الأسباب الاجتماعية والنفسية والفسلجية كانت بمثابة دوافع قوية حملت تلك المرأة التي ربما من زمن متقدم وهي تتعامل مع زوجها بطريقة أدت بها الى الهلاك.

أما ما يتعلق بالعمر والذي تمت الاشارة اليه سابقاً، فقد جاءت عملية الوقوف عنده من خلال القرآن الكريم الذي أشار لامرأة لوط على أنها عجوز في الغابرين في سورتي الشعراء[٨٤] والصافات[٨٥]، والعجوز هنا تعني المرأة الكبيرة في العمر في الوقت الذي لم يشر فيه القرآن بأن لوط (عليه السلام) كان شيخاً كبيراً ليناسب امرأته في العمر. كما جاء في الاشارة التي وردت بخصوص سارة وزوجها ابراهيم في سورة هود عندما وصفها القص القرآني بالقول (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۞ قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)[٨٦]. اذاً فالعجوز هنا قابلها شيخ كبير هو أكبر منها سناً حيث كان عمر سارة تسعين عاماً

---

[٨٤] الشعراء/٦٠.

[٨٥] الصافات/١٣٥.

[٨٦] هود/٧١-٧٢.

وابراهيم (عليه السلام) مائة وعشرين عاماً[٨٧]. ثم ان هناك مسألة أخرى وهي وصف سارة بأنها عجوز كان في نفس الوقت الذي وصف فيه القرآن امرأة لوط بالعجوز كون البشرى التي تلقتها سارة باسحق كانت ليلة هلاك قوم لوط وهذا دليل على ان امرأة لوط كانت متقدمة بعمرها وربما يصل بها الى مبلغ عمر سارة في الوقت الذي تظهر فيه الأحداث ان لوطاً وهو ابن أخ ابراهيم كان أصغر من ذلك بكثير. وعليه فأن الفارق في العمر بين الطرفين (لوط وامرأته) خلق لدى امرأة لوط شعوراً داخلياً بتحدي لوط خاصة وانها لم تتفق معه فكرياً اذ ان عدم التقارب الفكري عزز لديها الشعور بالتمرد أولاً ثم الوصول ثانياً الى حالة السيطرة التامة عليه مستقبلاً للتقليل من أهميته وسطوته ساعدها على ذلك ما تتمتع به من زمن مضاف استثمرته لصالحها مستغلة كون لوط غريباً عن القرية، اذ ربما كان لها قوم وعشيرة تتمتع بالقوة في الوقت الذي لم يكن للوط الشيء ذاته. وهذه كلها أو جلها أسباب كانت وراء ذلك الموقف العدائي الذي اتخذته امرأة لوط من زوجها والله أعلم.

بقي أن نذكر بأن امرأة لوط قد هلكت مع قومها وقد تحدثت مصادر التاريخ عن ذلك بالتفصيل حيث رفع جبرائيل بجناحيه القرى الخمس وقلب عاليها سافلها، يقول الطبري: حدثنا ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن محمد بن كعب القرظي قوله: "حُدثت ان الله تعالى بعث جبرائيل الى المؤتفكة وهي قرية قوم لوط التي كان لوط فيهم، فاحتملها بجناحيه ثم أصعد بها حتى ان أهل السماء الدنيا يسمعون نائحة كلابها وأصوات دجاجها ثم كفاها على وجهها ثم أتبعها الله عز وجل بالحجارة بقول الله تعالى (جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) فأهلكها الله تعالى وما حولها

---

[٨٧] ابن الأثير، المصدر السابق، ص٩٨، ومن المفسرين من يؤكد بأن عمر سارة كان تسعة وتسعين عاماً، انظر المحلي، المصدر السابق، ص١٩٧.

من المؤتفكات وكن خمس قريات: أصبعة وصعرة وعـرة ودومـا وسـدوم هـي القريـة العظمى، ونجى الله تعالى لوطاً ومن معه من أهله إلا امرأته كانت فيمن هلك"[٨٨].

وهكذا انتهت امرأة لوط مع قومها الذين كانوا بالنسبة لها أغلى من لوط وأكثر قرباً اليها منه ثم انمحت مدنهم وأسماؤهم من الأرض، سقطوا من ذاكـرة الحيـاة والأحيـاء وطويت بذلك صفحة من صفحات الفساد على الأرض، يقول أحمد بهجت "قال العلماء: ان مكان المدن السبع بحيرة غريبة ماؤها أجاج وكثافة الماء فيها أعظم من كثافة ميـاه البحر المالحة وفيها صخور معدنية ذائبة توحي بأن الحجارة التي ضرب الله بهـا قـوم لوط كانت شهباً مشتعلة وهذه البحيرة تسمى اليوم بالبحر الميت الذي يفصل الأردن عن فلسطين"[٨٩]. قال تعالى (وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ)[٩٠].

---

[٨٨] الطبري، التاريخ، ج١، ص٣٠٧.

[٨٩] بهجت ، المصدر السابق، ص١٠٧.

[٩٠] الذاريات/٣٧.

الفصل السادس

امرأة يوسف ـ عليه السلام ـ

أولاً: من هو يوسف ؟
ثانياً: امرأة يوسف ـ زليخا عاشقة النبوة ـ

امرأة يوسف (عليه السلام)

لقد تطرق القرآن الكريم في سورة يوسف الى امرأة العزيز، وهو يتحدث عن يوسف (عليه السلام) عشية دخوله الى مصر وشراء عزيز مصر له حيث طلب من زوجته أن تكرم مثواه، ثم تطرق بعد ذلك وفي سياق سرده للقصة الى المواقف اللاحقة ومنها مراودة امرأة العزيز له وامتناعه هو عن مقابلتها بالمثل .. حتى اعلانها أمام الملأ براءة ساحة يوسف من الفعل السيء، لكن كل ذلك حدث وتلك المرأة التي لم يذكر اسمها القرآن كانت امرأة لعزيز مصر، ولم يشر القرآن أبداً الى زواج يوسف منها فيما بعد. اذ تجاهلها القص القرآني حتى نهاية القصة، لكن المؤرخين والمفسرين والذين تم الرجوع الى نتاجاتهم الفكرية أكدوا على أن يوسف قد تزوج بامرأة العزيز بعد وفاة زوجها، لذلك ارتأينا أن نتطرق لها لأهمية قصة يوسف وما جاءت به من حكم ومواعظ وعبر لها من الفوائد الشيء الكثير من جهة ولكونها أعطت صورة واضحة لطبيعة الحياة الاجتماعية وأثر المرأة فيها لا سيما في المجتمع المصري في سالف الزمان من جهة أخرى ولغرض أن يكون توقفنا عند ذلك الحدث شاملاً لا بد من التطرق أولاً الى يوسف (عليه السلام) نفسه باعتباره الشخص الأكثر أهمية في تلك القصة.

أولاً – من هو النبي يوسف؟

ويوسف هو أبن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الخليل[1] يسمى الصديق كما جاء في الذكر الحكيم (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ)[2] واسم يوسف مُختلف في معناه، يقول الثعلبي: واختلفوا في معنى اسم يوسف؟ فقال اكثر الفقهاء هو اسم عبري، فلذلك لا يجري وقال آخرون هو اسم عربي، فعن ابي القاسم الحبيبي قوله

[1] اليعقوبي، التاريخ، ج١، ص٢٦-٣١.

[2] يوسف/ من الآية ٤٦.

سمعت أبي يقول عن أبي القاسم الأقطع وكان حكيماً قوله: الأسف في اللغة هو الحزن والأسيف العبد فاجتمعا فلذلك سمي يوسف[٣]. أما الجزائري فله رأي آخر فيقول ومعنى يوسف مأخوذ من آسف يوسف أي غضب أو يغضب اخوته، قال تعالى (فَلَمَّا آسَفُونَا إنتَقَمْنَا مِنهُم)، والمراد بتسمية يوسف أي يغضب اخوته بما يظهر من فضله عليهم[٤].

كان يوسف الابن قبل الأخير ليعقوب بن اسحق والد الأسباط الاثني عشر، فقد تحدثت مصادر التاريخ عن يعقوب وهو يغادر بيت أبيه بتوجيه من أمه بعد أن هدده أخوه العيص بالقتل لخلاف وقع بينهما مع والدهما بخصوص الدعوة لأحدهما دون الآخر بالبركة، فذهب الى بيت خاله (لابان) في حران.

وكان لـ (لابان) ابنتان إحداهما تدعى (ليا) وهي الكبرى والأخرى (راحيل) وهي الصغرى وكانت أجمل من أختها، تزوج يعقوب من بنت خاله الكبرى أولاً على أن يبقى يرعى غنم خاله سبع سنوات بأمر من خاله، وبعد نهاية السبع سنوات زوجه خاله من ابنته الصغرى (راحيل) التي كان يعقوب يحبها دون اختها وقد كان الجمع بين الأختين حينذاك جائزاً حتى ظهور موسى (عليه السلام). ثم عاد بعد ذلك يعقوب الى أهله في فلسطين[٥]. وعند دخوله الى وطنه تنافست زوجتاه على ارضاءه والتقرب منه فأهدت كل منهما جاريتها اليه فوقع عليهما فأصبح ليعقوب من زوجتيه وجاريتيهما اثنا عشر ولداً ذكراً وكما يلي[٦]:

من زوجته الأولى (ليا): روبيل، شمعون، لاوي، يهوذا، أيساخر وزابلون.

من زوجته الثانية (راحيل): يوسف وبنيامين

---

[٣] الثعلبي، المصدر السابق، ص١١١.

[٤] الجزائري، المصدر السابق، ص١٦٨. والآية من سورة الزخرف/٥٥.

[٥] ابن كثير، القصص، ص٢٢٥.

[٦] اليعقوبي، التاريخ، ص٢٢٥. وانظر ايضا الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ص١٩٧، (وقد وردت الأسماء مع شيء من الاختلاف في المصادر أعلاه).

من جارية ليا (زلفى): جاد وآشير

من جارية راحيل (بلهى): نيفتالي ودان

يقول ابن كثير كان ليعقوب اثنا عشر ولداً ذكراً كان أشرفهم وأحبهم وأعظمهم يوسف (عليه السلام) وقد ذهبت طائفة من العلماء الى انه لم يكن فيهم نبي غيره وباقي اخوته لم يوحَ اليهم[٧].

تحدث القرآن الكريم عن يوسف في سورة كاملة من سورة الأربعة عشرة بعد المائة، حيث بدأت السورة بالحديث عن يوسف منذ أن رأى رؤياه التي حدّث بها أباه والتي كانت السبب في اثارة حفيظة اخوته مما دعاهم الى السعي للتخلص منه، حتى آخر الآيات التي تحدثت عن تحقيق رؤياه بعد أن سجد له أبواه وأخوته جميعاً وهو على رأس السلطة في مصر بعد سنوات طوال من البعد والشقاء. وقصة يوسف وصفها تعالى في القرآن بأنها أحسن القصص وقد اختلف العلماء في سبب التسمية[٨].

اختلفت سورة يوسف عن نظيراتها من سور القرآن التي نزلت بأسماء الأنبياء بدءاً من سورة يونس وصولاً الى سورة نوح وذلك كون السور الباقية كانت غير مخصصة للأنبياء الذين نزلت بأسمائهم ولم تكن آياتها مختصرة للحديث عن قصصهم ودورهم في الحياة لوحدهم بل أشرك معهم القرآن أحداثاً أخرى مع وصف لحالات في شتى

---

[٧] ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٢٣١.

[٨] يقول الثعلبي: اختلف العلماء في سبب التسمية فقال بعضهم القصة الحسنة لفظها لفظ المبالغة وحكمها حكم الصفة، وعن سعيد بن جبير قوله: اجتمع أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الى سلمان الفارسي فقالوا يا سلمان حدثنا عن التوراة بأحسن ما فيها فأنزل الله تعالى (نَحنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أَحْسَنَ القَصَصِ) يعني بذلك ان قصص القرآن أحسن مما في التوراة، وهناك من يقول ان الله تعالى سمى قصة يوسف أحسن القصص لأنه ليست في القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم والعجائب واللطائف ما تضمنته قصة يوسف، الثعلبي، المصدر السابق، ص١١٠. وهناك آراء أخرى طرحها السيوطي في لباب النقول. ينظر السيوطي، جلال الدين بن أبي بكر، (ت، ٩١١ هـ)، لباب النقول في أسباب النزول، دار احياء العلوم، بيروت ١٩٨٠م، ص١٢٩.

المجالات أما سورة يوسف فقد كانت خاصة بيوسف فقط مكتفياً بها عن ذكره في أية سورة اخرى سوى سورتين هما سورة الانعام عندما تحدث عن مجموعة من الأنبياء ومن ضمنهم يوسف (عليه السلام) والأخرى سورة غافر الآية ٣٤.

فضلاً عن الحكمة والموعظة وتصويره لأحداث اجتماعية غاية في الأهمية كان القص القرآني واضحاً في سورة يوسف بوصفه لمراحل حياته الشريفة على الأرض وما ترتب على ذلك من سلوكيات أثرت بشكل أو بآخر على سير الحدث التاريخي، ومن هنا يمكن تشخيص ما يأتي باعتباره يمثل مراحل تطور حياة يوسف بعد انتقاله من موقف الى آخر:

أ. مرحلة الطفولة التي تميزت بحب والده له وتميزه عن أخوته وما رافق ذلك من رؤيا يوسف التي حدث بها أباه ورده عليه مما مهد الطريق للاقتصاص منه من قبل أخوته ورميه في الجب في مشهد مأساوي مثل فيه أبناء يعقوب (عليه السلام) دور القاتل المتباكي على ضحيته.

ب. وصوله الى بيت عزيز مصر بعد مرحلة من العبودية والشقاء ثم عيشه هناك لسنوات وتحويله (على مستوى الواقع فقط) من رجل حر ابن نبي كريم الى عبدٍ مملوكٍ للأسرة الفرعونية الحاكمة ثم تعرضه بعد ذلك وبسبب خصائصه الذاتية الوجدانية منها والبيولوجية وما تمتع به من جمال ملائكي تعرض الى مضايقة امرأة العزيز بعد أن أحبته حباً جماً فدعته اليها وما ترتب على ذلك من تآمر العائلة الحاكمة عليه فأودعوه السجن وهو بريء

ج. دخوله السجن وقيامه بالدعوة الى التوحيد وهو في داخله فضلاً عن تأويله للأحاديث وما ترتب على ذلك من تقدير واحترام فرعون مصر له بعد أن فسّر له رؤياه حيث أخرجه من السجن[٩] وأشركه في الحكم.

د. وأخيراً تحقيق رؤياه بعد أن سجد له أبواه وأخوته وهو على عرش مصر فتحققت رؤياه وبقي هو وأهله في مصر حتى وفاته عن عمر ناهز المائة وعشرين عام[١٠].

اذاً فيوسف كان أحب الى أبيه من أخوته وهذا ما أكده القرآن لذلك علل المختصون سبب كراهية أخوة يوسف ليوسف هو هذا الحب المميز الذي أدى الى توزيع غير عادل لمشاعر يعقوب وحنانه تجاه أبناءه وبذلك يكون يعقوب قد ارتكب خطأً كبيراً[١١].

يعلق الرازي على موضوع تفضيل يعقوب ليوسف بالقول ((قالوا لم رجح يعقوب عليه السلام يوسف على أخوته في التقريب والمحبة مع علمه افضاء ذلك الترجيح الى الحسد والمفاسد العظيمة؟))[١٢] وبعد السؤال يجيب الرازي قائلاً: الجواب على ذلك يأخذ جانبين، الجانب الأول هو ان يعقوب لم يفضل يوسف على أخوته في الاكرام، بل كان تفضيله وترجيحه في الحب فقط والحب أمره يتعلق بالجانب الوجداني وهو امرٌ غير مقدور عليه، فلا يكون مكلفاً بتركه، أما الجانب الآخر فهو افتراضه انه رجحه حتى في

---

[٩] اختلف المؤرخون في مدة بقاء يوسف في السجن، يقول ابن الجوزي: وفي جملة ما لبث في السجن هناك ثلاثة أقوال، أحدهما انه بقي اثني عشرة سنة وهذا قول ابن عباس، وثانيهما انه بقي أربع عشرة سنة وهذا قول الضحاك، وثالثهما سبع سنين وهذا قول قتادة. ابن الجوزي، أبي الفرج جمال بن عبد الرحمن، (ت/٥٩٧هـ) زاد المسير في علم التفسير، ج٤، المكتبة الاسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥م، ص٢٢٨.

[١٠] ابن الأثير، المصدر السابق، ص١١٨.

[١١] انظر :جيمس، المصدر السابق، ص٢٦١.

[١٢] الرازي، فخر الدين ابن الخطيب، (ت، ٦٠٦هـ)، عصمة الأنبياء، بيروت، ص٤٦.

الاكرام فهو بالتأكيد لم يكن ليعلم ان الترجيح سيفضي الى المفسدة، ثم يقول (فلعله رأى من سداد اخوته وجميل ظاهرهم ما غلب على ظنه ان ترجيحه لا يفضي الى شيء من المفاسد فأن الحسد وان كان راسخاً في الطبع الا أن كثيراً من الناس يحترزون منه ويجتنبونه)[١٣]. وعلى الرغم من تبريرات الرازي لموضوع المفاضلة فأنا أرى وبكل تواضع أن حب يعقوب ليوسف جاء أولاً من خلال معرفته بأنه سيكون نبياً مثله وخاصةً بعد الرؤيا التي رآها يوسف ذاته وما ترتب عليها من ردٍ فيه شيء من الخوف عليه حين (قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[١٤]. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية كان يوسف ابن راحيل البكر وراحيل هي حبيبة يعقوب وكانت غاية في الجمال[١٥] وكما يقول أصحاب الكتاب فقد تزوجها بعد أن تزوج أختها كما مر بنا والتي لم تكن جميلة بل كانت قبيحة المنظر[١٦]، وفضلاً عن هذا فان حب يعقوب ليوسف جاء بناء على قاعدة صغيرهم حتى يكبر ومريضهم حتى يشفى وغائبهم حتى يعود[١٧].

كان يوسف أصغر أخوته سوى بنيامين، والمتطلع على تفاصيل زواج يعقوب وتسلسل أولاده الواردة أعلاه والتي بدأها بزواج ابنة خاله الكبرى ثم الصغرى يجد (ليا) قد أنجبت

---

[١٣] المصدر نفسه.

[١٤] يوسف / ٥-٦.

[١٥] ينقل الطبري بسنده عن أنس عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: ((أعطي يوسف وأمه شطر الحسن))، الطبري، التاريخ، ج١، ص٣٣٠.

[١٦] اليعقوبي، التاريخ، ص٣٠. انظر ايضاً: ابن كثير، القصص، ص٢٢٥.

[١٧] من الحكايات الشعبية جواب أم على سؤال وجه اليها بخصوص أحب أبنائها اليها، فقالت (صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يشفى، وغائبهم حتى يعود) فالحب المميز هنا بني على أساس الظرف وما يحمله من متغيرات.

ليعقوب ستة ذكور وبشكل سريع في الوقت الذي تأخرت فيه راحيل عن الولادة كونها كانت عاقر في بادئ الأمر، قبل أن تدعو الله بأن يرزقها ولداً من يعقوب فأنجبت له يوسف[١٨]، وهكذا تأخر يوسف عن اخوته سواء من الذين أنجبتهم خالته أو من الذين جاءوا من الجاريتين (زلفى وبلهى) وبهذا أصبح أصغر اخوته فحاز على حب أبيه، أما بنيامين أخوه الأصغر فربما تأخر هو الآخر عن الولادة بالشكل الذي أصبح فيه فرق زمني بينه وبين يوسف، فأحتل يوسف مركز الصغير لفترة طويلة، ثم بغيابه عن أبيه بعد أن دبر له أخوته مؤامرة الجب حيث جاءوا بقميصه[١٩] الى أبيه مدعين بأن الذئب قد أكله أصبح يوسف بعيداً عنه فاحتل حينها مركز الغائب الحبيب الذي لا يتخلى عن مركزه الا بعد عودته.

كان يوسف جميلاً جداً وقد تطرق الذكر الحكيم الى ذلك حين أشار الى قول النسوة بحقه (وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ)[٢٠]. فقد أعطى الله تعالى ليوسف (عليه السلام) من الحسن والجمال وصفاء اللون ونقاء البشرة ما لم يعطه لأحد غيره، يصف الثعلبي جمال يوسف بالقول: "كان يوسف أبيض اللون، جميل الوجه، جعد الشعر، ضخم العينين، مستوي الخلقة، غليظ الساقين والعضدين والساعدين، خميص البطن، أقنى الأنف، صغير السرة وكان بخده الأيمن خال أسود يزين وجهه وكان بين عينيه شامة بيضاء، كأنها القمر ليلة

---

[١٨] ابن كثير، القصص، ص٢٢٥.

[١٩] يتحدث الثعلبي عن قميص يوسف فيقول: (أخبرنا ابن فتحويه، أخبرنا أحمد بن ابراهيم، أخبرنا عبيد الله بن ثابت أخبرنا أبو سيد الأشبح، عن أسامة، عن الشعبي قوله: كان في قميص يوسف ثلاث آيات لما جاءوا به الى أبيه فقالوا أكله الذئب فقال أبوه لئن أكله الذئب ليشقنَّ قميصه، وحين سعى نحو الباب وشقت قميصه من الخلف، فعرف الوزير انه لو كان هو الذي راودها لكان الشق من بين يديه، وحين ألقي على وجه أبيه أرتد بصيراً)، الثعلبي، المصدر السابق، ص١١٨.

[٢٠] يوسف/ الآية ٣١.

البدر، وكان اذا تبسم يرى النور من ضواحكه، واذا تكلم رأيت شعاع النور يشرق من بين ثناياه ثم يقول ولا أحد يقدر من بني آدم على وصف يوسف (عليه السلام)[٢١]."

كانت الرؤيا التي رآها يوسف في منامه وهو لم يبلغ الحلم بعد[٢٢] قد فتحت الأبواب أمامه ليلج منها الى حياته الخاصة التي أرادها الله له والتي من خلالها استطاع أن يقوم بدوره التاريخي كنبي خصه الله بالنبوة وعظمة الدور، بعد أن قصها على أبيه وسمع بها اخوته فحسدوه عليها وتآمروا عليه، فرموه بالجب. يقول ابن الأثير، فسمعت امرأة يعقوب ما دار بين يعقوب ويوسف فقال لها يعقوب (اكتمي ما قال يوسف ولا تخبري أولادك)[٢٣]، فلم تلتزم بكلامه فأخبرت أولادها فازدادوا حسداً وكراهية له، وقالوا (ما عنى بالشمس غير أبينا، ولا بالقمر غيرك، ولا بالكواكب غيرنا، ان ابن راحيل يريد ان يتملك علينا ويقول أنا سيدكم وتآمروا بينهم أن يفرقوا بينه وبين ابيه)[٢٤].

اعتمد ابن الأثير في روايته أعلاه على الاسرائيليات. وأهل الكتاب من اليهود يحاولون دائماً في مروياتهم أن ينسبوا للمرأة أثراً سلبياً في الأحداث، فقد نسبوا الى سارة أثراً سلبياً بمعاداتها لهاجر وغيرتها منها وطلبها من ابراهيم ابعادها خارج الشام وما ترتب على ذلك من أحداث ثم نسبوا الى زوجة اسحق (رفقة بنت بتوابيل) أثراً بتقديم أحد ولديها على الآخر وهو يعقوب على العيص عندما أراد اسحق أن يدعو للعيص بالبركة، فأقنعت يعقوب بأن يجلس تحت يدي والده الكفيف ليدعو له بدلاً من العيص حيث ترتب على ذلك خلافٌ كبيرٌ بين الأخوين أدى الى سفر يعقوب الى خاله في حران وزواجه هناك[٢٥] وهاهم ينسبون الى زوجة يعقوب أثراً سلبياً بشحن أبنائها على ابن أختها.

---

[٢١] الثعلبي، المصدر السابق، ص١١٢.

[٢٢] ابن كثير، القصص، ص٢٣٢.

[٢٣] ابن الاثير، المصدر السابق، ص١٠٨.

[٢٤]ابن الأثير ، المصدر السابق،ص١٠٩.

[٢٥] ابن كثير، القصص، ص٢٢٣.

شاءت الأقدار أن ينتقل يوسف من الجب الذي أراد له أخوته الموت فيه الى حياة هانئة في بيت قطفير والذي اشتراه بوزنه مسكاً وورقاً وحريراً بعد أن تزايد الناس على شرائه[٢٦]. ظل يوسف عدة سنوات يعيش مملوكاً للقطفير ويعمل لخدمة سيدته راعيل[٢٧] صاحبة الحسن والجمال والدلال حتى دخل السجن بعد أحداث سنتطرق اليها في الفقرة اللاحقة، وفي السجن[٢٨] الذي فضله يوسف على خيانة دينه ومبادئه عندما تحدث عنه القرآن قائلاً (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)[٢٩]. استغل يوسف وجوده فيه ليدعو الى عبادة الله تعالى وكما جاء في الذكر الحكيم (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[٣٠]. وفي تفسير قوله تعالى (أنا لنراك من المحسنين) ـ يقول الضحاك بن مزاحم (ت، ١٠٥هـ) كان احسانه اذا مرض رجل في السجن قام عليه، واذا ضاق عليه وسع له وان احتاج مالاً جمع له[٣١].

لم يكن لسجن يوسف فترة محددة سلفاً نتيجة قرار حكم بل كانت مدة محكوميته مفتوحة ولا أحد يستطيع اخراجه الا الجهة التي سجنته لذلك كانت الرؤيا التي رآها

---

[٢٦] الثعلبي، المصدر السابق، ص١١٢.

[٢٧] ابن الأثير، المصدر السابق، ص١١٠.

[٢٨] يقول السدي (لما كان يوسف في الجب كان جبريل يأتي اليه في كل يوم مرة ويؤنسه بالكلام ولما كان في السجن كان جبريل يأتي اليه في كل شهر مرة فقال يوسف: الهي لقد كنت في الجب في راحة وأنا في السجن في تعب وبكاء فأوحى اليه الله يا يوسف: الجب كان باختياري والسجن باختيارك حيث تقول (رب السجن إليّ أحب مما يدعونني اليه). الحنفي، المصدر السابق، ص١٥٥.

[٢٩] يوسف/ الآية ٣٣.

[٣٠] يوسف/٣٩-٤٠.

[٣١] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٢٦. والآية يوسف/٣٦.

الفرعون الريان بن الوليد[٣٢] والخاصة بالأبقار السمان والعجاف والسنبلات الخضر واليابسات كان مفتاحاً للباب التي خرج منها يوسف للحياة مرة أخرى حيث كان لتأويله لرؤيا الملك دور كبير ساعده على أن يكون ذا منزلة عنده حيث أخرجه من السجن وجعله على خزائن مصر. استمر يوسف مسؤولاً على خزائن مصر لفترة طويلة لم يتطرق لها القرآن الكريم، اذ لم يشر الذكر الحكيم الى المرحلة التي لحقت دخول يعقوب وأبناءه الى مصر وهل أن يوسف استمر في منصبه أم عزله الفرعون الثاني الذي لم يؤمن به والذي يدعى قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلواس بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح والذي كان كافراً[٣٣]. الا ان مصادر التاريخ تحدثت عن عدد من دخل مع يعقوب من بنيه ، واختلفوا في ذلك[٣٤].

ظل يعقوب وأهله وأبناءه مع يوسف في مصر سبعة عشر عاماً حتى توفي فدفنه يوسف في بيت المقدس بجوار ابيه اسحق وجده ابراهيم[٣٥]،أما يوسف فقد عاش بعد لقائه بأبيه ثلاثة وعشرين عاماً وتوفي وله من العمر مائة وعشرون عاماً[٣٦].يقول صاحب تفسير الميزان "وبقى آل يعقوب بمصر وكان أهل مصر يحبون يوسف حباً شديداً لفضل نعمته

---

[٣٢] الطبري، التاريخ، المصدر السابق، ص٣٣٥. وانظر: ايضاً الثعالبي، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٣٠.

[٣٣] الطبري، التاريخ، ص٣٣٥.

[٣٤] يحدد اليعقوبي عدد الذين دخلوا مع يعقوب من بنيه الى مصر بـ ٥٨ شخصاً عدا النساء، اليعقوبي، التاريخ، ص٣٠، أما الثعلبي فيقول: دخل يعقوب وولده مصر وهم اثنان وسبعون انساناً ما بين امرأة ورجل وخرجوا منها مع موسى وعدد مقاتليهم ستمائة الف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً، الثعلبي، المصدر السابق، ص١٤٣. ج. ابن كثير، يقول: وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم ثلاثة وستين انساناً وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل، ابن كثير، البداية والنهاية، ص٢١٨.

[٣٥] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٤٤.

[٣٦] الحنفي، المصدر السابق، ص١٦٩.

عليهم وحسن بلاءه فيهم وكان يدعوهم الى دين التوحيد وملّة آبائه ابراهيم واسحق ويعقوب"[٣٧].

كان يوسف فضلاً عن كونه نبياً وعالماً بتأويل الأحاديث كان سياسياً واقتصادياً ومهندساً بارعاً. يقول الكسائي: كان يوسف هو أول من أظهر علم الهندسة ولم يكن الناس يعرفون ذلك وهو اول من قاس نهر النيل ووضع له مقياساً محكماً فضلاً عن كونه قد حفر خليج المنتهى، وعن ابن هليعة في أخبار مصر قوله: كان يوسف هو الذي بنى مدينة الفيوم ودبرها بالوحي من جبرائيل حتى أخرج منها الماء وجعل بها عشر قناطر وعمل عليها أبواباً من حديد، وكان انتهاء العمل منها في سبعين يوماً فتعجب الملك من ذلك وركب هو ووزرائه ورأوا ما صنع يوسف حيث تعجبوا من ذلك وقالوا هذه طواحين كانت تعمل في ألف يوم فسميت من ذلك اليوم بـ الفيوم[٣٨].

وبعد كل هذه الانجازات والمكاسب وذلك العمر الطويل المملوء بالعذاب والهناء في آن واحد ودع يوسف الحياة من مصر بعد أن قدم لها الشيء الكثير يقول ابن كثير: لما حضر يوسف الوفاة أوصى أهله أن يحملوه معهم اذا خرجوا من مصر ليدفن عند آباءه، يقول فحفظوه ووضعوه في تابوت فكان بمصر حتى أخرجه موسى (عليه السلام) معه حين خرج من مصر ودفنه عند آباءه[٣٩].

---

[٣٧] الطباطبائي، المصدر السابق، ص١٩٢.

[٣٨] الحنفي، المصدر السابق، ص١٧٠.

[٣٩] ابن كثير، القصص، ص٢٦٦.

ثانياً - امرأة يوسف - (زليخا عاشقة النبوة)*

لم يتحدث الذكر الحكيم عن امرأة يوسف، إلا أنه ومن خلال وحدة القصة اليوسفية في القرآن، تحدث عن امرأة العزيز وذلك من خلال الآيات الكريمة التالية (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)[40]، (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ)[41]، (قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[42]، (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)[43]، أما آخر ما ورد بحقها في الذكر الحكيم فهو قوله تعالى (قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ

---

* أكثر المؤرخين يؤكد ان اسم امرأة العزيز هو (زليخا)، وهناك من كان يضيف اسماً آخر لها كـ (راعيل) مثلاً كما جاء في تاريخ الطبري، وابن الاثير، أما الثعلبي فيضيف لها اسماً آخر وهو: (يكانبت فيوش) ولم أجد ما يؤيده في بقية المصادر، الثعلبي، المصدر السابق، ص١٢١.

[40] يوسف/ من الآية ٢١.

[41] يوسف/من الآية٢٣.

[42] يوسف/من الآية٢٥.

[43] يوسف/ ٣٠-٣٢.

أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)[٤٤].

والاشارة أعلاه وان أرخت لفترة زمنية معينة من حياة يوسف، الا أن تلك المرأة وفي تلك الفترة بالذات كانت زوجة لعزيز مصر، أما ما حدث بعد ذلك فلا يشير اليه القرآن، ربما لكونه أخذ طابعاً تقليدياً خالياً من الاثارة والتشويق من جانب أو لكونه سار والحدث التاريخي باتجاه واحد وكذلك السنة النبوية ومن خلال المصادر التي اطلعت عليها لم تشر أيضاً الى مسألة زواج يوسف من امرأة العزيز بعد وفاة زوجها أما العهد القديم فقد أشار الى الموضوع بشكل غير واضح ولم يركز عليه وفي رأيي ان عدم الاشارة جاءت لكون زليخا من وجهة نظر اليهود هي امرأة من الأسرة الحاكمة وكانت متزوجة سابقاً وهي التي ساعدت على سجن يوسف والمشاركة بتحديد حركته واذلاله، لذلك فضلوا عدم اقحامها في قصة يوسف لعدم ملائمة هذا الاقحام مع رغباتهم الخاصة، إلا أن أهل الكتاب بالمقابل أكدوا على أن الفرعون أجلّ يوسف وعظمه وأكرمه، يقول ابن كثير: وعند أهل الكتاب ان الفرعون عظم يوسف (عليه السلام) وسلطه على جميع أرض مصر فألبسه الحرير وطوقه بالذهب ونودي في الناس ان يوسف مسلط وفرعون ليس أعظم منه الا بالكرسي، ثم زوجه امرأة عظيمة الشأن[٤٥]. أما المصادر التاريخية فكان لنا معها وقفة، فهي التي اعتمدناها مصدراً للمعلومات التي أكدت زواج يوسف من زليخا، وقد بدأنا بأقربها الى الحدث، فابن اسحق (ت، ١٥٠هـ) في المبتدأ والخبر والبلاذري (ت،١٧٩هـ) في أنساب الأشراف، والدينوري (ت،٢٨٢هـ) في الأخبار الطوال لم يتطرقوا الى يوسف وزواجه، واليعقوبي (ت،٢٨٢هـ) في التاريخ يتحدث عن ابني يوسف وهما

---

[٤٤] يوسف/٥٢-٥٣.

[٤٥] ابن كثير، القصص، ص٢٥٠.

منشى وافرائيم الا أنه لم يشر الى أمهما[٤٦]، أما الطبري (ت،٣١٠هـ) في تاريخ الرسل والملوك فيشير الى ولدي يوسف ويؤكد انهما أبناء زليخا، فيقول: فذكر لي والله اعلم ان إطفير عندما هلك زوج الفرعون الريان بن الوليد يوسف بامرأته راعيل (زليخا) وانه حين دخل عليها وجدها عذراء فقال لها: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ فقالت أيها الصديق لا تلمني فاني كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة وناعمة في ملك ودنيا وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت أنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي، ثم انه وقع عليها فولدت له رجلين وهما افرائيم ومنشا[٤٧].

الطبرسي وهو من أكابر علماء الامامية في القرن السادس يقول في تفسير قوله تعالى (اجعلني علىْ خزائن الارض) الألف واللام في الأرض للعهد دون الجنس يعني اجعلني على خزائن أرضك حافظاً ووالياً واجعل تدبيرها الي فإني حفيظ أي حافظاً لما استودعتني لحفظه، وهذا لم يدخل تحت قوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) قالوا فقال الملك ومن أحق بذلك منك فولاه ذلك وفوض اليه أمر مصر وعزل قطفير وجعل يوسف مكانه ثم مات قطفير فزوج الملك يوسف راعيل امرأة قطفير فدخل بها فوجدها عذراء فقال لها أليس هذا خيراً مما كنت تريدين. فولدت له افرائيم وميشا واستوثق ليوسف ملك مصر[٤٨]. أما الثعلبي (ت، ٤٢٧هـ) في قصص الأنبياء فيتحدث عن موضوع زواج يوسف بزليخا، فينقل عن ابن عباس (رض) قوله: بعد أن أكرم الفرعون (الريان بن الوليد) يوسف بعد مرور عام على خروجه من السجن حيث قلده السيف وحلاه بالخاتم وألبسه الذهب والحرير عزل قطفير من منصبه وولى يوسف مكانه ثم بعد ذلك بوقت قصير مات قطفير فزوج الملك يوسف بزليخا امرأة قطفير فلما دخل عيلها قال لها: "أليس هذا خيراً

---

[٤٦] اليعقوبي، التاريخ، ص٣٢.

[٤٧] الطبري، التاريخ، ص٢٤٧.

[٤٨] الطبرسي، المصدر السابق، جـ١٣، ص١١٧. والآية الاولى من سورة يوسف/٥٦، والثانية، النجم/٣٢.

مما كنت تريدين؟ فقالت له: أيها الصدّيق لا تلمني فاني كنت امرأة حسناء جميلة وناعمة كما رأيت في ملك ودنيا ... الخ وكما جاء في رواية الطبري"[٤٩].

ابن الجوزي (ت، ٥٩٧هـ) يتحدث في تفسيره زاد المسير في علم التفسير عن موضوع زواج يوسف (عليه السلام) فينقل عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وآخرين غيرهم، قولهم (أقام (يوسف) في بيت الملك سنة، فلما انصرمت دعاه الملك فتوجه ورداه بسيفه وأمر له بسرير من ذهب وضرب عليه كلّة من استبرق فجلس على السرير كالقمر ودانت له الملوك ولزم الملك بيته، وفوض أمره اليه وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه، ثم ان قطفير هلك في تلك الليالي فزوج الملك يوسف بامرأة قطفير، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ فقالت له: أيها الصديق لا تلمني فاني كنت امرأة حسناء جميلة في ملك ودنيا وكان صاحبي لا يأتي النساء فغلبتني نفسي، فلما بنى بها يوسف وجدها عذراء، فولدت له ابنين افرائيم وميشا واستوسق له ملك مصر)[٥٠]. وابن الجوزي هنا اعتمد على رواية الثعلبي الذي كان بدوره قد استند على رواية الطبري المنقولة عن بعض الصحابة والتابعين.

ابن الأثير (ت، ٦٣٠هـ) في الكامل في التاريخ يتحدث عن الموضوع بقوله: فلما ظهر للملك براءته وأمانته قال (آتوني به أستخلصه لنفسي) فقال يوسف (اجعلني على خزائن الأرض) فاستعمله بعد سنة ولو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته*، فسلم خزائنه كلها اليه بعد سنة وجعل القضاء اليه وحكمه نافذ ورد اليه عمل

---

[٤٩] الثعلبي، المصدر السابق، ص٢٤٤.

[٥٠] ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢٤٤.

* يعلق الرازي على موضوع طلب يوسف أن يوليه الملك على خزائن الأرض فيقول: ما معنى قوله اجعلني على خزائن الأرض وكيف يجوز أن يطلب الولاية من قبل الظالم؟ والجواب هو انه التمس بتمكينه من خزائن الأرض ليحكم فيها بالعدل لأنه بسبب نبوته كان مستحقاً لذلك وللمستحق أن يتوصل الى حقه بأي طريق كان، الرازي، المصدر السابق، ص٥٨.

قطفير سيده بعد أن هلك وكان هلاكه في تلك الليالي وقيل: بل عزله وولى يوسف عمله والاول أصح لأن يوسف تزوج امرأته[٥١]، ثم ينقل ابن الأثير رواية الطبري فيتحدث عن زليخا وما حدث بينها وبين يوسف ليلة دخوله بها وكيف وجدها باكراً فولدت له منشا وافرائيم[٥٢].

النسفي (ت، ٧١٠هـ) في تفسيره يقول "روي ان الملك توج يوسف وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت فقال يوسف: أما السرير فأشد به ملكك، وأما الخاتم لأدبر به أمرك، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي. فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض الملك اليه أمره، وعزل قطفير، ثم مات بعد ذلك فزوجه الملك امرأته، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما طلبت؟ فوجدها عذراء، فولدت له ولدين افرايم وميشا، وأقام العدل بمصر وأحبته النساء والرجال وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس، والنسفي هنا يؤيد روايتي الثعلبي وابن الجوزي"[٥٣].

ابن كثير (ت، ٧٧٤هـ) في تفسير القرآن العظيم ينقل عن ابن اسحق قوله: لما قال يوسف للملك اجعلني على خزائن الأرض، قال الملك قد فعلت فولاه عمل قطفير بعد أن عزله، ثم ذكروا لي والله أعلم ان قطفير هلك في تلك الليلة وان الملك زوج يوسف امرأة قطفير راعيل وانها حين دخلت عليه قال لها أليس هذا خيراً مما كنت تريدينني فقالت أيها الصديق لاتلمني فاني كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة وناعمة في ملك ودنيا وكان

---

[٥١] ابن الاثير، المصدر السابق، ص١١٤.

[٥٢] المصدر نفسه.

[٥٣] النسفي العلامة أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (ت/٧١٠هـ)، تفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل، مج٢، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، ص١١٤.

صاحبي لا يأتي النساء، ثم يقول فوجدها عذراء فولدت له رجلين افرائيم وميشا، ولد افرائيم نون والد يوشع ورحمة امرأة ايوب عليه السلام[٥٤].

لذلك قال بعضهم معلقاً على فرج الله ورحمته بالقول:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن	وأول مفدوح بـه غاية الحزن
فـلا تيأسـن فالله ملـك يوسفا	خزائنه بعد الخلاص من السجن[٥٥]

السيوطي (ت، ٩١١هـ) يعيد روايات السلف بدءاً من روايات الطبري والثعلبي وصولاً الى ابن كثير مؤيداً إياها باعتبارها تعبر عن حالة تحـول زليخـا الى الايمـان بعـد اعترافهـا بمراودة يوسف فأراد الله اكرامها فزوجها بيوسف فوجدها يوسف باكراً لأن زوجها كان عنيناً ومما نقله في الدر المنثور ما يلي: "وأخرج الحكيم الترمـذي عـن وهـب بـن منبـه (رض) قال: أصابت امرأة العزيز حاجة فقيل لها لو أتيت يوسف بن يعقـوب فتـسألينه فاستشارت الناس في ذلك فقالوا لا تفعلي فانا نخاف عليك قالت: كلا اني لا أخاف ممـن يخاف الله فدخلت عليه فرأته في ملكه فقالـت: الحمـد للـه الـذي جعـل العبيـد ملوكـاً بطاعتهم ثم نظرت الى نفسها فقالت: الحمد لله الـذي جعـل الملـوك عبيـداً بمعـصيتهم فقضى لها جميع حوائجها ثم تزوجها فوجدها بكراً وقال لها: ألـيس هـذا أجمـل ممـا أردت؟ قالت: يا نبي الله اني ابتليت قبل بأربع: كُنتَ أجمل الناس كلهم وكُنتُ أنـا أجمـل أهل زماني وكنت بكراً وكان زوجي عنيناً"[٥٦]. النووي يؤيد جانباً من روايـة الـسيوطي

---

[٥٤] ابن كثير، التفسير، جـ٢، ص٤٨٢.

[٥٥] ابن كثير، القصص، ص٢٥١.

[٥٦] السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن، (ت/٩١١هـ)، الدر المنثور في التفسير بالمـأثور، ج٤، المكتبة الاسلامية ومكتبة الجعفري، طهران، دار الكتب العراقية-بغداد، ص٢٥.

فيقول في تفسير مراح لبيد بأن يوسف وبعد هلاك قطفير تزوج من امرأته زليخا فوجدها عذراء[٥٧].

وكذلك المحلي في تفسير الجلالين يقول (ثم ان الملك توج يوسف وخصه وولاه فكان العزيز بعد أن عزل قطفير وبعد موته تزوج يوسف امرأته زليخا فوجدها عذراء فولدت له ولدين افرائيم وميشا"[٥٨].

الديار بكري (ت، ٩٦٦ هـ) يعرج في كتابه تاريخ الخميس على موضوع زواج يوسف من زليخا حيث يعتمد روايات أسلافه ومنهم ابن الجوزي والحدّادي فيقول: وفي تفسير الحدّادي عن ابن عباس (رض) قوله لما استوزر الملك يوسف ودانت له الملوك وفوض الأمر اليه وكان الملك كالتابع ليوسف يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رآه ثم عزل الملك قطفير وبعد موته زوج يوسف امرأته زليخا فلما دخل عليها وجدها عذراء وكان العزيز عنيناً فولدت ليوسف ولدين افرائيم وميشا وولد لافرائيم نون ولنون يوشع فتى موسى[٥٩].

أما الثعالبي في تفسير الجواهر الحسان فيقول (وقوله سبحانه -وكذلك مكنّا ليوسف في الارض- الاشارة بذلك الى جميع ما تقدم من جميل صنع الله به فروي ان العزيز مات في تلك الليالي وقال ابن اسحق بل عزله الملك ثم مات قطفير فولاه الملك مكانه وزوجه زوجته فلما دخلت عليه عروساً قال لها أليس هذا خيراً مما كنتِ أردتِ فدخل بها ووجدها بكراً وولدت له ولدين)[٦٠].

---

[٥٧] النووي، المصدر السابق، جـ١، ص٤١٠.

[٥٨] المحلي، المصدر السابق، ص٢٨٠.

[٥٩] الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص١٣٧.

[٦٠] الثعالبي، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٤٣.

الحنفي في بدائع الزهور ينقل رواية زواج يوسف بزليخا بطريقة جديدة حيث يقول: "وقيل ان زليخا وقفت ليوسف وهو سائر في موكبه فنادته سبحان من جعل العبيد ملوكاً بطاعتهم وجعل الملوك عبيداً بمعصيتهم فقال يوسف لغلمانه: انطلقوا بهذه العجوز الى الدار، فانطلقوا بها فقال لها: ما تريدين مني، واذا بجبريل عليه السلام يقول: يا يوسف ان الله تعالى يأمرك أن تتزوج بزليخا فقال له يوسف: كيف أتزوج بها وهي عجوز عمياء، فقال له: ان الله تعالى يرد عليها بصرها وجمالها فعند ذلك تزوج بها يوسف وأسلمت على يديه ورد الله لها حسنها وجمالها وبصرها فعادت أحسن مما كانت عليه فوجدها بكراً، ثم انها قعدت مع يوسف الصديق أربعين عاماً ورزقه الله منها بولدين هما افرائيم وميشا"[٦١].

الجزائري في قصص الأنبياء يتحدث عن رواية شبيهة الى حد ما برواية الحنفي حيث يقول: "لما مات العزيز وذلك في السنين الجدبة افتقرت امرأته واحتاجت حتى سألت فقالوا لها لو قعدت للعزيز وكان حينها يوسف فقالت استحي منه فلم يزالوا بها حتى قعدت له فأقبل يوسف في موكبه فقامت اليه وقالت: الحمد لله الذي جعل الملوك بالمعصية عبيداً وجعل العبيد بالطاعة ملوكاً، فقال لها وهي هرمة ألست فعلت بي كذا وكذا فقالت يا نبي الله لا تلمني فاني بليت في ثلاثة لم يبتلِ بها أحد، قال وما هي؟ قالت: بليت بحبك ولم يخلق الله لك نظيراً وبليت بحسني بأنه لم تكن بمصر امرأة أجمل مني ولا أكثر مالاً وبليت بأن زوجي كان محصوراً بفقد الحركة يعني عنيناً فقال لها يوسف، ما حاجتك؟ قالت تسأل الله أن يردَّ عليَّ شبابي، فسأل الله فرد عليها فتزوجها وهي بكر"[٦٢].

---

[٦١] الحنفي، المصدر السابق، ص١٦٠.

[٦٢] الجزائري، المصدر السابق، ص١٦٠.

الآلوسي في تفسير روح المعاني يتوقف عند تفسيره للآية الكريمة (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ انّي لَمْ أَخُنْهُ بِالغَيبِ)، وبعد أن ينقل رأي من ينسب القول الى يوسف، يعود ليقول ان القول أعلاه مرتبط بقول امرأة العزيز (الآن حَصحَصَ الحَقُّ) ويعتبره من جملة قولها حيث يقول: وذهب الجبائي واستظهره أبو حيان الى ان قوله تعالى (ذلك ليعلم .. الخ) انه من جملة كلام امرأة العزيز ومعناه الاقرار والاعتراف بالحق ليعلم يوسف اني لم أخنه بالغيب ولم أكذب عليه في حال غيبته وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة حيث قلت ما قلت وفعلت ما فعلت ان كل نفس أمارة بالسوء الا نفساً رحمها الله تعالى بالعصمة وهي نفس يوسف (عليه السلام)[٦٣] وهو بذلك يتفق مع العديد من أسلافه وعلى رأسهم ابن كثير.

ثم يتطرق الآلوسي الى زواج يوسف من راعيل (زليخا) فينقل رواية الطبري عن ابن اسحق والسيوطي عن عبد العزيز بن منبه، ثم ينقل رواية الترمذي عن وهب بن منبه، والتي نقلها السيوطي ايضاً وهو بذلك يؤيد السلف بتلك الرواية لكنه يعلق على الموضوع برمته فيقول: وخبر تزويجها (أي تزويج زليخا بيوسف) مما لا يعول عليه عند المحدثين، وعلى فرض ثبوته فانما كان بعد تعيينه (عليه السلام) مباشرة وهو بذلك لا يتفق مع الروايات القائلة انها رأته في موكبه بعد سنوات أو دخلت عليه فيما بعد وقالت له: سبحان الذي جعل العبيد ملوكاً والملوك عبيداً .. الخ[٦٤].

صاحب تفسير الميزان لم يتطرق الى زواج يوسف من زليخا على الرغم من انه تحدث مطولاً عن حب زليخا ليوسف إلا أنه تطرق وهو يتحدث عن دلائل تفسير الآية الكريمة

---

[٦٣] الآلوسي، العلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود البغدادي، (ت/ ١٢٧٠هـ) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج١٣، دار احياء التراث العربي، بيروت، ص٣.

[٦٤] الآلوسي، المصدر السابق، ج١٣، ص٥.

(لَولا أنْ رَأى بُرهَانَ رَبِّه) فيقول: وقيل اجتازه طير فناداه (يا يوسف لا تعجل فانها لك حلال ولك خلقت)[٦٥].

أحمد بهجت في أنبياء الله يتطرق الى نهاية زليخا من خلال الذكر الحكيم الذي أهمل ذكرها وهذا ينسجم مع ما جئنا به من أن القرآن لم يتطرق الى زواج يوسف من زليخا فيقول: أهمل السياق القرآني بعد ذلك قصة امرأة العزيز تماماً حيث اسقطها من المشاهد ولم يتطرق الى أمرها، بعد أن شهدت ليوسف وهذا يخدم كما يقول الأستاذ بهجت الغرض الديني في القصة، فالقصة أساساً قصة يوسف وليست قصة زليخا ويخدم ايضاً الغرض الفني للقصة، حيث ظهرت المرأة ثم اختفت في الوقت المناسب، إلا أن هناك من قال ان زوجها مات وتزوجت من يوسف فأكتشف انها عذراء واعترفت له أن زوجها كان شيخاً لا يقرب النساء[٦٦].

بناءً على الروايات أعلاه والتي لم تتناقض مع القرآن، اذ ان القرآن ليس بالضرورة أن يأتِي على ذكر كل التفاصيل، فأن زليخا امرأة العزيز سابقاً والذي لم يأتي على عذريتها، أصبحت بعد عناء طويل وصبرٍ جميل جاء على ما فيها من جمالٍ وروعة وأنوثة جذابة، أصبحت زوجة ليوسف ارتمت بين أحضانه وذاقت رجولته بالحلال الطيب بعد أن رشفت من شفتيه حباً عوضها عن سنين العذاب والحرمان.

تعود بدايات حب زليخا ليوسف الى الأشهر الأولى لدخوله الى ذلك البيت الكبير المترامي الأطراف الذي كانت تسكنه زليخا اميرة مدللة يحيط بها الجمال من كل جانب ويقف الجميع على أهبة الاستعداد لتلبية رغباتها إلا أن أحداً منهم لم يستطع أن يشبع لديها

---

[٦٥] الطباطبائي، العلامة السيد محمد حسين، (ت، ١٤٠٢هـ)، الميزان في تفسير القرآن، مج الحادي عشر، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٢، ص١٣١.

[٦٦] بهجت، المصدر السابق، ص١٤١.

تلك الحاجة التي جعل الله عملية اشباعها مسألة مهمة وأساسية للاستقرار النفسي ولتحقيق حالة من التوازن في النفس البشرية الأمارة بالسوء[٦٧].

دخل يوسف الى بيت العزيز قطفير وهو صبي على أبواب الشباب[٦٨] وبناء على وصية قطفير لزوجته حين قال لها (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)[٦٩]. أخذت زليخا تهتم به وتتابع شؤونه فقد أثار فيها حباً عارماً وشوقاً لا مثيل له وكما جاء في الذكر الحكيم (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا)[٧٠] وشغفها حباً هنا أي حجبها حبه عن الناس فلا تعقل غيره والحجاب هو الشغاف والشغاف هو حجاب القلب[٧١].

لم يأتِ حب زليخا ليوسف مباشرة اذ ان وجوده في أروقة قصرها وحركاته وتنقلاته وسلوكه الحسن وشكله الرائع وصفاء عينيه كل ذلك وغيره جعلها تركز عليه وتتابع خطواته فبدأت بحبه بالتدريج، وكلما تدرج هو في سلم الشباب والرجولة، فقد جاء عن

---

[٦٧] اشارة الى كون العزيز لم يكن يأتي النساء اذ كان عنيناً، راجع الثعلبي، المصدر السابق، ص١٢١.

[٦٨] اختلف العلماء في العمر الذي كان عليه يوسف عند دخوله الى مصر، فالطبري، يؤيده الثعلبي وابن الأثير وابن كثير يؤكدون ان عمره كان سبعة عشر عاماً، أما ابو الفداء، في أخبار البشر فيقول ان عمر يوسف كان اثني عشر عاماً في الوقت الذي يقول فيه الحنفي ان عمر يوسف ليلة دخوله الى مصر كان أربعة عشر عاماً. الطبري، التاريخ، ص٣٣٦. الثعلبي، المصدر السابق، ص١١٧. ابن الأثير، المصدر السابق، ص١١٨.ابن كثير، القصص، ص٢٦٢. ابو الفداء، المصدر السابق، ص٢٨. الحنفي، المصدر السابق،ص١٤٨.

[٦٩] يوسف/ الآية ٢١.

[٧٠] يوسف/ الآية ٣٠. وشغفها معناه بلغ حتى صار من قلبها موضع الشغاف وهو غلاف من أغلفة أغشية القلب وقيل سويداء القلب. الثعالبي، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٣٤.

[٧١] الطباطبائي، التاريخ، ص٢٢٨.

ابن عباس (رض) قوله: مكث يوسف في منزل عزيز مصر ثلاث سنين ثم أحبته زليخا وراودته[٧٢].

وزليخا هنا كانت واعية لما تفعل فقد وجدت في يوسف وبعد أن بدأت تتكامل رجولته وتعلو همته وجدت فيه صفات الرجل الذي يملأ القلب والوجدان فأخذت تحبه وهي تعي تماماً لما تقوم به. يقول أحمد بهجت "كانت امرأة العزيز ترقب يوسف يوماً بعد يوم. كانت تجلس اليه وتتحدث معه، تتأمل صفاء عينيه، تسأله وتسمع منه، ويزداد اعجابها به لحظة بعد أخرى حتى جاء اليوم الذي اكتشفت به انها عاشقة فأخذت تظهر حبها له"[٧٣] ثم أخذ يتحدث عن قوة ذلك الحب وما ترتب عليه من وجدٍ وهيام فيقول: ثم ان بصر زليخا ضاع بسبب استمرارها بالبكاء على يوسف، فخرجت من قصرها وتاهت في طرقات المدينة، فلما صار يوسف كبيراً للوزراء ومضى موكبه، هتفت به قائلة سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية، والعبيد ملوكاً بالطاعة ثم سمعها يوسف، وعرف انها زليخا فاستدعاها وسألها قائلاً: هل تجدين في نفسك من حبك لي شيئاً، فقالت: نظرة الى وجهك أحب الي من الدنيا يا يوسف، ثم قالت ناولني نهاية سوطك فناولها اياه فوضعته على صدرها، فوجد السوط يهتز في يديه اضطراباً وارتعاشاً من خفقان قلبها[٧٤].

اذاً فالعلاقة بدأت أولاً بالحب أي لم تكن الحاجة الجنسية هي الأساس الذي بنت عليه زليخا مراودتها ليوسف ودعوتها اليه، فزليخا على الرغم من كون زوجها لا يأتي النساء كما أكدت العديد من المصادر الا أن همها لم يكن جلسة جنسية مع يوسف

---

[٧٢] الجزائري، المصدر السابق، ص١٦٤.

[٧٣] بهجت، المصدر السابق، ص١٢٥.

[٧٤] بهجت، المصدر السابق،ص١٢٥

تشبع بها حاجة بيولوجية تتشابه بها مع نساء الكون، بل أن هدفها كـان أسـمى مـن ذلك وهو الحب. يقول الثعلبي: فلما أتى العزيز بيوسف الى منزله وقال لامرأتـه: أكرمـي مثواه، تأملته جيداً فرأت حسنه وجماله وقع حبه في قلبها[٧٥]. فالحب الذي تحدث عنـه القرآن وأكد انه دخل الى قلبها كون الشغاف هو حجاب القلب كما مر بنا، كـان أولاً أمـا المراودة والتي يعرّفها الثعلبي بأنها طلبت منه أن يتابعها على هواها[٧٦] والهوى هنا هـو الحب والغرام فهي تحصيل حاصل لذلك الحـب ، أمـا صـاحب تفـسير الميـزان فيعـرف المراودة قائلاً: المراودة لغةً هي من التردد في طلب الشيء برفـق والارادة منقولـة مـن راد يرود، والمراودة هي أن تنازع غيرك في الارادة فتريد غـير مـا يريـد. (وتُـراوِدُ فَتَاهَـا عَـن نَفسِهِ) أي تصرفه عن رأيه أما اصطـلاحاً فالمراودة هـي المطالبة بأمر معين برفق ولـين ليعمل به[٧٧].

ومن هنا فان المراودة التي جاءت ثانيةً بعد الحب فهي ليست بالضرورة أن تـصل الى مرحلة الممارسة الجنسية، وحتى اذا وصلت فهي لا تعدو كونها تحصيل حاصـل، أي أن زليخا لم تكن تقصد الممارسة المجردة الخالية من العواطف والبعيدة عن الوجدان، بدليل ان أغلب المؤرخين أكدوا ان يوسف عندما تزوجها وجدها باكراً، فلو كانت تريد المواقعـة فقط لكانت قد حصلت عليها مـن أي رجـل وهـي الآمـرة والحاكمـة والمـسيطرة عـلى مقدرات زوجها والدليل على ذلك ان زوجها عندما علم بموضوع مراودتهـا ليوسـف لـم

(٧٥) الثعلبي، المصدر السابق، ص١٢١.

(٧٦) المصدر نفسه

(٧٧) الطباطبائي، التفسير، المصدر السابق، ص١١٩.

يحرك ساكناً ولم يتعامل معه بشكل تحس فيه زليخا برجولته وغيرته[٧٨]. وهذا يعكس أولاً طبيعة المجتمع المصري آنذاك الذي كان يعطي المرأة اهتماماً وقيمة كبيرة بالشكل الذي يجعلها تتحكم في مجريات الأحداث وخاصة على المستوى الأسري[٧٩]، أما ثانياً فينعكس على مدى تحكم زليخا بشؤون قطفيرها وتحركاته لذلك فأن عملية ممارستها للجنس مع أي كان لايشكل بالنسبة لها أي حرج* ولا زلنا في دائرة حب زليخا ليوسف والآية الكريمة (قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)[٨٠].

فعلى الرغم من ان المفسرين يفسرون قوله تعالى (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) بأنه من كلام يوسف فان عدداً كبيراً منهم يقول بأنه من تمام كلام زليخا[٨١]، وعلى الرغم من عدم موافقة صاحب تفسير الميزان على ذلك بقوله (وهذا وجه ردي جداً)[٨٢] الا أني أضم صوتي الى أصوات المؤيدين لكون الكلام أعلاه من كلام زليخا وهي تتحدث عن

---

[٧٨] جاء في بدائع الزهور: ان قطفير زوج زليخا كان رجلاً حليماً لكنه قليل الغيرة على عياله وكان عنيناً لا يقرب النساء، فلأجل ذلك لم يشدد عليها في تلك الواقعة، فضلاً عن ذلك فقد كان شيخاً كبير العمر شنيع المنظر. الحنفي، المصدر السابق، ص١٥٢.

[٧٩] انظر : ديورانت، المصدر السابق، جـ١، ص٩٧.

* ينقل الحنفي في بدائع الزهور الرواية التالية: وهي تعكس تأثير البيئة على السلوك العام للأفراد، ولا أعرف مدى صحتها انقلها هنا دون تعليق: يقول الحنفي: قال بعض الحكماء: (ومن اقام بأرض بغداد سنة كاملة وجد زيادة في علمه، ومن أقام بأرض الموصل سنة كاملة وجد زيادة في عمله ومن أقام بأرض حلب سنة كاملة وجد شحاً في نفسه، ومن أقام بأرض دمشق سنة كاملة وجد في نفسه فظاظة وغلظة، ومن أقام بأرض مصر سنة كاملة وجد في طبعه قلة الغيرة). المصدر السابق، ص١٥٢.

[٨٠] يوسف/ ٥١-٥٢.

[٨١] ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢٣٢. الرازي، المصدر السابق، ص٥٤. ابن كثير، القصص، ص٢٤٩. بهجت، المصدر السابق، ص١٤١.

[٨٢] الطباطبائي، تفسير الميزان، ص١٩٩.

عدم خيانتها ليوسف. كون سياق الآية يوضح بأن المقصود بعدم الخيانة هنا هو ليوسف أي عدم خيانتها لحبه الذي نما في أعماقها منذ أن رأته. فالآية الكريمة توحي بأن زليخا قد تحولت الى دين يوسف حيث ان سجنه (عليه السلام) كان نقلةً هائلة في حياتها، آمنت بربه واعتنقت دينه وهو لا يعلم، أحبته على البعد ولا زالت تحبه وهي المرأة العاشقة التي لا تملك الا أن تظل معلقة بكلمة منه[٨٣].

انها امرأة أحبت بصدق وأصرت على أن تكبّر الرجل الذي تعلقت به في جاهليتها واسلامها وأن تظل معلقة بكلمة منه، وهكذا يتجلى العنصر الانساني في تلك العلاقة[٨٤].

يقول الفرماوي في شرح سورة يوسف: لقد تابت المرأة (أي زليخا) اذ اعترفت على نفسها وأثبتت صدق يوسف في طهارته وبراءته ثم استمرت في كلامها الذي يشع منه الايمان ويؤكد صدق تحولها وصدق توبتها وهي تقول (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) ـأي ليعلم يوسف انني لم أكذب عليه ولم أذكره بسوء وهو غائب.

يعلق الفرماوي على ذلك فيقول: وبهذا تحولت زليخا من فاجرة أولاً الى مسلمة ثانياً ثم الى داعية[٨٥] وعلى الرغم من ان موقف امرأة العزيز الأولي من يوسف ومراودتها ليوسف يوحي بأنها فاجرة الا أن اختيار مفردة أخرى غيرها يكون أفضل وأكثر لياقة فضلاً عن كونه أكثر انسجاماً مع الحدث فزليخا لم تكن فاجرة بقدر ما كانت عاشقة وهائمة.

---

[٨٣] بهجت، المصدر السابق، ص١٤١.

[٨٤] سيد قطب، في ظلال القرآن، ط٥، دار احياء التراث العربي، ج١٢، بيروت، ص٢٥٠.

[٨٥] الفرماوي، عبد الحي سورة يوسف (ع)، مشاهد ودروس، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا، ٢٠٠٢، ص١٢٧/يوسف الآية٥٢.

قصة يوسف في القرآن وان لم تبين الامتداد الزمني لوجود زليخا في دار قطفير، الا أن الأحداث توضح انها لم تكن مدة طويلة اذ ربما لا تتعدى السنوات وان الفارق في السن بينها وبين يوسف لم يكن كبيراً فهو ربما لا يتعدى السنوات ايضاً.

أما اذا صحت رواية الطفل الذي كان في المهد والذي شهد على الحادثة[٨٦] فهذا يعني ان وجوده كان لغرض اشباع غريزة الأمومة لدى زليخا، لكونها لم تلد بعد، ليس بسبب كونها عاقراً وانما بسبب أما كبر سن زوجها أو لأنه كان عنيناً لا يأتي النساء[٨٧] ومن هنا يتبين بأن الجانب الوجداني لدى زليخا كان نشطاً وانها امرأة عفيفة أرادت أن تسير حياتها بشكل نظيف على الرغم من قدرتها على الفعل السيء وتوفر الظروف الموضوعية له، لذلك عندما دخل يوسف الى حياتها تعاملت معه أولاً باعتباره حبيباً وكأنه ابنٌ أو شخص أصغر منها سناً ربما يأخذ صفة الأخ الأصغر مثلاً (هذا عندما نأخذ بنظر الاعتبار انها أحبته ولم تتعامل معه باعتباره مملوكاً لها) وبالتدريج ونتيجة لخصائص يوسف الرائعة وجدت فيه امرأة العزيز خاصة وانها لم تفقد عذريتها بعد شخصاً يمثل دور الحبيب الذي اذا ما استطاعت أن تقنعه بذلك فمن الممكن أن تتطلّق من زوجها وتتزوجه لتشكل معه ثنائياً يعيش حياة زوجية سعيدة. بدليل انه عندما خرج من بيتها الى السجن وبدفع منها كعقوبة له لعدم انسجامه مع رغباتها، أحست بالذنب وتغيرت حياتها فبُعد يوسف عنها كلفها الكثير فزاد حبها له وبذلك زاد اصرارها على أن تتمسك بذلك الحب حتى لو كان دون ثمر أو فائدة يقول السدي: لما دخل يوسف الى السجن كانت زليخا لاتهجع ولا تصبر ولا تنام ليلاً ولا تأكل ولا تشرب نهاراً حتى نحل جسمها

---

[٨٦] نفسه، ص١٢٤.

[٨٧] نفسه، ص١٥٢.

وصارت مثل العود البالي[٨٨] وقد جاء في بدائع الزهور ايضاً وعن السدي نفسه: لما وقع القحط بمصر جاءت زليخا الى يوسف ومعها خادم يقودها حيث أصابها العمى والطرش وافتقرت وذهب جمالها، فلما أقبلت على يوسف عرفها فقال لها: أنت زليخا؟ قالت: نعم قال لها: أين حسنك وجمالك؟ قالت ذهب ذلك كله ولم يبقَ منه شيء، فقال لها يوسف: كيف حال محبتك، فقالت باقية لم تتغير ولم أجد للعمى والنظر ألماً من كثرة الشغف بك[٨٩].

أما ما يتعلق بالآية الكريمة (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) والتي كانت تشكل خط النهاية لعلاقة يوسف بامرأة العزيز، بعد أن كانت الآية الكريمة (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) قد مثلت خط البداية بالعلاقة المكانية التي جمعت الطرفين في بيئة واحدة فان تفسيرها (أي آية الهم) قد اختلف عليه وبخصوصه المفسرون والمؤرخون وأصحاب الرأي. والاختلاف لم يكن على (هم زليخا) فهمها قد أجمعوا على انه هم الغرض منه الحصول على ما ترغب وتريد لذلك وقع الاختلاف على هم يوسف فقط، وعلى الرغم من أن أحمد بن حنبل (رض) يؤكد بأن الهم همان أو نوعان (هم اصرار وهم خاطر) وهم الخاطر لا يؤاخذ به العبد كما هو الحال مع هم الإصرار، وهم يوسف وهو من النوع الثاني، أي هم خاطر[٩٠].

---

[٨٨] الحنفي، المصدر السابق، ص١٥٤.

[٨٩] المصدر نفسه، ص١٦٠.

[٩٠] الفرماوي، المصدر السابق، ص٦٤.

إلا أن الطبري[٩١] والثعلبي[٩٢] وابن الاثير[٩٣] والحنفي[٩٤] فسروا الآية بطريقة أخرى حيث قالوا ان يوسف قابلها بالمثل وهم أن يضاجعها وحل سرواله (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ).

فيما اختلف الآخرون ومنهم المتأخرون على أن هم يوسف لم يكن كذلك وقدموا لذلك الأدلة والبراهين، وهذا الاختلاف لخصه ابن كثير بقوله: ان أقوال المفسرين هنا (يقصد الأولين كالطبري والثعلبي) مأخوذ عن كتب أهل الكتاب والإعراض عنه أفضل والذي يجب أن نعتقده هو ان الله تعالى عصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها ولهذا قال تعالى (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)[٩٥].

وقبل أن ننتقل الى ما دونه الرازي في عصمة الأنبياء حول الموضوع لا بد من الوقوف عند (هم يوسف) من وجهة نظر أولئك المفسرين والمؤرخين. فعلى الرغم من ان يوسف وزليخا كانا لوحدهما لا ثالث لهما الا الله تعالى والطفل الرضيع (اذا صحت رواية الطفل) إلا أن المؤرخين أخذهم الخيال بعيداً فأخذوا يصورون المشهد وكأنهم كانوا حاضرين لحظة وقوع الحدث، ولنأخذ مثلاً ما جاء في قصص الأنبياء للثعلبي. فالثعلبي وبالرغم من كونه قد تطرق الى مسألة الخلاف حول الموضوع حين قال: (أما ما كان من هم يوسف بالمرأة وهمها به فأختلف أهل العلم في ذلك)[٩٦] إلا أنه ينقل قول السدي وابن

---

[٩١] الطبري، التاريخ، ص٢٣٨.

[٩٢] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٢٣.

[٩٣] ابن الأثير، المصدر السابق، ص١١١.

[٩٤] الحنفي،المصدر السابق، ص١٥١.

[٩٥] ابن كثير،القصص، ص٢٣٩.

[٩٦] الثعلبي. المصدر السابق، ص١٢١.

اسحق عن الضحاك ومقاتل وابن عباس، قولهم: "لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه الى نفسها فقالت له يا يوسف: ما أحسن شعرك! قال: هو أول شيء يبلى اذا مت، قالت يا يوسف ما أحسن وجهك! قال: ربي تعالى صورني في الرحم، قالت: يا يوسف قد انحلت جسمي بصورة وجهل! قال: الشيطان يعينك على ذلك، قالت: يا يوسف الجنينة قد التهبت ناراً قم اطفئها، فقال: فأن أطفأتها منها احتراقي، قالت: يا يوسف الجنينة قد عطشت قم فأسقها، فقال: من كان المفتاح بيده فهو أحق أن يسقيها مني، قالت يا يوسف بساط الحرير قد بسط لك قم فأقضِ حاجتي قال: اذن يذهب نصيبي من الجنة، قالت: يا يوسف أدخل معي تحت الستر فاسترك به! قال: لاشيء يسترني من ربي تعالى ان عصيته، قالت: يا يوسف ضع يدك على صدري تشفني بذلك، قال: سيدي أحق بذلك مني، قالت: أما سيدك فأسقيه كأساً فيه زئبق الذهب فيتناثر لحمه ويتساقط عظمه، ثم ألقيه في الاستبرق والقيه في القيطون: يعني المخدع لا يعلم به أحد من الناس وأوليك ملكه قليله وكثيره قال: فان الجزاء يوم الجزاء" [٩٧]. ثم يقول وقال ابن عباس: فجرى الشيطان فيما بينهما فضرب باحدى يديه الى جنب يوسف وباليد الأخرى الى جنب المرأة حتى جمع بينهما حتى بلغ من هم يوسف الى أن حل الهيمان وجلس منها مجلس الرجل الخائن[٩٨]. ثم يتحدث الثعلبي بعد ذلك عن البرهان الذي رآه يوسف والذي جعله يهرب من زليخا وبطرق نستنتج من خلالها مقدار التجني على يوسف بن يعقوب عليهما السلام. والمحاورة أعلاه التي صنعها خيال المؤرخ والتي تكررت بما يشابهها في العديد من المصادر[٩٩] لم تكن معبرة تماماً عن

---

[٩٧] نفسه، ص١٢١.

[٩٨] نفسه.

[٩٩] الطبري، التاريخ، ج١، ص٢٣٦. وانظر ايضاً : ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١، ص١١٠. الحنفي، المصدر السابق، ص١٥١.

المشهد الذي أوصل يوسف الا أن يجلس منها مجلس الرجل الذي يريد الجماع. وهذا يدل على غباء المتخيل، فغزل زليخا بيوسف كان يقابله غزل من يوسف بالله سبحانه وتعالى، وطبيعة الحديث بينهما لم يكن ليصل بالطرفين الى حالة الانسجام والهيام أبداً لوجود طرف ممتنع بعيداً عن المكان بقلبه وروحه وان كان قريباً بجسده وهذا يعني ان الجانبين كانا على طرفي نقيض، ولكن مع ذلك أصر المتخيل هنا الا أن يضع نهاية للمشهد بما يسيء لذلك النبي العظيم.

الرازي في عصمة الأنبياء، تحدث عن موضوع هم يوسف مطولاً مبيناً أن هناك أربعة معانٍ لغوية للهم في بعدين أساسيين وهما البعد الاجتماعي والبعد النفسي وبعد أن يفسر الآية الكريمة (لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) على انها من قول زليخا مؤكداً بأن ليس في القرآن ما يدلل على أن الكلام من كلام يوسف، لكون الأمر اذا كان كذلك فانه يحتاج الى حذف طويل من رجوع الرسول الى يوسف (عليه السلام) وأخباره بما قاله له الملك حتى يجيبه يوسف ثم رجوع الرسول الى الملك ثانية واخباره بمقالة يوسف حتى يقول الملك (ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي) ثم يقول: وهذا محال لا يجوز مثله في القرآن ولا في الشعر. يصل أخيراً الى خلاصة مفادها ان يوسف من عباد الله المخلصين كما جاء في الذكر الحكيم (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) لذلك فان عباد الله المخلصين عصيوّن على الشيطان وكما جاء في الذكر الحكيم ايضاً (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)[١٠٠].

وبهذا يكون يوسف بريئاً مما نسب اليه، فالرجل أسمى وأجل من أن يكون أداة تقوم بعمل ما لا يرضي الله على الرغم من صعوبة الموقف، أما زليخا فاذا صحت رواية

---

[١٠٠] الرازي، المصدر السابق، ص٤٩-٥١.

زواجها من يوسف والذي أشار اليه الجميع تقريباً، فانها استناداً الى ما تقدم كانت تتميز بالخصائص التالية:

أ. امرأة من الأسرة الحاكمة وكما يقول ابن كثير كانت ابنة خالة الفرعون، الريان بن الوليد[١٠١].

ب. تزوجها عزيز مصر وكان أكبر منها سناً بكثير فضلاً عن كونه لا يأتي النساء كما يشير المؤرخون، وربما يسأل سائل هنا ما سر وجود امرأة شابة لطيفة وناعمة ومن أجمل نساء عصرها كزليخا تحت رجل عنين كبير السن، قبيح المنظر كما يقول الحنفي[١٠٢]. وهذا السؤال على الرغم من كونه سؤالاً وجيهاً ، إلا أن الجواب عليه من الممكن أن يكون سهلاً جداً تحت وطأة تأثير الملك والسلطان على النفس البشرية، فزليخا هنا اكتفت بالسلطة والجاه والموقع الاجتماعي الرفيع دون أن تلتفت الى أهم ما تحتاجه المرأة وهو رجولة الرجل، لذلك كان السلطان والجاه قد أشبع لديها الحاجات الاجتماعية والأمنية والمادية أما تلك الفسيولوجية فالظاهر انها تنازلت عنها على الأقل مؤقتاً، وربما فكرت كما تفكر الكثير من بنات حواء في موقف كهذا بأن قطفير في طريقه الى الموت وحينها سيصبح كل شيء ممكناً خاصة وان مدة وجودها في بيت العزيز على الأرجح لم تكن طويلة.

أما قطفير فهو على الأرجح لم يكن عنيناً أساساً ولكنه كان كبير السن أو مصاباً بمرض ألم به في مراحل متأخرة من حياته لم يكن معلوماً لدى زليخا لحظة زواجها منه، لذلك شغلها الملك والجاه عن التفكير بموضوع كهذا حتى دخول يوسف الى حياتها والذي كان بمثابة متغير أحدث هزة في حياة زليخا أعادها الى وضعها الطبيعي كأنثى تبحث عن الحب والوئام. وهنا تركت التفكير بكل شيء سوى يوسف مما ساعدها على البقاء في

---

(١٠١) ابن كثير، القصص، ص٢٣٩.

(١٠٢) الحنفي، المصدر السابق، ص١٥٢.

بيت العزيز طوال سنوات بقاء يوسف هناك. فحب يوسف كان باعتقادي يمثل سبباً رئيسياً لوجودها في بيت العزيز قريبة من يوسف وعاشقة له. ولسان حالها يقول عسى الله أن يغير الأحوال وتظفر به، وبالتدريج نما حبه في أعماقها حتى راودته أخيراً عن نفسه. والمراودة هنا ليست بالضرورة أن تصل الى حد الممارسة الجنسية كما اسلفت وكما صورها المؤرخون، وانما ربما كان الهدف منها أن تحتضن يوسف وتقبله وتطفئ بذلك نار حبها له. اذ ان الحب الصادق الخالي من الشوائب يتناسب عكسياً مع الغرائز، فعندما يكون الحب موجوداً وفعالاً تكون الغريزة في حالة من السبات المؤقت على الأقل الى حين استثارتها بشكل مقصود، ففي رأيي ان زليخا همت بيوسف لغرض أن تحتضنه وتقبله وتشمه معبرةً له عن حبها، أما بعد ذلك فالأمر متروك للطرفين المتفاعلين مع الحدث .. وهذا الأمر كان معلوماً ليوسف حيث أقبل مستقبلاً على الزواج منها وبمباركة الله تعالى. فلو كانت زليخا ترغب بالممارسة الجنسية فقط لكانت قد مارستها كما أشرت قبل مجيء يوسف أو بعد ذهابه الى السجن خاصة وانها متمكنة من ذلك بسبب ظروفها الشخصية والموضوعية.

ج. ضربت زليخا مثلاً بالحب الصادق الوفي ليوسف حين اعترفت بأنها كانت البادئة بطلب مراودته وكانت سبباً في سجنه، ثم انها لم تخنه بعد ذلك وفضلت أن تكون وفية له حتى انه وجدها باكراً عند زواجه منها.

د. أشار القرآن الى خيانة امرأتي نوح ولوط -عليهما السلام- بشكل واضح، إلا أن المفسرين أكدوا أنه لا يجوز أن تبغي امرأة نبي لذلك أكدوا بأن الخيانة المنوه عنها كانت في الدين فقط، وفي الوقت الذي لم يشر فيه القرآن الى خيانة زليخا، بل أشار الى عدم خيانتها عندما قال (ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) ورغم ذلك أشاروا الى خيانة زليخا وان كانت بأثر رجعي، أي قبل زواج يوسف منها، إلا أنه وفي رأيي لا يصح ذلك أبداً فلو كانت تبغي الممارسة الجنسية من يوسف ما زوجها الله اليه.

هـ. كانت زليخا الزوجة الوحيدة ليوسف وأم ابنيه افرائيم ومنشا ولم يتطرق القرآن والسنة ومصادر التاريخ الى وجود امرأة أخرى في حياة يوسف غيرها.

و. وقفت زليخا الى جانب يوسف بعد زواجها منه ليلة تسلمه لمنصبه فكانت عوناً له على الحياة وربما كان لها اثر بنجاحاته المتكررة، اذ لم يتطرق القرآن والسنة والمصادر الى عكس ذلك. وبهذا تكون زليخا هي أفضل بكثير من امرأتي نوح ولوط اللتين أشار لهما القرآن اشارة سلبية، كونها قد تركت أثراً ايجابياً في سفر الحياة بحبها واخلاصها ونبل مواقفها.

ز. بقي أن نقول وبسبب خصوصية علاقة زليخا بيوسف وما ترتب عليها من مواقف فقد ثرت هذه القصة في الأدب العربي وكذلك في الآداب الشرقية الأخرى كالفارسية والتركية حيث خصصت لها دواوين باسم (يوسف وزليخا) وهو باب واسع وكبير في الآداب الشرقية[١٠٣].

---

[١٠٣] من مقيدات الدكتور حسين علي محفوظ.

الفصل السابع
امرأة أيوب - عليه السلام -

أولاً: من هو أيوب؟

ثانياً: رحمة امرأة أيوب - وراء كل صابر صابرة -

امـرأة أيـوب

الأسرة نواة المجتمع والبذرة التي يسعى من له اليد الطـولى في الأمـر أن تكـون طيبة في جل عددها كي ينعكس ذلك على الوضع العـام للمجتمـع، لـذلك اهـتم الاسـلام بالأسرة من خلال اهتمامه بالزواج الذي يشكل الخطوة الأولى لبنائها، ثم بعد ذلـك نظـم العلاقة بين طرفي المكون الرئيس لها وهما الرجل والمرأة ... الخ من الـضوابط التـي مـن شأنها السير قدماً بالأسرة لتأخذ دورها في المجتمع بـشكل صـحيح، ومـا ورد في الـذكر الحكيم عن هذا الموضوع فضلاً عما جاء في كتب الحديث الشريف من توجيهات محمدية بهذا الشأن تؤكد الى حد بعيد صحة ما ذهبنا اليه.

وأسرة النبي أيوب -عليه السلام- هي واحدة من الأسر الأصـيلة التـي ضربـت مثلاً بالالتزام والصبر والايمان حين تعرضت للهلاك فضاع المال أولاً ثـم الأولاد ثانيـاً ثـم بقية الركائز حتى أصبح قائد الأسرة ذلك النبي الطيب وبسبب المـرض هـيكلاً لا يحمـل سوى أنفاساً حفظت له الحياة، ومع كل ما تعرض له ظل صابراً محتسباً خاشـعاً للـه، مؤمناً بقدره وبعد أن تركه الجميع بقيت امرأته واقفة معه في الضراء مسجلةً بذلك مثلاً رائعاً للمرأة المؤمنة الصابرة حتى فرج الله عنه كربه وهمه وعادت له صـحته وعافيتـه وشبابه[1].

---

[1] راجع قصة أيوب في كل من:

وقبل أن نتعرف على اثر تلك المرأة الطيبة لا بد من الوقوف عند الحدث نفسه الذي جعلها في الواجهة، ولكننا سنبدأ بالحديث عن أيوب نفسه أولاً.

أولاً: النبي أيوب (عليه السلام).

ربما تكون صحيحة رواية الدعاء الذي دعا به اسحق لولديه عيص ويعقوب، والذي ورد في بعض المصادر[٢] منقولاً عن كتب اليهود وتوراتهم وذلك عندما دعا ليعقوب بأن يجعل الله في ذريته الأنبياء ودعا لعيص أن تكون ذريته عدد الذرات ولا يملكهم غيرهم، وبالفعل كان الأنبياء من الفرع الاسحاقي بعد يعقوب من يعقوب نفسه وهذا ما أطلق عليه فيما بعد بأنبياء بني اسرائيل، ولم يكن من أبناء العيص أي نبي سوى أيوب (عليه السلام)[٣].

الثعلبي، المصدر السابق، ص١٥٦. ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٢٦٧. الجزائري، المصدر السابق، ص١٨٣.

[٢] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٠٤. وانظر ايضا: ابن كثير، القصص، ص٢٢٣.

[٣] الحنفي، المصدر السابق، ص١٧١: وفي الوقت الذي ينقل فيه الحنفي بأنه لم يأت من نسل العيص نبي سوى أيوب، ينقل وفي ذات الوقت وفي ظاهرة تدعو للانتباه بأن ذا الكفل هو ابن أيوب وقد بعثه الله رسولاً الى جميع أهل الشام. وذو الكفل (عليه السلام) الذي ورد ذكره في سورتي الأنبياء، و(ص) وكما يلي (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) الأنبياء ٨٥-٨٦. (وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ) صاد/٤٨، كان الخلاف بخصوصه قد أخذ جانبين، الأول يخص مرجعه وأصله وزمن وجوده والجانب الثاني يخص دوره وهل كان نبياً أم لا. وفيما يخص الفقرة الأولى، فأن الثعلبي في قصص الأنبياء يقول: وقال بعضهم ان ذا الكفل بشر بن أيوب الصابر بعثه الله بعد أبيه رسولاً الى أرض الروم فآمنوا به وصدقوه وأتبعوه - الثعلبي، المصدر السابق، ص١٦٦. ابن الأثير يؤيد الحنفي يؤكد أن ذا الكفل هو ابن أيوب وقد أرسله الله نبياً وسماه ذا الكفل، ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٠٨، والحنفي المصدر السابق، ص١٧٨. الجزائري في قصص الأنبياء، يقول: ذو الكفل كان رجلاً حاكماً من حضرموت واسمه عويد بن اديم =

وعليه فان الرواية أعلاه ان صحت أو لـم تـصح فـان المـؤرخين والمفـسرين أكـدوا وبالاجماع بأن أيوب من أبناء العيص وان اختلفوا في تسلسل آباءه وصولاً الى العيص بـن اسحق بن ابراهيم (عليهم السلام). فاليعقوبي[٤] يؤيده الطبري[٥] ينقلان عن ابن اسحق قوله: هو أيوب بن آموص بن ذراح بن رعوئيل بن عيصون بن اسحق بن ابراهيم (عليهم السلام). الثعلبي في قصص الأنبياء يتحدث عن اسماء أخرى غير التي ذكرهـا اليعقـوبي فيقول: أيوب هو إبن آموص بن تارح بن روم بن عيص بـن اسـحق[٦]. أمـا ابـن الأثـير فيقول: وأيوب من الروم من ولد عيص وهو أيوب بـن مـوص بـن رزاح بـن عـيص بـن

=الجزائري، المصدر السابق، ص٢٨٦. صاحب تفسير الميزان يقول: كان ذو الكفل قد جاء بعد سليمان بن داود وكان يقضي بين الناس كما كان يقضي داود وكان اسمه عويديا فهو الذي ذكره الله تعـالى في كتابه حين قال: (وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنْ الْأَخْيَارِ) صـاد/٤٨. الطباطبـائي، التاريخ، ص٣٧٩. أما ما يتعلق بكونه كان نبياً أم لا، فأن هذا الأمر كما قلت كان مدار خلاف، فالقرآن الكريم وكما هو مبين في الآيات أعلاه قد ذكره من ضمن الأنبياء لكنه لم يقل عنه صراحة انه نبي ولم يشر الى ذلك بشكل دقيق، يعلق ابن كثير في قصص الأنبياء على الموضوع قائلاً: والظاهر مـن ذكـره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي وهذا هـو المـشهور، وقـد زعـم آخرون انه لم يكن نبياً وانما كان رجلاً صالحاً وحكماً مقسطاً عادلاً، وروى ابن جرير وأبو نجيح عن مجاهد: انه لم يكن نبياً وانما كان رجلاً صالحاً، وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ويقضي بينهم بالعدل ففعل فسمي ذا الكفل. ابن كثير، القصص، ص٢٧٥.

[٤] اليعقوبي، التاريخ، ص٣٢.

[٥] الطبري، التاريخ، ص٣٢٢.

[٦] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٥٦.

اسحق[٧]، ابن كثير يؤيد ابن الأثير في تسلسل أجداد أيوب ويقول أما أمه فتعود بنسبها الى نبي الله لوط (عليه السلام)[٨].

أشار القرآن الكريم الى أيوب في سورتي الأنعام والنساء مع بقية الأنبياء في اشارة الى كونه نبيّاً ومن ذرية ابراهيم[٩]، أما في سورتي الأنبياء و(ص) فقد كانت الاشارة اليه مركزة ومن خلالها تم معرفة قصته وصبره الذي فاق التصورات، حيث جاء في الذكر الحكيم (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ)[١٠].

هذا ما جاء في سورة الأنبياء، أما في سورة صاد فقد كانت هناك إشارة فيها شيء من التفصيل حيث قال تعالى (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)[١١]. عاش النبي أيوب (عليه السلام) حياته على ثلاث مراحل تحول فيها

---

[٧] ابن الاثير،المصدر السابق، ص١٠٣. .

[٨] ابن كثير،القصص، ص٢٦٧.

[٩] الأنعام/ ٨٤ والنساء/ ١٦٣.

[١٠] الانبياء/ ٨٣-٨٤.

[١١] ص / ٤١-٤٤.

من الرخاء الى البلاء ثم عاش الى الرخاء مرة أخرى حتى انتقل الى جوار ربه وعمره ثلاثة وتسعون عاماً[١٢].

كانت المرحلة الأولى وهي المرحلة الأطول مرحلة رخاء ونعيم حيث كان عليه السلام من الناس الأغنياء[١٣] كثير المال والولد كما يقول المسعودي[١٤] فمن الأبناء كان له سبع أولاد وسبع بنات، أما الأموال فكانت لا تحصى ولا تعد[١٥].

يصف الثعلبي في قصص الأنبياء الحالة التي كان عليها أيوب وعلاقته بالناس ووضعه المادي وما أنعم الله به عليه من النعم قائلاً "وكان الله قد اصطفى أيوب ونبأه وبسط عليه الدنيا. وكان له من أصناف المال كله: من الابل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه في العدة والكثرة، وكان له بها خمسمائة عبد لكل عبد وامرأة امرأة وولد ومال ... وكان الله أعطاه أهلاً وولداً من رجال ونساء. وكان أيوب تقياً رحيماً بالمساكين يكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضعيف ويبلغ ابن السبيل، وكان شاكراً لأنعم الله تعالى مؤدياً لحقه، وقد امتنع من عدو الله ابليس أن يصيبه منه ما

---

[١٢] الطبري، التاريخ، المصدر السابق، ص٣٢٤.وانظر ايضاً: الثعلبي، المصدر السابق، ص١٦٠. ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٠٧.

[١٣] أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٧.

[١٤] المسعودي، المروج، المصدر السابق، ص٤٨.

[١٥] البرسوي، ، المصدر السابق، ص٥١٢.

أصاب من أهل الغنى من الغرور والغفلة والشاغل والسهو عن أمر الله تعالى بما هو فيه من الدنيا"[١٦].

وابليس (لعنه الله) الذي ظهر على الساحة كعنصر متمرد على الارادة الالهية عشية خلق آدم (عليه السلام) وهو يتمتع بقدرات ذاتية هائلة، أصر على أن يكون نداً لآدم ولأبناءه من بعده، لذلك كان له حضور مميز في حياة أيوب (عليه السلام) حيث ان عبادة الأخير وتقواه والتزامه وتسبيحه لله وعبادته له فضلاً عما أنعمه الله عليه من نعيم، كان يشكل مصدر إزعاج لابليس الذي لا يروق له أن يكون هناك عبداً مؤمن مخلص لله تعالى فقد جاء في مصادر التاريخ: ان ابليس لما سمع الملائكة تصلي على أيوب انسجاماً مع ذكر الله وثناءه عليه حسده على ذلك، فسأل الله أن يسلطه عليه فسلطه على ماله أولاً حيث جمع ابليس عفاريت الشياطين وعظماءهم وقال لهم اني سلطت على مال أيوب فهاتوا ما عندكم من قوة لاهلاك ماله كله فبدأوا بعملهم وهلكوا ماله ولم يبقَ لديه شيء، وهو في كل ذلك يحمد الله ولا يثنيه شيء أحبب به من ماله عن الجد في عبادة الله تعالى والشكر له على ما اعطاه والصبر على ما ابتلى به، فلما رأى ابليس ذلك، سأل الله أن يسلط على ولده فسلطه عليهم، فأهلكهم كلهم. ثم جاء اليه متمثلاً بمعلمهم الذي كان يعلمهم الحكمة جريحاً مشدوقاً وهو يبكي حتى رق أيوب وبكى ثم قبض قبضة تراب فوضعها على رأسه، فسُر ابليس بذلك، ثم أن أيوب استغفر وتاب فلما علم ابليس ذلك وعرف انه لم يثنِ أيوب (عليه السلام) عن عبادة الله كل ما حل به من مصائب، سأل

[١٦] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٥٦.

الله تعالى أن يسلطه على جسده، فسلطه على جسده دون لسانه وقلبه وعقله، فانه لم يجعل له على ذلك منه سلطاناً فجاء وهو ساجد، فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده فصار من جملة أمره الى أن أنتن جسده، فأخرجه أهل القرية من القرية الى كناسة في مزبلة لبني اسرائيل خارجها حيث أكل لحمه الدود ولم يبقَ له مال ولا ولد ولا صديق ولا أحد يقربه غير رحمة امرأته[١٧].

يختلف صاحب تفسير الميزان يؤيده أحمد بهجت في كتابه أنبياء الله عن المؤرخين الذي نقلوا الرواية أعلاه التي تقول ان أيوب قد أكله الدود ونتن جسده ورمي على مزبلة لبني اسرائيل وعد ذلك من الاسرائيليات حيث يقول: أن الرواية تذكر ابتلاءً أيوب بما تنفر عنه الطباع وهناك روايات عديدة تؤيد ذلك، لكن ما جاء عن أئمة أهل آل بيت ينفي ذلك وينكره فقد جاء عن الامام الصادق (عليه السلام) قوله "ان ايوب -عليه السلام- ابتلى سبع سنين من غير ذنب وان الأنبياء لا يذنبون لأنهم معصومون مطهرون، وان من جميع ما ابتلى به لم تنتن له رائحة، ولا قبحت له صورة ولا خرجت منه من دم ولا قبيح ولا استقذره أحد ولا استوحش منه أحد ولا تدود شيء من جسده وهكذا يصنع الله عز وجل لجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرمين عليه"[١٨]. أما عن سبب اجتناب الناس له فيقول: وانما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهره

---

[١٧] الطبري، التاريخ، ص٣٢٢. الثعلبي، المصدر السابق، ص١٥٧. ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٠٣. ابن كثير، القصص، ص٢٦٨. ابو الفداء، المصدر السابق، ص٢٧. السيوطي، المصدر السابق، ص٣١٧. الجزائري، المصدر السابق، ص١٨٤.

[١٨] الطباطبائي، التاريخ، المصدر السابق، ص٢٣٢. بهجت، المصدر السابق، ص١٧٢.

لجهلهم بما له عند ربه من منزله واهمية، وعن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: أعظم بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، ثم ان لله تعالى حكمه في كل ذلك فعندما شاهد الناس عظمة شأن أيوب ولغرض أن لا يدعو له الربوبية، وليستدلوا بذلك على أن الثواب من الله على ضربين وهما الاستحقاق والاختصاص، ولغرض أن لا يحتقروا ضعيفاً لضعفه ولا فقيراً لفقره ولا مريضاً لمرضه، وليعلموا ان الله تعالى يسقم من يشاء ويشفي من يشاء متى شاء وكيف شاء وبأي سبب، ويجعل ذلك عبرة للآخرين، وهو جل شأنه في كل ذلك عدل في قضائه وحكيم في أفعاله لا يفعل بعباده الا الأصلح لهم ولا قوة لهم إلا به[19]. استمر أيوب في البلاء مدة طويلة من الزمن[20] وهو صابر يشكر الله تعالى حتى ان زوجته قالت له يوماً: لو دعوت الله ليخلصك مما ابتلاك به فقال لها: وكم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة، وفي رواية سبعين سنة[21] فقال أنا أستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي[22].

يقول الثعلبي: بعد أن سلط الله تعالى ابليس على أيوب فجاء أولاً على ابله فقضى عليها ثم رجع الى أيوب فوجده يصلي فقال له "هل تدري بالذي صنع ربك الذي اخترته وعبدته بابلك ورعاتها؟ فقال: انها ماله أعارنيها وهو أولى بها ان شاء تركها وان

---

(19) الطباطبائي، المصدر السابق، ص٢٣٣.

(20) اختلف في مدة بقائه في البلاء فمنهم من قال ثمانية عشر عاماً ومنهم من قال سبعة أعوام ومنهم من قال ثلاثة أعوام فقط، راجع قصة أيوب، في الثعلبي، المصدر السابق، ص١٥٦-١٦٦.

(21) السيوطي، المصدر السابق، ص٣١٧.

(22) البرسوي، المصدر السابق، ص٥١٢.

شاء أخذها فأنا ومالي للفناء والزوال، فقال ابليس: فان ربك أرسل اليها ناراً من السماء فأحترقت كلها ثم بقي الناس مبهوتين وقوفاً عليها يتعجبون منها فمنهم من قال: ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان الا في غرور ومنهم من قال: لو كان اله أيوب يقدر على أن يصنع شيئاً لمنع وليه من حرق مواشيه ومنهم من قال بل هو الذي فعل ما فعل فشمت به عدوه وفجع به صديقه فقال أيوب: الحمد لله الذي أعطاني وحيث شاء نزع مني، عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود الى القبر وعرياناً أحشر الى ربي"[٢٣].

وعن عبد الله بن عمر (رض) قوله: (كان لأيوب اخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران على الدنو منه من نتن ريحه فقال أحدهما لصاحبه: لو كان الله علم في أيوب خيراً ما ابتلاه بما ترى، قال فما سمع أيوب شيئاً كان أشد عليه من تلك الكلمة وما جزع من شيء أصابه جزعه من تلك الكلمة فعند ذلك قال مسني الضر)[٢٤]. يقول الثعلبي قيل لأيوب بعدما عوفي ما كان أشد عليك في بلاءك؟ فقال شماتة الأعداء، فأنشد بعضهم في معنى ذلك قائلاً[٢٥]:

كل المصائب قد تمر على الفتى ... فتهون غير شماتة الحساد

ان المصائب تنقضي أيامها ... وشماتة الأعداء بالمرصاد

---

[٢٣] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٥٧.

[٢٤] المصدر نفسه، ص١٦٦.

[٢٥] المصدر نفسه، ص١٦٦.

وعند نهاية مأساة أيوب وانطلاقاً من الآية الكريمة (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)[٢٦].

تحدث المؤرخون والمفسرون بالكثير، ننقل هنا ما جاء في بدائع الزهور حول الموضوع: يقول السدي لما قال أيوب (عليه السلام) رب اني مسني الضر استجاب له الله تعالى فأرسل اليه جبرائيل (عليه السلام) برمانة من الجنة وقيل بسفرجلة وقابل أيوب فقال له أيوب، من أنت أيها العبد الصالح الذي آنست بك بعدما نفر عني الأصحاب والأحباب، فدنا منه جبرائيل وناوله تلك الأمانة، فلما أكلها ونزلت في جوفه ذهب عنه الألم الذي يعشعش في جسده سنين فقال له جبريل يا أيوب قم، فأجابه أيوب: كيف أقوم وليس لي قوة وحول على ذلك؟ فأخذه جبريل بيده ومشى به اثنتي عشر خطوة وقال له: أركض برجلك اليسرى فركض فظهرت له عين ماء حار ثم قال له: أركض برجلك اليمنى فظهرت له هناك عين ماء بارد فقال له جبرائيل اغتسل من الحارة واشرب من الباردة فلما غسل وشرب عاد اليه حسنه وجماله وصار جسده كالفضة النقية ثم أتاه جبرائيل بحلة من الجنة وألبسه اياها وتوّجه تاجاً من الجنة فصار أيوب يزهو كالشمس المضيئة فعند ذاك صلى أيوب ركعتين شكراً لله تعالى على نعمته ورضاه وقد قيل في معنى ذلك[٢٧]:

ما ضاق بالمرء أمر فأستعد له	عبادة الله الا جاءه الفرج
وما ألم بباب الله ذو تعبٍ	إلا تزحزح عنه الهم والحرجُ

---

[٢٦] ص/٤١-٤٣.

[٢٧] الحنفي، المصدر السابق، ص١٧٥.

ثانياً: رحمة امرأة أيوب (وراء كل صابر صابرة).

لا نريد من خلال العنوان أعلاه أن نربط صبر أيوب وكأنه جاء بدفع من رحمة ونبخس الرجل صبره المثالي الذي دفعه اليه ايمانه القوي كونه نبي وذلك انسجاماً مع اثره في الحياة، بقدر ما نريد أن نقول ان صبر رحمة كان هو الآخر صبراً أنثوياً أضاف لصبر أيوب طعماً آخر أكدت من خلاله تلك المرأة الرائعة قدرتها على الفعل الايماني الذي ينسجم وايمانها القوي ذلك بإرادة الله وحكمته.

ارتبط اسم أيوب (عليه السلام) بموقف اجتماعي مبني على الايمان القوي والقدرة على التحدي ذلك هو الصبر الذي أشار اليه القرآن المجيد في مواقع عدة من سوره المباركة، واذا كان صبر أيوب الذي اصبح مثالاً يحتذى به صبراً بكل المقاييس فان صبر رحمة زوجته كان هو الآخر مثلاً رائعاً لصبر المرأة الوفية الصادقة النبيلة التي وقفت مع زوجها في محنته فكانت له نعم المحب ونعم المعين وضربت بذلك مثلاً يحتذى به ايضاً في التماسك الأسري المطلوب تحقيقه في أي مجتمع، لذلك أثنى الله على صبر أيوب وزوجته وعوضهما خيراً انطلاقاً من الآية الكريمة (وَبَشِّر الصَابِرِين)[٢٨] وصبر أيوب على ماله رافقه صبر رحمة على عيالها هي الأخرى لأن المال هنا هو ملك الطرفين وربما يكون صبر رحمة أكثر ألماً لأنها أم والأم أكثر عاطفة بسبب تركيبتها وبنائها النفسي. أما صبر أيوب على جسده وصحته فقد رافقته رعاية مستمرة من رحمة لم تهدأ ولم تخمد حتى فرّجَ الله عنه كربه ورد له أهله وماله كما جاء في الذكر الحكيم: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ

---

[٢٨] البقرة/ من الآية ١٥٥.

فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ)[٢٩]، يقول البرسوي: ولّد له ضعف ما كان له وان الله تعالى رد الى امرأته شبابها فولدت له ستة وعشرين ولدِ[٣٠].

لم يتحدث القرآن صراحة عن زوجة أيوب إلا أن المفسرين والمؤرخين توقفوا عند الآية الكريمة (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)[٣١]، والأواب يعني المقبل على طاعة الله[٣٢]. فقالوا ان الضغث والضرب به هنا كان موجها ضد زوجة أيوب، لذلك انطلقوا بالحديث عن صبر أيوب من الخط العام الذي حدده القرآن في سورتي الأنبياء وصاد وكونوا تصوراً عاماً بتفاصيل شبه دقيقة عن الحال الذي وصل اليه أيوب، ثم تطرقوا الى استجابة الله تعالى لدعائه وعلاقة زوجته بذلك المشهد التراجيدي بكل فصوله وموقفها النبيل مع زوجها وعدم تخليها عنه لذلك تحدثوا عن السبب الذي جعل أيوب (عليه السلام) يقسم يميناً بضربها واختلفوا في ذلك[٣٣] إلا أنهم اتفقوا جميعاً على أن رحمة كانت مع أيوب طول الفترة التي ابتلاه الله بها ولم تفارقه أبداً، يعلق ابن كثير على موضوع الضرب بالضغث والآية الكريمة أعلاه فيقول "وهذه رخصة من الله تعالى

---

[٢٩] الأنبياء/٨٤.

[٣٠] البرسوي، المصدر السابق، ص٥١٤.

[٣١] ص/٤٣-٤٤.

[٣٢] النووي، المصدر السابق، مجـ٢، ص٢٣١.

[٣٣] راجع السيوطي، المصدر السابق، ص٣١٦-٣١٧.

لعبده ورسوله أيوب (عليه السلام) فيما كان من قسمه ليضربن امرأته مائة سوط فقيل قسمه كان لبيع ظفائرها، وقيل لأنه عارضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته وأخبرته فعرف انه الشيطان، فحلف ليضربنها مائة سوط، فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثاً وهو كالعثكال الذي يجمع الشماريخ، فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة، ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سوط ويبرد ولا يحنث"[٣٤]، ثم يقول وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما في حق تلك المرأة الصابرة المحتسبة، المكابدة والصديقة البارة المطيعة رضي الله عنها[٣٥].

ورحمة كما أشرنا هو اسم امرأة أيوب وقد اتفق على ذلك القدر الأكبر من العلماء، إلا أنهم اختلفوا بعض الشيء في اسم أبيها، فالطبري[٣٦] مثلاً يؤيده الثعلبي[٣٧] والبرسوي[٣٨] والحنفي[٣٩] وصاحب تفسير الميزان[٤٠] يقول هي رحمة بنت افرائيم بن يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام. المسعودي لم يذكر اسمها بالكامل لكنه تحدث عن المكان الذي عاش به أيوب وعن البلاء الذي ابتلى به وقد أشرك رحمة في البلاء لموقفها الرائع معه فيقول: "كان أيوب كثير المال والولد فابتلاه الله في

---

[٣٤] ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٢٧٣.

[٣٥] المصدر نفسه.

[٣٦] الطبري، التاريخ، ص٣٢٢.

[٣٧] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٥٩.

[٣٨] البرسوي ، المصدر السابق، ص٥١٢.

[٣٩] الحنفي،المصدر السابق، ص١٧١.

[٤٠] الطباطبائي، التاريخ، ص٢٣١.

نفسه وماله وولده فصبر ورد الله عليه ذلك وقد نص من اخباره في كتابه وعلى لسان نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) أما سكنه والعين التي شرب منها فهي في وقتنا هذا (أي وقت كتابة هذه المعلومة من قبل المسعودي وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة) أي قبل وفاة المسعودي بأربعة عشر عاماً، مشهورة ببلاد نوى والجولان فيما بين دمشق وطبرية، والحجر الذي كان يأوي اليه في حال بلائه هو وزوجته واسمها رحمة في ذلك المسجد)[٤١]. أبو الفداء يعتمد المسعودي في روايته فيقول "وكان لأيوب زوجة اسمها رحمة وكان صاحب أموال عظيمة"[٤٢].

يتحدث ابن الأثير عن اسمين لزوجة أيوب (عليه السلام) فيقول (وكانت زوجته التي أمر أن يضربها بالضغث هي ليا بنت يعقوب بن اسحق، وقيل رحمة بنت افرائيم بن يوسف)[٤٣]. النسفي لم يذكر اسم زوجة أيوب لكنه فسر الآية الكريمة (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا) بالقول والضغث هو حزمة صغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك وكان قد حلف في مرضه ليضربن امرأته (دون أن يذكر اسمها) مائة ضربة اذا برئ من مرضه ثم يتحدث عن السبب فيقول: والسبب في يمينه انها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة وقيل باعت ظفائرها برغيفين وجاءت بهما الى أيوب[٤٤]. ابن كثير يتحدث عن ثلاثة أسماء لزوجة أيوب (عليه السلام) فيقول "وقيل اسم زوجة أيوب هو ليا بنت يعقوب – وقيل

---

[٤١] المسعودي، المروج، ص٤٨.

[٤٢] ابو الفداء، المصدر السابق، ص.

[٤٣] ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٠٣.

[٤٤] النسفي، المصدر السابق، مج٣، ص١٩٧.

رحمة بنت افرائيم، وقيل ليا بنت منسا بن يعقوب"[٤٥]. أما السيوطي فينقل في تفسير الدر المنثور رواية وهب بن منبه فيقول: أخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه قوله "زوجة أيوب -عليه السلام- رحمة رضي الله عنها بنت ميشا بن يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام"[٤٦]. النووي في تفسير مراح لبيد المسمى (التفسير المنير لمعالم التنزيل) يتحدث عن اسماء مختلفة دون أن يشير الى سبب الاختلاف، ففي تفسير سورة الأنبياء يقول "روي ان امرأته هي ماخير بنت ميشا بن يوسف -عليه السلام- أو رحمة بنت افرائيم بن يوسف قالت له يوماً لو دعوت الله تعالى فقال: كم كانت مدة الرخاء؟ قالت: ثمانين سنة، فقال: أستحي من الله تعالى أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي"[٤٧].

وهو بهذه الرواية لم يبتعد عن أولاد يوسف كون أحدهما والد زوجة أيوب. أما في تفسير سورة (ص) فيتحدث عن الأسماء بطريقة أخرى فيقول (فجاء الشيطان الى امرأته ليا بنت يعقوب عليه السلام)[٤٨]. ثم يقول في تفسير قوله تعالى (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ)، وخذ بيدك يا أيوب ضغثاً من سنبل فيها مائة سنبلة (فأضرب به) أي امرأتك وهي رحمة بنت يوسف الصديق[٤٩]، ثم يتحدث عن السبب فيقول: لأنه حلف

---

[٤٥] ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٢٦٧.

[٤٦] السيوطي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣١٧.

[٤٧] النووي، المصدر السابق، مجـ٢، ص٤٣.

[٤٨] المصدر نفسه، ص٢٣١.

[٤٩] المصدر نفسه، ص٢٣١.

ليضربنها مائة ضربة لأنها لقيها ابليس في صورة طبيب فدعته الى مداواة أيوب فقال أداويه على أنه اذا برئ يقول، أنت شفيتني لا أريد جزاء سوى ذلك، فأشارت على أيوب بذلك فقال لها ويحك ذلك هو الشيطان فحلف أن يضربها مائة ضربة [٥٠].

الجزائري في قصص الأنبياء لم يتطرق الى افرائيم بل يربط زوجة أيوب بجدها مباشرة فيقول "كانت امرأته رحمة بنت يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم صلوات الله عليهم"[٥١].

جاد المولى في قصص القرآن لم يتطرق الى اسم زوجة أيوب وأظنه قال مع نفسه ونتيجة لاختلاف الآراء على اسمها وتسلسل آبائها ان لا يهم الاسم بقدر أهمية الموقف فراح يقول "ومرت الأيام وانحدرت الأعوام وأيوب لا يزال على شكاته حتى هزل جسمه وذهب لحمه وأصبح ضامر الوجه، شاحب اللون، ففر عنه الصديق، وجانبه الرفيق، ورغبت عنه شيعته، ومن حوله، إلا زوجه الرؤوم العطوف، فانها تحننت عليه ما وسع قلبها الحنان، وعنت به ما استطاعت الى ذلك سبيلاً، ورفت عليه بجناحيها، وبسطت له أكتاف قلبها، وما شكت إلا هموماً تساورها من آلامه، ومخاوف تحذرها على حياته، ولكنها ظلت أيام مرضه صامدة راضية، مؤمنة محتسبة"[٥٢].

---

[٥٠] المصدر نفسه.

[٥١] المصدر السابق، ص١٨٥.

[٥٢] المصدر السابق، ص١٩٦، وقد حذا أحمد بهجت في كتابه أنبياء الله حذو جاد المولى، فلم يتطرق الى اسم زوجة أيوب لكنه قال: ان الله تعالى أباح جسد أيوب للشيطان يتصرف فيه كيف يشاء، فضرب الشيطان ذلك الجسد من رأسه حتى قدميه حتى هاجره الأهل والأصحاب ولم يعد معه إلا زوجته، دون أن يذكر اسمها. المصدر السابق، ص١٧١.

ومن خلال الروايات أعلاه أرى ان الرواية التي تقول بأن زوجة أيوب هي رحمة بنت افرائيم بن يوسف هي الرواية الأكثر قبولاً، إذ من غير المنطق أن تكون زوجة أيوب هي ليا بنت يعقوب مباشرةً كما يقول البعض، ويعقوب كما هو معروف ابن اسحق بن ابراهيم في الوقت الذي يكون فيه زوجها أيوب بينه وبين جده اسحق الذي هو جد زوجته أيضاً ثلاث أو أربع حلقات كما هو مبين في نسب أيوب الوارد في الفقرة السابقة، أما الرواية التي تقول بأن رحمة هي بنت يوسف مباشرة فهذه الرواية غير صحيحة من ناحيتين الأولى، تتعلق بالحلقات المذكورة أعلاه بين أيوب باعتباره الحفيد رقم ثلاثة لعيص شقيق يعقوب، من سلسلة ابنه رعوئيل كما يقول اليعقوبي في الوقت الذي تكون فيه رحمة حفيدة يعقوب الأولى من ابنه يوسف، ومن الناحية الثانية فان أكثر المؤرخين تحدثوا عن وجود ولدين ليوسف فقط وهما افرائيم وميشا من زوجته زليخا دون أن يكون لهما بنت. أما الرواية التي تقول ان رحمة بنت ميشا فهي ممكن أن تكون صحيحة إلا أن القائلين بأنها ابنة افرائيم هم الأكثر عدداً والأقرب الى الحدث من أولئك الذين قالوا انها ابنة ميشا.

ولا زلنا في الحديث عن زواج ايوب، حيث ان مصادر التاريخ التي تمت مراجعتها تحدثت عن زوجة واحدة لأيوب في الوقت الذي كان للحنفي رأي آخر حين قال "وكان أيوب متزوجاً بثلاث نسوة فلما رأينه على تلك الحالة ذهبت اثنان وبقيت رحمة عنده فأتى ابليس الى أهل تلك القرية التي فيها أيوب فقال لهم أخرجوا أيوب عنكم وإلا يعديكم في أجسامكم من دائه، فقال أهل القرية لرحمة: أخرجي أيوب عنا وإلا قتلناه

فحملته رحمة على أكتافها وأتت به الى خرابه هناك ففرشت تحته التراب فنام عليه"[٥٣].

ثم ينقل عن وهب بن منبه قوله: ظل أيوب مطروحاً سبع سنوات لم يرقب اليه أحد سوى زوجته رحمة[٥٤].

كان لرحمة أثر كبير في حياة أيوب فقد مارست دورها الأسري على أكمل وجه وبما يرضي الله تعالى، فقد صبرت على ضياع المال والعيال، وصبرت على تحول الرخاء الى بلاء والغنى الى فقر معتم فأخذت تخدم في البيوت[٥٥]، كي تأتي لزوجها بما يحتاجه لادامة الحياة، لم تبد انزعاجها، ولم تتألم، اللهم إلا في الاتجاه الذي يصب بالخوف على حياة أيوب من الهلاك. وقد تطرقنا الى السبب الذي جعل أيوب -عليه السلام- يقسم يمينه بضربها مائة جلدة والذي حوله الله تعالى الى مائة ريحانة ليضرب بها أيوب ذلك الجسد الذي طالما وقف بروحه الطيبة معه ولم يتخلَّ عنه أبداً.

والمؤرخون تحدثوا عن أسباب عدة كانت وراء قسم أيوب بضرب زوجته، فمنهم من تحدث عن ابليس وهو يقول لها اني إله الأرض وزوجك عبد إله السماء من أن يعبدني حتى أشفيه ومنهم من قال انه قال لها سأشفي زوجك من مرضه ولا أريد منه شيئاً

---

[٥٣] الحنفي، المصدر السابق، ص١٧٣.

[٥٤] المصدر نفسه.

[٥٥] يقول الثعلبي: وقد كانت امرأة أيوب تتكسب وتعمل للناس وتجيئه بقوته، فلما طال عليها البلاء وسئمها الناس فلم يستعملها أحد، التمست يوماً من الأيام ما تطعمه فما وجدت شيئاً فقطعت ظفائرها وباعتهما، وجاءت بأرغفة من الخبز لأيوب، ولما لم يرَ ظفائرها سألها فأخبرته بذلك، وحينها قال قولته المشهورة التي فرج الله بها عنه وكما جاء في الذكر الحكيم وهي كامة -مسني الضر- الثعلبي، المصدر السابق، ص١٦٥.

سوى أن يقول انك شفيتني[٥٦]. ومنهم من قال أبطأت عليه في حاجة فحلف أن يضربها مائة جلدة عندما يتشافى[٥٧] ومنهم من قال انها باعت ظفائرها فغضب لذلك[٥٨] ... الخ من الأسباب والدوافع.

وكما أسلفنا كان للشيطان حضور في حياة أيوب وأثر كبير ببلائه الذي أراده الله أن يكون اختباراً لنبيه وعزيزه أيوب (عليه السلام). لذلك فأن رواية ابليس وحديثه مع رحمة ونقل ذلك الحديث الى أيوب من قبل رحمة لغرض مساعدته على الشفاء مما جعله يستاء منها ويقسم يميناً بضربها هو أقرب الى الحقيقة من غيرها.

تحدث الثعلبي عن دور ابليس في الموضوع وكيف انه عانى من صبر أيوب واعتبر نفسه قد خسر المعركة أمامه لصموده رغم شدة معاناته، فنقل عن الحسن البصري (ت/١١٠هـ) قوله "كان أيوب -عليه السلام- مطروحاً على كناسه لبني اسرائيل سبع سنوات لا أحد يقربه غير رحمة امرأته حيث صبرت معه تخدمه وتأتيه بطعام وتحمد الله معه اذا حمده، وأيوب رغم ما فيه من علة وآلام وسوء حال لا يفتر عن ذكر الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه الله به يقول الحسن، فصرخ عدو الله ابليس صرخة جمع بها جنوده من أقطار الأرض جزعاً من صبر أيوب، فلما اجتمعوا عليه قالوا له: ما حاجتك قال لهم: أعياني هذا العبد، سألت ربي أن يسلطني على ماله وولده، فلم أدع له مالاً ولا ولداً، فلم يزده ذلك إلا صبراً وثناء على الله، ثم سلطت على جسده

---

[٥٦] النووي، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٣١.

[٥٧] النفسي، المصدر السابق، جـ٣، ص١٩٧.

[٥٨] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٦٥.

ملقى على كناسه لا يقربه إلا امرأته، وقد افتضحت من ربي، وهنا أشاروا عليه قـائلين: نشير عليك بما أتيت به آدم حين أخرجته من الجنة من أين أتيته؟ قال: من قبل امرأتـه، قالوا: فانك وايوب من قبل امرأته ايضاً فإنـه لا يـستطيع أن يعـصيها ولا أحـد يقربـه غيرها، قال: أصبتم، فانطلق حتى جاء الى امرأة أيوب وهي تطلب الصدقة، فتمثل لهـا في صورة، فقال لها: أين بعلك يا أمة الله، فقالت: هو ذاك طريح الفراش، فتصور ابليس ان كلامها هذا فيه شيء من الجزع فطمع بالكثير وراح يوسوس لها ويـذكرها بمـا كانـت فيه من النعيم والمال، وبجمال أيوب وشبابه وما هو فيه من الضرر وان ذلـك لا ينقطـع عنه أبداً، يقول الحسن: فصرخت فتصور ابليس ان صرختها جاءت نتيجة لجزعها مـن الحال الذي عليه أيوب وما يترتب عليه من حياة مأساوية عاشتها معه لا تستطيع بعـد ذلك تحملها، فقال لها: بعد أن جاءها بسخلة، ليذبح أيوب هذه السخلة لي وسيبرأ. يقول فجاءت الى أيوب وهي تقول: يا أيوب الى متى يعذبك ربـك ولا يرحمـك؟ أيـن المـال؟ أيـن الماشية؟ أين الولد؟ أين الصديق؟ أين ثوبك الحسن؟ قد تغير وصـار مثـل الرمـاد، وأيـن جسمك الحسن؟ وكل ذلك في اشارة الى الحال المترف والنعيم الذي كان يعيشه أيوب قبـل بلاءه، وهنا طلبت منه أن يذبح السخلة التي أعطاها ابليس دون أن تعلم انه كذلك. وهنا أجابها أيوب وهو في حالة من الغضب حيث قـال: ويحـك أتـاك عـدو اللـه فـنفخ فيـك فأجبتيه، ويلك أرأيت ما تبكين مما كنا فيه من المال والولد والصحة من أنعم بـه علينـا، فقالت الله. ثم قال لها: فكم متعنا به فقالت: ثمانين عاماً، ثم قال لها: والله مـا عـدلت

ولا أنصفت وربك، ثم قسم يميناً بأن يضربها مائة جلدة قائلاً لها: "والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة كما أمرتيني أن أذبح لغير الله تعالى"[٥٩]. ثم قال لها أما طعامك وشرابك الذي تأتينني به فهو حرام علي لا أذوق منه شيئاً، ثم طردها، فخرجت من عنده[٦٠].

وهنا ونتيجةً لابتعاد رحمة عنه حدث منعطف كبير في حياة أيوب، اذ ان خروج رحمة من خط الصبر الأيوبي أثر سلباً في اللحظات العصيبة التي كان يعيشها أيوب وهو يعاني ويكابد من الألم، فأستنجد بالله تعالى طالباً منه العون بعد أن أحس بالوحدة القاتلة اذ كانت رحمة تحمل عنه ما يجعله أكثر صبراً على النوائب، فنادى ربه قائلاً (رَبِّ إنّي مَسَّني الضُرُّ)[٦١] فكان ما كان من استجابة الله تعالى له، يقول الثعلبي: (لما رأى أيوب امرأته قد طردها وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خرّ لله ساجداً وقال (رَبِّ إنّي مَسَّني الضُرُّ) ثم ردَّ الأمر الى ربه وقال (وَأنْتَ أرحَمُ الراحِمِين) فقيل له ارفع رأسك فقد استجيب لك (أركض برجلك ....) فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها فلم يبقَ من دائه شيء ظاهر إلا سقط اثره، وأذهب الله منه كُلَّ ألم وداء، وكل سقم، وعاد اليه شبابه وجماله احسن مما كان وأفضل مما مضى، ثم انه ضرب برجله فنبعت عين

---

[٥٩] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٦٤، (وربما كان كلام الحسن البصري هنا غير دقيق باختياره لمفردة {أمرتيني أن أذبح لغير الله} كون أيوب لا يمكن أن يتلقى الأوامر إلا من ربه فضلاً عن ذلك فامرأة كرحمة بصبرها الكبير مع أيوب لا يمكن أن تأمره أبداً، لذلك فان تبديل كلمة الأمر الى كلمة طلبتي مني يكون أفضل.

[٦٠] المصدر نفسه.

[٦١] الأنبياء/ من الآية ٨٣.

أخرى فشرب منها فلم يبقَ في جوفه داء إلا خرج فقام صحيحاً وكسى حلة[٦٢] يقول الحسن خرج حتى جلس على مكان مشرف[٦٣].

وهنا لنا وقفة فرحمة كانت مع أيوب -عليه السلام- منذ اللحظات الأولى لاقترانها به وعاشت معه سنوات السراء والضراء وشكلت معه ثنائياً منسجماً في كل شيء ولم يختلف أبداً سواءٌ على الخط العام أو التفاصيل. وما كان من موقف رحمة من رأي الشيطان (اذا صحت رواية الشيطان) فهو أولاً جاء نتيجة عدم معرفتها به وثانياً من باب حرصها على زوجها وسلامته وسرعة شفائه بعد أن عاش من البلاء سنين طوال، لذلك فان ابتعادها التكتيكي عن أيوب والذي جاء بطلب منه قد حفز الأخير على أن يدعو ربه بعد أن تصور أن رحمة قد تخلت عنه وبقي وحيداً وهذا يعطي تصوراً واضحاً على مدى أهميتها في حياته.

أما هي فلم تترك أيوب وحيداً إذ إن حبها له واعتزازها به ومن منطلق أصالتها ومنبعها الطيب كونها سليلة البيت الابراهيمي الشريف واستجابة لاثرها التاريخي باعتبارها امرأة نبي ولغرض أن تترك أثراً ايجابياً في الحياة يحفز الأخريات على العمل الصالح والمنظم خدمة للمجتمع، عادت ثانية الى أيوب فهو بالنسبة لها أكثر من حبيب والاهتمام به وضرورة الوقوف الى جانبه يشكلان مهمة تاريخية لا بد من القيام بها، نعود للثعلبي وهو يروي قصة عودة رحمة الى أيوب بعد أن طردها حيث يقول "ثم ان امرأته قالت مع نفسها أرأيت ان كان قد طردني الى من أكِله؟ أ أدعه حتى يموت جوعاً وعطشاً ويضيع فتأكله السباع؟ فوالله لأرجعن اليه، فرجعت فلم تر الكناسة ولا الحال التي كانت تعهدها وقد تغيرت الأمور، فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وأيوب

---

[٦٢] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٦٤.

[٦٣] المصدر نفسه.

ينظرها. قال: وهابت صاحب المحلة أن تأتيه فتسأله، فأرسل اليها أيوب فدعاها وقال لها: ما تريدين يا أمة الله؟ فبكت وقالت: أريد ذلك المبتلى الذي كان منبوذاً على هذه الكناسة لاأدري أضاع أم ماذا فعل به؟ فقال أيوب -عليه السلام-. ما كان منك؟ فبكت وقالت: انه بعلي فهل رأيته؟ فقال: وهل تعرفينه اذا رأيته؟ قالت وهل يُخفى عليَّ ثم انها جعلت تنظر اليه وهي تهابه، وقالت: أما انه كان أشبه الخلق بك إذ كان صحيحاً، قال فأنا أيوب"[٦٤]. فأقبلت عليه مسرعةً فاعتنقته ولم تفارقه من عناقه حتى مر بهما كل مالٍ وولد[٦٥] ثم ان الله سبحانه وتعالى رد اليها حسنها وشبابها حتى ولدت له ستة وعشرين ولداً ذكراً[٦٦] ثم أوحى اليه أن خذ حزمة من القش وأضرب بها زوجتك ضرباً خفيفاً رقيقاً. رخصة لك في يمينك ورحمة بهذه المخلصة المؤمنة التي عاشت معك حلو الأيام ومرها وشاركتك في الأمل[٦٧].

وهكذا سجلت هذه المرأة الطيبة أثراً تاريخياً رائعاً في الاخلاص والوفاء وكتبت بصبرها الذي كان رديفاً لصبر أيوب حكاية ظلت تتوارثها الاجيال وتتعلم من فصولها وخاصة النسوة كيفية الوفاء والصدق بالتعامل والصبر عند الملمات.

---

(٦٤) الثعلبي، المصدر السابق، ص١٦٥.

(٦٥) ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٠٧.

(٦٦) ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٢٧٢، وأنظر ايضاً البرسوي، المصدر السابق، ص٥١٤.

(٦٧) جاد المولى، المصدر السابق، ص١٩٨.

الفصل الثامن

أم موسى - عليه السلام -

أولاً: موسى وهارون - عليهما السلام -
ثانياً: أم موسى - يوكابد أم الرسولين -
ثالثاً: آسيا امرأة فرعون

أم موسى – عليه السلام –

أم موسى هي أول أم نبي تطرق لها القرآن اذ أن الأنبياء الذين ظهروا قبل موسى لم يتطرق القرآن الى أمهاتهم كما تطرق الى زوجات قسم منهم، كإشارة منه إلى أهمية التفاعل الأسري واثر المرأة بتحديد مسار الأحداث ..

والحديث عن أم موسى يعني الحديث عن مرحلة زمنية مهمة جداً في حياة المجتمع الشرقي. عاشت فيها أم موسى سنوات من القلق والخوف والترقب كتعبير عن حالة التذمر والاستياء التي عانى منها أبناء آدم في ظل حكم الطغاة الذين أعطوا لأنفسهم صفة القداسة ليعيثوا في الأرض فساداً[1] والذين ذكرهم القرآن على أنهم أناس سايروا ركب الشيطان وأصروا على العنجهية والتعامل مع الآخرين بفوقية واستعلاء فحق عليهم العذاب، بعد أن فشلت كل الوسائل السلمية بردهم عن غيهم. كان على رأس هذه المرحلة واحد من فراعنة مصر تطرق له القرآن ووصفه بشكل يستطيع من خلاله القارئ أن يكوّن فكرة فيها شيء من الوضوح عن تلك الشخصية المجرمة لذلك سنتطرق اولا للحديث عن موسى علية السلام قبل امه باعتبار أن ولادته في ظرف حرج كان يمر به بنو اسرائيل هو الذي حدد المسار الذي سارت عليه والدته وسجلت به دوراً تاريخياً مهماً ثم نتطرق بعد ذلك الى صلب الموضوع وهو اثر أم موسى في كل ما جرى، وأخيراً وبالنظر لكون اطروحتنا تتصدى لدور النساء التاريخي لذا ارتأينا أن نقف عند امرأة اشاد بها القرآن الكريم وهي امرأة فرعون آسيا بنت مزاحم[2] (رضي الله عنها). وبشكل مختصر لآثرها الواضح في بقاء موسى حياً في مسكن فرعون مصر آنذاك.

---

[1] راجع، امام، عبد الفتاح، الطاغية ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٧م، تأليه الحاكم في الشرق، ص٦١-٧٠.

[2] لم يتطرق القرآن الى اسم امرأة فرعون إلا أن المؤرخين المفسرين ذكروا ان اسمها آسية بنت مزاحم. ينظر الثعلبي، المصدر السابق، ص١٩١.

أولاً – موسى وهارون (عليهما السلام)

قال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا)[٣].

وموسى هو أحد أحفاد يعقوب (عليهما السلام) وقد اختلف في تسلسل آبائه وصولاً الى يعقوب فاليعقوبي[٤] والمسعودي[٥] وابو الفداء[٦] والنجار في قصص الأنبياء[٧] يطرحون اسمه الكامل على الشكل التالي: موسى بن عمران بن قاهت بن لاوي بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (عليه السلام) أما الثعلبي[٨] يؤيده في ذلك كل من ابن الأثير[٩] والجزائري[١٠] فينقلون اسمه على الشكل التالي: موسى بن عمران بن يصهر بن قاهت بن لاوي بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم. وبذلك يضيفون اسماً آخر لتسلسل آباءه وهو يصهر، أما ابن كثير فقد اختلفت لديه بعض الأسماء والمواقع وجاء عنده تسلسل آباء موسى كالآتي: هو موسى بن عمران بن قاهت بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم[١١] أما اسم أمه فهو يوخابذ كما سيأتي لاحقاً.

---

[٣] مريم/٥١-٥٣.

[٤] اليعقوبي، التاريخ، جـ١، ص٣٣.

[٥] المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص٤٨.

[٦] ابو الفداء، المصدر السابق، ص٢٩.

[٧] النجار، المصدر السابق، ص١٥١.

[٨] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٦٩.

[٩] ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ١، ص١٢١.

[١٠] الجزائري، المصدر السابق، ص١٩٩.

[١١] ابن كثير، القصص، ص٢٩٦.

كان موسى أحد الأنبياء الخمسة من أولي العزم والذين هم سادة الأنبياء ولهم كتاب وشريعة وهم محمد ونوح وابراهيم وموسى وعيسى[١٢] وكما جاء في الذكر الحكيم (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)[١٣].

أثنى الله تعالى في كتابه المجيد على موسى بأجمل الثناء وكما يلي (انه كان مخلصاً) و (قربناه نجياً) و (كان عند الله وجيهاً) ثم ذكره في جملة الأنبياء المحسنين الصالحين وانه فضلهم على العالمين واجتباهم وهداهم الى صراط مستقيم وبذلك اجتمع له معنى الاخلاص والتقريب والوجاهة والاحسان والصلاح والتفضيل والاجتباء والهداية والإنعام[١٤].

يمكن تقسيم حياة موسى الى أربع مراحل، المرحلة الأولى بدأت من ولادته حتى خروجه من مصر والثانية بدأت من دخوله الى مدين وزواجه ثم نبوءته قبل عودته ثانية الى مصر أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الدعوة الى فرعون وقومه وانتهت بخروج موسى وبني اسرائيل من مصر لتبدأ المرحلة الرابعة وهي مرحلة علاقته ببني اسرائيل وما جرى له معهم من أحداث حتى وفاته.

أ. المرحلة الأولى:

تطرق القرآن الكريم الى موسى كثيراً بالشكل الذي فاق ذكره ذكر غيره من الأنبياء، لذلك استحق القول بأنه كان أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن*.

---

(١٢) الطباطبائي، التاريخ، ص٢٣٦.

(١٣) الأحزاب/٧.

(١٤) الطباطبائي، التاريخ، المصدر السابق، ص٢٣٧.

* ورد ذكر موسى مائة وست وستين مرة في أربع وثلاثين سورة من سور القرآن الكريم، الطباطبائي، التاريخ، المصدر السابق، ص٢٣٧.

بدأ القرآن الكريم مشواره مع قصة موسى (عليه السلام) منذ الأيام الأولى لولادته وهو بذلك قد تشابه مع ذكر القرآن لجده ابراهيم حين تابعه منذ الصغر ايضاً اذ كان الطرفان ابراهيم وموسى يعيشان تحت ظل قادة طغاة أصروا على قتل الأطفال بعد أن أبلغهم السحرة في بلدانهم وأصحاب الاختصاص لديهم بأن هلاكهم سيكون على أيدي أطفال يولدون في ممالكهم[١٥].

جاء في سورة القصص: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[١٦].

عاش موسى في بيت فرعون مصر سنين طوال حتى بلغ أشده وقد اشار القرآن لذلك وعلى لسان فرعون نفسه حين قال لموسى (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنْ الْكَافِرِينَ)[١٧].

لكنه لم يتطرق الى تفاصيل حياة موسى هناك إلا أن المفسرين والمؤرخين تحدثوا عن حالات عديدة وقعت لموسى وهو في بيت فرعون لعل أهمها حكاية الجمرة التي أثرت على نطقه فقد جاء في قصص الأنبياء: أن موسى (عليه السلام) وهو طفل كان يلعب بين يدي فرعون وكان فرعون طويل اللحية فأخذ موسى بها ونتف منها بعض الشعيرات، ويقال انه كان يلعب بقضيب فضرب فرعون على رأسه، فغضب منه وقال هذا عدوي، فامر الذباحين بذبحه فبلغ ذلك امرأة فرعون فجاءت تسعى الى فرعون مسرعة وقالت

---

[١٥] راجع قصة ابراهيم (عليه السلام) في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

[١٦] القصص/٧-٩.

[١٧] الشعراء/١٨-١٩.

له: انما هو صبي لا يعقل ما يقوم به وان أردت التأكد من ذلك، فضع له حلياً من الذهب والياقوت في اناء وضع معهما جمراً وقدمها له فاذا أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه وان أخذ الجمرة علمت أنه صبي لا يعقل، ففعل ما قالت له فمد موسى يده ليأخذ الجواهر فحول جبريل (عليه السلام) يده الى الجمرة فقبضها ووضعها في فيه فجاءت على لسانه فأحرقته[١٨] لذلك طلب موسى من الله تعالى أن يصلحه له كما جاء في الذكر الحكيم (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي)[١٩].

يقول ابن كثير فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ولم يسأل زوالها بالكامل، وعن الحسن البصري (رض) قوله "والرسل انما يسألون بحسب الحاجة ولهذا بقيت في لسانه بقية"[٢٠] ولذلك قال فرعون بحقه ما ينقص من شانه يريد بذلك اعابته بقوله (وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)[٢١] أي لا يستطيع ان يفصح عن مراده ويعبر عما في ضميره وفؤاده[٢٢].

ثم كبر موسى وشب في بيت فرعون وكان يركب مركب فرعون ويلبس لبسه ويسمونه الناس موسى بن فرعون وامتنع به بنو اسرائيل ولم يجرؤ في تلك الفترة أي قبطي على الاساءة الى الاسرائيليين خوفاً منه[٢٣].

---

[١٨] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧٤. ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٢٨. الجزائري، المصدر السابق، ص٢٠٣.

الحنفي، المصدر السابق، ص١٩٠.

[١٩] طه/٢٧-٢٨.

[٢٠] القصص، المصدر السابق، ص٣١٦.

[٢١] الزخرف/ من الآية ٥٢.

[٢٢] ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٣١٦.

[٢٣] ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٢٩.

يقول النجار في قصص الأنبياء: شب موسى في بيت فرعون وكان ايداً قوي البأس وافر القوة ولم يخف عليه أنه دخيل في بيت فرعون، وانه اسرائيلي من ذلك الشعب المضطهد من فرعون وآله فكان ظهيراً للعبرانيين قومه حيث كف عنهم عادية المصريين وبذلك لجأ اليه المظلومون منهم[٢٤].

قال تعالى (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ) الى قوله تعالى (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[٢٥].

هذه الآيات الكريمة تتحدث عن آخر أيام موسى في مصر قبل خروجه منها الى مدين وذلك قبل أن يبعثه الله نبياً[٢٦]. أما هارون (عليه السلام) فلم يشر اليه القرآن في هذه الفترة، إلا أن الثعلبي أكد وكما جاء في الفقرة أعلاه بأن هارون ولد في السنة التي لم يتم فيها ذبح أطفال بني اسرائيل، بعد أن عدل فرعون قراره بذبح الأطفال عاماً وتركهم آخر[٢٧].

---

[٢٤] النجار، المصدر السابق، ص١٦٣.

[٢٥] القصص/١٥-١٨ و ٢٠-٢١.

[٢٦] اقرأ القصة كاملةً في قصص الانبياء لكل من: الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧٥-١٧٨.ابن كثير، المصدر السابق، ص٣٠٢-٣٠٤. وكذلك الجزائري، المصدر السابق، ص٢٠٥. النجار، المصدر السابق، ص١٦٣. جاد المولى، المصدر السابق، ص١١٣.

[٢٧] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧١.

ب. المرحلة الثانية:

بدأت المرحلة الثانية في مدين من حيث انتهت المرحلة الأولى في مصر وكان التحول بينهما هو الرحيل من مصر الى مدين والمسافة بينهما مسيرة ثماني ليال[٢٨] ويقال نحو من الكوفة الى البصرة[٢٩]. يتحدث ابن كثير عن تفسيره للآية الكريمة (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[٣٠] فيقول "يخبر تعالى عن خروج عبده وكليمه ورسوله من مصر خائفاً يترقب أي يتلفت، خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون وهو لا يدري أين يتوجه ولا الى اين يذهب ذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها"[٣١]. وعن ابن عباس (رض) قوله: سار من مصر الى مدين ولم يأكل الا البقل وورق الشجر وكان حافياً حيث سقطت نعلا قدميه من المسير[٣٢]. وهو صفوة الله في خلقه في ذلك الزمان[٣٣].

كانت المحطة الأولى التي استراح بها في مدين هي ماء مدين والعين التي كان يملأ منها الناس قرابهم ويروون حلالهم وكان من ضمن الناس امرأتان في معزل عن الجمع تنويان الاسقاء إلا أن جمع الرعاء كان يحول دون حصولهن على ما يبغيان قال تعالى (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنْ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ

---

[٢٨] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧٧. النجار، المصدر السابق، ص١٦٥. الصابوني، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٣٠. عند الجزائري مسير ثلاثة ايام، الجزائري، المصدر السابق، ص٢٠٣.

[٢٩] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧٧.

[٣٠] ابن كثير، القصص/٢١.

[٣١] القصص، المصدر السابق، ص٣٠٥.

[٣٢] ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٣٠٦.

[٣٣] الصابوني، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٣١.

قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)(٣٤).

يقول المفسرون: لما انتهى موسى الى أرض مدين، انتهى الى اصل شجرة وارفة الظلال للاستراحة وكان قُرب الشجرة بِئرٌ وحوله مجموعة من الناس يسقون واذا بجاريتين ضعيفتين ومعهما غنمٌ لهما، منعزلتين فقال لهما موسى، ما خطبكما قالتا أبونا شيخ كبير ونحن ضعيفتان لا نستطيع مزاحمة الرجال فاذا سقى الناس سقينا، يقولون، فرحمهما فأخذ دلوهما وقرب غنمهما وسقى لهما ثم رجعتا قبل الناس الى أبيهما(٣٥).

يقول الثعلبي: رفع موسى صخرة كانت على البئر وسقا لهما فرجعتا الى أبيهما سريعاً(٣٦). وفي تفسير قوله تعالى (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)(٣٧).

ينقل ابن كثير عن ابن عباس وقتادة وشريح القاضي وابن اسحق قولهم: انه لما قالت ابنة شعيب ذلك قال لها أبوها وما علمك بذلك؟ قالت: انه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة(٣٨). لما جئتهُ تقدمت أمامه فقال لي كوني من ورائي ودليني على الطريق، ولما أتيته خفض بصره ولم ينظر الي، فرغب شعيب في مصاهرته وتزويجه باحدى بناته(٣٩). وهو

---

(٣٤) القصص/٢٣-٢٤.

(٣٥) الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧٧. وانظر ايضا: الطباطبائي، التفسير، المصدر السابق، جـ١٦، ص٢٧. و الصابوني، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٣٠.

(٣٦) الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧٧.

(٣٧) القصص/ من الآية ٢٧.

(٣٨) ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٣٠٧.

(٣٩) الصابوني، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٣١.

قوله تعالى (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ)[٤٠].

تزوج موسى (عليه السلام) ابنة الشيخ الذي ورد ذكره في سورة القصص وهو نبي الله شعيب على رأي أكثر المفسرين[٤١] وبقي في مدين أجيراً لدى شعيب لمدة عشر سنوات[٤٢] غادر بعدها متوجهاً الى مسقط رأسه في مصر*.

وقبل مغادرته أهداه عمه عصا ولهذه العصا قصة تحدث عنها المؤرخون، يقول الثعلبي: اختلف العلماء في أصل العصا والتي اشار لها القرآن الكريم في السور التي تحدثت عن قصة موسى أكثر من عشر مرات، فمنهم من قال كانت وديعة لدى شعيب دفعها اليه ملك على صورة رجل، ومنهم من قال هي عصا الأنبياء وكانت لدى شعيب فدفعها الى موسى، ثم تذكر انه لم يكن نبياً فطلب اعادتها فوثبت في يده، ومنهم من قال كانت عصا موسى من آس الجنة حملها آدم معه الى الأرض فورثها الناس صاغراً عن كابر حتى وصلت الى موسى[٤٣] لذلك أشار لها القرآن أول مرة وكانت اشارة استفهامية بقوله تعالى (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى

---

[٤٠] القصص/٢٧.

[٤١] ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٣٠٦.

[٤٢] المصدر نفسه، ص٣٠٨.

* يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى (وسار بأهله) انه اشتاق الى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة متخف وكان له ولدان مع غنم استفادهما من خدمته في مدين. ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٣١٦.

[٤٣] الثعلبي، الصدر السابق، ص١٧٨. جاء في قصص الأنبياء، نقلاً عن الكليني في الكافي عن الامام الباقر (عليه السلام) قوله : (كانت عصا موسى لآدم فصارت الى شعيب ثم صارت الى موسى وانها لعندنا وان عهدي بها آنفاً وهي خضراء كهيئتها حين انتزعت من شجرتها وانها لتنطق اذا استنطقت أعدت لقائمنا يصنع بها ما كان يصنع بها موسى (عليه السلام) وانها لتصنع ما تؤمر به .. وأصلها من عوسج الجنة). الجزائري، المصدر السابق، ص٢٠٧.

غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)[٤٤]. والمآرب هنا هي انه كان يعلق عليها كساءه ويقاتل بها السباع ويعلق عليها زاده[٤٥].

انتهت المرحلة الثانية من حياة موسى (عليه السلام) بعد ان حدثت له فيها ثلاثة متغيرات أساسية كان لها تأثير كبير ومباشر على مرحلة حياته اللاحقة وهذه المتغيرات هي:

١. دخوله الى بيت نبي الله شعيب (عليه السلام) وزواجه من احدى بناته وبقاؤه هناك عشر سنوات وهي مدة زمنية كانت غنية بالعبر والتجارب الحسنة إذ أن شخصاً كشعيب بنبوته وتجربته الحياتية وروحه الطاهرة وقربه من الله لا بد وأن يترك أثراً ايجابياً في حياة موسى، خاصة وانه لم يكن قد اصبح نبياً فضلاً عن كونه خائفاً ومطارداً.

٢. عند خروجه الى مصر مر على الوادي المقدس دون أن يعلم[٤٦] فتعرض الى اشعاع نور الهي أحدث انقلاباً كبيراً في حياته وهو يسمع قوله تعالى (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)[٤٧].

وهكذا أصبح موسى نبياً وقد امتاز عن بقية الأنبياء بأنه قد سمع كلام ربه مباشرةً دون واسطة أو وحي يوحى كما هو شأنهم.

٣. اشراك اخيه هارون في دعوته اذ أن الله استجاب مباشرةً لأول طلب طلبه موسى بعد نبوته، قال تعالى (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي

---

[٤٤] طه/١٧-١٨.

[٤٥] الحنفي، المصدر السابق، ص١٩٤.

[٤٦] ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٣١١.

[٤٧] طه/١٢-١٤.

هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)[٤٨]. فأجابه الله تعالى مباشرةً وكما جاء في الذكر الحكيم (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى)[٤٩]. وفي سورة مريم قال تعالى (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا)[٥٠].

وفي هذه المرحلة تطرق القرآن الى هارون وأدخله في الحياة التبشيرية لموسى واصبح جزءاً لا يتجزأ من دعوة موسى للحق وللايمان.

يتحدث صاحب تفسير الميزان عن منزلة هارون (عليه السلام) فيقول: أشرك الله تعالى هارون مع موسى (عليهما السلام) في سورة الصافات في المن وايتاء الكتاب والهداية الى الصراط المستقيم وفي التسليم وانه من المحسنين ومن عباده المؤمنين وفي سورة طه عده مرسلاً وكما بينا في سورة مريم أشار له كونه نبياً وهبه رحمةً لموسى وفي سورة الأنعام عده تعالى من الأنبياء في صفاتهم الجميلة من الاحسان والاصلاح والفضل والاجتباء، وكان عليه السلام ملازماً لأخيه في جميع مواقفه يشاركه في عامة أمره ويعينه على جميع مقاصده وليس له قصة سوى قصته مع قومه بعد خلافته لأخيه حين غاب عن القوم للميقات[٥١]. ولد هارون قبل موسى ومات بعده وعن الامام الصادق (عليه السلام) قوله، هارون مات قبل موسى وهو أكبر منه سناً وله ولدان هما شبر وشبير وتفسيرهما في اللغة العربية الحسن والحسين[٥٢].

---

(٤٨) القصص/٣٣-٣٤.
(٤٩) طه/٣٦.
(٥٠) الآية/٥٢-٥٣.
(٥١) الطباطبائي، التاريخ، المصدر السابق، ص٢٤٠.
(٥٢) الجزائري، المصدر السابق، ص٢٠١.

ج. المرحلة الثالثة:

بدأت المرحلة الثالثة من حياة موسى (عليه السلام) وهي مرحلة النبوة بموقف كبير ابتدأ به سيرته مع فرعون بعد ان أمره الله بذلك، قال تعالى (وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِي بَنِي إِسْرَائِيلَ)[٥٣]. يقول القرآن فأجابه فرعون بالقول (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ)[٥٤]. وهنا طلب فرعون من موسى أن يقدم أدلة على ما يقول فقال له (قَالَ إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)[٥٥]. كان هذا الموقف رهيباً وعظيماً على فرعون وقد أثر فيه كثيراً وأحدث له هزة نفسية أثرت في حركة أجهزته الداخلية فخلفت لديه اضطراباً معوياً واسهالاً لأكثر من أربعين يوماً[٥٦].

يقول اليعقوبي: بعث الله تعالى موسى (عليه السلام) الى فرعون وأمره أن ياتيه ويدعوه الى عبادة الله، فعظم ذلك في قلب موسى، فقال له الله: اني آمرك الى عبد من عبيدي بطر نعمتي وأمن مكري وزعم انه لا يعرفني، واني لولا العدل والحجة التي وضعتها بيني وبين خلقي لبطشت به، فقال موسى: اللهم أشدد عضدي بأخي هارون واني قتلت منهم نفساً فاخاف أن يقتلوني، فأجابه الله على طلبه وأرسل معه أخاه قائلاً: فأذهب انت واخوك بآياتي فأخرجا بني اسرائيل، هذا أوان اخراجهم من الرق والعبودية. وهكذا سار موسى واخوه هارون الى فرعون ثم ساروا الى باب فرعون فمنعوا

---

[٥٣] الأعراف/١٠٤-١٠٥.

[٥٤] الشعراء/٢٣-٢٤.

[٥٥] الأعراف/١٠٦-١٠٧-١٠٨.

[٥٦] راجع ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٣١٩.

من الدخول، فضرب موسى الباب بالعصا فانفتحت ثم دخل فقال لفرعون: أنا رسول رب العالمين بعثني اليك لتؤمن به وتبعث معي بني اسرائيل، فأعظم فرعون ذلك، فقال له: هل جئت بآية نعلم بها صدقك، فألقى عصاه فاذا هي ثعبان عظيم قد فتح فاه وأهوى نحو فرعون، فسال موسى أن ينحيه عنه، ثم ادخل يده في جيبه واخرجها بيضاء من غير سوء، ثم يقول: أراد فرعون أن يصدقه لولا ما كان لهامان من اثرٍ في الموضوع حين قال لفرعون "أما في عبيدك أيها الملك من يعمل مثل هذا؟ فأحضر السحرة من جميع البلاد واخبروا بخبر موسى"[٥٧]. انتهى اللقاء الأول بين موسى وهارون من جهة وفرعون هامان من جهة اخرى، على أن يكون هناك لقاءٌ آخر يحضره السحرة الذين دعاهم هامان بأمر فرعون ليقابلوا موسى في يوم الزينة قال تعالى (قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ*يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)[٥٨] وقوله ايضاً (فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)[٥٩].

يقول النجار في قصص الأنبياء: ارسل فرعون في مدائن مصر حاشرين يأتونه بالسحرة وكان للسحر منزلة عظيمة في أرض مصر يعنى به الملوك والأمراء ويكافئون عليه. وهذا أمر لم يزل كشف الآثار المصرية يبين عنه الى اليوم. فجاءوا بجمهور عظيم من السحرة* كانوا مدلين بانفسهم واثقين من قدرتهم على السحر والتصرف في الأعيان

---

[٥٧] اليعقوبي، التاريخ، المصدر السابق، ص٣٤.

[٥٨] الأعراف/١١١-١١٢.

[٥٩] طه/٥٨-٥٩.

* يتحدث الثعلبي عن عدد السحرة فيقول: واختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون فقال مقاتل: كانوا سبعين ساحراً اثنان من القبط وهما رؤساء القوم وسبعون من بني اسرائيل. أما ابن الكلبي فيقول كانوا سبعين عدا رؤوسهم وكان الذي يعلمهم السحر رجلين من المجوس من اهل نينوى=

والعيون، وعرضوا لفرعون بالأجر ينالونه جزاء قيامهم بالسحر فوعدهم الأجر الجزيل والزلفى وأي زلفى أعظم من زلفى قوم يؤيدون ربوبيته ويثبتون عرش (ألوهيته)[٦٠] يعلق النجار على طلب السحرة للأجر قائلاً: طلب السحرة الأجر هنا يدل على أن أمور الفراعنة كانت سخرة[٦١].

ثم بدا اللقاء الثاني وهو الأكثر أهمية وبعد ان اجتمع الطرفان أخذ المشهد بالتكامل، يصف الأستاذ بهجت في كتابه أنبياء الله ذلك المشهد بالقول: وجاء يوم الزينة وخرج الناس من بيوتهم يتحدثون عن اللقاء بين موسى فرعون وهم يتوجهون الى مكان الاحتفال منذ الصباح. كان مكان الاحتفال مكشوفاً إلا من مظلة فرعونية لتقي رأس الفرعون من حرارة الشمس ثم بدأ اللقاء. قال السحرة لموسى أما أن تلقي وأما أن نلقي نحن؟ أجابهم: لا بل ألقوا. هنا قال السحرة بعزة فرعون انا نحن الغالبون، فقال لهم موسى: ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب أليم.

يواصل بهجت وصفه للمشهد مستنداً على آيات الذكر الحكيم فيقول: رمى السحرة عصيهم وحبالهم فاذا المكان ممتلئ بالثعابين، فسحروا الناس وأسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم وهنا هلل المصريون وابتسم الفرعون ابتسامة عريضة وقال مع نفسه لقد تم القضاء على موسى الآن، يقول بهجت: نظر موسى (عليه السلام) الى حبال السحرة وعصيهم فشعر بالخوف لكن هذا الاحساس لم يستمر طويلاً، عاد النور يضيء

= أما كعب الأحبار فيقول كانوا اثني عشر الفاً والسدي يقول بضعاً وثلاثين، وعكرمه يقول سبعين الفاً أما محمد بن المكندر فيقول ثمانين الفاً. الثعلبي، المصدر السابق، ص١٨٨، وهذا الاختلاف في العدد يعطي صورة عن مدى الاختلاف الحاصل في نقل الروايات التاريخية اذ ان ما يصلنا من روايات ما هو إلا انعكاس للرؤى السياسية والفكرية وحتى الشخصية في كل مرحلة من مراحل التاريخ.

[٦٠] النجار، المصدر السابق، ص١٨٨.

[٦١] المصدر نفسه.

دواخل نفسه الطاهرة، وكما جاء في قوله تعالى (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ۞ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)[٦٢]. فاطمأن وهدأ ورفع عصاه والقاها على بركة الله فلم تكد تلمس الأرض حتى تحولت الى ثعبان جبار سريع الحركة تقدم بقوة نحو الحبال والعصي التي كانت تتحرك وبدأ يأكلها واحداً بعد الآخر، فلم تكن إلا دقائق حتى بدت الساحة خالية تماماً من كل حبال السحرة وعصيهم .. حيث اختفت جميعها في بطن عصا موسى التي أصبحت ثعباناً بامر الله. والذي عاد ثانية بعد انتهاء مهمته عصاً بيد موسى (عليه السلام)[٦٣].

الى هنا انتهى الموقف وعلم سحرة مصر ان ما جاء به موسى لم يكن سحراً وانما هو آية بينة على نبوته وأنه مبعوث من رب عظيم فهالهم الموقف وقرروا أن يغيروا مواقفهم ليلتحقوا بركب الايمان. يقول القرآن (وأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۞ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)[٦٤].

استمر موسى في المرحلة الأولى من دعوته وما أمره الله به الى فرعون وقومه لأنهم وبسبب طغيانهم وخاصة قائدهم ورأسهم فرعون الذي كان عنيداً متكبراً متجبراً. حتى أن الله تعالى أرسل عليهم من الآيات ما يمكن أن تكون الواحدة منها تكفي للايمان وترك العصيان ولو كانت هناك نفوس تحمل الحد الأدنى من المرونة والنقاء لآمنت برب العالمين. قال تعالى (وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)[٦٥].

---

[٦٢] طه/٦٨-٦٩.

[٦٣] بهجت، المصدر السابق، ص٢١٢.

[٦٤] الأعراف/١٢٠، ١٢١، ١٢٢.

[٦٥] الأعراف/١٣٢-١٣٣.

يقول اليعقوبي: "بعث الله موسى بآيات الى فرعون: العصا، ثم اليد التي خرجت من جيبه بيضاء، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع. ثم الدم وموت الابكار، فلما اتصل بهم هذا قال له فرعون ان كشفت عنا الرجز آمنا وأخرجنا معك بني اسرائيل. فكشف الله عنهم ولم يؤمنوا"[٦٦].

وبعد كل هذه التداعيات والحالة الصعبة جداً التي وصلت اليها علاقة موسى بفرعون وقومه دعا عليهم وطلب من الله أن يشدد على قلوبهم كونهم قوماً ظالمين وهو بذلك قد تشابه مع نبي الله نوح (عليه السلام) عندما دعا على قومه قائلاً (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)[٦٧].

كما تشابه مع جده ابراهيم فيما يتعلق بخصوصية الحالة التي كانا عليها اثناء ولادتهما في زمن شدد فيه الطغاة على الأطفال الحديثي الولادة.

قال تعالى (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[٦٨].

يقول ابن عباس (رض) هذه كانت دعوة غضب لله تعالى ولدينه وبراهينه[٦٩]، استجاب الله تعالى لدعوة موسى فغرق فرعون وجنوده في أعظم مشهد شهدته الدنيا للاقتصاص من طاغية مجرم ملأ عصره ظلماً وجوراً، قال تعالى (فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ

---

[٦٦] اليعقوبي، التاريخ، المصدر السابق، ص٣٥.

[٦٧] نوح/٢٦-٢٧.

[٦٨] يونس/٨٨-٨٩.

[٦٩] ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٣٥٠.

فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)[٧٠]. يقول ابن عباس (رض) لم يؤمن من القبط بموسى إلا ثلاث هم مؤمن آل فرعون والرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى وامرأة فرعون[٧١].

وهكذا طويت صفحة سوداء من حياة طاغية اصر على طغيانه وهمجيته رغم دعاوى الحق والآيات الالهية الكريمة، وبذلك انتهت ايضاً المرحلة الثالثة من حياة موسى لننتقل بعدها الى مرحلته الرابعة والأخيرة.

د. المرحلة الرابعة:

لا يمكن أبداً أن نأتي بهذا الفصل وبهذا المرفق بكل ما يحيط بحياة نبي الله موسى (عليه السلام) وذلك لسببين أولهما: ان موضوع بحثنا هو ليس موسى بالذات وانما هو الوقوف عند اثر أمه التاريخي تماشياً مع عنوان دراستنا وثانيهما ان حياته الشريفة وحجم ذكره في القرآن والأحداث الجسام التي مر بها خلال سنين عمره لا يمكن تغطيتها حتى في دراسة كاملة وليس فصلاً منها، وبالنظر لكوننا قد استعرضنا جوانب مهمة من حياته في المراحل الثلاث السابقة لذلك سيكون مرورنا على أحداث هذه المرحلة سريعاً على الرغم من ضخامة الأحداث التي حدثت فيها. يقول ابن كثير: لما انفصل موسى من بلاد مصر وتوجه الى بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين، فأمر قومه بالدخول عليهم ومقاتلتهم واجلائهم عن بيت المقدس، فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الخوف وألقاهم في التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون لمدة أربعين عاماً[٧٢]، وكماء جاء في الذكر الحكيم (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ

---

[٧٠] الأعراف/١٣٦.

[٧١] ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٣٣٤.

[٧٢] ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٣٦٣.

جَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ * يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ) الى قوله تعالى (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)[٧٣].

وفي التيه وهي مدة الأربعين عاماً التي حددها القرآن حدث لموسى مع قومه ما حدث من الأحداث الجسام لعل أهمها عبادتهم العجل الذي أثر على نفسية موسى (عليه السلام) كثيراً وذلك عندما ذهب الى ميقات ربه ومكث هناك مدة من الزمن وهي أربعون يوماً يناجي ربه يسأله فيجيبه فكتب التوراة: يقول اليعقوبي: فاستبطأه بنو اسرائيل، فقالوا لهارون أن موسى قد ذهب ولا نظنه يرجع ثم عمدوا الى حلي نسائهم وعملوا منها عجلاً مجوفاً وأخذوا يعبدونه من دون الله، فلما هبط موسى من الجبل ورآهم على ذلك الحال اشتد غضبه فالقى الألواح وأخذ برأس أخيه[٧٤]، وكما جاء في الذكر الحكيم (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[٧٥].

والألواح التي اشار لها القرآن بقوله تعالى (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ)[٧٦] هي أما أن تكون التوراة نفسها[٧٧] أو نوع من الصحف التي أشار لها القرآن الكريم ايضاً بقوله تعالى (صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)[٧٨].

---

[٧٣] المائدة/ ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٦.

[٧٤] اليعقوبي، التاريخ، ص٣٨.

[٧٥] الأعراف/ ١٥٠.

[٧٦] الأعراف/ من الآية ١٤٥.

[٧٧] اليعقوبي، التاريخ، ص٣٧. ابن كثير، القصص، ص٣٨١.

[٧٨] الأعلى/ ١٩: كانت صحف موسى عبارة عن عبر ومواعظ مثل: عجبتُ لمن أيقن بالموت لم يفرح ولمن أيقن بالنار لم يضحك، ولمن يرى الدنيا وتقلبها لم يطمئن اليها، ولمن أيقن بالموت لم لا ينصب، ولمن=

مر موسى بعد ذلك بظروف حرجة مع بني اسرائيل، ومن منعطفات مرحلته الرابعة هي علاقته بالخضر (عليهما السلام) وهي القصة المعروفة والمنوه عنها في الذكر الحكيم.

بقي أن نقول ان زوجة موسى والتي أشار لها القرآن الكريم بقوله تعالى (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ)[٧٩]. هي صفورا بنت شعيب (عليه السلام). انفرد الجزائري في قصص الأنبياء بذكر رواية تخص وضعها بعد وفاة موسى وعلاقتها بيوشع بن نون (عليه السلام) النبي الذي أرسله الله تعالى لبني اسرائيل بعد وفاة موسى، يقول الجزائري: خرج رجلان من منافقي قوم موسى بصفراء بنت شعيب امرأة موسى في مائة الف رجل فقاتلوا يوشع بن نون فغلبهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وهزم الباقين باذن الله واسر صفراء بنت شعيب وقال لها قد عفوت عنك في الدنيا الى أن نلتقي كليم الله موسى بن عمران فأشكو ما لاقيت منك ومن قومك فقالت صفورا وا ويلاه والله لو أبيحت لي الجنة لأستحييت أن ارى فيها رسول الله وقد هتكت حجابه وخرجت على وصيه بعده)[٨٠].

توفي موسى (عليه السلام) عن مائة وعشرين عاماً بعد ان جاءه ملك الموت بتفاحة من الجنة فشمها فقبض الله روحه[٨١].

=أيقن بالحساب لم لايعمل له: العاملي، محمد بن الحسن (ت، ١١٠٤هـ)، الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، مطبعة النعمان، النجف الأشرف ١٩٦٤م، ص٦٦.

[٧٩] القصص/من الآية ٢٧.

[٨٠] الجزائري، المصدر السابق، ص٢٧٦، واظن ان رواية الجزائري موضوعة لعدم وجود ما يؤيدها سواء في المصادر التي سبقت الجزائري أو التي تلته اذ لم أجد ما يؤيد ذلك ولو بالاشارة في كل المصادر التي راجعتها.

[٨١] الثعلبي، المصدر السابق، ص٢٥١.

ثانياً – أم موسى (يوكابد أم الرسولين)*

أم موسى هي الأم الوحيدة التي تعرض لها القرآن باعتبارها أماً لنبي من أنبياء الله بعد ان اشار الى كنيتها بالنص، اذ أن أمهات الأنبياء من الذين سبقوا موسى والذين أعقبوه لم يتطرق القرآن الى أمهاتهم صراحة، عدا مريم التي تطرق الى اسمها مباشرةً وبآيات عديدة من الذكر الحكيم.

اختلف المؤرخون في اسم أم موسى وهارون، فالثعلبي ينقل عن ابن اسحق قوله كان اسم أم موسى نجيب او ناجية وقيل يوخابيل وهو الأكثر شهرة[٨٢]، أما ابن الأثير، فيتطرق الى اسم واحد فقط فيقول واسمها يوخابد[٨٣].

ابن كثير يطرح أكثر من اسم فيقول واسمها (ايارخا) وقيل (اياذخت)[٨٤]، أما الجزائري في قصص الأنبياء فيذكر ما يلي: (واختلف في اسم أم موسى وهارون فقال محمد بن اسحق اسمها نخيب وقيل افاحيه وقيل يوخابد وهو المشهور)[٨٥].

ثم يواصل كلامه بالقول وهذا الاسم ويقصد الاسم الأخير وجدته في التوراة المعربة في البصرة سنة خمسة وتسعين بعد الألف بعد انصرافي من حج البيت الحرام[٨٦]. وفي قصص أخرى للأنبياء عن أهل الكتاب ان اسم أم موسى هو يوكابد بنت لاوي كما جاء في الآية٢٠ في الاصحاح الثاني من سفر الخروج[٨٧].

---

* جاء في الفتوحات المكية (بأن النبي هو من يأتيه الملك بالوحي من عند الله يتضمن ذلك الوحي شريعة يتعبد بها في نفسه فان بعث بها الى غيره كان رسولاً)، الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٧.

[٨٢] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٦٩.

[٨٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ١، ص١٢٦.

[٨٤] ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٢٩٩.

[٨٥] الجزائري،المصدر السابق، ص١٩٩.

[٨٦] المصدر نفسه.

[٨٧] النجار، المصدر السابق، ص١٥٧.

عندما تحدث القرآن الكريم عن طفولة موسى والظروف التي أحاطت بولادته (عليه السلام) تطرق الى أمه والى أثرها الكبير بالحفاظ عليه من خلال التزامها بما أوحي لها أن تقوم به لذلك كان أثرها فعالاً في عملية التمويه التي جرت لغرض اخفاء موسى عن الأنظار وفي ذلك اشارة أولاً الى قدرة أم موسى على الفعل الصحيح في الظروف الصعبة، وثانياً الى صعوبة تلك الأيام السود التي كان لفرعون وأزلامه سطوة على مقدرات الناس، اذ ان متابعة حتى الحبالى من أبناء الشعب (من ابناء بني اسرائيل فقط) يعطي صورة واضحة على مدى الاستهتار الذي كان سائداً بمقدرات الانسان وبحقوقه وبارادته خاصة عندما يتعلق الأمر بحياة الحاكم ومدى قدرته على الاستمرار بالحكم ..

بدأ القرآن تطرقه الى أم موسى في مستهل حديثه عن ولادة موسى في المجتمع المصري الذي كان مجتمعاً يدين بالولاء للفرعون دون حدود، لذلك جاءت الاشارة اليها متسلسلة ثم بعد ذلك سكت عن ذكرها والى الأبد اذ لم يتطرق لها في بقية السور التي تابعت نشاطات موسى سواءً في مصر أو في مدين. قبل البعثة أو بعدها، سوى التذكير بموقفها في سورة طه عندما كان الله تعالى يكلم كليمه موسى مذكراً اياه بطفولته وما ترتب عليها من مواقف كان لأمه وأخته أثر فيها[٨٨]. ومن هنا فان جهلنا بمصيرها بعد أن أدت دورها بارضاعه وتربيته وهو في سنوات عمره الأولى وبعد ان ساهمت عن طريق ذلك الدور الريادي بسلامته من الموت المحقق الذي كان محدقاً بذكور بني اسرائيل، جاء بسبب عدم اشارة الذكر الحكيم لاثرها لاحقاً وأظنه جاء نتيجة وقوف موسى على قدميه وبلوغه المستوى الذي يجعله لا يحتاج فيه الى أم تقف الى جانبه بقدر حاجته الى ظروف ذاتية وموضوعية تهيئ له طريقاً يصل به الى النبوة التي ورد التنويه عنها مبكراً كما جاء في سورة القصص، قال تعالى (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ

[٨٨] طه/٣٧-٤٠.

فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[٨٩].

وقف العلماء عند مفردة الوحي الذي تطرق لها القرآن في قوله تعالى (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى) هل كان وحياً شبيهاً بذلك الذي يوحى به للأنبياء عن طريق جبرائيل مثلاً أو كان قذفاً في القلب وليس وحي النبوة كما يقول الطبري[٩٠] والذي يؤيده السيوطي بعد ان يضيف اليه ما قاله بقية السلف قائلاً: أخرج أبن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه قوله في وأوجينا الى أم موسى أي ألهمناها الذي صنعت بموسى، أما عبد الرزاق فقد اخرج عن عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قوله وأوحينا أي قذفنا في نفسها، وأخرج ابو حاتم عن قتادة في قوله اوحينا الى أم موسى انه قال جاءها وحي من الله فقذف في قلبها وليس بوحي نبوة، قال فجعلته في تابوت فقذفته في البحر[٩١].

يفصل الآلوسي في روح المعاني مجموعة من الآراء التي تفسر معنى الايحاء وكيفية حدوثه فيقول: والظاهر ان الايحاء الى أم موسى كان بارسال ملك، ولا ينافي حكاية ابن

---

(٨٩) القصص/٧-١٣.

(٩٠) الطبري، التفسير، المصدر السابق، جـ٢٠، ص٢٠.

(٩١) السيوطي، التفسير، المصدر السابق، جـ٥، ص١٢٠.

أبي حيان بخصوص عدم نبوتها، كما أن الملائكة (عليهم السلام) قد ترسل الى غير الأنبياء وتكلمهم والى هذا ذهب كما يقول الآلوسي قطرب وجماعة آخرون. أما مقاتل فيذهب أكثر من ذلك بكثير حيث يحدد حتى الملك المرسل اليها وهو جبرائيل هذا رأي أما الرأي الآخر فهو رأي ابن عباس وقتادة حيث يؤكدان أنه كان الهاماً وهناك جماعة أخرى ترى انه كان رؤيا في المنام رأتها، وأوقع الله تعالى في قلبها اليقين. وعن الجبائي قوله انها رأت في ذلك رؤيا فقصتها على من تثق به من علماء بني اسرائيل ففسرها لها، وقيل كان بأخبار نبي كان في عصرها اياها، والظاهر (والقول لا زال هنا للآلوسي) ان هذا الايحاء كان بعد الولادة[٩٢].

صاحب تفسير الميزان يعرف الايحاء على أنه التكليم الخفي ثم يقول ويستعمل في القرآن في تكليم الله تعالى لبعض خلقه بنحو الالهام والالقاء في القلب كما في قوله (بأن رَبَّكَ أوحَى لَهَا) وكقوله تعالى (وأوحَى رَبكَ الى النَحْلِ) وهكذا[٩٣].

في صفوة التفاسير يقول الصابوني وأوحينا الى ام موسى أي قذفنا في قلبها بواسطة الالهام وقد أجمع الجميع على انها ليست نبية وانما كلام الملك معها كما هو الحال تكليم الملائكة للناس من غير أن يكونوا أنبياء[٩٤]. وبناءً على أكثر الآراء فان أم موسى لم

---

[٩٢] الآلوسي التفسير، جـ٢٠، ص٤٥.

[٩٣] الطباطبائي،التفسير، جـ٢٦، ص٧. والآية الأولى/ الزلزلة/٥ والثانية/النحل/٦٨.

[٩٤] الصابوني، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٢٥ (يعلق البرسوي على قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى بالقول: ان المراد من هذا الوحي ليس الوحي الواصل الى الأنبياء لأن أم موسى ما كانت من الأنبياء كون المرأة لا تصلح للامارة والقضاء فكيف تصلح للنبوة، بل هو الهام كما في قوله تعالى (وأوحى ربك الى النحل) وذلك بأن أوقع الله في قلبها عزيمة جازمة على ما فعلته من اتخاذ التابوت والقذف في البحر، ثم يسأل لغرض التوضيح فيقول: كيف يجوز لها أن تلقي ولدها في البحر لمجرد الايحاء، ثم يجيب على ذلك بالقول: كانت مضطرة لركوب أحد الخطرين (وهذا قتل فرعون له أو رميه) فاختارت له خير الشرين، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٨٢.

تكن نبية، ولم يكن جبريل ليأخذ طريقه اليها، لذلك كان الايحاء أما عن طريق الالهام أوعن طريق المنام كما يؤكد الجبائي في رواية الآلوسي أعلاه حين قال: انها رأت في ذلك رؤيا فقصتها على من تثق به من علماء بني اسرائيل ففسرها لها[٩٥]. لذلك أرى بأن الايحاء عن طريق المنام هو الأقرب الى الحقيقة، كون الالهام ربما يجعلها أمام أمر محسومة نتائجه، أي ان الالهام يجعلها تثق بكل ما يوحى اليها ولا تتردد في أمره أبداً، أما المنام والذي يتطلب تفسيره دخول عناصر بشرية أخرى يكون رأيهم غير ملزم وان كانوا علماء اذ أنهم مجرد مفسرين والمفسر قابل رأيه للخطأ لذلك ترددت أم موسى بعض الشيء في مراحل لاحقة وكادت أن تفشي السر* كما يقول سياق الآية (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)[٩٦].

اختلف المفسرون كثيراً بخصوص فراغ فؤاد ام موسى كما هو حال اختلافهم في كثير من الأمور التي تعتبر مفاصل مهمة في الأحداث، هل كان فارغاً من العقل، أم فارغاً من الوحي، أم فارغاً من كل شيء إلا من موسى، أي أنها بدأت تضطرب وتلوم نفسها كون ابليس وسوس لها بقوله: يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فيكون لك أجره وثوابه وتوليتِ قتله بنفسك فألقيتيه في البحر وأغرقتيه[٩٧]، أم فارغاً من الحزن لعلمها بأنه لم يغرق[٩٨] وفي الوقت الذي يقلل فيه الطبري من أهمية الرأي الأخير بقوله "وهذا قول لا معنى له لخلافه قول جميع أهل التأويل"[٩٩].

---

[٩٥] الآلوسي، التفسير، جـ٢٠، ص٤٥.

* لما جاءت أم موسى الى بيت الفرعون لترضع موسى وعندما أخذ يرضع منها كادت أن تقول انه ابني فعصمها الله انظر: الطبري، التفسير، جـ٢٠، ص٢٥، وانظر: ايضاً، ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٢٨.

[٩٦] القصص/١٠.

[٩٧] الطبري، التفسير، جـ٢٠، ص٣٤.

[٩٨] المصدر نفسه.

[٩٩] المصدر نفسه.

يعتبره صاحب تفسير الميزان هو الرأي الأصوب فيقول: والمراد بفراغ أم موسى هو فراغه وخلوه من الخوف والحزن وكان لازم ذلك هو أن لا يتوارد عليه الاضطراب فيأخذه الجزع عليه[١٠٠]، ثم يعلق على الآراء أعلاه التي وردت في تفسير الطبري وغيره من المفسرين[١٠١] بالقول: "وبما تقدم يظهر ضعف بعض ما قيل في تفسير جمل الآية قول بعضهم (وأصبح فؤاد ام موسى فارغاً) أي صفراً من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوع الطفل في يد فرعون، وقول آخرين: أي فارغاً من الوحي الذي أوحى اليها بالنسيان وما قيل: أي فارغاً من كل شيء إلا ذكر موسى أي صار فارغاً له فأنها جميعاً وجوه لا يحتمل شيئاً منها السياق"[١٠٢].

اذاً فأم موسى بناء على الرأيين أعلاه هي أما أن تكون قد كانت قلقة متعبة، وفي حال نفسية يرثى لها، وكما يقول سيد قطب، كانت كالمجنونة وهي تهتف أنا أضعت طفلي، بعد ان رميته في البحر[١٠٣] قبل أن يربط الله قلبها. أو أن تكون هادئة ومستقرة وهي تعلم أنه سيرد اليها وسيكون نبياً بمعنى أن القلق والجنون والفراغ من الصبر كاد أن يكون لولا أن ربط الله على قلبها. وفي الحالتين النتائج واحدة لكن الاختلاف كان على تفسير فراغ قلبها.

وفي عودة الى الايحاء فانه على الأكثر كان عن طريق المنام كما أسلفت، اذ ترك تفسير المنام الباب مفتوحاً للشك بمصير ابنها ساعدها على ذلك خصوصيتها كونها أنثى وأماً لذلك تعاملت مع الموقف بشيء من القلق المشروع الذي لا يؤثر على عظمة الدور الذي

---

[١٠٠] الطباطبائي، التفسير، جـ٢٦، ص٧.

[١٠١] السيوطي، المصدر السابق، جـ٥، ص١٢١. الألوسي، التفسير، جـ٢٠، ص٤٧. الصابوني، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٣٦. سيد قطب، المصدر السابق، جـ٢٠، ص٤٥.

[١٠٢] الطباطبائي، التفسير، المصدر السابق، جـ٢٦، ص٩.

[١٠٣] سيد قطب ، التفسير، المصدر السابق، جـ٢٠، ص٤٥.

تحملته وهي ترمي بابنها في اليم لتأخذه أمواج القدر بعيداً عنها ولتكون هذه اللحظات الحرجة جداً في حياة يوكابد (رض) بداية النهاية لآلامها وقلقها الذي استمر بالتأكيد اذا لم نقل منذ الايام الأولى لحملها بموسى فعلى الأقل منذ اللحظات الأولى لولادته[١٠٤] وهي تعلم علم اليقين بأن الفرعون لا يترك ذكراً لبني اسرائيل يرى النور بعد ان قرر أن يذبحهم كي لا يشكلوا خطراً عليه* ولتكون البداية الصعبة لموسى وهو يشق طريقه للنبوة وسط امواج البحر وهي تقذف به الى تلك الدار التي يعيش بها عدو الله وعدوه ولتبدأ من هناك رحلة الألف ميل بخطوة جريئة وعظيمة خطتها أم موسى لتضع ابنها على الطريق الذي اراده الله اليه، يعلق سيد قطب على الساعات الحرجة التي عاشتها أم موسى وهي تتعرض الى موقف غاية في الصعوبة حتى مَنَّ الله تعالى عليها بأن أوحى لها ما يجب عليها عمله كي يكون لها دور مشرفٌ في (الدعوة الموسوية) التي ستشهدها العقود القادمة والتي ستطيح بعروش الطغاة وتنهي حياتهم فيقول: ولد موسى في ظل أوضاع قاسية جداً، ولد والخطر محدق به والموت يتلفت عليه، والشفرة مشرعة على عنقه، تهم أن تحز رقبته، وها هي أمه حائرة، وخائفة عليه، تخشى أن يصل خبره الى الذباحين، دون أن تستطيع حمايته وتوفير بيئة آمنة له، عاجزة حتى عن اخفاءه عن الأنظار، وعاجزة ايضاً عن تلقينه حيلة أو وسيلة، ها هي وحدها يلفها العجز والضعف وقلة الحيلة. وهنا تتدخل يد القدر فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة، وتلقي في روعها الهداية توجهها الى عمل فيه نجاة طفلها وان كان يبدو للوهلة الأولى صعباً، لا بل غاية في

---

[١٠٤] جاء الايحاء الى ام موسى بأن ترمي طفلها في اليم بعد ان تمت رضاعته وأصبح عمره ثلاثة اشهر، راجع، النجار، المصدر السابق، ص١٥٨.

* جاء في قصص الأنبياء الثعلبي عن وهب بن منبه قوله: بلغني أنه ذبح في طلب موسى سبعون الف ولد، الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧٢.

الصعوبة. لكن عبارة (لا تخافي ولا تحزني)[١٠٥] كان لها صداها الواسع في قلب تلك الأم المحشو بالوجع والألم. حتى اطمأنت وعرفت ان الله خير حافظاً وخير معيناً وان ابنها وان كان في اليم فهو في رعاية اليد التي لا أمن الا في جوارها، اليد التي لا خوف معها، اليد التي تجعل النار برداً وسلاماً وتجعل البحر ملجئاً ومناماً، اليد التي لا يجرؤ الفرعون الطاغية الجبار، ولا حتى جبابرة الأرض جميعاً أن يدنوا من حماها الآمن العزيز الجانب[١٠٦]، ثم أن الآية(انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين)[١٠٧] هي حسن الختام لذلك المشهد وهي بشارة الغد المشرق الذي سيكون ليوكابد دور كبير به انه وعد الله ومن أصدق من الله وعداً.

اذاً كان الايحاء الى أم موسى جاء بعد الولادة كما يقول الآلوسي وكما هو واضح من خلال سير الحدث التاريخي والسرد القرآني للقصة الموسوية الخالدة. فبماذا كانت تلك المرأة العظيمة تفكر أثناء الحمل وكيف مرت عليها تلك الشهور العصيبة، خاصة اذا أخذنا بنظر الاعتبار الحالة الأمنية المتوترة التي فرضتها أوامر الفرعون بمتابعة حبالى بني اسرائيل. ينقل الثعلبي عن مجاهد قوله: بلغني أن الفرعون كان يأتي بالقصب ويقطعه ويجعله كالسكاكين ويأتي بالحبالى عن طريق أزلامه ويجبرهن على أن يدسن عليه حتى تتجرح اقدامهن ويجهدن بالشكل الذي يجعلهن يضعن أطفالهن، نتيجة لذلك الجهد دون أن يشعرن[١٠٨].

على الرغم من ان هذه الرواية نصيبها من الصحة لم يكن عالياً كون الأمر هنا يشمل الحبالى بكلا الجنسين في الوقت الذي يطلب فيه الفرعون الذكور فقط بناء على تفسير

---

[١٠٥] القصص / من الآية ٧.

[١٠٦] سيد قطب، المصدر السابق، جـ٢٠، ص٤٣.

[١٠٧] القصص / من الآية ٧.

[١٠٨] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧٠، وانظر ايضاً: السيوطي، المصدر السابق، جـ٥، ص١٢٠.

رؤياه التي وردت في أول الفصل وما جاء في الذكر الحكيم[109]. واذا افترضنا جدلاً ان الرواية صحيحة فهذا يدفعنا الى السؤال التالي: كيف استطاعت أم موسى التخلص من هذا الموقف وهي احدى نساء بني اسرائيل الحوامل؟ خاصة وان الفرعون قد وضع رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى فيعلمون ميقات وضعهن فلا تلد امرأة ذكراً الا ذبحه الذباحون[110]. هذا ما يجيبنا عليه الحنفي وهو يروي لنا روايته التالية: كان عمران والد موسى من جملة أرباب دولة الفرعون الممنوعين عن مفارقته وذلك لغرض عزله عن زوجته كي لا يلد له ولد، يقول وبينما هو جالس ذات مساء على كرسيه في دار الفرعون اذ رأى زوجته وقد حملها ملك وجاء بها الى جانبه فواقعها وفرعون نائم لا يعلم فحملت بموسى (عليه السلام) ثم حملها الملك وعاد بها الى منزلها وكل ذلك كان تحت الليل فلم يعلم بها أحد وكان للفرعون عيون نسائية يطفن في البلاد على النساء، إلا امرأة عمران لم يدخلن عليها لعلمهن ان عمران لا يفارق الفرعون[111] على الرغم من ان رواية الحنفي قد انقذت ام موسى (رض) من رواية الثعلبي، إلا أني لا أعرف هل ان للحنفي من يؤيد روايته؟ التي تبدو وكأنها موضوعة وبعيدة عن المنطق لذلك أقول أن أم موسى وأثناء حملها وبناء على التوجه الخاص نحو قتل الذكور كانت في وضع لا يخلو من القلق اذ أنها وكما هو الحال مع غيرها من النساء لا تعلم جنس الجنين الذي في احشائها لذلك مرت الشهور بقلق أقل من ذلك الذي خيم عليها فيما بعد. أما ما يتعلق بالوضع الذي كانت عليه أم موسى أثناء ولادتها وكيف مرت تلك اللحظات بسلام رغم العيون التي كانت تتجه صوب حبالى بني اسرائيل فهذا الأمر شغل بال المؤرخين والمفسرين فالنص

---

[109] بناءً على الآية الكريمة (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)، القصص/٤.

[110] ابن كثير، البداية، المصدر السابق، ص٢٣٨.

[111] الحنفي،المصدر السابق، ص١٨٧.

القرآني لم يتطرق الى ذلك بالتفصيل لذلك اجتهد أصحاب الشأن بايجاد مخارج للعمليـة وبما يتلائم بشكل أو بآخر مع النص القرآني من جهة ومع ما كـان سـائداً في المجتمـع المصري من ضوابط احترازية من جهة أخرى، فقد تحدثت مصادر التاريخ، بأن أم موسى لحظة ولادتها داهمها الحرس بعد أن ساورتهم الشكوك بأنها قد ولـدت غلامـاً فـأرادوا التأكد من ذلك فما كان منها إلا أن لفته بخرقة والقته في التنور وقد كان مسجوراً وهـي لا تعلم ما تصنع لاضطراب سلوكها في تلك اللحظـات. فأخـذوا يفتـشون المنـزل مكانـاً مكاناً فلم يجدوا شيئاً لذلك خرجوا أما هي فذهبت اليـه وأخرجتـه مـن التنـور دون أن تصيبه النار باذى بعد ان جعلها الله عليه برداً وسلاماً(١١٢) ثم بعد ذلك فعلت ما أوحي لها ورمته في اليم وكان ما كان.

هذه الرواية هي الأخرى لم تكن ملائمة لسير الحدث وبعيدة بعض الشيء عن المنطق وذلك لسببين وهما:

أ. لو كانت هذه العملية قد حدثت بالفعل لكـان القـرآن قـد اشـار اليهـا لأهميتهـا في القصة كونها تضيف على السرد القصصي شيئاً من التشويق المرتبط بالحـدث، ولمـا لها من دلالات كبيرة على مستوى الدعوة الموسوية ذي لا يصح أن يتجاهـل القـرآن هكذا موقف لانه بصراحة ليس موقفاً عابراً أو غير ذي أهمية في الوقت الـذي أشـار فيه النص القرآني الى أمور أخرى ربما تكون أقل أهميـة مـن مـسألـة أن تكـون النـار برداً وسلامـاً على موسى كمـا كانت بـرداً وسلامـاً على جـده ابـراهيم مـن قبل.

---

(١١٢) الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧٢. الحنفي، المصدر السابق، ص١٨٨. الآلوسي، التفسير، المصدر السابق، جـ٢٠، ص٤٦.

ب. هذا الأمر لو انه قد حدث بالفعل لكان قد اصبح دليلاً قاطعاً على نبوة موسى وحفظ الله تعالى له بالنسبة لأسرته التي شاهدت الحدث وعلى رأسهم امه التي تحدث القرآن عن اصابتها بشيء من الخوف والقلق لولا أن ربط الله على قلبها. فقلق أم موسى وانهيارها في بعض مفاصل الحدث والذي جاء بعد رواية التنور المسجور، كل ذلك لما كان يحدث لو صحت رواية التنور لأنها كما أسلفت لو كانت صحيحة لكانت قد سدت كل المنافذ ولأصبح الأمر محسوماً بالنسبة لأم موسى ولسارت الأحداث بشكل طبيعي جداً.

لذلك فأن الرواية التي تقول أن أم موسى لما ضربها الطلق دعت قابلة من الموكلات بحبالى بني اسرائيل فعالجتها، فلما وقع موسى على الأرض، هالها نور من بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه قلبها فأخذت تخاف عليه من القتل فلم تسعَ الى الوشاية بأمه بل على العكس من ذلك قالت لها احفظيه[113] وخرجت فلما رأت الحرس بالباب قالت لهم (انما خرج منها دماً)[114] هذه الرواية هي أقرب للحقيقة من غيرها للاسباب التالية:

أ. أن أم موسى (عليه السلام) وهي حامل بموسى لم يكن قد ظهر عليها الحمل كما يظهر على غيرها من النساء مما جعلها بعيدة عن الشكوك[115].

ب. ان حب القابلة لموسى لحظة خروجه للدنيا تطرق له القرآن بقوله تعالى (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)[116]، يقول ابن كثير كان لا يراه أحد إلا أحبه[117] لذلك أحبته القابلة القبطية الموكلة به[118].

---

[113] الجزائري، المصدر السابق، ص٢٠٣. وانظر ايضاً: الآلوسي، التفسير، جـ٢٠، ص٤٦.
[114] اليعقوبي، التاريخ، ص٣٣.
[115] ابن كثير، القصص، ص٢٩٩.
[116] المصدر نفسه.
[117] ابن كثير، القصص، ص٣٠٢.
[118] الجزائري، المصدر السابق، ص٢٠٣.

ج. قول القابلة للحرس انها لم تلد اذ خرج منها دم فقط، قد كان لـه صـدى لـدى الحرس لكون القابلة تعتبر من ضمن فريق العمل المراقب للحبالى وتعمل سوية مـع الحرس، لذلك لم يشكوا بقولها من ناحية ولكون أم موسى أصـلاً لـم يكـن ليظهـر عليها الحمل بناء على رواية ابن كثير اعلاه من ناحية أخرى، لذلك مرت ايام الـولادة الأولى بسلام، إلا أن استمرارية وجوده كطفل حديث الولادة كان يقلق أم موسى كثيراً اذ أن قتله ربما يحدث في اية لحظة نتيجة للمراقبة الشديدة وكثرة النـاس الـذين لا عمل لهم سوى الوشاية في أمور كهذه لأغراض عديدة لعـل أهمهـا الفائـدة الماديـة، لذلك أوحى الله لها أن ترميه في اليم كطريقة أكيدة لخلاصه من الموت بعـد أن ترتـب له العناية الالهية احداثاً تعيده بها الى أمه، وليكون في الغد البعيد نبياً ورسولاً.

نأتي الآن الى الفعل الميداني الذي قامت به أم موسى بعد الايحاء وهي توفر لابنها بيئة ملائمة تحفظه على الأقل من الغرق بعد أن أوحى الله اليها بأن تلقيـه في الـيم. فبعـد أن تجاهلت سورة القصص ذكر التابوت الذي وضع فيه موسى ساعة رميه في اليم، جـاءت سورة طه لتؤكد عليه، قال تعالى (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَـرَّةً أُخْـرَى * إِذْ أَوْحَيْنَـا إِلَى أُمِّـكَ مَـا يُوحَى * أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَـدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُـمْ عَـلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ)[١١٩].

تحدثت مصادر التاريخ عن التابوت والوظيفة التي أداها وما ترتب على رمي مـوسى في اليم من أحداث بشيء من التفصيل، الطبري في التفسير يؤكد بان أم موسى لما وضعت

---

[١١٩] طه / ٣٧-٤٠.

وسى أرضعته وبعد أشهر من ولادته دعت له نجاراً فصنع له تابوتاً وجعل مفتاحه من الداخل ثم وضعته فيه وألقته في اليم، واليم كما يؤكد الطبري ويؤيده في ذلك الكثير من المفسرين هو نهر النيل اذ ينقل عن السدي قوله فألقيه في اليم قال هو البحر وهو النيل[١٢٠].

الثعلبي يتكلم عن النجار بطريقة ربما فيها شيء من الاستغراب فينقل بسنده عن ابن عباس قوله بأن أم موسى ذهبت الى أحد النجارين ليعمل لها تابوتاً. فسألها ما تعملين به فأجابته صادقة كونها كرهت الكذب، فعمل لها التابوت، فأخذته، ثم انطلق هو ليخبر الذباحين فمسك الله لسانه ولم يستطع أن يبوح سر أم موسى. فأخذ يشير بيده، فلم يعرفوا قصده فأخذوا يضربونه فخرج. ولما خرج أعاد الله له لسانه، فعاد للذباحين مرة أخرى ففعل الله ما فعله به في المرة الأولى حيث أمسك لسانه. ولم يستطع القول، فضربوه وأخرجوه وبعد ذلك أعاد الله له لسانه بعد ان عاهد الله على عدم البوح بالسر* وبذلك استطاعت أم موسى أن تقوم بما أوحى الله لها بخصوصه، وفضلاً عن رواية ابن عباس، فقد روى الثعلبي رواية أخرى عن مقاتل قوله ان الذي صنع التابوت لأم موسى هو حزقيل مؤمن آل فرعون، صنعه من البردي فأخذته أم موسى ووضعت فيه قطناً ووضعت فيه موسى ورمته في اليم بعد ان أقفلته واطمأنت عليه[١٢١]. الحنفي يؤيد الطبري والثعلبي بأن التابوت صنعه نجار من خارج الاسرة الموسوية لكنه يختلف مع الثعلبي في اسم النجار حيث يقول: عندما أوحى الله الى أم موسى، خرجت الى نجار بمصر

---

[١٢٠] الطبري،التفسير، المصدر السابق، جـ٢٠، ص٣٠.

* يقول القمي في تفسير غرائب القرآن، ان هذا النجار هو ذاته مؤمن آل فرعون آمن بعد أن أيقن أن امر التابوت من الله تعالى وأن المولود هو ذاته الذي يخافه فرعون فآمن منذ تلك اللحظة وسمي مؤمن آل فرعون. النيسابوري، المصدر السابق ج٢٠، ص٢٦.

[١٢١] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧٢.

اسمه (سونام) وطلبت منه أن يصنع لها تابوتاً ضمن أوصاف معينة فصنعه واعطاه اياها فأخذته الى بيتها وهناك هيأت موسى فأرضعته وكحلته ودهنته ووضعته في التابوت، وألقته في اليم وهي باكية(١٢٢). فالتابوت بناء على الروايات اعلاه قد صنعته اطراف من خارج الأسرة الموسوية، وفي الوقت الذي يؤكد فيه النجار في قصص الأنبياء بأن أم موسى هي التي صنعت التابوت وطلته بالقطران والزفت بعد ان ألهمها الله ذلك(١٢٣). يؤكد كل من الجزائري وصاحب تفسير الميزان نقلاً عن القمي بأن الله تعالى هو الذي أنزل على ام موسى التابوت وأمرها أن تضع موسى فيه وترميه في اليم(١٢٤) لتأخذ العناية الالهية بعد ذلك دورها برعايته وحفظه.

بعد ان وضعت أم موسى وليدها ذا الأشهر الأربعة(١٢٥) بين أربعة جدران من الخشب ورمته في النيل وأخذته الأمواج بعيداً، حتى ابتعد معه قلبها وسافرت معه روحها الطيبة. ظلت شاردة البال، فلم تستطع مع ذلك صبراً، فقالت لاخته وكما جاء في الذكر الحكيم (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)(١٢٦). وهنا دخلت امرأة أخرى على خط الأحداث في القصة الموسوية التي جاء بها الذكر الحكيم وهي أخت موسى الكبرى(١٢٧).

---

(١٢٢) الحنفي، المصدر السابق، ص١٨٨.

(١٢٣) النجار، المصدر السابق، ص١٥٨.

(١٢٤) الجزائري، المصدر السابق، ص٢٠٢. وانظر: الطباطبائي، التفسير، جـ١٦، ص١٢

(١٢٥) الآلوسي، التفسير، جـ٢٠، ص٤٦.

(١٢٦) القصص/١١.

(١٢٧) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١، ص٢٤٠.

توحي القصة بأن أخت موسى بنت ناضجة ربما تكون في عمر الصبا، لم يتطرق المؤرخون بأنها كانت متزوجة أم لا، إلا أن السرد القرآني يوحي بأنها لم تكن متزوجة وأنها تعيش مع أمها في ذات المنزل الذي ولد فيه موسى (عليه السلام).

اختلف المؤرخون في اسمها، فالثعلبي يقول اسمها مريم[١٢٨] يؤيده في ذلك ابن الاثير[١٢٩] والبرسوي[١٣٠] أما النووي[١٣١] والآلوسي[١٣٢] فيطرحان فضلاً عن اسم مريم اسمين آخرين وهما كلثوم وكلثمة. أما القمي فيقول وكانت أخت موسى شقيقته من أمه وابيه، ويتفق مع الثعلبي واخلافه فيؤكد أن اسمها مريم[١٣٣].

السيوطي، وبسبب خصوصية ما طرحه جاء تسلسله أخيراً، فقد طرح رحمه الله اسمين ألاول هو يواخيد والثاني كلثوم، ولم يتطرق الى اسم مريم، وقد عزز ذلك بما نقله عن ابن عساكر والطبراني، وذلك في تفسيره الدر المنثور قائلاً: أخرج ابن المنذر عن أبي جريح قوله أن اسم أخت موسى يواخيد، ثم يقول وأخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق عن أبي روّاد (رض) أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لخديجة (رض) أما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وآسيا امرأة فرعون، قالت وقد فعل الله ذلك يا رسول الله، قال نعم. وأخرج عن الطبراني عن ابي أمامة (رض) قوله: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما شعرت ان الله زوجني

---

[١٢٨] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧٣.

[١٢٩] ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١، ص١٢٧.

[١٣٠] البرسوي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٨٣.

[١٣١] النووي، المصدر السابق، جـ٢، ص١٣٨.

[١٣٢] التفسير، التفسير، جـ٢٠، ص٥٠.

[١٣٣] القمي، المصدر السابق، جـ٢٠، ص٢٩.

مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وامرأة فرعون، فقالت خديجة (رض) هنيئاً لك يا رسول الله[١٣٤].

ومن هذه الرواية ان صحت نستنتج بان أخت موسى ربما فارقت الحياة ولم تكن متزوجة وذلك قياساً مع مريم بنت عمران التي لم يكن لها زوج وآسيا زوجة فرعون والذي كان زوجها كافراً ولم يدخل الجنة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نرى مقدار ايمان وعظمة هذه المرأة التي اختارها الله لتكون زوجة لخاتم أنبياءه في جنات الخلد ووضعها في صف واحد مع عظيمات النساء في التاريخ وهن مريم وآسيا وخديجة (رض).

أخذت مريم أو كلثوم على عاتقها متابعة أخيها الرضيع بعد أن قذفته الأمواج بعيداً عن منزل أهله فدخلت معه الى داخل المشهد بعد أن التقطه آل فرعون وأحبوه وحين أخذ يبكي يريد رضاعاً وبالتحديد حليباً طاهراً يسد به رمقه ويقر به عيني والدته، وبعد ان عجزت النسوة اللواتي جاءت بهن امرأة فرعون عن ارضاعه لعدم قبوله لاثدائهن، قالت لهم: وكما جاء في الذكر الحكيم (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)[١٣٥].

يقول ابن عباس (رض) لما قالت ذلك قالوا لها، وما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه؟ فقالت رغبة في سرور الملك ورجاء منفعته، فأطلقوها وذهبوا معها الى منزلها فأخذته أمه، فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً وذهب البشير الى (آسيا) ليعلمها بذلك فاستدعتها الى منزلها وعرضت عليها ان تكون عندها وان تحسن عليها، فأبت عليها وقالت ان لي بعلاً واولاداً ولست أقدر على هذا إلا أن

---

[١٣٤] السيوطي، المصدر السابق، جـ٥، ص١٢١.

[١٣٥] القصص/ من الآية ١٢.

ترسليه معي فأرسلته معها)[١٣٦]، وذلك قوله تعالى (فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[١٣٧].

وهكذا عاد موسى الى أحضان أمه لتقر عينها بعودته ولترضعه وتربيه وتعده لمراحل حياته اللاحقة التي أراد الله تعالى أن تكون مراحل تكليف بمهمات النبوة وتباشير الرسالة والدعوة الى الحق.

ثالثاً – آسيا امرأة فرعون

كما توقف القرآن عند أحد فراعنة مصر وهو فرعون موسى بالتحديد، توقف عند زوجة ذات الفرعون ايضاً. وفي اشارة واضحة وصريحة لأثر المرأة في الحياة واستقلالها الروحي والعقائدي وتحملها تبعات ذلك الاستقلال سلباً أو ايجاباً دون الالتفات الى مواقف زوجها، بمعنى انها لا تكافأ بمواقف زوجها الايجابية ولا تعاقب بمواقفه السلبية وبين النفع والضرر أراد الله تعالى أن يشير الى أن المرأة كائن اذا أراد الانفراد فلا يؤثر عليه ايمان نبي متواضع ولا طغيان كافر متجبر. لا أثناء وقوع الحدث ولا حتى في لحظات الحساب في العالم الآخر. وبهذا تكون امرأة تحت فرعون جبار متكبر هي أفضل عند الله من امرأتين كانتا تحت نبيين من أنبيائه الكرام، وبالنظر لهذه المقارنة ولأهمية امرأة فرعون في حياة موسى وأثرها الكبير بانقاذه من الموت، ارتأينا أن نتطرق اليها عرفاناً منا بأثرها الايجابي في الحياةعلى الرغم من انها ليست زوجة نبي أو أم له قال تعالى (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ *

---

[١٣٦] ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٣٠١.

[١٣٧] القصص/١٣.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[١٣٨]. والاشارة أعلاه قد جاءت بعد ان آمنت تلك المرأة الطيبة بنور موسى الساقط من عينين أنارهما الله بنور النبوة فأخذته واحتضنته واعتبرته ابناً لها وعملت المستحيل من اجل أن تنقذه من موت كان محدقاً به في تلك السنون السوداء. قال تعالى (وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[١٣٩]. جاء في تفسير الطبري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قوله: جاءت امرأة فرعون الى فرعون وهي تحمل موسى قالت له قرة عين لي ولك قال فرعون قرة عين لك أما أنا فلا حاجة لي به[١٤٠] وعنهما ايضاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت لهداه به كما هدى به امرأته ولكن الله حرمه ذلك)[١٤١].

---

[١٣٨] التحريم/١٠-١١.

[١٣٩] القصص/٩- يعلق الآلوسي في روح المعاني على قول آسيا (قرة عين لي ولك) فيقول: ولتفخيم شأن القرة عدلت عن كلمة (لنا) أي هي وزوجها فقالت لي ولك، وكأنها لتعلم من مزيد حب فرعون لها، وان مصلحتها أهم عنده من مصلحته هو فقدمت نفسها عليه، فيكون أكثر قوة في التأثير على قرار الفرعون،الآلوسي، التفسير، جـ٢٠، ص٤٨.

[١٤٠] الطبري، التفسير، جـ٢٠، ص٢٣ وانظر ايضاً ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٣٠٠.

[١٤١] المصدر نفسه، وانظر ايضاً: الثعلبي المصدر السابق، ص١٧١، وايضاً الصابوني ، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٢٦، أما أبو السعود فله رأي آخر، حيث يتحدث عن قصة رمي موسى في اليم بالطريقة التالية فيقول: قبل أن تضع أم موسى طفلها في التابوت، وضعت فيه قطناً ثم قيرته، ثم وضعت فيه موسى ورمته في اليم وكان في اليم فرع يتجه الى بستان فرعون، فدفعه الماء اليه فأتى به الى بركة في البستان حيث كان فرعون جالساً مع آسيا بنت مزاحم فأمر فرعون بالتابوت فأخرجوه ثم فتحه فإذا هو صبي اصبح الناس وجهاً فأحبه عدو الله حباً شديداً لا يكاد يتمالك الصبر عنه وذلك قوله تعالى (وألقيت عليك محبة مني) أي زرعتها في القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك إلا أحبك، أبي=

اتفق المؤرخون على أن اسم امرأة فرعون هي آسيا بنت مزاحم[١٤٢] لكنهم اختلفوا في أصلها فمنهم من قال هي آسيا بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد[١٤٣] ومنهم من قال هي من بني اسرائيل ومن سبط موسى بالذات[١٤٤].

يقول الثعلبي وانطلق الماء بتابوت موسى يرفعه الى الموج مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين الأشجار عند دار الفرعون وفي داخل بستانه، فخرجت جواري فرعون يغتسلن ويستقين، فوجدن التابوت، فأخذنه وهو على حاله حتى أدخلنه على آسيا، فلما فتحته رأت فيه الطفل، فألقى الله تعالى عليها محبة منه، فأحبته حباً شديداً. فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا على آسيا ليذبحوه، فقالت لهم: انصرفوا فأنا آتي الى فرعون واستوهبه اياه، فجاءت الى فرعون وقالت أبقيه نأخذه ولداً ثم لا زالت معه حتى أقنعته، فاحتفظت به لها وسمته (موشى) وهو من مقطعين مو: يعني الماء، والشى: يعني الشجر، لأنهم وجدوه بين الماء والشجر ثم عُرب بعد ذلك فسمي: موسى[١٤٥]. وقد روى عن ابن اسحق قوله: بأن الله تعالى ألقى محبته في قلبها لانه كان في وجهه ملاحة فكل من رآه أحبه ولأنها حين فتحت التابوت رأت النور في عينيه ثم قالت لزوجها عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، وكانت رحمها الله لا تلد[١٤٦]. بعد ان استطاعت بقوة شخصيتها

=السعود،محمد بن محمد العمادي، (ت/٩٥١هـ)، تفسير أبي السعود المسمى ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم، جـ٦، دار احياء التراث العربي، بيروت، ص١٥.

[١٤٢] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧٠. وانظر: ايضاً، ابن الاثير، المصدر السابق، ص١٢٨، ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٣٠٠، الجزائري، المصدر السابق، ص٢٠٢، الصابوني، المصدر السابق، جـ٣، ص٤١٢.

[١٤٣] ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٢٨، ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٣٠٠.

[١٤٤] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٩٣.

[١٤٥] الثعلبي، المصدر نفسه، ص١٧١.

[١٤٦] النووي، المصدر السابق، جـ٢، ص١٣٧.

وايمانها العميق برب موسى أن تقنع فرعـون بإبقـاء مـوسى لـديها سـارعت مبـاشرة باحضار المراضع لارضاعه لكنه (عليه السلام) رفض أن يقبل أي واحدة، وكمـا جـاء في الذكر الحكيم (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ)[١٤٧]. يقول ابن كثير: فأرسلته آسـيا مـع القوابل والنساء الى السوق، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته، فبينما هم وقوف هناك إذ أبصرت به أخته، فقالت لهم "فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْـتٍ يَكْفُلُونَـهُ لَكُـمْ وَهُـمْ لَـهُ نَاصِحُونَ"[١٤٨]. فصادف كلامها قبولاً لديهم فبعثوها لتـأتي بالمرضـعة فجـاءت بامهـا وامه على الفور، فأقبل على ثديها فالقوا اليها بموسى لترضعه[١٤٩].

وهكذا تنفست آسيا الصعداء فأخذت تعتني بأم موسى كونها ستكون الجهـة التـي ستمنح موسى الحياة من خلال الرضاعة التي بها ينـشأ ويحيـى وينمـو "فرتبـت لهـا الرواتب وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات"[١٥٠].

أحبت آسيا موسى حباً جماً واصبح بالنسبة لها كـل شيء في الحيـاة ففرعـون رغـم حبه لها كان لا يشكل بالنسبة لها أي شيء خاصة بعد ان دخل موسى لحياتهـا وهـداها الله بحبها له للايمان، فآمنت برب موسى وفرعون ورب العالمين، الاله الواحد الأحد وبذلك دخلت خانة الايمان وابتعدت عن خانة الكفر التي كان يمثلها فرعون وأتباعـه حتـى أن فرعون وبعد مرور سنوات طويلة على وجود موسى في بيته وعندما كانت تعبد اللـه سراً، حتى أنها كانت تخرج الى حقل لها تصلي به خوفاً من فرعون اكتشف فرعـون ايمانهـا ووجدها تصلي لله وتعبده دونه هو، قرر أن يقتلها فأمر بها فمدت بين اربعة أوتاد ثم ما زالت في العذاب حتى نادت ربها (رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ

---

[١٤٧] القصص/من الآية ١٢.

[١٤٨] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٣٠١ .. القصص/ من الآية ١٢.

[١٤٩] النجار، المصدر السابق، ص١٥٨.

[١٥٠] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٣٠١.

وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[151]. فأوحى اليها الله أن ارفعي رأسك، ففعلت فرأت بيتها في الجنة مبنياً من الدر فضحكت، فقال فرعون انظروا الى الجنون الذي حل بها تضحك وهي في العذاب[152]. من خلال ما جاء في سياق القصة الموسوية في الذكر الحكيم والذي تم التطرق الى قسم منها من خلال ما تقدم نستنتج ما يلي:

أ. على الرغم من كل الاحترازات التي أخذتها الأجهزة الاستخباراتية والاجرامية الفرعونية وبتوجيه من دكتاتور القرون الأولى، لم تستطع تلك الأجهزة من أن تمنع الموت الزؤام والخزي والعار الذي لحق بسيدها بعد أن كان ذلك الطفل الذي ذبحوا فيه سبعين الفاً[153] قد عاش بين ظهرانيهم وتسمى باسمهم[154]، فهم الذين هيأوه ليقتص منهم باذن الله وارادته وليكون سبباً لهلاك الفرعون وزوال حكمه وفي ذلك حكمة لا يدركها إلا ذو حظ عظيم.

ب. أم موسى هي الأم الوحيدة التي خاطبها الله تعالى بكنيتها التي ارتبطت بأثرها في حياة موسى بعد أن جاهدت وصبرت وقدمت ابنها على مذبحة الحرية، حرية بني اسرائيل التي تكفل موسى بتحقيقها، عندما رمته في اليم على أمل أن يؤدي دوره بأمر ربه وبعون منه، فضلاً عن ذلك امتازت هذه الأم الشجاعة عن دونها من نساء الكون بأنها كانت أماً لنبيين كريمين تعاونا معاً وسارا معاً وأديا ذات الوظيفة وذات الدور، بعد أن ولدا بزمن متقارب، وغادرا الحياة بوقت متقارب أيضاً[155]، فكانت بحق أماً أعطت للانسانية ما لم تعط غيرها من الأمهات خاصة في تلك العصور حيث كان الباطل هو السائد، فجاءت أم

---

[151] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٩١، والآية من سورة التحريم/ من الآية ١١.

[152] المصدر نفسه.

[153] ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٢٩.

[154] المصدر نفسه.

[155] الجزائري، المصدر السابق، ص٢٠٢.

موسى وهارون لتدفع بالحق الى الأمام بعد أن أنجبت اثنين من الذين أراد لهم الله أن يكونا من أنبياءه وأصفياءه.

ج. ان خروج أخت موسى ومتابعتها لأخيها وهو في التابوت حتى وصوله الى بيت الفرعون ووقوفها على الأمر بشكل مباشر، وطرحها لمشروع رضاعته عليهم دون خوف أو تردد، يعطي هو الآخر تصوراً لا يقبل الشك أبداً عن مدى قدرة المرأة على الفعل الصحيح من جانب وعن مدى تأثير ذلك الفعل ومباركته من قبل الرب من جانب آخر. وبهذا نكون قد وصلنا الى قناعة تامة ومطلقة على أن القرآن قد وقف مع المرأة وأشاد بأثرها الايجابي، وكان منصفاً معها حين اشار للموقف الايجابي مشجعاً اياه وحين أشار كذلك للموقف السلبي منددأ به، وبهذا تكون المرأة كالرجل تماماً تخطأ كما يخطأ وتصيب كما يصيب وليس كما يشاع على انها عنصر سلبي في الكثير من أوجه حياته.

د. الموقف الذي وقفته آسيا بنت مزاحم، امرأة فرعون من موسى وتشبثها به واصرارها على أن يبقى في بيتها لتقر به عينها ولتتخذه ولداً، ليحيا في كنف الفرعون، رغم إرادات الفرعون ذاته وحاشيته، وخاصة هامان الذي كان له رأي بعدم جدوى بقاءه حياً اذ كان يشك به وانه ذاته الطفل الذي سيكون زوال حكم الفرعون على يديه كما يقول الثعلبي[١٥٦]، كل ذلك وغيره كان دليلاً على أن امرأة فرعون كانت واعية تماماً لما تفعل فهي تعلم أن موسى لا يستحق الموت، والذي يستحق الموت هو فرعون ذاته، لذلك بذلت كل ما تستطيع لابعاد الذبح عنه، وبذلك منحته الحياة ووفرت له بيئة ملائمة جداً بان يحيا حياة الملوك لكن بقلب مملوء بالايمان، وبالنظر لكونها كانت عاقراً ولم تلد فقد

[١٥٦] الثعلبي، المصدر السابق، ص١٧٣.

كان موسى هدية من الله تعالى لها، ففي الوقت الذي حرمها الله من أن تكون أماً لطفل أبوه كافر وملحد عوضها بابن وان لم تلده إلا أنها أحست بأنه ابن لها، فعطفت عليه وكانت عوناً له، وكما تشابه موسى بموقف آسيا الوجداني منه بيوسف عليهما السلام بموقف زليخا تجاهه وذلك بكون الامرأتين كانتا من العائلة الحاكمة ومن النساء اللواتي يعشن في نعيم ودلال، تشابهت آسيا مع سارة زوج ابراهيم (عليه السلام) عندما كانت عاقراً ومنحها الله على الكبر اسحق، كانت آسيا هي الأخرى عاقراً فمنحها الله موسى ليشبع لديها غريزة الأمومة ولتشعر معه بالراحة والاستقرار النفسي وهو يلعب أمامها فرحاً مسروراً، تعلق الهيلة في كتابها المرأة من خلال الآيات القرآنية، على علاقة آسيا بموسى وما ترتب على تلك العلاقة من موقف خلده التاريخ فتقول: "كانت آسيا زهرة يانعة عاشت في جحيم الكفر وطغيانه ومع ذلك فقد ابلغها تبتلها لله وايمانها بربها درجة المثل الذي يضرب للمؤمنين لينسجوا على منواله، فقد تضرعت لربها تطلب منه انجاءها من طغيان فرعون الجبار زوجها وضلالة قومها، وقد اكرمها ربها فبعث لها الغلام البهي موسى فاتخذته ولداً"[١٥٧].

هـ- تطرق القص القرآني وهو يروي قصة موسى (عليه السلام) الى أنه التقى في مدين بابنتي نبي الله شعيب* (عليه السلام) فساعدهما على السقي، ثم ذهب مع احداهما الى بيت أبيها بعد ان جاءت ودَّعته الى ذلك كون ابوها ارسل اليه ليكافئه، وما ترتب على ذلك من قول الفتاة لأبيها (يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)[١٥٨]. واتفاق ابيها مع موسى على زواجها منه لقاء أن يخدمه موسى عشر حجج، وكما جاء في الذكر

---

[١٥٧] الهيلة، المصدر السابق، ص٢٥٩.

* لم يتطرق القرآن على أن الفتاتين أبوهما نبي الله شعيب، إلا أن أكثر المؤرخين والمفسرين اتفقوا على ذلك، راجع، ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٣٠٦.

[١٥٨] القصص/من الآية ٢٦.

الحكيم[١٥٩]. هذا المشهد أفرز العديد من الصور وما يتعلق منها بأثر المرأة بالذات لعل أهمها ما يلي:

١. أن خروج الفتاتين للاستسقاء يدلل بما لا يقبل الشك بأن المرأة كان لها اثر في الحياة آنذاك تستطيع أن تقوم به سواءً داخل المنزل أو خارجه انسجاماً مع متطلبات الحياة وما تفرضه الظروف في حينها.

٢. كلام موسى مع الفتاتين دون أن تكون له بهما أي علاقة وجوابهن عليه يدلل على ان المرأة كانت قد شقت طريقها بالتعامل مع الأحداث بصدق والتعاطي مع مختلف الأمور بانسيابية وعدم تحاشيها، خاصة عندما تكون ثقة المرأة بنفسها قوية وأن حديثها مع الأغراب اذا كان مبرراً فهو أمر طبيعي وقد سمح به القرآن وأشار اليه فضلاً عن ذلك فقد شاء الله أن يكون ذلك الحديث مفتاحاً لعلاقة اجتماعية جديدة في حياة موسى تمخضت عنها مصاهرته لنبي كريم كان له أثر كبير وايجابي في حياة موسى اللاحقة.

٣. ان فهم والد الفتاة لطلب ابنته باستئجار موسى كان سبباً لاتفاقه معه والذي أخذ طابع الشمولية والوقوف عند رغبات ابنته، أعطى تصوراً عن مدى فهم الشيخ لرغبة كريمته بأن تكون زوجة لذلك القوي الأمين، وبهذا تصبح الحكمة المستقاة من الحدث تعبر عن قوة العلاقة وحميميتها بين الأب النبي الكريم، وابنته الطيبة التي عبّرت عن رغبتها بعفوية وبراءة، وهذا ما يدعو اليه القرآن ويؤكد من خلاله على نبذ الظنون والشكوك والنيات السيئة.

---

[١٥٩] القصص/الآية٢٦-٢٨، قال تعالى (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ).

الفصل التاسع

أم عيسى - مريم بنت عمران - عليها السلام

أولاً: مريم بنت عمران - العذراء البتول -
ثانياً: المسيح عيسى بن مريم - كلمة الله وروحه -
ثالثاً: زكريا وزوجته

أم عيسى – مريم بنت عمران (عليها السلام)

اذا كان الخطاب القرآني قد كنى أم موسى باسم ابنها واعتبر أهميتها من اهميته وأن أثرها كان يمثل نقطة الانطلاق فقط لاثر موسى في الحياة وليمثل ايضاً الخط الذي بدأ منه موسى رسالته الى فرعون وملأه، فان القرآن الكريم قد سمى أم عيسى باسمها ولم يكنها، بل تطرق الى عيسى بعد ذلك محدثاً عنه باعتباره عيسى بن مريم، وبهذا كان وجود مريم في حياة عيسى من الأهمية بمكان اذ كانت هي الوعاء الذي احتوى عيسى واعطاه تلك الخصوصية الرائعة مقارنة بأخوته أنبياء الله الكرام، فمريم كانت أولاً وموقفها الايماني وأهميتها في الحياة جاءت منذ طفولتها وعندما كانت مريم فقط وقبل أن تكون أماً لعيسى (عليه السلام). وبناء على خصوصية هذه المرأة العظيمة وبالنظر لكونها كانت أولاً قبل أن يكون عيسى نبياً لذلك سنتطرق اليها ثم نعرج بعد ذلك على عيسى باعتباره يشكل حدثاً هاماً وعظيماً في حياة مريم بنت عمران.

أولاً: مريم بنت عمران – العذراء البتول-

أشار القرآن الكريم الى مريم بنت عمران باسمها الشخصي[1] ولم يقل عنها أم عيسى مثلاً أو بنت عمران فقط أو امرأة فلان من الناس كماء جاء مع امرأة العزيز وامرأة فرعون وبهذا تكون قد امتازت عن غيرها من النساء اللواتي تمت الاشارة لهن في القرآن الكريم، فضلاً عن ذلك فقد أفرد الذكر الحكيم لها سورة من سوره الأربعة عشر بعد المائة لتسمى باسمها الشريف، وبذلك تكون قد تساوت بهذا الأمر مع عدد من انبياء الله

---

[1] مريم بنت عمران (عليه السلام) هي المرأة الوحيدة التي ذكرها القرآن باسمها الشخصي بسور عديدة من سوره المباركة.

الكرام من الذين وردت سور قرآنية كريمة باسمائهم وهم نوح وهود وابراهيم ويوسف ويونس ومحمد (صلوات الله عليهم أجمعين).

ورد اسم مريم في القرآن الكريم أربع وثلاثين مرة[٢] حيث بدأ الخطاب القرآني تناول قصتها وابنها (عليهما السلام) منذ اللحظات الأولى لخلقها وهي في أحشاء أمها بعد أن أثنى على أبيها وآله بقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[٣]. وعمران هو من نسل داود (عليه السلام)[٤]، أما الآل فهو الرهط وآل عمران هم مريم وعيسى[٥].

قال تعالى (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[٦]. وامرأة عمران التي تطرق لها الذكر الحكيم هي حنا بنت فاقوذ

---

[٢] ورد اسم مريم في القرآن الكريم أربع وثلاثين مرة وكما يلي: مريم لوحدها عشر مرات، ومريم بنت عمران مرة واحدة، وعيسى بن مريم ثلاث عشرة مرة، ابن مريم مرتين، والمسيح بن مريم خمس مرات، والمسيح عيسى بن مريم ثلاث مرات، وذلك في السور التالية: البقرة، آل عمران، النساء، الأنبياء، مريم، المؤمنون، الأحزاب، الحديد، الزخرف، الصف والتحريم، راجع أبو دندي، رياض ابو دندي وآخرون، عيسى ومريم في القرآن الكريم، المعهد الملكي للدراسات الدينية، اشراف يوسف قزما خوري، دار الشرق للنشر، عمان، ١٩٩٦، مقدمة الكتاب.

[٣] آل عمران/٣٣-٣٤.

[٤] ابن كثير، القصص، ص٥٨٨، ينقل ابن كثير سلسلة عمران الى داود عن طريقين فيقول: قال محمد بن اسحق: وعمران هو بن ياشم بن امون بن ميشا بن حزقا بن احريق بن موثم بن عزازيا بن اموصيا بن ياوش بن احريهو بن يازم بن يهفاشاط بن ايشا بن ابان بن رصبعام بن داود. ونقل عن ابن عساكر قوله: وعمران هو بن ماثان بن العازر بن اليود بن اخنذ بن صادوق بن عيازور بن الياقيم بن ابيود بن زريابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا بن امون بن ميشا بن حزقيا بن احاز بن موثا بن عزريا بن يورام بن يوثافاط بن ايشا بن ايبا بن رصبعام بن سليمان بن داود (عليه السلام). ثم يقول وفيه مخالفة لما ذكره بن اسحق.

[٥] ابن عاشور، المصدر السابق، جـ٣، ص٢٣٦.

[٦] آل عمران/٣٥.

بن قبيل كما يؤكد أكثر المؤرخين[٧]. وهي جدة عيسى (عليه السلام)[٨]، كانت من عابدات بني اسرائيل[٩] ومن أهل بيت كانوا من الله بمكان[١٠] وكانت رضي الله عنها على أغلب الروايات عاقراً لم تلد أو قد امسك عنها الولد حتى أسنت[١١]. يروي ابن عساكر بسنده عن ابن عباس رض) قوله ان حنه امرأة عمران كانت حُبست عن الولد والمحيض فبينما هي ذات يوم في ظل شجرة اذ نظرت الى طير يزق فرخاً له فتحركت نفسها للولد فدعت الله تعالى أن يهب لها ذكراً فحاضت من ساعتها فلما طهرت أتاها زوجها فلما أيقنت بالولد قالت: لئن نجاني الله تعالى ووضعت ما في بطني لأجعلنه محرراً، ولم يكن يحرر في ذلك الزمان إلا الغلمان فقال لها زوجها: أرأيت ان كان ما في بطنك أنثى، والأنثى عورة فكيف تصنعين؟ فأغتمت لذلك وقالت (رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي)[١٢]. يعلق الآلوسي على الموضوع فيقول هذا في الحقيقة استدعاء للولد الذكر لعدم قبول الأنثى فيكون المعنى رب اني نذرت لك ما في بطني فاجعله ذكراً ثم يقول وقد جعله بعض الأئمة تأكيداً لنذرها واخراجاً له عن صورة التعليق الى هيئة التنجيز[١٣]. والمحرر هنا هو الشخص الذي لا يعمل للدنيا ولا يتزوج ويتفرغ لعمل الآخرة ويعبد الله تعالى

---

[٧] الطبري، التفسير، جـ٣، ص١٥٦. المسعودي، المروج، جـ١، ص٦٢. الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٧٤. ابن كثير، القصص، ص٥٨٨. الآلوسي، التفسير، جـ٢، ص١٣٣. ابن عاشور، المصدر السابق، جـ٣، ص٢٣٢ .. أما ابن الأثير فيؤكد ان اسمها حنه بنت فاقوراء، ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١، ص١٩٧.

[٨] الثعلبي، ، المصدر السابق، ص٣٧٤.

[٩] ابن كثير، المصدر السابق، ص٥٨٨.

[١٠] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٧٤.

[١١] الطبري، التفسير، جـ٣، ص١٥٧. الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٧٤. ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١، ٩٧، الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٣٩.

[١٢] الآلوسي، التفسير، جـ٢، ص١٣٤.

[١٣] المصدر نفسه.

ويكون في خدمة الكنيسة[١٤] وهذا النوع من النذر كان في شرع بني اسرائيل وهو غير مرغوب ولا معمول به في الشريعة الاسلامية[١٥].

يقول الرازي في تفسير قوله تعالى (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)[١٦]، ان في ذلك قولين، القول الأول وهو ان مرادها كان تفضيل الذكر على الأنثى للاسباب التالية، الأول ان في شرعهم لا يجوز تحرير الاناث دون الذكور والسبب الثاني هو الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة ولا يصح ذلك في الانثى لمكان الحيض وسائر عوارض النساء، أما السبب الثالث: فهو ان الذكر يصلح للخدمة لقوته وشدته دون الأنثى كونها ضعيفة لا تقوى على الخدمة، أما السبب الرابع فهو أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس عكس الأنثى، والسبب الخامس هو ان الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى. هذا ما يتعلق بالقول الأول، أما القول الثاني فيقول الرازي ان المقصود من كلام أم مريم اني وضعتها أنثى هو ترجيح هذه الأنثى على الذكر وكأنها قالت ان الذكر هو مطلوب وهذه الأنثى موهوبة لله تعالى، وليس الذكر كالأنثى التي هي موهوبة لله تعالى، يعلق الرازي على هذا الكلام بقوله: وهذا يدل على أن أم مريم رحمها الله كانت مستغرقة في معرفة جلال الله، عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خيرٌ مما يريده العبد لنفسه[١٧] يقول الحسن البصري، انما فعلت ذلك بالهام من الله ولولاه ما فعلت كما رأى ابراهيم انه يذبح ابنه في

---

[١٤] المصدر نفسه.

[١٥] الرازي، أبو عبد الله فخر الدين بن محمد، (ت،٦٠٦هـ)، التفسير الكبير، جـ٨، دار الكتب العلمية، طهران،ص٣٥.

[١٦] آل عمران/من الآية ٣٦.

[١٧] الرازي، التفسير، المصدر السابق، جـ٨، ص٣٦.

المنام فعلم ان ذلك أمر من الله وان لم يكن عن وحي وكما الهم الله أم موسى فقذفت بابنها في اليم لغرض انقاذه من الموت[١٨].

وهكذا رأت مريم النور وأمها عجوز قد أخذ منها الزمن كل شيء فهي أرملة متعبة لا ولد لها في الحياة يحمل عنها بعضاً من هموم الشيخوخة ومتاعب الدنيا ولا زوج تتفيء بظله وتحس من خلاله بالراحة والاستقرار يقول الديار بكري (لما ولدت حنه مريم عليها السلام لفتها في خرقة وحملتها الى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون وهم في البيت المقدس كالحجبة في الكعبة وقالت دونكم هذه النذيرة[١٩] دخلت مريم الى خانة الايمان ومحراب العبادة منذ نعومة أظفارها فكانت بحق إسماً على مسمى[٢٠]، قال تعالى (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)[٢١].

يقول الطبري: "يعني بذلك ان الله جل ثناؤه تقبل مريم من أمها حنه بتحريرها اياها للكنيسة وخدمتها وخدمة ربها بقبول حسن والقبول هنا مصدر من قبلها"[٢٢]، قال سيبويه: خمسة مصادر في اللغة جاءت على وزن فعول وهي قبول، طهور، وضوء، وقود وولوغ[٢٣]، وأنبتها نباتاً حسناً يعني سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان فكانت تنبت في المدة اليسيرة كما ينبت المولود في المدة الطويلة، يقول ابن جريح "وأنبتها ربها في

---

[١٨] المصدر نفسه.

[١٩] الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤١ (يقول الرازي، اختلفوا في كفالة زكريا لمريم متى كانت فقال الأكثرون ان ذلك حال ولادتها وقال البعض كفلها بعد أن تم افطامها)، الرازي، التفسير، المصدر السابق، جـ٨، ص٣٧).

[٢٠] يقول الآلوسي، ومريم في اللغة العبرية تعني عابدة، الآلوسي، التفسير، جـ٢، ص١٣٥.

[٢١] آل عمران، من الآية٣٧.

[٢٢] الطبري، التفسير، جـ٣، ص١٥٨.

[٢٣] الرازي، التفسير، جـ٨، ص٣٦.

غذائها ورزقها نباتاً حسناً حتى تمت امرأة بالغة"[٢٤]، (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا). وزكريا (عليه السلام) كان نبي ذلك الزمان وهو عديل عمران والد مريم، يقول الثعلبي: كان زكريا بن برخيا وعمران بن ماثان كانا متزوجين بأختين احداهما عند زكريا وهي أشياع بنت فاقوذ أم يحيى والأخرى عند عمران وهي حنة بنت فاقوذ أم مريم[٢٥].

ونظراً لعلاقة القرابة التي تربط زكريا (عليه السلام) بمريم وأهلها أراد أن يتكفلها كونه أقرب لها من غيره من الأحبار. ينقل الطبري بسنده عن مجاهد وقتادة وابن عباس وغيرهم قولهم: أخرجت أم مريم بمريم بعد ولادتها واتت الى بيت المقدس وقالت للأحبار دونكم هذه النذيرة فأني حررتها وهي ابنتي ولا يدخل الكنيسة حائض وأنا لاأردها الى بيتي فقالوا هذه ابنة امامنا وصاحب قرباننا فقال زكريا ادفعوها الي فان خالتها عندي فرفضوا قائلين: لا تطيب أنفسنا هي ابنة امامنا، فاقترعوا بأقلامهم عليها فقرعهم زكريا فكفلها[٢٦]، ثم ينقل الطبري قولاً آخر يختلف عما تقدم بعض الشيء فيقول: وقال آخرون كان زكريا قد كفل مريم بغير اقتراع ذلك كون أمها ماتت بعد موت أبيها وهي طفلة وعند زكريا خالتها أشياع بنت فاقوذ فضمها الى خالتها أم يحيى فكانت معهم في

---

[٢٤] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٧٥.

[٢٥] الثعلبي، المصدر نفسه، ص٣٧٤، وهناك من المؤرخين من يختلف مع الثعلبي بخصوص صلة القرابة التي تربط مريم بزكريا، يقول الديار بكري: جاء في مدارك التنزيل أن يحيى بن زكريا أمه اسمها سارة بنت عمران، وهي أخت مريم، وعليه فعيسى ويحيى ابنا خالة، .. الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤١.

[٢٦] الطبري، التفسير، جـ٣، ص١٥٩، يعلق جاد المولى في قصص القرآن عند طلب زكريا كفالة مريم فيقول: (أراد زكريا أن يمهد سبيل الراحة لتلك التي ألقى الله اليه مقاليد أمورها ودفعه حب الاستئثار الى أن ينأى بها عن الناس ويبعدها عن ضوضائهم ويخص نفسه بخدمتها ويحرم على غيره الدخول اليها فبنى لها غرفة عالية في بيت المقدس، لا سبيل اليها الا الصعود بسلم وكان دائماً يتفقد شؤونها ويتردد عليها في محرابها، ليطمئن على حالها)، جاد المولى، المصدر السابق، ص٢٠٩.

الدار حتى اذا بلغت أدخلوها الكنيسة لنذر أمها التي نذرته أما ما يتعلق بالاقتراع بالأقلام فقد حدث بعد ذلك بمدة طويلة لشدة أصابتهم بضعف زكريا عن حمل مؤونتها[٢٧]، وبالنظر لأهمية زكريا المستمدة من كونه نبياً ورجلاً مؤمناً له من الخصائص ما يجعله مميزاً عند ربه وله عنده منزلة عظيمة لذلك عدت عملية كفالته لمريم من فضائل هذه المرأة العظيمة ومما يزيدها أهمية كون صاحب التربية يكسب خلقه وصلاحه الى الذي يربيه[٢٨] يقول ابن الأثير: "فأخذها زكريا وكفلها وضمها الى خالتها أم يحيى واسترضع لها حتى كبرت فبنى لها غرفة في المسجد لا يرقى اليها الا بسلم ولا يصعد اليها غيره وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء فيقول: أنى لك هذا؟ فتقول: هو من عند الله"[٢٩] وذلك قوله تعالى (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[٣٠].

---

(٢٧) الطبري، التفسير، جـ٣، ص١٥٩.

(٢٨) ابن عاشور، المصدر السابق، جـ٣، ص٢٣٥.

(٢٩) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١، ص١٨٩.

(٣٠) آل عمران/من الآية٣٧: يروي عبد الله بن حامد باسناده عن جابر بن عبد الله الأنصاري (رض) الرواية التالية أنقلها نصاً كما جاءت في قصص الأنبياء، للثعلبي، تقول الرواية (ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام اياماً لم يُطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه فلم يصب في بيت أحد منهن شيئاً، فأتى فاطمة رضي الله عنها فقال: يا بنية هل عندك شيءآكله فاني جائع؟ فقالت: لا والله بأبي أنت وأمي. فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندها بعثت اليها جارة لها برغيفين وبضعة لحم، فأخذته منها ووضعته في جفنة وغطت عليه وقالت: لأؤثرن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي ومن عندي وكانوا جميعاً محتاجين الى شبعة طعام، فبعثت حسناً وحسيناً الى جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرجع اليها فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قد أتانا الله بشيء فخبأته لك، قال: فهلمي به، فأتى به، فكشف عن الجفنة فاذا =

ينقل ابن شهراشوب عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي قولهم: ان زكريا (عليه السلام) عندما كان يدخل على مريم وهي في محرابها يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف وكان عالماً بأن الله تعالى قادر على أن يخلق الولد من العاقر وان لم تجر به العادة، لكنه لم يدعُ ربه لبعض التدبير، فلما رأى خرق العادة من خلال خلق الفاكهة في غير وقتها قرر أن يدعو ربه[٣١] وذلك قوله تعالى (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)[٣٢].

كان القص القرآني واضحاً وهو يتحدث عن طفولة مريم وهي ترى النور يتيمة الأب ثم دخولها الى محراب الايمان والعبادة بعد أن كفلها نبي من أنبياء الله ليعوضها الله به وليجعله بمثابة الأب الذي يحنو على ابنته ويعمل من أجل رعايتها واسعادها حتى انها كانت ولمنزلتها العظيمة عند الله تعالى سبباً بأن يكون لكافلها إبنٌ رغم كبر سنه ولخالتها العاقر ولدٌ منحه الله لهم ربما كجزاء لما قاموا به من رعاية لتلك الطفلة بعد أن فقدت والديها ولم يبقَ لها ما يمكن أن تعتبره أسرة كما هو شأن غيرها من البنات ..

= هي مملوءة خبزاً ولحماً، فلما نظرت اليه فاطمة بهتت وعرفت انها من بركة الله، فحمدت الله تعالى وصلت على نبيه، فقال عليه الصلاة والسلام من أين لك هذا يا بنية؟ فقالت: هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب، فحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيدة نساء بني اسرائيل، فانها كانت اذا رزقها الله رزقاً حسناً فسئلت عنه قالت: (هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى علي رضي الله عنه فأتى فأكل الرسول وعلي وفاطمة والحسن والحسين وجميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم جميعاً حتى شبعوا وبقيت الجفنة كما هي، قالت فاطمة رضي الله عنها: وأوسعت منها على جميع جيراني، وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً وكان أصل الجفنة رغيفين وبضعة لحم، والباقي بركة من الله تعالى)، الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٧٦.

[٣١] المازندراني، الشيخ محمد بن علي بن شهراشوب، (ت/٥٨٣هـ)، متشابهات القرآن ومختلفة، جـ١، طبعة ايران، ١٣٢٨هـ ص٢٢٨.

[٣٢] آل عمران/٣٨.

ونظراً للرواية التي تقول بتقارب كل من عيسى ويحيى (عليهما السلام) في العمر[٣٣] فأن دخول زكريا لمحراب مريم ودعوته من هناك بعد أن رأى عندها من الرزق ما حفزه على الدعاء، كان ذلك آخر موقف طفولي في حياة مريم قبل أن تبلغ وتصبح فتاة وتدخل مرحلة جديدة في حياتها بدأها القرآن بالثناء عليها حين قال: (وَإِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)[٣٤] وهذا القول كان مقدمة للبشرى اللاحقة التي بشر الله بها مريم بالمسيح (عليه السلام) والقرآن هنا حدد الوسيلة التي أوصل بها الله تعالى قراره باصطفاء مريم وهم الملائكة وجبريل منهم على وجه الخصوص[٣٥]. والاصطفاء الأول في الآية أعلاه ثم التطهير والاصطفاء الثاني وقف عنده المفسرون، وقد تناوله الرازي في تفسيره بشيء من التفصيل حين قال: أعلم ان المذكور في هذه الآية أولاً هو الاصطفاء وثانياً التطهير وثالثاً الاصطفاء على نساء العالمين، والاصطفاء الأول جاء على ما اتفق لها من الأمور الحسنة في أول عمرها من خلال ما يلي: أولاً ان الله تعالى قبل تحريرها مع انها كانت أنثى ولم يحصل مثل هذا الامر لأنثى غيرها وثانياً قول الحسن البصري أن أمها لما وضعتها ما غذتها طرفة عين، بل ألقتها الى زكريا وكان رزقها يأتيها من الجنة، وثالثاً ان الله تعالى فرغها لعبادته وخصها بالهداية واللطف والعصمة ورابعاً قد كفاها أمر معيشتها فكان رزقها يأتيها من عند الله تعالى. وأخيراً انه جل شأنه قد اسمعها كلام الملائكة شفاهاً، ولم يتفق ذلك لأنثى غيرها هذا هو المراد بالاصطفاء الأول، أما التطهير فقد جاء بناء على أولاً تطهير

---

[٣٣] انظر: كل من ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٩٨. الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤١.

[٣٤] آل عمران/٤٢.

[٣٥] انظر: الرازي، التفسير، المصدر السابق، جـ٨، ص٤٢ .. ويعتمد بذلك على قوله تعالى (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً).

الله لها عن الكفر والمعصية وثانيا عن مسيس الرجال وكذلك الحيض حيث يقول وقالوا: ان مريم كانت لا تحيض وثالثاً تطهيرها من الأفعال الذميمة والعادات القبيحة، وأخيراً تطهيرها عن مقالة اليهود عليها وتهمتهم لها وكذبهم وافتراءهم، أما ما يتعلق بالاصطفاء الثاني فقد حدده الرازي بقوله "المراد به انه تعالى وهب لها عيسى عليها السلام من غير أب وأنطقه حال انفصاله عنها حتى شهد بما يدل على برائتها عن التهمة وجعلها وابنها آية للعالمين"[٣٦].

كان اصطفاء الله تعالى لمريم العذراء واضحا جداً فمريم الأنثى الوحيدة التي لها سورة مباركة في القرآن بأسمها الشريف وهي التي تكرر اسمها بالنص في ٣٤ موضع في الذكر الحكيم، وقد أرسل الله اليها جبرائيل وان كان بغير شكله الحقيقي، إلا أنها تفردت بمخاطبته دون غيرها من النساء، فضلاً عن ذلك فأن مريم المرأة الوحيدة التي ولدت دون أن يمسها رجل وكما يقول الرازي فانها كانت طاهرة عن مسيس الرجال..[٣٧] وبعد هذا الاصطفاء* الذي كان مقدمة للبشرى اللاحقة كماأسلفنا، بدأ

---

[٣٦] الرازي، التفسير، المصدر السابق، جـ٨، ص٤٣.

[٣٧] المصدر نفسه.

* يعلق ابن كثير في قصص الأنبياء على قوله تعالى (واصطفاك على نساء العالمين) بالقول يحتمل أن يكون المراد عالمي زمانها كقوله لموسى (اني اصطفيتك على الناس) الأعراف/١٤٤ وكقوله لبني اسرائيل (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) الدخان/٣٢ ومعلوم ان ابراهيم (عليه السلام) أفضل من موسى، وأن محمد صلى الله عليه وسلم أفضل منهما وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عدداً وأفضل علماً وأزكى عملاً من بني اسرائيل وغيرهم ثم يقول ويحتمل أن يكون قوله (واصطفاك على نساء العالمين) محفوظ العموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كانت قبلها أو جاءت بعدها لأنها ان كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم اسحق ونبوة أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحي الى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله (واصطفاك على نساء العالمين)، والله أعلم. أما قول الجمهور (ولا زال الكلام لابن كثير) كما حكاه ابو الحسن الأشعري وغيره من اهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال، وليس في النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم كما قال تعالى (وما المسيح ابن مريم إلا رسول قد=

جبريل بشارته الى مريم بعيسى عليه السلام من خلال قوله تعالى (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)[٣٨]، وبهذا يكون الله تعالى قد اصطفى مريم أولاً كما اصطفى من قبل آدم ونوحاً وابراهيم وان لم تكن نبية[٣٩] ثم طهرها واختارها لأن تكون أماً لنبي عظيم من أنبيائه بطريقة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً من قبل ولا من بعد[٤٠]، فكيف حدث ذلك وكيف أصبحت مريم أماً على الرغم من كونها عذراء لم يمسسها بشر؟ وما هو دور جبرائيل في الموضوع باعتباره روح الله تعالى؟ هذه الأسئلة وغيرها لم يجب عليها القرآن بشكل تفصيلي وان تحدث عن الموضوع بطريقة مباشرة لذلك سنستعين بالمفسرين للوصول الى بعض التفاصيل المهمة في التعامل مع حالة استثنائية شهدها مسرح الحياة

=خلت من قبله الرسل وأمه صديقة) المائدة/من الآية ٧٥، فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات بمن كان قبلها وممن يكن بعدها، والله أعلم. ثم يتحدث ابن كثير عن أحاديث نبوية وردت حول الموضوع وبخصوص أفضلية نساء العالمين فيقول: وقد روى الامام أحمد قائلاً:/ حدثنا عبد الرزاق، انبأنا معمر عن قتادة عن أنس، قوله، قال رسول الله صلى الله عله وسلم: (حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسيا امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد)، ثم يقول وقد رواه ايضاً الترمذي عن أبي بكر بن زنجويه، عن عبد الرزاق وصححه ورواه ابن مردويه عن طريق عبد الله بن ابي جعفر الرازي وابن عساكر عن طريق تميم بن زياد وكلاهما عن أبي جعفر الرازي عن ثابت، عن أنس قوله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (وخير نساء العالمين أربع مريم بنت عمران، وآسيا امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد رسول الله)، ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٥٦٢.

[٣٨] آل عمران/٤٥.

[٣٩] يقول الرازي، اعلم ان مريم ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك الا رجالاً نوحي اليهم من أهل القرى) النحل/ من الآية ٤٣، الرازي، التفسير، جـ٨، ص٤٢.

[٤٠] يقول الحنفي، قال العلماء: ان الله تعالى خلق آدم من غير أب ومن غير أم وخلق حواء من غير أم وخلق سائر المخلوقات من أب وأم فأراد تعالى أن يكمل العناصر الأربعة فخلق عيسى من غير أب فكمل بدائع حكمته، الحنفي، المصدر السابق، ص٢٩٠.

قبل أكثر من ألفي عام، قال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)[41].

ونظراً لايمانها وطهارتها فقد أرهبها ذلك الموقف حيث كانت لوحدها دون أن يكون هناك أحد في ذلك المكان الذي هو شرق بيت المقدس محتجبة فيه عن الناس بحائط بعد أن خرجت من موضعها الأصلي وهو بيت المقدس، لتغتسل هناك أو لتتعبد كما يقول أبو السعود[42] فقالت له وهي خائفة (أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا)[43] فأجابها جبرائيل وهو يبتسم[44] وأراد ان يطمئنها بذلك قائلاً (أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا)[45] فأستفسرت بعد ان هدأ روعها عن الكيفية مستغربة فقالت له (أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)[46] فأجابها على الفور منهياً الحوار بقوله (قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)[47] ثم وضح لها قصد الله تعالى من ذلك كله بقوله (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا)[48] ثم نفخ في جيبها[49] وغادر المكان.

هذه المحاورة التي أفضت الى زرع عيسى في أحشاء مريم استند عليها المؤرخون حين نسجوا قصة مريم وهي تحمل في رحمها ذكراً دون أن يكون لها بعل، أما ما يتعلق بيوسف النجار فان القرآن لم يتطرق الى شخصيته لا من بعيد ولا من قريب، إلا أنهم

---

(41) مريم / ١٦-١٧.

(42) ابي السعود، المصدر السابق، جـ٥، ص٢٥٩.

(43) مريم/ من الآية ١٨.

(44) انظر الآلوسي، التفسير، جـ١٦، ص٧٦.

(45) مريم / من الآية ١٩.

(46) مريم / من الآية ٢٠.

(47) مريم / من الآية ٢١.

(48) مريم / من الآية ٢١.

(49) الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٨٥.

(أي المؤرخون) اشاروا اليه مستندين في ذلك على روايات أهل الكتاب وما جاء في العهد القديم وأناجيل النصارى*، تقول مصادر التاريخ[٥٠] ان مريم (عليها السلام) كان وجودها في المسجد بشكل دائمي وما دامت طاهرة فاذا حاضت على رأي من يقول انها تحيض كغيرها من النساء تحولت الى بيت خالتها حتى اذا طهرت عادت الى بيت المقدس وبينما هي كذلك[٥١]، عرض لها جبريل على صورة شاب امرد مضيء الوجه جعد الشعر سوي الخلقة، يقول الحكماء: انما أرسل الله جبرائيل على صورة بشر لتقدر مريم على ذلك وتستطيع سماع تبليغه والتعامل معه بشكل طبيعي ولو نزل على صورته الحقيقية والتي هو عليها لفزعت ونفرت منه ولم تقدر على الاستماع اليه، فلما استعاذت منه انبأها أنه رسول الله جاء ليهب لها غلاماً زكياً، وبشرها بعيسى نبياً، فاستسلمت لقضاء

* يحدد انجيل متي نسب عيسى كما يلي: هو اليسوع بن يوسف النجار بن يعقوب بن متان ... وصولاً الى اسحق بن ابراهيم (عليه السلام). أما انجيل لوقا فيحدد نسب عيسى على انه اليسوع بن يوسف النجار بن هالي بن لاوي بن ملكي ... وصولاً الى اسحق بن ابراهيم (عليه السلام). أما علاقة يوسف النجار بمريم (عليها السلام) فقد تحدث عنها الانجيلان مؤكدين ان مريم كانت خطيبة يوسف النجار وقد حملت قبل ان يجتمع بها وان يوسف كان رجلاً تقياً يتقرب الى الله بالصوم والعبادات لذا أبدى امتعاضه منها وقرر أن يبتعد، وذات يوم وهو نائم جاءه ملاك ووبخه قائلاً (لماذا عزمت على ابعاد امرأتك) ثم أعلمه ان الذي في بطنها هو من الله واسمه اليسوع وهو نبي فلما استيقظ شكر الله وأقام مع مريم كل حياته. يعلق الأستاذ النجار في قصص الانبياء على ما ورد اعلاه قائلاً: هذا هو ما جاء في الأناجيل وهو لا يخالف ما في القرآن. غاية ما في الأمر انها تزيد حكاية يوسف النجار وهو أمر مسكوت عنه في القرآن فلا تصدق ولا تكذب. النجار، المصدر السابق، ص٣٨٢.

(٥٠) الطبري، التفسير، المصدر السابق، جـ١٦، ص٤٥-٤٦، الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٨٥، ابن الجوزي، المصدر السابق، جـ٥، ص٢١٦، ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١، ص٢٠٣، ابن كثير، القصص، المصدر السابق، ص٥٧٠، أبي السعود، المصدر السابق، جـ٥، ص٢٥٩، الحنفي، المصدر السابق، ص٢٩٠. البرسوي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٢١.

(٥١) يقول ابن الجوزي: وقد قيل في وقت مجيء جبرائيل ثلاثة أقوال، القول الأول، وهي تغتسل، والقول الثاني بعد فراغها من الغسل ولبسها ثيابها والثالث بعد دخولها الى بيتها، ابن الجوزي، المصدر السابق، جـ٥، ص٢١٧.

الله فنفخ في جيب درعها، فلما انصرف عادت الى المسجد، يقول ابن عباس (رض) أخذ جبريل (عليه السلام) ردن قميصها باصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى وان لها من العمر ثلاثة عشر عاماً[٥٢]. يقول الطبري: وكان مع مريم في المسجد من المحررين ابن عم لها يقال له يوسف النجار، وكان رجلاً صالحاً يعمل نجاراً ويتصدق بعمل يديه، وعندما رآها حاملاً كان أول من حملها حيث استفظع أمرها لم يستطع تقبله، فلم يدرِ على ماذا يضع أمرها فاذا أراد ان يتهمها ذكر صلاحها وبراءتها وانها لم تغب عنه ساعة واذا اراد أن يبرئها رأي الذي ظهر عليها، فلما اشتد عليه ذلك كلمها ودار بينهما الحوار التالي: قال يوسف لمريم (عليها السلام): أنه قد وقع في نفسي من أمرك شيء وقد حرصت على أن أكتمه فغلبني ذلك ورأيت ان الكلام فيه أشفى لصدري، فقالت له: قل قولاً جميلاً، فقال: أخبريني يا مريم هل نبت زرع بغير بذر؟ فقالت: نعم فقال: هل نبتت شجرة بغير غيث؟ فقالت: نعم، فقال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: ألم تعلم ان الله عز وجل أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر، والبذر انما يكون من الزرع الذي أنبته من غير بذر، ألم تعلم ان الله تعالى انبت الشجر من غير غيث؟ وبالقدرة جعلت الغيث حياة الشجر بعدما خلق الله كل واحد منهما على حده، أو تقول ان الله لا يقدر أن ينبت الشجر حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على انباته؟ فقال يوسف لها: لا أقول هذا ولكني أقول: ان الله تعالى يقدر على ما يشاء يقول للشيء كن فيكون فقالت له مريم: ألم تعلم ان الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟ قال: بلى. فلما قالت له ذلك وقع في نفسه ان الذي هو بها شيء من أمر الله تعالى وانه لا يسعه أن يسألها عنه[٥٣]. وهذه

---

[٥٢] القرطبي، المصدر السابق، جـ١١، ص٩٠.

[٥٣] الطبري، التفسير، المصدر السابق، جـ١٦، ص٤٨، وانظر ايضاً: الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٨٥، وابن الأثير، المصدر السابق، جـ١، ص٢٠٣.

الرواية ان صحت فأنها تدل على مدى تحمل هذه المرأة الطيبة الطاهرة تداعيات النفس الاجتماعي المبني على اساس الشكوك والظنون خاصةً وان الموضوع يتعلق بكبريائها وطهارتها وعفتها، وان لم تصح فان القرآن الكريم قد اشار الى اتهام اليهود لها وهي في قمة طهارتها وعظمتها واصطفاء الله لها، قال تعالى (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا)(٥٤).

وبعد الذي جرى بين مريم وجبرائيل عليهما السلام، ومنذ تلك اللحظات نبت عيسى في أحشاء أمه، وبذلك اصبحت وابنها آية للعالمين. تحدث المؤرخون عن المدة التي حملت فيها مريم عيسى (عليه السلام)، ففي الوقت الذي يؤكد فيه الكليني بأن المدة كانت تسع ساعات فقط كل ساعة تعادل شهراً(٥٥)، يتحدث ابن الجوزي في زاد المسير عن آراء المؤرخين والمفسرين في موضوع الحمل فيقول، قال السدي: نفخ جبرائيل في جيب درع مريم وكان مشقوقاً من قدامها فدخلت النفخة في صدرها فحملت من وقتها وفي مقدار حملها سبعة أقوال:

١. انها حملت ثم وضعت بوقت قصير بناءً على قوله تعالى (فحملته فانتبذت به) وهذا يدل على أن بين الحمل والوضع وقتاً يحتمل الاتيان به.
٢. انها حملته تسع ساعات، ووضعت من يومها، وهذا القول كما يقول ابن الجوزي هو للحسن البصري وبذلك يتفق مع رأي الكليني أعلاه.
٣. والرأي الثالث هو أن حملها (عليها السلام) كان تسعة أشهر كما تحمل النساء وهو قول سعيد بن جبير وابن السائب.

---

(٥٤) النساء/١٥٦.

(٥٥) الكليني، المصدر السابق، جـ٨، ص٣٣٢.

٤. الرأي الرابع يقول ثلاث ساعات حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة وهو قول مقاتل بن سليمان.

٥. والرأي الخامس يقول حملته لمدة ثمانية أشهر، فعاش ولم يعش مولود قط لثمانية أشهر فكان في ذلك آية.

٦. والرأي السادس هو رأي الماوردي الذي يقول حملته في ستة أشهر.

٧. أما الرأي السابع والأخير فهو راي الثعلبي الذي يقول حملته ووضعته في ساعة واحدة[٥٦].

وبعد الحمل تم ولادة عيسى (عليه السلام) وتعقيباً على آراء المفسرين بخصوص مدة الحمل فأنا أقف الى جانب القائلين بأن المدة كانت لا تتجاوز ساعات وذلك لكون الموضوع برمته كان معجزة وكما قال تعالى (سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[٥٧] لذلك لا توجد حكمة في بقاء عيسى في بطن امه تسعة شهور أو ثمانية شهور أو ستة كما يقول بعض المفسرين كون ذلك سيعرض مريم الى الخطر والكلام الفاحش حيث لا تستطيع الدفاع عن نفسها اذ لا يوجد دليل قاطع على براءتها وعلى خصوصية حملها كما هو الحال مع الذي حدث بعد ولادتها لعيسى حينما طلبت من الذين اتهموها بالفاحشة ان يسألوا وليدها ليجيبهم عن الأمر، لذلك أرى ان الحمل كان سريعاً، أما التهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً كما جاء في الذكر الحكيم فقد جاء ذلك بعد ولادتها لعيسى وقد كان الخطاب القرآني واضحاً بتحديد ملامح الصورة أثناء الولادة أولاً ثم المحاورة التي جرت بين مريم (عليها السلام) ووليدها من جهة وبين أهلها وذويها ومن كان حاضراً ذلك المشهد ليلة خروج عيسى الى الحياة من جهة أخرى قال تعالى

---

[٥٦] ابن الجوزي، المصدر السابق، جـ٥، ص٢١٩.

[٥٧] مريم / من الآية ٣٥.

(فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)[٥٨].

ان الآيات الكريمة أعلاه قد وضعتنا وجهاً لوجه أمام مشهد غاية في العظمة، امرأة طاهرة، نقية، عابدة، راكعة ساجدة، أمضت سنوات عمرها الشريف في خشوع وعبادة تجد نفسها ودون مقدمات أمام مخاض أنثوي تصل اليه غيرها من النساء بعد مراحل من النضج البيولوجي اولاً ومراحل اخرى اجتماعية ونفسية تهيئها للحدث بعد أن توفر لها بيئة ملائمة يكون للآخرين دور فيها بناء على نضج العلاقات الاجتماعية بين الأسر في المجتمعات المتحضرة قديماً وحديثاً. أما مريم فانها لم تحظ بكل ما تقدم إلا أنها بايمانها وبطهارتها وبخصوصية ما تحمله من عفة وشرف وباصطفاء الله لها واعتزازه بها فقد وقف لها وحضر مخاضها وهنأها على سلامتها من هو خيرٌ من البشر والأسر والمجتمعات، انه الرب الذي أرسل اليها روحه ليكون قريباً منها وليوفر لها بيئة نفسية ملائمة يساعدها ايمانها ومكانتها المميزة عند الله ان تنسجم معها، فكانت بحق لحظات مخاض خلدها التاريخ وجعل منها مناسبة اعتمدتها شعوب الأرض

---

[٥٨] مريم / ٢٢-٣٢.

باعتبارها حالة فريدة، كانت مريم فيها كل الحدث، وكل المشهد، ونصفاً من النتائج، أما النصف الآخر فهو المسيح عيسى بن مريم قول الحق ورسول الانسانية ابن الصديقة الطاهرة وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، يقول المسعودي (ولما بلغت مريم ابنه عمران سبع عشرة سنة بعث الله عز وجل اليها جبرائيل فنفخ فيها الروح فحملت بالسيد المسيح عيسى بن مريم (عليه السلام)، وولدت بقرية يقال لها (بيت لحم) على بعد أميال من بيت المقدس، ولدته في يوم الأربعاء لأربع وعشرين ليلة خلت من كانون الأول)[٥٩].

لم تنتهِ مهمة مريم بولادتها لعيسى (عليه السلام) بل على العكس من ذلك تماماً فقد عاشت حتى بعد غياب عيسى عن الأرض، ففضلاً عن حملها له من دون أن يكون لها بعل، ثم ولادتها في ظروف استثنائية، وتعرضها لشتى أنواع الاتهامات والأقاويل التي تجرح كرامة المرء وكبريائه. فقد أخذت على عاتقها تربيته ورعايته والرحيل به من مكان الى آخر بحثاً عن الأمان الذي فقدته في فلسطين بسبب العداء الذي نصبه اليهود لعيسى (عليه السلام)، وبعد ان نما وترعرع واصبح يشكل خطراً عليهم حين عراهم وكشف عنهم النقاب وعن سلوكياتهم البعيدة عن الدين والمنطق[٦٠]، يقول الثعلبي وكان مولد عيسى قد صادف اثناء حكم هيردوس على بلاد الشام فلما عرف هيردوس خبر ولادة المسيح (عليه السلام) قرر قتله، وذلك انهم نظروا الى نجم قد طلع فعرفوا ذلك بما عندهم في كتاب كان بحوزتهم، فأوحى الله تعالى الى مريم ان إلحقي بمصر فان هيردوس ان حظا بابنك قتله، فاذا مات هردوس فارحلي الى بلادك فذهبت بابنها الى

---

(٥٩) المسعودي، مروج الذهب، المصدر السابق، جـ١، ص٦٣.

(٦٠) النجار، المصدر السابق، ص٣٩٢.

مصر، وذلك قوله تعالى (وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)[٦١]، ثم يقول "فاقامت مريم بمصر اثنتي عشرة سنة تغزل الكتان وتلتقط السنبل في أثر الحصادين وكانت تلتقط السنبل والمهد في منكبها والوعاء الذي فيه السنبل في منكبها الآخر حتى تم لعيسى اثنتا عشرة سنة"[٦٢] وهذه الرواية ان صحت فهي تعطي تصوراً واضحاً عن مدى العناء الذي لاقته والجهد الذي بذلته مريم بتربية ابنها والتعب من أجل أن يبلغ مراده وهدفه النهائي وهو أن يبلِّغَ رسالة ربه الى بني اسرائيل، فدفعته الى الكُتاب ليتعلم وبعد أن تعلم دفعته ليتعلم احدى المهن وهي الصباغة [٦٣] وهكذا عاشت معه سنوات عمره الشريف من حال الى حال حتى بلغ الثلاثين فأوحي اليه[٦٤].

---

[٦١] المصدر السابق، ص٣٨٩، وقد اختلف المفسرون في تفسر قوله تعالى ربوة ذات قرار ومعين، فالطبري ينقل عن الحسن البصري عن ابي هريرة قوله الربوة هي الرملة من فلسطين ثم يقول وقال آخرون هي دمشق، الطبري، التفسير، المصدر السابق، جـ١٨، ص١٩. الثعلبي يتحدث عن عدة أماكن فيقول: قال عبد الله بن سلام هي دمشق وقال قتادة وكعب هي بيت المقدس، وابو زيد هي مصر أما القزاز فيحددها بالقول انها الأرض المستوية والمعين هو الماء الطاهر دون أن يحدد لها مكاناً،الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٨٩.الطبرسي،في مجمع البيان يذكر المواقع أعلاه مضيفاً اليهما الكوفة، فيقول والربوة التي أويا اليها هي الرملة من فلسطين عن أبي هريرة، وقيل دمشق عن سعيد بن المسيب، قيل مصر عن أبي زيد، قيل بيت المقدس عن قتادة وكعب وقيل هي حيرة الكوفة وسوادها والقرار هو مسجد الكوفة والعين هو الفرات عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، الطبرسي، المصدر السابق، جـ ١٨، ص٥٥.

[٦٢] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٨٩.

[٦٣] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٩٢.

[٦٤] يقول النجار، في قصص الأنبياء: على الرغم من ان القرآن الكريم لم يشر الى تاريخ ابتداء نبوة عيسى (عليه السلام)، إلا أن عبارات بعض الأناجيل دلت على أنه نبئ على رأس ثلاثين سنة من عمره، وجرى على ذلك المؤرخون ومفسرو القرآن الكريم، النجار، المصدر السابق، ص٣٨٩.

وعن سعيد بن المسيب (رض): كان عمر عيسى (عليه السلام) يوم رفع ثلاث وثلاثين سنة وفي الحديث الشريف (ان أهل الجنة يدخلونها جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين على عمر عيسى وحُسن يوسف)[٦٥].

وقد روى الضحاك عن ابن عباس (رض) ان عيسى لما رفع الى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها، ثم جاءت أمه مريم (عليها السلام) فودعته وبكت، ثم رُفِعَ وهي تنظر اليه. وتشير اليه باصبعها حتى غاب عنها، يقول ابن كثير، "وكانت تحبه حباً شديداً لأنها توفر عليه حبها من جهتي الوالدين إذ لا أب له وكانت لا تفارقه سفراً ولا حضراً"[٦٦].

توفيت مريم بعد رفع ولدها بست سنين وكانت مدة حياتها الشريفة نحو من ستين سنة ودفنت في بيت المقدس، وقبرها يزار هناك الى الآن صلوات الله عليها[٦٧].

أهم خصائص العذراء البتول – مريم بنت عمران – عليها السلام

لا يختلف اثنان سواء كانوا مسلمين أم نصارى حول ما لمريم العذراء من أهمية وخصوصية في التاريخ، إلا أن القرآن الكريم باعتباره آخر كتاب سماوي مقدس ومحفوظ من التشويه والتحريف[٦٨]، كان قد اشار الى تلك الأهمية والخصوصية بشكل ملفت للنظر وقد تجسد ذلك بما يلي:

---

[٦٥] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٦٢٠.

[٦٦] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٦٢١.

[٦٧] الحنفي، المصدر السابق، ص٢٩٨.

[٦٨] اشارة الى الآية الكريمة (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)، الحجر/٩.

أ. مريم العذراء المرأة الوحيدة التي أشار لها القرآن بالاسم الصريح ولمرات عديدة في الكثير من سوره المباركة*.

ب. أشار الخطاب القرآني الى اصطفاء الله تعالى لمريم بشكل مباشر، وبذلك تساوت مع انبياءه الذين اصطفاهم من خلقه واشار الى ذلك الاصطفاء في آيات الذكر الحكيم(٦٩).

ج. لم يتعامل الخطاب القرآني مع مريم باعتبارها أماً لعيسى كما تعامل مع يوكابد كونها أماً لموسى وبهذا تكون اهمية أم موسى جاءت من خلال كونها أماً لموسى وأثرها كان مرتبطاً اساساً بتهيئة الأجواء لموسى كي يأخذ طريقه للحياة الايمانية باعتباره سيصبح نبياً، أما مريم فان أثرها قد بدأ قبل أن يولد عيسى واستمر حتى رفعه الله تعالى اليه وعليه فهي أولاً قبل أن يكون عيسى لذلك جاء الخطاب القرآني متحدثاً عن عيسى بن مريم وليس عن مريم أم عيسى.

د. الخصوصية التي تمتعت بها السيدة مريم منذ أن قَبَلَ الله تعالى تحريرها من أمها كأنثى على عكس المعتاد آنذاك حتى حملها بعيسى وولادتها له بطريقة تفردت بها دون النساء، هذه الخصوصية أراد الله تعالى من خلالها أن يجعلها وابنها آية للعالمين، فأشار الى ذلك مرتين مرة قدم بها مريم على ابنها، واخرى قدم الابن على أمه وان عرّفه على أنه

---

* يعلق البرسوي على موضوع ذكر مريم باسمها الصريح في القرآن فيقول: (قال بعض العلماء في حكمة ذكر مريم باسمها دون غيرها من النساء ان الملوك والأشراف كانوا لا يذكرون حرائرهم في ملأ ولا يبتذلون اسماءهن بل يكنون عن الزوجة بالعرس والعيال والأهل ونحو ذلك فاذا ذكروا الاماء لم يكنوا عنهن ولم يصونوا اسماءهن عن الذكر والتصريح بها فلما قالت النصارى في حق مريم ما قالت وفي ابنها صرح الله تعالى باسمها ولم يكن عنها تأكيداً للأمومة والعبودية التي هي صفة لها واجراء الكلام على عادة العرب في ذكر امائها ومع هذا فان عيسى(عليه السلام) لا أب له واعتقاد هذا واجب فاذا تكرر ذكره منسوباً الى الأم استشعرت القلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفي الأب عنه وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود) المصدر السابق، جـ٥، ص٣٢١.

(٦٩) انظر: البرسوي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٢١..

ابن مريم، حيث قال (وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)[٧٠] و(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً)[٧١].

هـ. على الرغم من كون السيدة مريم (عليها السلام) لم تكن نبية كما أشار العديد من المفسرين[٧٢] مستندين في ذلك على قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)[٧٣]. إلا أن الخطاب القرآني قد تعامل معها معاملة الأنبياء وخاطبها مباشرةً باصطفاء الله تعالى لها حين قال (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)[٧٤] كما خاطب بقية الأنبياء باصطفاء الله تعالى لهم لخصوصيتهم وأهميتهم في الحياة. ثم ان نزول سورة كاملة باسمها قد جعلها في موازنة متعادلة هي الأخرى مع بقية الأنبياء الذين نزلت سورة خاصة باسمائهم الشريفة في الذكر الحكيم من ناحية الموقع القرآني، ومن ناحية أخرى فان ورود اسمها الشريف في اربعة وثلاثين موضعاً من القرآن وفي سور عديدة متفرقة اعطاها أهمية خاصة لاسيما وان القرآن قد اشار في تلك المواضيع الى اعتزاز الله تعالى بها وثناءه عليها وتبشيره لها بأن تكون أماً لنبي عظيم من انبياءه بطريقة برزت الى حد كبير أهميتها الكبيرة عند الله فكانت بذلك حقاً سيدة الخطاب القرآني دون منازع.

---

[٧٠] الأنبياء / من الآية ٩١.

[٧١] المؤمنون / من الآية ٥٠.

[٧٢] انظر: الرازي، التفسير، المصدر السابق، جـ٨، ص٤٢. ابن كثير، قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص١٤٩.

[٧٣] النحل / من الآية ٤٣.

[٧٤] آل عمران/٤٢.

و. كانت خصوصية السيدة مريم (عليها السلام) تكمن في تعبدها وزهدها في الحياة خاصة في مراحل حياتها الأولى، وورد اسمها كسيدة لنساء العالمين مع كل من السيدات، خديجة بنت خويلد، وآسية بنت مزاحم، وفاطمة الزهراء عليهن السلام كما جاء في الحديث الشريف المنوه عنه في بداية الفصل يعطي تصوراً مفاده ان سيادة المرأة لم تأتِ فقط من خلال العبادة والزهد في الدنيا وانما هناك مجالات أخرى تستطيع فيها المرأة أن تحظى برضا الله تعالى، وبأن تكون مميزة لديه، فالاشارة الى مريم في سورة التحريم(٧٥) والتي تزامنت مع الاشارة الى آسية بنت مزاحم تبين بأن الطرفين لهما من المنزلة الرفيعة لدى الله ما جعلهما في ميزان واحد. في الوقت الذي تشير فيه وقائع التاريخ ان مريم كانت عابدة في محرابها، ثم تفرغت لتربية ابنها وهي فقيرة تعمل بيديها، أما آسيا بنت مزاحم (امرأة فرعون) فقد كانت تعيش عيشاً رغيداً في قصور فرعون الفخمة، أما ما يتعلق بالسيدتين الجليلتين خديجة الكبرى وابنتها الزهراء، فالأولى كانت من نساء العرب الشهيرات بالسيرة الحسنة، اشتغلت بالتجارة، وتعاملت مع الحياة بصدق وايثار، في الوقت الذي كانت فيه ابنتها بليغة(٧٦)، عالمة تربت في بيت النبوة، ثم سرعان ما انتقلت الى جوار ربها وهي في عز شبابها بعد أن أنجبت للرسول الأعظم أحفاداً ملأوا عليه الدنيا بهجة وسروراً، هذه الصور المتعددة والمتنوعة في الفعال ومسارات الحياة، ثم التشابه بالنتائج التي أفضت الى منزلة واحدة عظيمة في قيمتها على كل المستويات يعني من جملة ما يعنيه ان للمرأة في الحياة اثراً يصغر أو يكبر بناء على ظروف ذاتية أو موضوعية

---

(٧٥) التحريم / ١٠-١١.

(٧٦) انظر: خطبتها في مجلس الخليفة الأول ابو بكر الصديق (رض) وهو في حشد من المهاجرين والانصار في كتاب بلاغات النساء لابن طيفور ، أحمد بن أبي طاهر، (ت، ٢٨٠هـ)، بلاغات النساء، دار النهضة، بيروت١٩٧٢، ص٢٣-٣٣.

تتعلق بالمرأة ذاتها، ثم يأخذ منحاً معيناً دون غيره، كل ذلك لايهم بقدر اهمية النتائج المترتبة على ذلك الاثر والمرتبطة برضا الله تعالى أولاً، وبالآثار الايجابية التي تتركها الأفعال ونتائجها على مستوى الميدان ومدى توظيف الناس لها باعتبارها أفعالاً يقتدى بها ثانياً.

ثانياً: المسيح عيسى بن مريم (كلمة الله وروحه)*

تابع الخطاب القرآني نشاطات عيسى بن مريم الدينية والعلمية والتوجيهية الى قومه منذ الساعات الأولى لولادته حتى رفعه الله تعالى اليه وهو في عمر الشباب(٧٧). فقد ورد ذكره الشريف في القرآن الكريم باسم عيسى، المسيح، المسيح بن مريم، وعيسى بن مريم وابن مريم فقط خمساً وثلاثين مرة في سور عديدة متفرقة(٧٨).

على الرغم من ان الخطاب القرآني لم يتعرض بشكل دقيق الى العمر الزمني الذي اصبح فيه عيسى (عليه السلام) رسولاً وكلف بمهمة بث دعوته الى بني اسرائيل، إلا أن المفسرين والمؤرخين اعتمدوا على ما جاء في بعض الأناجيل من أن عيسى كان على رأس ثلاثين عاماً حين اصبح رسولاً(٧٩). إلا اني أرى ومن خلال النص القرآني ذاته بأن عيسى

* استناداً للآية الكريمة (إِنَّمَا المَسيحُ عِيسَى بنُ مَريَمَ رَسُولُ اللهِ وكلِمَتُهُ ألقَاهَا الى مَريمَ وروُحٌ مِنه) النساء/من الآية١٧١.

(٧٧) عن سعيد بن المسيب (رض) كان عمر عيسى بن مريم (عليه السلام) يوم رفع الى السماء ثلاث وثلاثين سنة، ابن كثير، قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص٦٢٠.

(٧٨) راجع ابو وندي، المصدر السابق، ص ز.

(٧٩) انظر: النجار، المصدر السابق، ص٣٨٩، يقول النجار: ذكر اسم عيسى في القرآن بلفظ المسيح وهو لقب له وعيسى وهو اسمه العلمي هو بالعبرية يشوع أي المخلص، اشارة لكونه سبباً بتخليص كثيرين من آثامهم وضلالهم، وبكنية (ابن مريم) تارة أخرى في ثلاث عشر سورة في القرآن الكريم =

ولد نبياً وأن أول مهمة كلف بها لتصحيح آراء ومعتقدات بني اسرائيل هي الدفاع عن أمه أمام الموجة العارمة التي واجهتها ليلة ولادته (عليه السلام) وهذا المشهد رسمه السرد القرآني بصورة واضحة وهو يتحدث عن مريم وكيف ولدت عيسى وما ترتب على ذلك من محاكمة قومها لها وما جرى بين الطرفين من تجاذبات قال تعالى (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)[٨٠]. كان المشهد عظيماً والأمر على مريم شديد الوطأة، فأمرأة نقية، طاهرة، عفيفة، كالسيدة مريم (عليها السلام) تأتي وبحضنها طفل ابناً لها وهي باكر لم تتزوج، كيف حدث هذا، لا بد وأن يكون هناك أمرٌ خفيٌ. هذا الأمر الخفي لا يعلمه الا الله ومريم وابنها وجبرائيل روح القدس الذي قام بالأمر، وبما أن الله تقدست اسماؤه بعيداً عن المشهد لا يمكن للبشر العادي أن يتأكد من صحة خبر ما عن طريقه، والأمر كذلك ايضاً مع جبرائيل (عليه السلام) وبهذا لم يبقَ سوى مريم وابنها، وبالنظر لكون مريم صاحبة الأمر ومهما دافعت عن نفسها لا بد وأن يتصور الآخرون بأنها تدافع لغرض ابعاد الشبهة عنها، وعليه فلا بد من شاهدٍ آخر يحسم الموقف وهنا دخل عيسى (عليه السلام) على الخط الساخن بعلاقة مريم بقومها وكما أشار النص القرآني، فأن عيسى انبرى للدفاع عن أمه الطاهرة في أول موقف له مع قومه وهو في

=وهذه السور هي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، التوبة، مريم، المؤمنون، الاحزاب، الشورى، الزخرف،

[٨٠] مريم / من ٢٧-٣٣.

ساعات وأيام حياته الأولى. والنبوة المنوه عنها في الآيات أعلاه وان اختلف بشأنها المؤرخون[٨١] إلا أنها كانت حاضرة في ذلك المشهد حيث الفعل الميداني المباشر الذي تجسد بكلام عيسى وهو في المهد بقوله (اني عبد الله) والذي جاء أولاً لازالة التهمة عن الله تعالى من الذين نسبوه فيما بعد على أنه ابن الله، وثانياً تبرئته لأمه مما نسبه اليها الجاهلون وقذفوها به[٨٢]. يقول الرازي (ان الذي اشتدت الحاجة اليه في ذلك الوقت انما هو نفي

[٨١] اختلف العلماء في الوقت الذي أصبح فيه عيسى (عليه السلام) رسولاً مكلفاً بأداء رسالته الى بني اسرائيل، هل كان ذلك منذ صغره، أم فيما بعد حينما بلغ مبلغ الرجولة وقد جاء هذا الاختلاف على خلفية تفسيرهم لقوله تعالى (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)، مريم/ ٣٠-٣١، يقول الزمخشري (واختلفوا في نبوءته فقيل اعطيها في طفولته أكمل الله عقله واستنبأه طفلاً نظراً في ظاهر الآية وقيل: معناه ان ذلك سبق في قضاءه أو جعل الآتي لا محالة كأنه قد وجد)، انظر: ابو ندي، المصدر السابق، ص٤٢٠ – ابن الجوزي يتحدث عن الموضوع فيقول: أما قوله تعالى (وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) ، هذا وما بعده اخبار عما قضى الله له وحكم له به ومنحه اياه مما سيظهر ويكون، أما المعنى فهو يؤتيني الكتاب ويجعلني نبياً اذا بلغت وهنا حل الماضي محل المستقبل – ابن الجوزي، المصدر السابق، جـ٥، ص٢٢٩ الرازي في التفسير الكبير يتحدث عن خلاف المفسرين حول الموضوع وينقل عن عكرمة عن ابن عباس قوله في تفسير الآية (آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) فيقول ان المراد بذلك بأن الله حكم وقضى بأنه سيبعثني فيما بعد ثم يقول ولما تكلم سكت وعاد الى حال الصغر ولما بلغ الثلاثين سنة بعثه الله نبياً، ثم يعارض قول عكرمة فيقول: وظاهر قوله تعالى (آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) يدل على ان ذلك كان قد حصل من قبل أما في ذات الوقت أو متقدم عليه بمدة، والظاهر انه من قبل أن يكلمهم آتاه الله الكتاب وجعله نبياً وأمره بالصلاة والزكاة وأن يدعا الى الله، وقيل ان هذا الوحي نزل عليه وهو في بطن أمه ولما انفصل عنها أخبرها بحاله وأخبرها بأنه يكلمهم مما يدل على براءة حالها فلهذا أشارت اليه حين كلمها قومها. الرازي، التفسير، المصدر السابق، جـ٢١، ص٢١٦. القرطبي: يوضح تفسير الآية بقوله وتعني حكم لي بايتاء الكتاب والنبوة في الأزل وان لم يكن الكتاب منزلاً في الحال، وهو الاصح، القرطبي، المصدر السابق، جـ١١، ص٩٧. أما البرسوي قي تفسير روح البيان فيقول: أكد الجمهور على أن عيسى آتاه الله الانجيل والنبوة في الطفولة وكان يعقل عقل الرجال، وهذا ما جاء في بحر العلوم، ثم يقول والمشهور انه اوحى الله اليه بعد الثلاثين فكانت رسالته متأخرة عن نبوته. البرسوي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٣١.

[٨٢] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٥٧٧.

تهمة الزنا عن مريم عليها السلام، ثم أن عيسى (عليه السلام) لم ينص على ذلك وانما نص على اثبات عبودية نفسه كأنه جعل ازالة التهمة عن الله أولى من ازالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم انما تكلم بها)[٨٣] حيث ان التكلم بازالة هذه التهمة عن الله تعالى يعني ازالة التهمة عن الأم كون الله لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة الرفيعة والمرتبة العظيمة كعيسى (عليه السلام)[٨٤]. وبهذا فتح عيسى ابواب حياته ليلج منها الى العالم الخارجي مبشراً ومباركاً ورسولاً عظيماً، فكلفه ذلك كثيراً، يعلق أحمد بهجت على هذا الأمر بقوله: لم يكد عيسى ينهي كلامه حتى كانت وجوه الكهنة والأحبار قد اصفرت وشحبت، حيث كانوا يشهدون معجزة حقيقية وهي تقع أمامهم مباشرة، طفل يولد من غير اب ويتكلم معهم محدِّثٌ عن نفسه قائلاً بأن الله تعالى قد آتاه الكتاب وجعله نبياً وهذا يعني أن سلطتهم الروحية على الناس ستأخذ طريقها الى الانهيار، سيصبح كل واحد فيهم بلا قيمة عندما يكبر هذا الطفل، لن يستطيع أي منهم أن يبيع الغفران للناس أو يحكمهم عن طريق ادعائه انه ظل السماء على الأرض، شعر كهنة اليهود بالمأساة الشخصية التي جاءتهم بميلاد عيسى (عليه السلام). اذ ان مجرد مجيئه وقيامه بالدعوة يعني اعادة الناس الى عبادة الله وحده، وهذا يعني اعادة الديانة اليهودية الحقيقية اذ ان الفرق بين تعاليم موسى المنزلة عليه من السماء وتصرفات اليهود كانت كالفرق بين نجوم السماء ووحل الطرقات[٨٥] لذلك تآمروا عليه وساعدوا على الخلاص منه لأن وجوده يتنافى مع مصالحهم الدينية السياسية والاقتصادية، هذا ما يتعلق بالكهنة والأحبار من الذين يطلقون على أنفسهم صفة رجال دين، أما رجال

---

[٨٣] الرازي، التفسير، جـ٢١، ص٢٠٧.

[٨٤] المصدر نفسه.

[٨٥] بهجت، المصدر السابق، ص٣١٨.

السياسة وعلى رأسهم هيرودس الذي كان ملكاً على بلاد الشام فلما وصله خبره وما فيه من خصائص وذكر حسن أراد قتله فأوحى الله الى مريم أن أخرجي به ولا تعودي الا بعد موت هيرودس، فخرجت به من الشام الى مصر ثم عادت ثانية بعد موت هيرودس وكان عمر عيسى (عليه السلام) حينذاك اثني عشر عاماً فنزلت في قرية في فلسطين تسمى قرية الناصرة وبها سميت النصارى[٨٦].

وفي صباه كان لعيسى (عليه السلام) من المواقف الكبيرة والعظيمة ذي الدلالات المهمة الشيء الكثير. فقد جاء عن الامام الباقر عليه السلام، قوله: لما ولد عيسى – كان ابن يوم وكأنه ابن شهر فلما أصبح ابن تسعة أشهر، أخذته والدته جاءت به الى الكتاب وأقعدته بين يدي المؤدب، فقال له المؤدب: قل بسم الله الرحمن الرحيم، فقالها عيسى فقال المؤدب: قل ابجد؟ فرفع عيسى (عليه السلام) رأسه وقال للمؤدب، هل تدري ما ابجد؟ وهنا انزعج المؤدب وهم ليضربه بالقضيب، فقال له: يا مؤدب لا تضربني، ان كنت لاتدري، وإلا فاسألني حتى أفسر لك، فقال له المؤدب، فسره لي، فقال عيسى: الألف لا اله الا الله، والباء بهجة الله، والجيم جلال الله، والدال دين الله، أما هوز، فالهاء، هي جهنم وهي الهاوية، والواو، ويل لأهل النار، والزاي، زفير أهل جهنم، أما حطي فهي حطت الخطايا عن المستغفرين، وكلمن، كلام الله غير مخلوق ولا مبدل لكلماته، أما

---

[٨٦] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٩٠، وانظر ايضاً: البرسوي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٣٣، ابن الأثير له رأي آخر في الموضوع فيقول لما دنا نفاس مريم (عليها السلام) أوحى الله اليها أن أخرجي من أرض قومك فأنهم ان ظفرا بك عيروك وقتلوك أنت وابنك فاحتملها يوسف النجار وسار بها الى مصر، فلما وصلا الى حدود مصر أدركها المخاض، فلما وضعت وهي حزينة قيل لها (لا تحزني) الآية الى انسيا فكان الرطب يتساقط عليهاوذلك في الشتاء، ثم بعد ذلك احتملت مريم ابنها الى مصر فمكثت هناك اثني عشر عاماً تمكنه من الناس، فكانت تعمل بالتقاط السنبل، ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١، ص٢٠٥.

سعفص، فهي صاع بصاع والجزاء بالجزاء وقرشت تقرشهم حين تحشرهم: أي تجمعهم، فقال المؤدب لأمه ايتها المرأة خذي ابنك فقد علم ولا حاجة له الى المؤدب[٨٧].

أما الآيات والمعجزات التي ظهرت لعيسى في صباه فهي عديدة ايضاً، ينقل الثعلبي، عن وهب بن منبه قوله: كانت أول آية رآها الناس من عيسى (عليه السلام) ان أمه كانت ساكنة في دار أحد الدهاقنة في مصر بعد أن وصلتها هاربة من هيرودس وكانت دار ذلك الدهقان تأوي اليها المساكين، وذات ليلة وجد الدهقان ان مالاً بخزنته قد سرق، فلم يتهم المساكين، فحزنت مريم لمصيبة ذلك الدهقان فلما رأى عيسى حزن أمه قال لها: يا أماه أتحبين أن ادله على ماله؟ فقالت نعم يا بني، فقال لها: قولي له يجمع المساكين في داره، فقالت مريم للدهقان ذلك فجمع المساكين. فلما اجتمعوا عمد عيسى الى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مقعد، فحمل المقعد على عاتق الأعمى، وقال للأعمى قم به، فقال الأعمى، أنا اضعف عن ذلك، فقال له عيسى: كيف قويت على ذلك البارحة؟ فلما سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام، فلما استقل قائماً هوى المقعد الى كوة

---

[٨٧] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٩٠، البرسوي في تفسيره ينقل المحارة أعلاه بطريقة تختلف بعض الشيء فيقول: روي ان مريم عليها السلام. سلمت عيسى الى معلم ليعلمه فعلمه كلمة ابجد فقال عيسى له أتدري ما تعني كلمة ابجد فقال له المعلم لا، فأجاب عيسى قائلاً: أما الألف فلا اله إلا الله والباء بهاء الله والجيم جلال الله والدال دين الله، فقال المعلم، أحسنت فما (هوز) فقال الهاء هو الله الذي لا اله الا هو، والواو ويل للمكذبين، والزاي زبانية جهنم أعدت للكافرين، فقال المعلم أحسنت فما حطي) فقال، الحاءحطة الخطايا عن المذنبين المستغفرين، والطاء شجرة طوبى والياء يد الله على خلقه فقال أحسنت فما (كلمن) قال الكاف كلام الله واللام لقاء أهل الجنة بعضهم بعضاً والميم ملك الله والنون نور الله فقال أحسنت فما (سعفص) فقال، السين سناء الله والعين علم الله والفاء فعله في خلقه والصاد صدقه في أقواله فقال احسنت فما (قرشت) فقال القاف قدرة الله والراء ربوبيته والشين مشيئته والتاء تعالى الله عما يشركون فقال له المعلم أحسنت ثم قال لمريم خذي ولدك وانصرفي فانه علمني ما لم أكن أعرفه. البرسوي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٣٣.

الخزانة فقال عيسى للدهقان: هكذا احتالا على مالك البارحة، لأن الأعمى استعان بقوته والمقعد بعينيه، فقال المقعد والأعمى: صدق والله وردا على الدهقان ماله[٨٨].

وفضلاً عما تقدم والذي قدم لنا صورة لما كان عليه الوضع العلمي والقدرات الذاتية لعيسى والمبنية على اساس خصوصيته وايمانه بالله تعالى، عاش عيسى (عليه السلام) حياة مملوءة بالكرامات والمعجزات وقد اشار الذكر الحكيم الى العديد منها، يقول ابن اسحق بن بشر: قال لنا ادريس عن جده وهب بن منبه قوله:ان عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من مصر مع أمه الى بيت ايليا، فجاء واقام بها حتى أحدث الله له الانجيل وعلمه التوراة وكرمه باحياء الموتى وابراء الاسقام والعلم بالغيب وما يدخر الناس وتحدث الناس بقدومه وفزعوا لما كان يأتي من العجائب، فجعلوا يعجبون مما يأتي به حتى دعاهم الى الله تعالى وفشى فيهم أمره[٨٩].

قال تعالى (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)[٩٠].

---

[٨٨] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٩٠، انظر ابن الأثير، المصدر السابق، ص٢٠٥ وايضاً ابن كثير، قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص٥٨٩.

[٨٩] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٥٩٢.

[٩٠] المائدة/ ١١٠ - ١١١، يتحدث ابن كثير عن معجزات بعض الأنبياء وعلاقتها بالوضع السائد في زمانه ومنهم النبي عيسى (عليه السلام)، فيقول: لكل نبي معجزة بما يناسب الوضع السائد في زمانه، فموسى (عليه السلام) جاءت معجزته بما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة اذكياء، فبعثه الله بآيات=

روح القدس في الآية أعلاه هو جبريل (عليه السلام)، فالروح جبريل والقدس هو الله تعالى وكأنه تعالى اضافه الى نفسه تعظيماً له[٩١]، أما ما يتعلق بكلام المهد فيعني انه (عليه السلام) يكلمهم طفلاً وكهلاً دون أن يكون هناك تفاوت في كلامه في هذين الوقتين وهذه خاصية كما يقول الرازي شريفة حصلت له وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده[٩٢].

ونتيجة للصلة القوية والمباركة بين الله تباركت اسماؤه وتقدست وبين نبيه ورسوله عيسى (عليه السلام) فقد تحدثت كتب التاريخ عن الكثير مما كان يجري بين الطرفين، بعد أن اشار القرآن الى الموضوع أعلاه بقوله تعالى (وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) فقد جاء في الجواهر السنية نقلاً عن الكليني قوله: قال تعالى يا عيسى كنت خليقاً بكلامي ولدتك مريم بأمري المرسل اليها روحي جبرائيل الأمين من ملائكتي حتى قمت على الأرض وكل ذلك في سابق علمي .. وعن علاقة عيسى بزكريا ودور الأخير بكفالة أمه يقول الكليني: قال تعالى مخاطباً نبيه عيسى واعظاً اياه: يا عيسى زكريا بمنزلة أبيك

=بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب ولما كان السحرة خبيرين بفن السحر وما ينتهي اليه عاينوا الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره الا عمن ايده الله الذي جاء به موسى، أسلموا سراعاً ولم يتلعثموا، ثم يقول: وهكذا عيسى بن مريم بعثه الله في زمن الطبائعية الحكماء، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون اليها، وأتى كحكيم لابراء الأكمه الذي هو اسوأ حالاً من الأعمى، والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن وكيف يتوصل أحد من الخلق الى أن يقيم الميت وفي هذا كله دلالة واضحة على قدرة من بعث عيسى نبياً، أما الرسول المصطفى محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد بعثه الله في زمن الفصحاء والبلغاء فأنزل عليه القرآن الكريم الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فلفظه معجزة تحدى بها الأنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في المستقبل، ابن كثير، قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص٦٠٢.

[٩١] الرازي، التفسير، جـ١٢، ص١٢٣.

[٩٢] المصدر نفسه، جـ١٢، ص١٢٤.

وكفيل أمك، ونظيرك يحيى من خلقه وهبته لأمه بعد الكبر من غير قوة بهـا، أحـبكم اليَّ أطوعكم واشدكم خوفاً مني[٩٣]. أما ابن كثير، فينقل بسنده عن أبي هريرة (رض) قوله: "أوحى الله عز وجل الى عيسى بن مريم: يا عيسى، جد في أمري ولا تهن، واسمع واطع يـا أبن الطاهرة البكر البتول انك من غير فحل، وأنا خلقتك آية للعالمين، إيـاي فأعبـد وعـلي فتوكل خذ الكتاب بقوة، فسر لأهل السريانية، بلغ من بين يـديك انـي أنـا الحـق الحـي القائـم الذي لا أزول، صدقوا النبي الأمي العربي صاحب الجمل والتاج – وهي العمامة – والمدرعة والهراوة وهو القضيب– الأنجل العينين، الصلت الجبين، الواضح الخدين، الجعد الرأس، الكث اللحية، المقرون الحاجبين، الأقنى الأنف، المفلـج الثنايـا، البـادي العنفقـة، الذي كأن عنقه ابريق فضة، شثن الكف والقدم، اذا التفت التفت جميعاً، واذا مشى كأنما يتقلع من هز وينحدر من صبب، عرقه في وجهه كاللؤلؤ وريح المسك ينفح منه، لـم يُـرَ قبله ولا بعده مثله، الحسن القامة الطيب الريح، نكاح النـسـاء ذا النـسل القليـل، انمـا نسله من مباركة لها بيت – يعني في الجنة – من قصب لا نصب فيه ولا صـخب، تكفلـه يا عيسى في آخر الزمان كما كفل زكريا أمك، له منها فرخـان مستـشهدان، ولـه عنـدي منزلة ليست لأحد من البُشر، كلامه القرآن، ودينه الاسلام واتاه السلام، طوبى لمـن أدرك زمانه وشهد ايامه وسمع كلامه، فقال عيسى: يا رب وما طوبى؟ قال: غرس شجرة أنـا غرستها بيدي، فهي للجنان كلها، أصلها من رضوان وماؤها من تـسنيم، وبردهـا بـرد الكافور، وطعمها طعم الزنجبيل وريحها ريح المسك من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها

---

[٩٣] العاملي، المصدر السابق، ص١٠٤ – أما ما يتعلق بالأكمه والأبرص، فالأكمه هو الأعمى منذ الولادة أما الأبرص فهو المصاب بداء البرص وهو داء جلدي على شكلين منها الخفيـف والقـوي واعراضـه بقـع بيضاء تظهر على الجسم ويكثر لدى الذين يسكنون المناطق والأمـاكن القـذرة والعـرب والعبرانيـون واليونان يتشائمون من الأبرص، أما العرب بالذات فكانوا لا يتكلمون مع الأبرص إلا من وراء حجـاب على الرغم من كونه مرضاً غير معدٍ، ابن عاشور، المصدر السابق، جـ٣، ص٢٥١.

أبداً. فقال عيسى يا رب اسقني منها، فقال: حرام على النبيين أن يشربا منها حتى يشرب ذلك النبي وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى يشرب منها أمة ذلك النبي"[٩٤].

وعيسى (عليه السلام) هو آخر أنبياء بني اسرائيل قام خطيباً يوماً في قومه بعد أن أبلغه الله ان النبي التالي هو من غير بني اسرائيل وانه كما أشرنا من سلالة ابراهيم لكنه من الفرع الاسماعيلي قائلاً أن النبوة قد انقطعت عنهم وأنها بعده ستكون في النبي العربي الأمي خاتم الأنبياء واسمه أحمد وهو إبن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي هو من سلالة اسماعيل بن ابراهيم الخليل (عليه السلام)[٩٥]، قال تعالى (إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)[٩٦].

لذلك عزموا على قتله بعد ان كذبوه فأنقذه الله منهم ورفعه اليه من بين أظهرهم وألقى شبهه على أحد اصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى (عليه السلام)[٩٧].

أهم خصائص وصفات عيسى (عليه السلام)

كان عيسى (عليه السلام) رجلاً أحمر مائلاً الى البياض، سبط الرأس، زاهداً في الدنيا كل الزهد حريصاً على عبادة الله، وكان حيثما غابت الشمس صف قدميه وصلى حتى يصبح[٩٨]، وسمي بالمسيح لمسحه الأرض وهي سياحته فيها وفراره بدينه من

---

[٩٤] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٥٩٣.

[٩٥] المصدر نفسه، ص٦٠٤.

[٩٦] الصف/٦.

[٩٧] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٦٠٣.

[٩٨] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٩٠.

الفتن لشدة تكذيب اليهود له[99]. وقد نقل عنه قوله، خادمي يداي، ودابتي رجلاي، وفراشي الأرض ووسادتي الحجر ودفئي في الشتاء مشارق الأرض، أبيت وليس لي شيء واصبح وليس لي شيء وليس على وجه الأرض أحد أغنى مني[100]. وعن الامام علي (عليه السلام) قوله لم تكن لعيسى (عليه السلام) زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مال يتلفه ولا طمع يذله، دابته رجلاه وخادمه يداه[101]. وقد سئل يوماً لماذا لا تتزوج؟ فقال وما اصنع بالزواج؟ قيل يولد لك. قال وما اصنع بالولد ان عاشوا أفتنونا وان ماتوا أحزنونا[102]. يقول السدي: أوحى الله تعالى الى عيسى، يا عيسى سأزوجك في الآخرة الف حورية من الحور العين ولأطعمن في عرسك ألف عام وينادي منادي أحضروا وليمة عيسى الزاهد في الدنيا والراغب في الآخرة[103]. وقد أوجز صاحب تفسير الميزان خصائص عيسى بما يلي مستمداً اياها مما ورد بحقه في الذكر الحكيم فيقول: كان عيسى (عليه السلام) عبداً وكان نبياً ورسولاً الى بني اسرائيل وكان واحداً من الرسل الخمسة أولي العزم، صاحب شرع وكتاب وهو الانجيل وقد سماه الله تعالى بالمسيح عيسى بن مريم، وكان عليه السلام كلمة الله وروحاً منه وكان اماماً من شهداء الأعمال وكان ايضاً قد بشر برسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وكان وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين. ومن المصطفين والمجتبين والصالحين وكان مباركاً أينما كان، وكان زكياً وآية للناس ورحمة من الله وبراً بوالدته وكان مسلماً وفضلاً عن ذلك فهو ممن علمهم الله الكتاب

---

(99) ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٦٢٣.

(100) الجزائري، المصدر السابق، ص٣٥٣. وانظر ايضاً: هويدي، المصدر السابق، ص٤٧٩.

(101) الجزائري، المصدر السابق، ص٣٥٧.

(102) المصدر نفسه.

(103) الحنفي، المصدر السابق، ص٢٩٢.

والحكمة[١٠٤]، يقول الحراني في تحف العقول: ان عيسى قام خطيباً في بني اسرائيل فقال "يا بني اسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموها، ولا تكافئوا ظالماً فيبطل فضلكم، يا بني اسرائيل، الامور ثلاثة: أمر بيّن رشده فاتبعوه وأمر بين غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف فيه فردوه الى الله"[١٠٥].

ثالثاً: زكريا وزوجته

عندما تحدثنا عن السيدة مريم في مطلع الفصل وقدمناها على عيسى، فقد كان ذلك بسبب كونها هي الأولى قبل أن يكون عيسى، وان عيسى كني على انه ابن مريم ولم تكنى مريم على أنها أم عيسى كما هو الحال مع أم موسى، اما زكريا فأنه كان نبياً قبل ولادة مريم، إلا أن الحديث عنه في هذه الفقرة المتأخرة عن مريم وابنها رغم تقدمه عليهما في العمر جاء لسببين أولهما: هو ان الحديث عن عيسى بعد أمه مباشرة كان للترابط القوي الحاصل بينهما وثانيهما ان تأخر الحديث عن زكريا جاء لكون الموضوع لم يكن متعلقاً بزكريا قدر تعلقه بزوجته، وبالنظر لكون زوجة زكريا ورد ذكرها في القرآن عشية دعاء زكريا الذي جاء على هامش لقاءه بمريم وسؤاله لها على ما شاهده عندها من الرزق وجوابها المشهور الذي أشار له القرآن حين قالت (هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[١٠٦] ثم قوله تعالى (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)[١٠٧] ثم استجاب الله تعالى له بقوله جل شأنه (فَاسْتَجَبْنَا

---

[١٠٤] الطباطبائي، تاريخ الأنبياء، ص٢٩٩.

[١٠٥] الحراني، الشيخ أبو محمد الحسن بن علي بن شعبة، (من علماء القرن الرابع)، تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق حسين الأعلمي، ط٦، مؤسسة الأعلمي للطباعة، ١٩٩٦م، ص٣٣.

[١٠٦] آل عمران/ من الآية ٣٧.

[١٠٧] آل عمران/٣٨.

لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)[108] وهنا يكون ورود زوجة زكريا متأخراً عن ورود مريم في الذكر الحكيم، وفضلاً عن ذلك فأن الحديث عن زكريا وزوجته وابنه يحيى (عليهم السلام) في هذا الفصل قد جاء لتداخل الأحداث وتقاربها من ناحيتي الزمان والمكان. فزكريا هو النبي المرسل الى بني اسرائيل في تلك السنين التي نذرت فيها امرأة عمران ما في بطنها محرراً لدى بيت المقدس[109].

وزكريا هو إبن برخيا بن عدو بن مسلم بن صدوق بن يحسان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقه بن ناحور بن سلوم بن ثهفاسط بن ابيا بن رحيعم، بن سليمان بن داود (عليه السلام)[110].

كان زكريا وعمران والد مريم متزوجين بأختين وهما حنا بنت فاقوذ أم مريم وايشاع بنت فاقوذ أم يحيى[111].

ورد اسم زكريا في القرآن سبع مرات[112] حيث وصفه الله تعالى بالنبوة والوصي والعبودية وذكَرهُ في سورة الأنعام في عداد الأنبياء والصالحين[113].

---

[108] الأنبياء/ ٩٠.

[109] الرازي، التفسير، جـ٨، ص٣٧.

[110] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٧٤، وقد ورد اسمه لدى ابن كثير مع شيء من الاختلاف، انظر : ابن كثير، قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص٥٤٤.

[111] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٧٤.

[112] ورد ذكره في الآيتين ٣٧و٣٨ من آل عمران، وفي الآية ٨٥ من سورة الأنعام في الآيتين ٢و٧ من سورة مريم وفي الآية ٨٩ من سورة الأنبياء، انظر النجار، المصدر السابق، ص٣٦٨.

[113] الطباطبائي، تاريخ الأنبياء، ص٢٨٥.

لم يتطرق القرآن الى طفولة زكريا ومراحل حياته الأولى اذ كانت أول اشارة لـه حـين كفل مريم وبهذا يكون ظهوره على مسرح الحياة وكما جاء في القرآن الكـريم هـو ليلـة ولادة مريم ودخولها كمحررة الى بيت المقدس، وقد اشار القرآن الى شيء مـن التفاصـيل بخصوص موضوع الكفالة حين قال (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)[114] وقوله تعالى (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَـا زَكَرِيَّـا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)[115].

بعد أن كفل زكريا مريم وكان لها بمثابة الأب، حيث تشير المصادر بأن أباها عمـران كان قد مات قبل ولادتها، وكذلك أمها ماتت بعـد ولادتهـا وحـين ذاك حولهـا زكريـا الى زوجته خالتها لرعايتها ولما كبرت بنى لها محراباً في المـسجد للعبـادة لا يرقـى اليهـا إلا بسلم ولا يصعد اليها غيره[116].

اشار القرآن الكريم الى حادثة مهمة كانت بالنسبة لزكريا دافعـاً قويـاً لدعائـه للـه تعالى بالذرية الصالحة اذ كانت امرأته عقيمة لم تلـد، وهـذه الحادثـة هـي مـشاهدته لوجود فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الـشتاء في الـصيف في محـراب مـريم (عليهـا السلام) عندما كان يدخل عليها المحراب، والتي كانت تأتي بها الملائكة اليهـا وهـو رزق لها من الله تعالى مما جعل زكريا يندهش لهذا الأمر، فسألها وأجابته وبعدها دعـا ربـه كي يهب له غلاماً رغم كبر سنه وعقم زوجته هذا كله أشار له القرآن كما مر بنا.

يقول الثعلبي: لما رأى زكريا (عليه السلام) ان الله يرزق مريم بالفاكهة في غير حينها قال: ان الذي قدر على أن يؤتي مريم بالفاكهة في غير حينها من غير سبب ولا فعل أحـد،

---

[114] آل عمران / من الآية ٤٤.

[115] آل عمران / من الآية ٣٧.

[116] ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٩٨.

لقادر على أن يصلح زوجتي ويهب لي ولداً على الكبر، فطمع في الولد وكان أهل بيته قد انقرضوا وزكريا قد شاخ وآيس من الولد، فهناك: أي فعند ذلك دعا ربه قائلاً (رب هب لي) أي أعطني (من لدنك ذرية طيبة) نسلاً نقياً صالحاً رضياً (انك سميع الدعاء)[117].

وفي سورة الأنبياء أشار تعالى الى استجابته جلّ في علاه لدعاء زكريا حين قال في كتابه الكريم (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)[118]. وفي هذه الآية الكريمة أشار الله تعالى الى زوجة زكريا وهي الاشارة الأولى والوحيدة وتفيد بأنه أصلحها له دون أن يشير الى جوانب أخرى ممكن الاعتماد علها بالحديث عن زوجة زكريا، والاصلاح هنا اختلف عليه المؤرخون.

ابن الجوزي في زاد المسير يفسر قوله تعالى (واصلحنا له زوجة) فيقول: وفيها ثلاثة أقوال، احدهما انها اصلحت للولد بعد أن كانت عقيمة، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة، والثاني: أنه كان في لسانها طول وهو البذاء، فأصلحت، وهذا قول عطاء، أما السدي فيقول: كانت سليطة فكف عنه لسانها، والقول الثالث هو انه كان خلقها سيئاً وهو قول محمد بن كعب[119]، ابن كثير يقول: معنى اصلاح زوجته انها كانت لا تحيض فحاضت وقيل كان في لسانها شيء أي بذاءة[120]، أما أبو السعود فيقول في تفسير قوله تعالى (وأصلحنا له زوجة) أي اصلحناها بعد ان كانت عقيمة لا تلد أو

---

[117] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٧٧.

[118] الأنبياء/ ٩٠.

[119] ابن الجوزي،المصدر السابق، جـ٥، ص٣٨٤.

[120] ابن كثير، قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص٥٤٧.

اصلحناها للمعاشرة لتحسين خلقها[121]، البرسوي في تفسير روح البيان يؤيد الرأي الأول لكل من ابن الجوزي وابن كثير وأبي السعود فيقول: بعد أن يحدد اسم زوجة زكريا باعتبارها أما ايشاع بنت عمران وبذلك تكون أخت مريم أو ايشاع بنت فاقوذ بذلك تكون خالتها، (وأصلحنا له زوجه) أي جعلناها ولوداً بعد ان كانت عقيماً لم تلد قط[122]. النووي يحذو حذو البرسوي في تفسيره للآية أعلاه فيقول اصلاح الزوجة هو تهيئتها للولادة بعد سن اليأس المعتاد لدى النساء، ثم يعرج على قوله تعالى (انهم كانوا يسارعون في الخيرات) فيفسره قائلاً انهم هنا يقصد بها زكريا وزوجته وابنه والخيرات هي طاعة الله[123]. وبذلك يختلف النووي برأيه عن اسلافه الذين بينوا بأن الاصلاح يشمل الجانب الأخلاقي والسلوكي، أما عن عمر زكريا وزوجته فينقل عن ابن عباس قوله: كان سن زكريا مائة سنة وسن زوجته تسع وتسعين سنة[124]. الصابوني في الصفوة يقول: (وأصلحنا له زوجه) أي جعلناها ولوداً بعد ان كانت عاقراً، ثم يقول: قال ابن عباس كانت سيئة الخلق طويلة اللسان فأصلحها الله تعالى له وجعلها حسنة الخلق ثم يعلق على ذلك بالقول والرأي الأول أي اصلاحها للولادة هو رأي قتادة وسعيد بن جبير قد اعتمده أكثر المفسرين. وهذه اشارة من الصابوني على انه يقف الى جانب رأي قتادة وابن جبير[125].

---

(121) ابي المسعود، المصدر السابق، جـ٦، ص٨٣.

(122) البرسوي،المصدر السابق، جـ٥، ص٥١٩.

(123) النووي، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٥.

(124) المصدر نفسه.

(125) الصابوني، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٧٤.

وفي رأيي ان الاصلاح البايلوجي والفسلجي المتعلق بالحيض وأسباب الحمل والولادة هو الأكثر حظاً من غيره، وهذا ما جاءت به الآية الكريمة ذاتها عندما قال تعالى (وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) وانهم هنا في رأي أغلب المفسرين[١٢٦] انه يشمل زكريا وزوجته وابنه أي عائلة زكريا، وهذا دليل قطعي على حسن سلوك زوجة زكريا، أما مسألة طول اللسان وسوء الخلق وهو ما يتعلق بالجانب السايكلوجي وسلوك المرأة في علاقتها مع الآخرين ربما قد تم استنتاجه من خلال انعكاسات حالة العقم على الوضع النفسي للمرأة، اذ ان عدم اشباع الحاجات ومنها الحاجة الى الأمومة ينعكس سلباً على سلوكها وتصرفها فتبدأ بالتعامل مع القريبين منها بشكل غير مرضٍ، لذلك جاءت الاشارة الى الاصلاح على أنه كان من هذا الباب باعتبار الاصلاح المتعلق بالحمل هو مسألة محسومة بناء على قدرة الله بخلق ما يريد وقد تمت الاشارة اليها في حالات عقم مشابهة حدثت قبل ذلك التاريخ وهما عقم سارة زوجة النبي ابراهيم (عليه السلام) وعقم حنة بنت فاقوذ امرأة عمران، حيث كانتا في مرحلة عمرية متقدمة ايضاً وتم حملهما وولادتهما دون أن يشير القرآن الى عملية اصلاح فسلجي حدثت لهما، وهذا في رأيي كان سبباً الى ذهاب عدد مهم من المفسرين الى تبني الرأي الآخر وهو الاصلاح السلوكي، يقول السدي: ان زوجة زكريا حاضت من يومها وعند مواقعة زكريا لها بعد ذلك حملت منه بيحيى[١٢٧]، كان حمل ايشاع بيحيى متزامناً مع حمل مريم بعيسى عليهم السلام. وكانت ايشاع تأتي لمريم وتقول لها: يا مريم هل أنت حامل؟ فتجيبها مريم مستفسرةً لماذا؟ فتقول ايشاع اني

---

[١٢٦] ابن الجوزي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٨٥. البر سوي، المصدر السابق، جـ٥، ص٥١٩. النووي، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٥.

[١٢٧] الحنفي، المصدر السابق، ص٢٨٦.

أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك، وبذلك يكون يحيى كما يؤكد الثعلبي أول من آمن بعيسى وصدقه[١٢٨].

ولد يحيى حاملاً اسمه معه كما جاء في الذكر الحكيم (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا)[١٢٩]. كان يحيى جميلاً جداً حسن الوجه والصورة وكان يضيء البيت بنوره وحسن وجهه وجماله[١٣٠]، وكان زاهداً في الدنيا كثير البكاء[١٣١] جاداً في طاعة الله منذ صغره[١٣٢] حيث أوتي الحكم والنبوة وهو صبي فكان يعظ الناس ويقف لهم في أعيادهم وجمعهم ويدعوهم الى الله تعالى[١٣٣].

ومما خصه الله تعالى به انه سلم عليه في مواقع مهمة من حياة الانسان حين قال تبارك وتعالى في كتابه العزيز (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)[١٣٤] يقول ابن كثير[١٣٥] وهذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الانسان، فأنه ينتقل في كل منها من عالم الى عالم آخر فيفقد الأول بعدما كان ألفه وعرفه ويصير الى الآخر لا يدري ما بين يديه ولهذا يستهل حياته صارخا اذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وبيئتها

---

[١٢٨] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٧٠، وانظر ايضاً: ابن الأثير، المصدر السابق، ص٢٠٣، والجزائري، المصدر السابق، ص٣٥٢.

[١٢٩] مريم/٧.

[١٣٠] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٧٩.

[١٣١] يقول ابن كثير، وذكروا انه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء على خديه من كثرة دموعه، ابن كثير، قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص٥٥٣.

[١٣٢] الحنفي، المصدر السابق، ص٢٨٦.

[١٣٣] الثعلبي، المصدر السابق، ص٣٧٩.

[١٣٤] مريم/١٥.

[١٣٥] ابن كثير، قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص٥٤٨.

الخاصة وينتقل الى بيئة اخرى ودار جديدة ليكابد همومها وأحزانها، أما اذا فارق الـدنيا منتقلاً الى عالم البرزخ، وصار بعد الدور والقصور الى عرصـة الأمـوات سـكان القبـور، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير وفريق في الجنـة وفريـق في الـسعير، ولقـد احـسن أحـد الشعراء حين قال:

ولدتك أمك باكيـــــاً مستصرخاً   والناس حولك يضحكون سرورا

فأحرص لنفسك ان تكون اذا بكوا   في يوم موتك ضاحكـاً مسرورا

الفصل العاشر
نساء النبي المصطفى - محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وآله وسلم

أولا: النبي الكريم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

ثانيا: فلسفة الزواج لدى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

ثالثا: خديجة بنت خويلد - عليها السلام - واثرها التاريخي

رابعا: عائشة بنت أبي بكر - رضي الله عنها - واثرها التاريخي

نساء النبي المصطفى
محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

أشار القرآن الكريم الى نساء النبي في شيء من العمومية في سورتين من سوره الكريمة وهما سورتا الأحزاب والتحريم. أما في سورة الرعد فقد قال تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً)[1].

يقول المفسرون: وهذا رد على مـن عاب على الرسول الكريم كثرة نساءه وقالوا انه رجـل مزواج وان تعدد نساءه دليل على طغيان ميوله الجنسية وهي تهمة قديمة رد عليها القرآن[2].

فوجود نساء للنبي اذاً هو أمر طبيعي قد تساوى أو تشابه به مع اسلافه من الأنبياء الكرام. والاشارة الى نساء النبي في السورتين أعلاه هي اشارة لمن كانت تحته منهن في تلك السنوات المتأخرة من حياته الشريفة، وعليه فهي لا تشمل خديجة بنت خويلد (عليها السلام) زوجته الأولى، وبالنظر لكون خديجة لم يتطرق لها الخطاب القرآني في السور المكية أثناء حياتها الشريفة، فهل هذا يعني استثنائها من الحديث عن نساء النبي وعدم درجها معهن كون موضوعنا مرتبطاً بالنص القرآني فقط*. هذا ما

---

[1] الرعد / من الآية ٣٨.

[2] انظر كل من: أبي السعود، المصدر السابق، جـ٥، ص٢٦. الصابوني، ، المصدر السابق، جـ٢، ص٨٦. الحيالي، رعد كامل، تعدد الزوجات في الاسلام، كيف؟ ولماذا؟ مطبعة الجمهور، نينوى، ١٩٩٠، ص٥٠.

* يقول النووي في تفسير مراح لبيد (روى جابر بن عبد الله انه (صلى الله عليه وسلم) قال: كنت على جبل حراء فنوديت يا محمد انك رسول الله فنظرت الى يميني ويساري فلم أرَ شيئاً ونظرت فوقي فرأيت الملك قاعداً على عرش بين السماء والأرض فخفت ورجعت الى خديجة فقلت دثروني دثروني وصبوا علي مـاءً بارداً، فنزل جبريل فقال يا أيها المدثر، وعن الزهري ان أول ما نزل سورة اقرأ الى قوله تعالى ما لم يعلم=

وددت التنبيه اليه، فالاشارة اعلاه جاءت لموقف معين كما هو الحال مع الكثير من الاشارات التي يتم التطرق اليها لسبب ميداني، وقد وضع المفسرون ذلك الأمر تحت خانة أسموها أسباب النزول[3]. أي أن هناك أسباباً موضوعية على اساسها نزل الكثير من آي الذكر الحكيم التي تعالج مسألة ما حدثت أو تحدث على مستوى الواقع، يتطلب البت فيها أمراً الهيأ سرعان ما يبلغه جبرائيل للرسول الكريم ليقوم (صلى الله عليه وآله وسلم) بدوره باتخاذ ما يلزم بعد ان يكون قد أصبح الأمر بالنسبة له خالياً من الغموض وواضح المقاصد، وكان ذلك قد تجلى في السور المدنية اكثر منه في السور المكية التي كانت تتحدث في أغلبها عن قصص الأولين من الأنبياء وما تعرضوا له من أحداث جسام وذلك لتسلية الرسول وصحابته من جانب ووضعهم في صورة الأمس البعيد من جانب آخر لذلك لم يتطرق النص القرآني في السور المكية الى حالات اجتماعية أو أسرية معينة سواء على المستوى العام أو على مستوى أسرة الرسول الكريمة، وذلك لانشغال القرآن بأمور أخرى أكثر أهمية على المستوى العقائدي والتأكيد على وحدانية الله والجهاد في سبيل اعلاء كلمته عن طريق الدعوة السلمية أولاً قبل أن يأخذ الجهاد منحى آخر في السور المدنية، لذلك كان التركيز على مبدأ الترغيب والترهيب من خلال وصف الجنة والنار أكثر شيوعاً في السور المكية عن تلك المدنية التي اهتمت بشؤون المجتمع وما يتطلبه من أحكام وقوانين تنظم العلاقة بين مكوناته بعد أن استطاع الرسول الأعظم من تأسيس دولة اسلامية في المدينة. ومن هنا فان عدم اشارة السور المكية كما اشرت الى الوضع الاجتماعي والأسري، حال دون التطرق الى أسرة الرسول والى زوجته الأولى تلك المرأة

=ثم انقطع الوحي فحزن رسول الله وجعل يعلو شواهق الجبال فأتاه جبريل (عليه السلام) وقال: انك نبي الله فرجع الى خديجة فقال: دثروني وصبوا علي ماءً بارداً فنزل جبريل فقال يا ايها المدثر). النووي، المصدر السابق، جـ٢، ص٤١٠، وفي هذا اشارة الى أثر خديجة بالموضوع وان كانت ضمنية، فضلاً عن الاشارة التي وردت في سورة الضحى والخاصة بأموال خديجة كما سيأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن اثر السيدة خديجة لاحقاً.

[3] ينظر: السيوطي، لباب النقول، المصدر السابق، ص٧.

الرائعة السيدة خديجة بنت خويلد (عليها السلام) وفي مقارنة ميدانية مع غيرها من النساء اللواتي ذكرهن القرآن ممن كن قبلها من نساء الانبياء أو ممن جئن بعدها وأصبحن نساءً لزوجها الذي غادرت الحياة وتركته في صراع شرس مع الكفر والالحاد. فان خديجة لم تتناول ثمراً لذيذاً من شجرة نهاها الله عنها كي يشير اليها القرآن، ولم تخن زوجها خيانة عقائدية وتصبح عائقاً أمام نجاح دعوته الايمانية كي يشار لها على أنها كانت من الغابرين، ولم تكن عاقراً حتى يهبها ولداً بعد أن تدعو ربها بخصوصه، ولم تكن عذراء حررتها أمها لتكون في خدمة البيت الحرام لتلد نبياً فيما بعد كي يشار لها بالبنان على ذلك الوضع الخاص. ولم تكن امرأة لطاغية جبار كامرأة فرعون كي يبني الله لها بيتاً في الجنة ويخلصها من ذلك المجرم فضلاً عن ذلك فهي لم تفشِ أسرار زوجها ولم تطلب منه زيادة في النفقة[٤] حتى يطلب الله تعالى من الرسول أن يخيرها بين الطلاق أو العمل بما يرضي الله ورسوله، بل على العكس من ذلك كانت هي التي تنفق من مالها على الدعوة المحمدية وبشكل ساعد الرسول كثيراً على أن يقف بوجه أعداءه لنشر دين الله وهو مكتفٍ مادياً حتى قيل ما نُشر الاسلام إلا بسيف علي وأموال خديجة[٥] في اشارة الى أهمية أموال خديجة في دعم الاسلام. لكن القرآن لم يشر الى ذلك كونه واجباً لا بد من أن تؤديه أية مؤمنة تحتل ذلك الموقع وهو بأن تكون زوجة لأعظم نبي من أنبياء الله الكرام. مما جعل ذلك الموقف أو تلك المواقف محط اعتزاز الرسول

---

[٤] جاء في مسند أحمد بن حنبل في تفسير قوله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك): عن جابر بن عبد الله (رض) قوله: أقبل أبو بكر (رض) يستأذن على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والناس ببابه جلوس والنبي جالس فلم يؤذن له، ثم أذن له ولعمر (رضي الله عنهما) فدخلا والنبي ساكت فقال عمر لأكلمن رسول الله لعله يضحك، فقال عمر يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد (يعني امرأته) سألتني النفقة انفاً فوجأت عنقها، فضحك النبي وقال ((هن حولي يسألنني النفقة)) فقام أبو بكر الى عائشة ليضربها وقام عمر الى حفصة ليضربها فمنعهما رسول الله، بن حنبل، المصدر السابق، جـ١٨، ص٢٣٦ وانظر: ايضاً السيوطي، المصدر السابق، جـ٥، ص١٩٤.

[٥] عبد الحسين، جمعة غني، الوفا في معرفة شخصية المصفى، مطبعة الحوادث، بغداد، ص١٨.

الأعظم الذي أحب خديجة وسلوك خديجة ومواقف خديجة ونضال خديجة حتى آخر ايامه الشريفة[٦].

ومن هنا فأن خديجة وان لم تذكر في القرآن فان القرآن ولمدة تسع سنوات تنزل آياته وسوره المباركة في بيتها حتى أن حركات الرسول ووضعه النفسي وروحه الطاهرة وهي تتلقى آيات الذكر الحكيم كانت بالنسبة لخديجة أمراً اعتادت عليه فكانت قريبة من كل آيات الذكر الحكيم المكية بروحها الطاهرة وعقلها النير.

لذلك فأن عدم الاشارة الصريحة لخديجة في القرآن يعني من جملة ما يعنيه بالقياس على مجمل الاشارات الواردة لبقية نساء الرسول اللاحقات، بأن خديجة لم تكن قد تصرفت بما لا يرضي الله، بل كان موقفها مشرفاً مع الرسول لذلك اشاد بها النبي وأحبها واعتز بها فكانت أم أبناءه وبناته وظل وفياً لها حتى انتقاله الى جوار ربه بعد أكثر من أربعة عشر عاماً على وفاتها (عليها السلام). ومن هنا فان تطرقنا لخديجة رغم عدم ذكرها في القرآن، سيكون بناءً على ما يلي:

١. ان ذكر مفردة نساء النبي وان كانت في سورة مدنية هي اشارة عامة تشمل كل نساءه (صلى الله عليه وآله وسلم).
٢. بما ان الاشارة كما تقدم كانت اشارة سلبية فهذا يعني ان خديجة التي ظلت زوجة للرسول ما يقارب الربع قرن من الزمان ما قامت بعمل يغضب الرسول بالشكل الذي يجعل الله تعالى يأنف لرسوله وينزل من آيات الذكر الحكيم ما يصحح فيه الحالة. وعليه فهي مشمولة من باب عكس الأشياء الخاطئة صحيحة.
٣. لم يذكر القرآن أسماء زوجات الرسول، بشكل شخصي، بل تطرق الى العموميات والعموميات تشمل الجميع بدون استثناء.

---

[٦] راجع ما ورد بخصوص الموضوع في ترجمة السيدة خديجة في أسد الغابة لابن الأثير، ابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد، (ت/٦٣٠هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، مجـ٧، تحقيق محمد ابراهيم ومحمد عاشور، كتاب النساء، ص٧٩-٨٥.

٤. وفضلاً عن ذلك فان خديجة (عليها السلام) كانت أول من اسلم[٧] وهي بذلك كانت جزءاً مهماً من الدعوة المحمدية تعاملت مع القرآن منذ أن نزلت أول آياته المباركة على صدر زوجها الكريم وطمأنته وساندته وكانت عوناً له، احتضنته واحتضنت كتابه المقدس وساهمت بنشر دعوته، وكان بيتها موطأ لأقدام جبرائيل[٨]. وبالنظر لأهميتها في حياة الرسول باعتبارها مثلت شطراً مهماً من حياته الشريفة فسنتحدث عنها باعتبارها نموذجاً أول على أن نتحدث فيما بعد عن السيدة عائشة (رضي الله عنها) باعتبارها نموذجاً ثاني، وذلك بعد ان نمر على نسائه الكريمات بشكل عام. ولكن قبل ذلك كله لا بد من التطرق الى الرسول الكريم نفسه أولاً باعتباره سيد الجميع، سيد الأولين والآخرين.

أولاً: النبي الكريم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

ونحن نصل في بحثنا المتواصل منذ تسعة فصول الى خاتم أنبياء الله وسيدهم[٩] النبي العربي الأمي ((محمد بن عبد الله)) لا يسعنا إلا أن نقف بأقلامنا وعقولنا

---

[٧] ابن اسحق، المصدر السابق، ص١١٢.

[٨] يقول ابن اسحق: حدثني اسماعيل بن أبي حكيم مولى الزبير: أنه حُدث عن خديجة انها قالت لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .. يا ابن عم هل تستطيع أن تخبرني بصاحبك الذي يأتيك اذا جاءك. قال: نعم، فبينما رسول الله عندها اذ جاءه جبرائيل، فقال رسول الله: هذا جبريل قد جاءني، فقالت أتراه الآن؟ قال نعم، قالت: اجلس على شقي الأيسر، فجلس، فقالت هل تراه الآن؟ قال: نعم، ثم ألقت خمارها فقالت: هل تراه الآن، قال لا، قالت ما هذا شيطان ان هذا لملك يا ابن عم، أثبت وأبشر ثم آمنت به وشهدت ان الذي جاء به هو الحق، ابن الأثير، أسد الغابة، المصدر السابق، ص٨٢.

[٩] جاء في صفوة التفاسير: أن الله تعالى خاطب الأنبياء باسمائهم فقال (يا نوح اهبط بسلام منا) و (يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا) و (يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وكلامي) ولم يخاطب الرسول محمد إلا بلفظ النبوة والرسالة فقال (يا أيها النبي حسبك الله) و (يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك) .. الخ ولا تجد في القرآن العظيم كله نداءً له باسمه وانما النداء بلفظ النبوةوالرسالة وهذا تفخيم=

وأرواحنا وقلوبنا اجلالاً واكراماً لذلك الرجل العظيم الذي ملأ اسمه وذكره الشريفان مشارق الأرض ومغاربها عنواناً للمحبة والوئام والسلام ورحمة من الله للعالمين[١٠].

ان الكلام عن محمد ليس كأي كلام، والقلم في حضرته المباركة لا بد أن يتوقف عن نزف مداده، حيث تكمن المشاعر في النفوس الطيبة، لتفسح المجال للعيون كي يأخذ الدمع منها طريقه منحدراً الى الخدين بقطرات من ندى المقل المعطر بحب محمد وبايعاز من أرواح هامت بحب الرسول منذ أن قدر الله لها أن ترى النور على أرض كان محمد يوماً قائداً وسيداً ورسولاً لأناس عاشوا فوق ترابها عقوداً من الزمن، فأي عين لا تدمع بذكر محمد ومحمد سيد الروح والوجدان.

عاش محمد بعمر الزمن عقوداً ستة وتزيد لكنه بعمر الوجود وقيمة الرسالة وأهمية النفس الطاهرة وعظمة الأثر، فأن محمداً كان قبل أن يكون كل شيء[١١] وعاش في ضمائر الأنبياء على قدر عمر الأرض والانسان، لأجله خلق الله الوجود وبه غفر لآدم خطيئته ومن نوره استمدت الأشياء جمالها ورونقها. ونظراً لكوننا ملزمين بمنهج علمي أكاديمي يبني نتائجه على أساس وقائع وأحداث شهدتها الأرض ووثقها الانسان بعد أن عاشها أو تفاعل معها بشكل أو بآخر فأن عمر الرسول لا بد من التعامل معه على أساس عدد السنين التي عاشها منذ أن فتح عينيه الطاهرتين على الدنيا في بيت جده

=لشأنه وتعظيم لمقامه واشارة الى انه سيد الأولين والآخرين وامام الانبياء والمرسلين: الصابوني، المصدر السابق، جـ١، ص٥١٨.

[١٠] اشارة للآية الكريمة (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)، الأنبياء / ١٠٧.

[١١] جاء في سيرة ابن اسحق قوله: حدثنا يونس عن زكريا بن ابي زائدة عن عامر الشعبي، قوله: سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، متى استنبئت؟ فقال بين خلق آدم ونفخ الروح فيه. ابن اسحق، المصدر السابق، ص١١٤.

شيبة الحمد[١٢] حتى اغمضها بأمر ربها لتودع الدنيا في المدينة المنورة في العام الحادي عشر للهجرة، لذلك سنقسم حياته الشريفة الى مرحلتين، المرحلة الأولى مرحلة ما قبل الدعوة والثانية مرحلة ما بعدها حتى وفاته.

أ. **المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل الدعوة**، وهذه المرحلة هي الأكبر في حياته بدأت منذ ولادته المباركة وانتهت بتكليفه برسالة الاسلام الخالدة بعد أن مضى من عمره الشريف اربعون عاماً[١٣].

٣- نسبه الشريف:

والرسول الكريم غني عن التعريف فاسمه وتسلسل أجداده الأوائل منهم بالتحديد هو أمر معلوم لكل مسلم ومسلمة، ولكن لا بد من الاشارة لما تقتضيه منهجية البحث. فهو صلى الله عليه وآله وسلم. محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر (ويقال اسمه قريش) بن مالك بن النظر (ويقال اسمه قيس) بن كنانة بن خزيمة بن عمر (ويسمى مدركة) بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[١٤] واسم امه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب وامها لبرة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب[١٥]. يكنى الرسول بـ أبي القاسم، ويلقب بالمصطفى[١٦] ومن أسمائه محمد وأحمد والماحي والحاشر والعاقب[١٧].

---

[١٢] سمي عبد المطلب جد الرسول بشيبة الحمد، انظر البلاذري، المصدر السابق، ص٦٤.

[١٣] انظر، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٢، ص٣٦٢.

[١٤] ابن اسحق، المصدر السابق، ص١. وانظر: ابن الكلبي، هشام بن محمد السائب (ت/٢٠٦هـ) جمهرة النسب، تحقيق ناجي حسن، ط١، مكتبة النهضة، بغداد ١٩٨٦، ص٣٧ وما بعدها. والبلاذري، المصدر السابق،ص١٢ ومابعدها.

[١٥] ابن الكلبي، المصدر السابق، ص٣٠، وانظر البلاذري، المصدر السابق، ص٩١.

[١٦] مالك، الامام مالك بن أنس بن عامر (ت، ١٧٩هـ) موطأ الامام مالك، شرح محمد بن عبد الزرقاني، (ت،١١٣١هـ)، جـ٤، المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي، مصر ١٩٥٤م، ص٤٢٢. وانظر ايضاً: الفاسي، المصدر السابق، ص٢١٨.

[١٧] المصدر نفسه.

ونسب الرسول هو اشرف وأنبل نسب وقد اشار الى ذلك المؤرخون ونقلوا أحاديث للرسول الكريم بهذا الخصوص فقد نقل أبو الفداء، في أخبار البشر بدون سند عن عبد الله بن عمر (رض) قوله: كنا قعوداً بفناء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) اذ مرت به امرأة فقال بعض القوم هذه بنت رسول الله، فقال أبو سفيان: مثل محمد في بني هاشم مثل ريحانة في وسط النتن، فانطلقت المرأة فأخبرت النبي، فجاء النبي وفي وجهه الغضب فقال: ما بال أقوام تبلغني عن أقوام، ان الله عز وجل خلق السموات سبع فاختار العلى منها فأسكنها من شاء من خلقه، ثم خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر واختار من مضر قريشاً واختار من قريش بني هاشم واختارني من بني هاشم، وعن عائشة (رض) ينقل ابو الفداء بدون سند ايضاً قولها قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): قال لي جبرائيل قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً افضل من محمد، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم[١٨].

٢- ولادته:

ولد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الاثنين لأثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من عام الفيل[١٩]. يقول البلاذري (وحملت آمنة في ايامها الثلاثة، ورأت في

---

[١٨] ابو الفداء، المصدر السابق، جـ٢، ص٧.

[١٩] ابن هشام،ابو محمد عبد الملك بن هشام العافيري، (ت، ٢١٨هـ) السيرة النبوية تحقيق، مصطفى القاداوون. مكتبة الجلبي، و٨ص١٥٨. وفي تاريخ ولادته (صلى الله عليه وآله وسلم) خلاف، فالزبير بن بكار يقول ولد في رمضان. وقيل في يوم عاشوراء، وهناك من يؤكد ولادته في ربيع الأول إلا أنه يختلف في اليوم، فهناك قول يقول ولد الرسول لليلتين خلتا من ربيع الأول، وهناك من يقول ثمان وقيل عشر وقيل سبع عشرة وثمان عشرة، أما ابو الفداء، فيقول: ولد الرسول يوم الاثنين لعشر خلون من ربيع الأول من عام الفيل ثم يقول وكان قدوم الفيل في منتصف المحرم تلك السنة =

منامها آتياً أتاها فقال يا آمنة قد حملت بسيد هذه الأمة، فاذا وقع على الأرض فقولي ((أعيذك بالواحد من شر كل حاسد)) وسميه أحمد ويقال انه قال سميه محمد. فلما وضعته أرسلت الى عبد المطلب انه قد ولد لك غلام، فنهض مسروراً ومعه بنوه حتى أتاه فنظر اليه وحدثته بما رأت وبسهولة حمله وولادته فأخذه عبد المطلب في خرقة فأدخله الكعبة وهو يقول:

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغـــلام الطيب الأردانِ

أعيذه بالبيت ذي الأركان من كل ذي بغي وذي شنآنِ

وحاسد مضطرب العنانِ

ثم رده الى أمه)[٢٠]، وقد جاء عن حسان بن ثابت قوله: والله اني لغلام يافع ابن سبع سنين أو ثمان، أدرك كل ما أسمع إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على حصن بيثرب قائلاً: يا معشر اليهود: حتى اذا اجتمعوا اليه قالوا له ويلك ماذا بك؟ فقال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به، يقول ابن اسحق، فسألت سعيد بن عبد الصمد بن حسان بن ثابت قائلاً: ابن كم كان جدك حسان بن ثابت أثناء مقدم رسول الله الى المدينة فقال ابن ستين سنة وقدمها الرسول وعمره ثلاثة وخمسين سنة وعليه فحسان سمع ما

=وهي السنة الثامنة والأربعون من ملك كسرى أنوشروان وسنة احدى وثمانين وثمانمائة لغلبة الاسكندر على دارا وسنة ألف وثلاثمائة وست عشرة لبختنصر. انظر: حسب تسلسل المعلومات:

أ. ابن هشام، المصدر السابق، ص١٥٨.

ب. الفاسي، المصدر السابق، ص٢٢٠.

ج. ابو الفداء، المصدر السابق، جـ٢، ص٥.

[٢٠] البلاذري، المصدر السابق، ص٨٠.

سمع من اليهودي وهو ابن سبع سنين[٢١]. ولد الرســول الكريم يتيم الأب، يقول ابن هشام (ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب ابو رسول الله صلى الله عليه وسلم ان هلك وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به)[٢٢]. بدأ الرسول حياته فاقد الأب، لكن ذلك لم يكن يشكل حدثاً أثر في حياته على المستوى الأسري فقد كانت عائلته الأكبر ممثلةً بجده عبد المطلب وأعمامه وعلى رأسهم عمه أبو طالب الذي واصل الوقوف الى جانبه الى أن هلك (رضي الله عنه)، كانا قد سدا كل الثغرات وقاما بواجبهما حيال ذلك الطفل الذي رعاه الله وأيده بنصرٍ منه، حتى مضى من عمره الشريف ست سنوات.

٤- وفاة والدته:

كانت آمنة بنت وهب أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً في زمانها[٢٣] تزوجها عبد الله بعد ان خطبها أبوه عبد المطلب بن هاشم من أبيها وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وكان حينذاك سيد بني زهرة، فدخلها فحملت برسول الله*، فكان صلى الله عليه وآله وسلم أوسط قومه نسباً وأعظمهم شرفاً من قبل أبيه وأمه[٢٤]. وفضلاً عما تقدم فان آمنة بنت وهب أم الرسول الكريم، امرأة عاقلة ذكية ذات شخصية قوية، نقل لنا ابن هشام المحاورة التالية التي جرت بينها وبين مرضعة الرسول حليمة السعدية (رحمها الله) بعد ان جاءت الأخيرة الى مكة لتبلغ أهل محمد بخصوص ما جرى له حين

---

[٢١] ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص١٥٩.

[٢٢] المصدر نفسه، ص١٥٨، وهناك آراء أخرى في وقت وفاة عبد الله، والد الرسول، راجع ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٢، ص٢٦٣.

[٢٣] المصدر السابق، حـ١، ص ١٥٦.

[٢٤] ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص١٥٧.

شق صدره الشريف*، فجاءت الى آمنة، فقالت لها آمنة: ما أقدمك به يا ظئر (والظئر هنا تعني العاطفة على ولد غيرها والمرضعة له) وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك، فقالت حليمة: قد بلغ الله بابني. قضيت الذي علي وتخوفت الأحداث عليه، فأديته اليك كما تحبين، قالت ما هذا شأنك فأصدقيني خبرك تقول حليمة فلم تدعني حتى أخبرتها فقالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ فقلت نعم فقالت كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل وان لبني شأناً أفلا أخبرك خبره، فقلت لها: بلى فقالت: رأيت حين حملت به انه خرج مني نور اضاء لي قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط أخف علي ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وانه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه الى السماء، ثم قالت دعيه عنك وانطلقي راشدة[٢٥].

لم تنعم آمنة بولدها طويلاً كما انها لم تنعم بعريسها ذلك الشاب الوسيم الذي تكالبت عليه شابات مكة وجميلاتها، فكأنما القدر كتب عليها أن تعيش سنوات في ألم وحسرةٍ على زوج أحبته وكان يستحق الحب والاعتزاز مقابل أن يبقى اسمها واسمه خالداً في طيات الزمن بعد أن اشتركت واياه ليكوّنا ثنائيا خالداً أنجب للانسانية خير خلق الله أبا القاسم محمد الرسول الصادق الأمين الذي أرسله الحق المبين ليكون مبشراً

---

* يتحدث ابن اسحق في سيرته المسماة بكتاب المبتدأ والخبر والمبعث والمغازي عن عملية شق صدر الرسول، فينقل بسنده عن أصحاب الرسول عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله: استرضعت في بني سعد بن بكر فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بها أتاني رجلان عليهما ثياب بيض ومعهما طست من ذهب مملوءة ثلجاً، فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم، ثم قال زنه بمائة فوزنني بمائة فوزنتهم، ثم قال زنه بألف فوزنني بألف فوزنتهم، فقال دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنهم. ابن اسحق المصدر السابق، ص٢٨. وانظر ايضاً: الماوردي، اعلام النبوة، المصدر السابق، ص٢١٧.

[٢٥] ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص١٦٥.

وهادياً وسراجاً منيراً، وهكذا غادرت أمه آمنة الحياة ومحمد صغير[٢٦] وحينها وجد نفسه يتيماً بكل ما تحمله هذه التسمية من معنى فقد فَقدَ أباه وهو لم ير النور وهاهو يفقد أمه ذلك الصدر الحنين الذي طالما اختبأ بين طيّاته باحثاً عن حنان لا يعوض ابداً وهو في أمس الحاجة اليه، تعلق الخرساني على فقد الرسول لأمه قائلةً "ماتت آمنة لكن محمد خلدها فقد عاشت ملئ قلب ولدها العظيم وهو يخفق لذكراها ويرق لها حناناً وشجواً"[٢٧].

يقول ابن سعد في الطبقات الكبرى، أن رسول الله لما مر بالابواء في عمرة الحديبية قال: ان الله أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فأتاها واصلح قبرها وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكائه فقيل له في ذلك فقال: أدركتني رحمتها فبكيت[٢٨].

وبعد وفاة آمنة كان لجد الرسول عبد المطلب بن هاشم دورٌ كبيرٌ برعاية حفيده رعاية مباشرة حيث أخذ على عاتقه أن يكون أباً وجداً له يسهر على راحته ويرعاه ويتابع شؤونه فقد كان بالنسبة له أكثر من ابن وأكثر من حفيد لا سيما وانه كان يحس بأن لحفيده يتيم الاب والأم شأناً كبيراً في الدنيا، يقول ابن اسحق:كان رسول الله مع جده عبد المطلب بن هاشم وان يوضع لعبد المطلب فراشاً في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه لا يجلسه عليه أحد منهم اجلالاً له قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأتي وهو غلام فيجلس على الفراش فيأخذه

---

[٢٦] يقول ابن اسحق: حدثني عبد الله بن ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ان أم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، آمنة بنت وهب توفيت ورسول الله ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي النجار تزيره اياهم فماتت وهي راجعة به الى مكة. ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص١٦٨.

[٢٧] الخرساني، المصدر السابق، ص١١٢.

[٢٨] الخرساني، المصدر نفسه، ص١١٣.

أعمامه ليؤخروه عنه فكان عبد المطلب اذا رأى منهم ذلك يوبخهم ويقول دعوا ابني فوالله ان له شأناً، ثم يأخذه ويجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع(٢٩).

وجاء القدر مرة أخرى ليبعد هذا الشيخ الجليل عن حفيده ليخسر بذلك الرسول الكريم عينين رحيمتين عطوفتين كانتا تلتفت بمقلتيها حوله اينما دار، وهو لم يبلغ بعد الثماني سنوات من عمره الشريف، لينتقل بعد ذلك الى مرحلة جديدة من حياته والى رعاية أخرى من رجل آخر لم يكن بعيداً ولا أقل حناناً من جده وأمه وابيه بل كان امتداداً لهما، إن لم نقل أكثر من الجميع رغبة برعايته وحرصاً عليه استناداً للمتغيرات الجديدة اللاحقة التي حدثت له وقد نقلت مصادر التاريخ حكايات وحكايات عن ذلك الشيخ الوقور وهو يقف بكل قوة الى جانب ابن اخيه فكان بحق خير عون وخير نصير: فقد جاء في السيرة النبوية أن رجلاً عائفاً (والعائف هو الذي يتفرس في شكل الانسان فيخبر عنه بما يؤول حاله اليه) كان يقدم الى مكة فيأتي الرجال بغلمانهم اليه ليروا ما يقول بشأنهم، فجاء أبو طالب بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) اليه وعندما كان ينظر اليه العائف شغله شغل عنه ثم سرعان ما عاد قائلاً عليَّ بالغلام الذي رايته آنفاً فلما رأى أبو طالب من حرصه عليه غيبه عنه فأخذ يقول: (ويلكم، ردوا عليَّ الغلام الذي رأيت آنفاً فوالله ليكونن له شأن قال فانطلق به ابو طالب عائداً) (٣٠). استمرت رعاية

---

(٢٩) ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص١٦٨، وانظر ايضاً: ابن كثير، البداية والنهاية، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٨١.

(٣٠) المصدر نفسه، ص١٨٠.

أبو طالب للرسول فترة طويلة جداً من الزمن اذ كفله وعمره الشريف ثمان سنوات[٣١] ولم يتخلَّ عنه حتى آخر يوم في حياته حيث وافته المنية والرسول لا زال في مكة لم يغادرها فكان لوفاته (رضي الله عنه) أثرٌ كبيرٌ على الوضع النفسي والأمني للرسول فغادر الى الطائف يلتمس عون أهلها فخذلوه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به فعاد الى مكة ثانية[٣٢]. وابو طالب غني عن التعريف فعظمة مواقفه واثره التاريخي الكبير والتداعيات السياسية التي أفرزتها المراحل اللاحقة لوفاة الرسول جعلته موضوع خلاف، فاختلف في اسلامه[٣٣]، فهو واحد من الشخصيات الكبيرة التي ظلمها التاريخ ولم ينصفها.

المرحلة الثانية: مرحلة النبوة (الدعوة الى الحق)

بدأ الرسول الكريم رحلته المباركة مع الاسلام بعد ان بلَّغه جبرائيل بقرار الله تعالى بأن يكون رسول الله وخاتم النبيين حيث أنزل عليه أولى سور القرآن الكريم كبداية للعمل باتجاه تبليغ رسالة السماء، وهنا كان لخديجة دورٌ كبيرٌ بالموضوع. تقول مصادر التاريخ: ان أحب الأشياء لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو أن يخلو لوحده لذلك كان يتعبد في غار حراء ويبقى هناك ليالي ثم يعود ولما كان شهر رمضان من عام البعثة خرج الى ذات الغار، حتى اذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل. يتحدث الرسول الى زوجته الطاهرة الوفية خديجة عن ذلك الموقف قائلاً: جاءني جبريل وأنا نائم، فقال اقرأ فقلت: ما اقرأ؟ قال فعنتني به (أي

---

[٣١] المصدر نفسه، ص١٦٩: يقول ابن سعد في الطبقات الكبرى (كان ابو طالب لا مال له يحب الرسول حباً شديداً لا يحبه لولده وكان لا ينام إلا الى جانبه ويخرج فيخرج معه)، ابن سعد، المصدر السابق، جـ١، ص١١٩.

[٣٢] انظر: ابو الفداء، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٠.

[٣٣] انظر :اختلاف الآراء لدى، النووي، المصدر السابق، جـ٢، ص١٤٦-١٤٧ تفسير قوله تعالى (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين)، القصص/٥٦.

حبس نفسي) حتى ظننت انه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ، (وأعادها عليّ ثلاثاً) قلت ماذا اقرأ، فقال ((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ*اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)) قال فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببتُ من نومي فكأنما كُتبت في قلبي كتاباً، قال فخرجت حتى اذا كنت في وسط من الجبل فسمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، يقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فرفعت رأسي الى السماء أنظر فاذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفت أنتظر فما أتقدم واتأخر ولا أنظر في ناحية من السماء إلا رايته كذلك فما زلت واقفاً ما اتقدم أمامي وما ارجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا وأنا واقف انظر اليه ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً الى أهلي[٣٤] يقول ابو الفداء: بعد ان حدّث الرسول خديجة بالأمر قالت له: (ابشر فوالذي نفسُ خديجة بيده اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة)[٣٥]، ثم انطلقت الى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان نصرانياً يقرأ الكتب وله دراية في الأمور[٣٦]، فقال لها بعد ان أبلغته خبره (ما أراه إلا نبي هذه الأمة الذي بشر به موسى وعيسى)[٣٧]. ولما طاف رسول الله كعادتـه في البيت الحرام

---

[٣٤] ينظر كل من: ابن اسحق، المصدر السابق، ص١٠١. وكذلك ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص٢٣٧. وايضاً البلاذري المصدر السابق ص ١٥٤، اليعقوبي، التاريخ، ج٢، ص٢٣، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ،ج٢ص ٣٤، ابو الفداء، المصدر السابق جـ٤،ص٣٤،وابن خلدون المصدر السابق ص٤١٠ ، الديار بكري ، المصدر السابق ج١، ٢٨٠.

[٣٥] ابو الفداء، المصدر السابق، جـ٢، ص١٢.

[٣٦] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٣٤.

[٣٧] ابن بكار، ابي عبد الله الزبير بن بكار، (ت، ٢٥٦هـ) جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمود محمد شاكر، جـ١، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٣٨١ هـ ص٤٠٨.

لقيه ورقة بن نوفل فقال له: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت فأخبره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال له ورقة (والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكذبن، ولتؤذين ولتخرجن، ولتقاتلن، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه، ثم انصرف رسول الله الى منزله)[٣٨].

اذن أصبح محمد رسول وأصبحت الحياة بالنسبة له لا تتعدى كونها فسحة من الزمن لتبليغ الرسالة، ولكن ما الذي سيواجهه ذلك القرشي العظيم وهو في طريقه لأداء الرسالة، كم هي المشاق وكم هي الصعوبات وماذا سيكون رد قومه عليه؟ كم منهم سيتعامل مع محمد على أنه صادق أمين كما كان كذلك وهو شاب يعيش بين ظهراني قومه؟ وكم منهم سيقول له نعم ويتحمل معه ثقل المهمة ويكون عوناً له في السراء والضراء؟ وكم منهم سيترك داره وماله وعياله وعالمه الخاص ويهاجر في سبيل الله اذا تطلب الأمر ذلك؟ وكم منهم سيتوجه الى الله بقلب صاف وروح يطهرها من الدنس بعد أن يؤمن برسالة محمد جملة وتفصيلاً؟ وكم منهم ايضاً سيقف له بالمرصاد متهماً اياه بالكذب والفجور والسحر محاولاً منعه بالقول والفعل وبقوة شديدة من أداء مهمته؟ هذه التساؤلات وغيرها كانت تدور بخلجات الرسول قبل أن يبدأ دعوته الشريفة، ولكن بين كل هذا وذاك يبقى الهدف بالنسبة لمحمد أسمى وأعظم من ان يقف فريق معه وآخر ضده، ثم ينتهي الموقف بدعوة من نبي كريم لتأخذ عدالة السماء بعد ذلك على عاتقها اعادة التوازن بطريقة العذاب المهين، انها آخر رسالة سماوية وعلى محمد أن يصل بها الى مسامع ومدارك الناس مهما كان الثمن باهظاً وأنه صلى الله عليه وآله وسلم يعلم

---

[٣٨] ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص٢٣٨.

ذلك جيداً لذا وعليه فأنه سيبلغ رسالة ربه ولم يكن ليخضع لإرادة الآخرين ابداً. لذلك عندما اشتد الضغط عليه، وجاء وجوه القوم الى عمه طالبين منه أن يثني محمد عن أمره قال لعمه قولته الشهيرة التي ظلت تدوي في عمق الزمن منذ ذلك الحين (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته) هنا أدرك أبو طالب عمق اصرار النبي على الدعوة فأجابه اذهب يأبن أخي، فقل ما أحببت. فلن أسلمك الى أحد أبداً[٣٩].

ثم استمرت الدعوة واستمر معها تدفق انضمام الرجال العظام الى صف الرسول، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر اشتدت الأزمة بالعلاقة بين محمد وقومه، فزاد الضغط على صحابته الكرام في الوقت الذي هو في مأمن منهم كونه في حماية عمه أبي طالب[٤٠] فأمر صحابته بالهجرة للحبشة وذلك سنة خمسة من النبوة[٤١] ومن الأحداث المهمة في مرحلة الدعوة وفي شطرها المكي قبل الهجرة الشريفة الى المدينة هي حادثتا الاسراء والمعراج، ووفاة كل من السيدة خديجة وأبو طالب (عليهما السلام)، وحادثة الاسراء اختلف فيها من ناحيتين، الناحية الأولى هي زمن الاسراء، والثانية هي كيفية الاسراء، فمن ناحية الزمن، هناك من يقول ان الاسراء والمعراج حدثا في السنة الخامسة للبعثة أو قبلها، وهناك من يقول كان ذلك بعد وفاة أبي طالب والسيدة خديجة حين عودة الرسول من الطائف قبل الهجرة بسنة ونصف أو سنتين ومنهم من يقول قبل الهجرة باشهر.

---

[٣٩] ابن اسحق، المصدر السابق، ١٣٥. وانظر ايضاً: ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص٢٦٦.، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٤٥.

[٤٠] ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص٣٢١. اليعقوبي، التاريخ، جـ٢، ص٢٩.،وايضاً ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٢، ص٥٢.

[٤١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٥٢.

أما عن كيفية اسراءه (صلى الله عليه وآله وسلم)، فعلى الرغم من أن الأغلبية الساحقة من المؤرخين والمحدثين من الصحابة والتابعين وتابعيهم يؤكدون على أن الاسراء كان بالروح والجسد معاً فأن هناك من ينقل عن السيدة عائشة (رض) قولها: ما فقدت جسد رسول الله ولكن الله أسرى بروحه فقط[٤٢]. في الوقت الذي حدث الاسراء في مكة والرسول لم يكن قد دخل بعائشة بعد. أما ما يتعلق بالحدث الثاني وهو وفاة السيدة خديجة زوجة الرسول، والسيد ابو طالب عمه وكافله وناصره فهو الحدث الآخر المهم جداً في حياة الرسول وهو في مكة والذي أثر فيه أثراً كبيراً حيث توفي الطرفان في مدة متقاربة فسمي ذلك العام بعام الحزن[٤٣]. وقد كان ذلك بعد خروج النبي وأنصاره من حصار المشركين في شعب أبي طالب، وقد سمع عنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله: (ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب)[٤٤].

وقد تحدث عن بعض تفاصيل ذلك الحدث اليعقوبي في تاريخه قائلاً "توفيت خديجة بنت خويلد في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين ولها خمس وستون سنة، ودخل عليها رسول الله، وهي تجود بنفسها فقال: بالكره مني ما أرى، ولعل الله أن يجعل في الكره خيراً كثيراً، اذا لقيت ضراتك في الجنة يا خديجة فاقرئيهن السلام، قالت: ومن هن يا رسول الله قال ان الله زوجنيك في الجنة وزوجني مريم بنت عمران، وآسيا بنت مزاحم وكلثوم أخت موسى فقالت بالرفاء والبنين، ولما توفيت خديجة، جعلت فاطمة تتعلق برسول الله وهي تبكي وتقول: أين أمي؟ أين أمي؟ فنزل عليه جبريل فقال: قل لفاطمة ان الله تعالى بنى لأمك بيتاً في الجنة من قصب لا نصب فيه ولا صخب. وتوفي أبو طالب

---

[٤٢] انظر: اختلاف الآراء لدى الديار بكري، المصدر السابق، ص٣٠٦.

[٤٣] الديار بكري، المصدر السابق، ص٣٠٠، وانظر ايضاً: كل من:
علي، سيد أمير، (الأستاذ)، روح الاسلام، ترجمة عمر الديراوي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦١م، ص٥١.
بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن (الدكتورة)، مع المصطفى عليه الصلاة والسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٢م، ص١٢٠، وايضاً، بهجت المصدر السابق،ص٤١٩.

[٤٤] ابن هشام، المصدر السابق، ص٤١٦ وانظر ايضاً ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٦٣.

بعد خديجة بثلاثة أيام وله ستة وثمانون سنة وقيل بل تسعون سنة. ولما قيل لرسول الله أن أبا طالب قد مات عظم ذلك واشتد له جزعه ثم دخل فمسح جبينه الأيمن أربع مرات وجبينه الأيسر ثلاث مرات ثم قال يا عم ربيت صغيراً وكفلت يتيماً ونصرت كبيراً، فجزاك الله عني خيراً، ومشى بين يدي سريره وجعل يعرضه ويقول وصلتك رحماً وجزيت خيراً، وقال: اجتمعت على هذه الأمة في هذه الايام مصيبتان لا أدري بأيهما أنا أشد جزعاً يعني مصيبة خديجة وابي طالب"[٤٥].

وهكذا أحس المصطفى وحشة الغربة بينه وبين أرض مبعثه، واشتدت عليه وطأة الحزن لفقدهما حتى خيل لأعدائه أن النصر عليه اصبح ممكناً، وما دروا أن الظلمة تشتد قبيل الفجر، وهنا أدرك الرسول أن الموقف لا بد ان يتخذ منهجاً آخر وراح يمد بصره الى ما وراء مكة[٤٦]، انها المدينة.

لا نستطيع أن نقف عند كل مفاصل المرحلة الثانية في حياة الرسول الأكرم، وكما فعلنا في مرحلة حياته الشريفة الأولى فاننا سنقف عند أهم تلك المفاصل وهي الهجرة الى المدينة وأهم الأحداث التي جرت بعدها وصولاً الى يوم وفاته صلى الله عليه وآله وسلم. ثم نتطرق بعد ذلك الى وفاته ومغادرته الدنيا بعد أن أجاد وأفاد وأسس على الأرض نظاماً سياسياً واجتماعياً اقتصادياً شاملاً مستنبطاً من قيم السماء لو أتيح له أن يأخذ طريقه الصحيح بالتطبيق دون أن يكون هناك للسياسة ولرغبات السلاطين دور سلبي في الموضوع لاستطاع أن يحقق للانسانية حياة حرة كريمة تليق بالانسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم.وأخيراً ستكون لنا بعد ذلك وقفة عن منزلته وأهميته عند الله تعالى.

---

[٤٥] اليعقوبي، التاريخ، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٥.

[٤٦] بنت الشاطئ، المصدر السابق، ص١٢٩.

١- الهجرة الى المدينة

لم يكن يوم الهجرة يوماً اعتيادياً في حياة الرسول، ولم تكن الهجرة كحدث تاريخي حدثاً اعتيادياً هو الآخر في سفر الاسلام، بل على العكس من ذلك مثلت الهجرة النبوية الشريفة انتقالة كبيرة في حياة الاسلام والمسلمين، استطاع بها ومن خلالها الرسول أن يجد له ولأنصاره بيئة جديدة صالحة للعمل الروحي والعقائدي فتحول بذلك الرسول من مرحلة الدفاع عن المسلمين الى مرحلة الهجوم على المشركين لغرض تقوية أنصاره وحثهم على الجهاد بعد ان أمره الله بذلك وكما جاء في الذكر الحكيم (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)[٤٧].

بدأت الهجرة أول ما بدأت باصحاب الرسول، يقول ابن خلدون "بحيث لم يبقَ من المسلمين بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وعلي بن ابي طالب فانهما أقاما بأمره وكان صلى الله عليه وسلم ينتظر أن يؤذن له في الهجرة"[٤٨].

وبعد أن أُذن للرسول (صلى الله عليه وسلم) اصطحب معه أبا بكر (رض) رفيقاً له في الهجرة وبقي الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) نائماً في فراش الرسول لإيهام المشركين الذين اتفقوا على قتل الرسول بأنه لا زال موجوداً في بيته، ولما اقتحموا المنزل وجدوا الامام علي نائماً في فراشه فخاب أملهم بقتل الرسول، ثم كشف القرآن تدبير الكافرين فيما بعد بقوله تعالى (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

---

(٤٧) الحج / الآية ٣٩.

(٤٨) عبد الرحمن بن خلدون، (ت٨٠٨هـ)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر من تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الآخير، تحقيق خليل شحاذه، وسهيل زكار، ج٢، دار الفكرية ت١ ، ١٩٨١م.

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)[٤٩]. ثم كشف عن رحلة الرسول بقوله ايضاً (إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[٥٠].

لم تكن الهجرة فراراً من الاضطهاد فحسب وانما كانت سأماً من التجمد، ولم تكن خروجاً الى الأمن والراحة بل على العكس كانت خروجاً للعمل الشاق فبعد أن كان الاسلام في مكة يدافع عن نفسه بطريقة الدفاع أصبح بعد الهجرة يدافع عن نفسه بطريقة أكثر جدوى وأكثر فائدة وأنضج ثمراً على مستوى الميدان وهي الدفاع بطريقة الهجوم، وهذا التحول جاء لكونه يمثل مرحلة متقدمة من الدعوة، فبعد أن أمضى المسلمون سنوات حياتهم في مكة دون أن يحملوا السلاح، كانت حياتهم بعد الهجرة حياة جهاد حيث بدأوا المعارك ضد الباطل وبدأوا بحمل السيف كما يحمل الجراح مشرطه للقضاء على الداء وتحقيق الشفاء[٥١].

يقول الاستاذ العقاد: في الواقع ان الاسلام في بداية عهده كان هو المعتدى عليه حيث لم يعتد المسلمون على أحد وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أُمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة، فلم يكن لهم قط عدوان أو اكراه وحروبهم كانت حروب دفاع ولم تكن منها حروب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد التيقن من نكث العهود والاصرار على القتال، وتستوي في ذلك كل حروب النبي سواء مع قريش أو في حروبه مع اليهود أو مع الروم، ففي غزوة تبوك عاد الجيش الاسلامي أدراجه بعد ان

---

[٤٩] الأنفال / ٣٠.

[٥٠] التوبة / ٤٠.

[٥١] بهجت، المصدر السابق، ص٤٣٢.

أيقن بانصراف الروم عن القتال في تلك السنة وكان قد سرى الى النبي نبأ يقول أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد الاسلامية، فلما عدلوا عدل الجيش الاسلامي على الرغم مما تكلف به من جهد ونفقة، وبعد كل ذلك فان الاسلام لم يحتكم الى السيف قط إلا في الأحوال التي أجمعت شرائع الانسانية على تحكيم السيف بها[٥٢].

كان الجهاد وقتال المشركين هي السمة الأكثر بروزاً في حياة المسلمين في المدينة خاصة في السنوات الأولى والتي أسست فيما بعد اساساً قوياً لدولة الايمان المحمدية في المدينة المنورة ففتحت مكة وجاءت الوفود من كل أركان وزوايا الجزيرة العربية معلنةً اسلامها، فنشر العدل ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وهكذا أسس الرسول دولة قوامها الايمان وأركانها العدل واحترام الانسان والاهتمام بالعلم والعمل وتقوى الله وحب الخير ونبذ الشر والعمل على تحقيق حالة من الانسجام والمحبة وبناء مجتمع سليم خالٍ من العيوب (فالمؤمن في المجتمع الاسلامي أخو المؤمن لا يخذله ولا يحزنه ولا يغتابه ولا يحسده ولا يبغي عليه، فابليس يقول لجنوده: ألقوا بينهم البغي والحسد فانه يعادل عند الله الشرك)[٥٣].

٢- وفاته

كان واحداً من أهم الأعمال التي قام بها الرسول قبل وفاته هي حجه للبيت العتيق في مكة المكرمة بعد ان فتحها ودخل أهلها الاسلام في سنة ٨ للهجرة[٥٤] وهذه الحجة سميت بحجة الوداع وتسمى ايضاً حجة الاسلام وحجة التمام وحجة البلاغ[٥٥].

---

[٥٢] العقاد، عباس محمود عبقرية محمد، دار الهلال، مصر، ص٣٠.

[٥٣] راجع نص الحديث الشريف، اليعقوبي، التاريخ، جـ٢، ص٩٥.

[٥٤] المسعودي، التنبيه والاشراف، ص٢٣٠.وانظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص١٦٥.

[٥٥] الديار بكري، المصدر السابق، جـ٢، ص١٤٨.

وكانت عملاً كبيراً خلده التاريخ وتحدثت عنه المصادر باعتباره كان ايذاناً أو اشارة لكون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في طريقه لمغادرة الدنيا والالتحاق بالرفيق الأعلى بعد أن أدى واجبه وبلغ رسالة السماء وتحمل من أجل ذلك ما تحمل من المشقة والتعب ومناصبة المشركين له العداء. كانت الحجة أشبه ما تكون بممارسة ميدانية قام بها الرسول ليعلم المسلمين كيفية الحج لا سيما وأنها أول حجة بعد أن اصبح نبياً اذ أن السنوات السابقة لم تسمح له بالحج لانشغاله بأمور الدين أولاً ولكون مكة كانت لازالت تحت سيطرة المشركين ثانياً، فضلاً عن ذلك فقد كانت مناسبة لالتقاء المسلمين جميعاً بعد سنوات من العمل الشاق والغزوات والحروب[٥٦] التي قام بها الرسول وأصحابه لغرض تأمين الأجواء لانتشار الاسلام واعتناق الناس له، فقد ذكر الديار بكري عن سيرة اليعمري بأن الرسول خرج الى الحج ومعه مائة الف أو يزيدون من المسلمين[٥٧] وخرجت معه نساؤه كافة وابنته فاطمة عليها السلام[٥٨].خطب الرسول في حجة الوداع خطبة كان لها صداها في التاريخ الاسلامي اذ كانت آخر ما وصل من الرسول الى المسلمين من توجيهات على المستوى العام، الغرض منها هو الانتباه الى الأساسيات من الأمور الحياتية والتفصيلية التي تهم حياة المسلمين بعد وفاة الرسول ومما جاء في خطبته الشريفة: يا أيها الناس لعلكم لا تلقوني على مثل حالي هذه وحالكم هذا، هل تدرون أي بلد هذا؟ وهل تدرون أي شهر هذا؟ وهل تدرون أي يوم هذا؟ فقال الناس نعم، هذا البلد الحرام والشهر الحرام واليوم الحرام، فقال صلى الله عليه وآله

---

[٥٦] جاء في صحيح البخاري عن زيد بن الأرقم قوله: ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم غزا تسع عشرة غزوة، انظر: الديار بكري، المصدر السابق، جـ٢، ص١٤٨.

[٥٧] المصدر نفسه، ص١٤٩.

[٥٨] المسعودي، التنبيه والاشراف، ص٢٤٠.

وسلم فان الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة بلدكم هذا وكحرمة شهركم هذا وكحرمة يومكم هذا، ألا هل بلغت؟ قالوا نعم فقال: اللهم اشهد.

ثم قال: واتقوا الله ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين فمن كانت عنده أمانة فليؤدها، ثم قال الناس في الاسلام سواء، الناس طف الصاع لآدم وحواء لا فضل لعربي على أعجمي ولا أعجمي على عربي إلا بتقوى الله، ثم قال لا تأتوني بأنسابكم وأتوني بأعمالكم، فأقول للناس هكذا وأقول لكم هكذا، ألا هل بلغت؟ قالوا نعم: قال اللهم اشهد؟.

ثم قال صلى الله عليه آله وسلم: أوصيكم بالنساء خيراً فانما هن عوان عندكم لايملكن لأنفسهن شيئاً، وانما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكتاب الله لكم عليهن ألا يوطئن فراشكم أحداً، ولا يأذن في بيوتكم إلا بعلمكم واذنكم فأن فعلن شيئاً من ذلك فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد.. ثم قال، صلى الله عليه وآله وسلم: لا ترجعوا بعدي كفاراً مضلين يملك بعضكم رقاب بعض اني قد خلفت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال اللهم اشهد*.

وبعد أداءه للمناسك خرج من البيت فنزلت عليه (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)[٥٩]، ثم خرج منصرفاً ليلاً الى المدينة فصار الى

---

* ينقل الجاحظ في رسائله الرواية بالشكل التالي: وقال عليه الصلاة والسلام فيما أبان أهل بيته (أني تاركٌ فيكم الخليفتين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله، حبلٌ ممدود من السماء الى الأرض، وعترتي أهل بيتي، نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض). الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت، ٢٥٥هـ)، مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق الدكتور محمد طه الحاجري، الرسالة الرابعة، دار النهضة العربية، بيروت، ص٥٢.

[٥٩] راجع الخطبة عند كل من:=

موضع يقال له غدير خم بالقرب من الجحفة وذلك لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة فقام خطيباً وأخذ بيد الأمام علي بن ابي طالب (عليه السلام) وقال: ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه[٦٠]. ثم عاد الرسول الى المدينة وأقام أياماً ثم "عقد لأسامة بن زيد بن حارثة على جلة المهاجرين والأنصار وامره أن يقصد حيث قتل أبوه من أرض الشام)[٦١] ثم اشتكى الرسول قبل أن ينفذ جيش أسامة واعتل لمدة أربعة عشر يوماً توفي بعدها وذلك يوم الاثنين لأثنتي عشرة ليلة خليت من ربيع الأول ويقال لليلتين خلتا منه ودفن ليلة الأربعاء وكان سنه ثلاثة وستين عاماً[٦٢].

=اليعقوبي، التاريخ، ص١١٢. وايضاً الطبري، التاريخ، جـ٣، ص١٥١، ولدى الطبري: اني قد خلفت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنة نبيه، الحراني، المصدر السابق، ص٢٩. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٥، ص١٠٩-٢١٤: وقد تحدث ابن كثير عن الموضوع باسهاب وأفرد له اكثر من مائة صفحة، ذاكراً أحاديث شتى عن موضوع الحجة بشكل عام والخطبة وما رافقها وباسانيد مختلفة وقد علق عليها ذاكراً من نقلها سواءً في كتب الصحاح أو كتب التاريخ، وقد تطرق الى واقعة غدير خم، ونقل أحاديث شتى بخصوصها، منها ما قال عنها انها صحيحة ومنها من كذبها ومن الأحاديث التي نقلها حديث عن ابي هريرة (رض) يؤيد فيها واقعة الغدير. ابن خلدون المصدر السابق،ج٢،ص٤٧٩.

[٦٠] اليعقوبي، التاريخ، جـ٢، ص١١٢. وانظر ايضاً، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٥، ص٢٠٨. الطباطبائي، التفسير، جـ١٦، ص٥١٤.

[٦١] اليعقوبي، التاريخ، جـ٢، ص١١٣، وانظر ايضاً ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢١٨.

[٦٢] ابن خياط، خليفة بن خياط العصفري، (ت/٢٤٠هـ)، تاريخ ابن خياط، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، ساعدت جامعة بغداد على نشره، دار القلم، بيروت، ١٩٧٧م، ص٩٤، وانظر ايضاً اليعقوبي، التاريخ، المصدر السابق، جـ٢، ص١١٢ .. وفي ذلك خلاف في التاريخ وليس في اليوم. ينقل الديار بكري عن ابن عباس قوله: ولد الرسول يوم الاثنين، واستنبئ يوم الاثنين، وخرج مهاجراً من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، ورفع الحجر يوم الاثنين، وقبض صلى الله عليه وآله وسلم يوم الاثنين، الديار بكري، المصدر السابق، جـ٢، ص١٦٦.

يقول ابن سعد (ت، ٢٣٠هـ) أخبرنا أنس بن عياض قال حدثونا عن جعفر بن محمد عن ابيه (وهو الامام الباقر عليه السلام) قوله "لما بقي من أجل الرسول (ص) ثلاث ليال نزل عليه جبريل مرتين في كل ليلة مرة وفي الليلة الثالثة نزل وهبط معه ملك الموت، فقال جبريل يا أحمد هذا ملك الموت يستأذن اليك ولم يستأذن على آدمي قبلك ولا يستأذن على آدمي بعدك، قال ائذن له فدخل ملك الموت، فوقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال:يا رسول الله يا أحمد ان الله أرسلني اليك وأمرني أن اطيعك في كل ما تأمرني به. ان أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها وان أمرتني أن أتركها تركتها، قال وتفعل يا ملك الموت، قال بذلك امرت أن أطيعك في كل ما أمرتني؟ فقال جبريل يا أحمد أن الله قد اشتاق اليك، قال فامضي يا ملك الموت لما أمرت به، قال جبريل، السلام عليك يا رسول الله؟ هذا آخر مواطئي الأرض، انما كنت حاجتي من الدنيا"[٦٣].

وقد جاء عن السهيلي قوله: "وجدت في بعض كتب الواقدي ان أول كلمة تكلم بها النبي صلى الله عليه وسلم وهو مسترضع عند حليمة (الله أكبر) وآخر كلمة تكلم بها الرفيق الأعلى"[٦٤].

---

[٦٣] ابن سعد، المصدر السابق، جـ١، ص١٥٧ وانظر ايضاً اليعقوبي، التاريخ، المصدر السابق، جـ٢، ص١١٤ والديار بكري، المصدر السابق، جـ٢، ص١٦٦.

[٦٤] الديار بكري، المصدر السابق، جـ٢، ص١٦٦.

خصائص الرسول وصفاته ومنزلته عند الله تعالى

اذا كان مقدار ذكر الأنبياء السابقين في القرآن الكريم يعطي تصوراً عن مدى أهمية اثرهم في الحياة وعن مدى حرص العناية الالهية بهم وهي تقص تفاصيل حياتهم للرسول الكريم، فان القرآن نفسه بكل حروفه وآياته وسوره المباركة قد خص الله به آخر أنبيائه ورسله الرسول المصطفى محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومهما جادت قرائحنا بالكلام المبين، والوصف الجميل والذكر الحسن فأننا لن نصل ولن نصل أبداً حتى الى وصف نسبة ضئيلة مما عليه الرسول المصطفى من خصال وصفات ومنزلة عظيمة، فقد سبقنا الرحمن الى كل ما يمكن أن نذكره ونكتبه ونسجله بحق حبيبه المصطفى، فهو في الأخلاق على خلق عظيم[٦٥] وفي الرحمة رحمة للعالمين[٦٦] وفي الرأفة رؤوف بالمؤمنين[٦٧] أما في التصويب والتشخيص، فهو لا ينطق عن الهوى[٦٨] وفي العلم، علَّمه علام الغيوب[٦٩]، وفضلاً عن ذلك فهو الهادي البشير[٧٠] والسراج المنير[٧١] وأسوة للمؤمنين[٧٢] في كل وقت وحين، واذا كان التلاميذ يفخرون بشيوخهم واساتذتهم،

---

[٦٥] القلم / من الآية ٤.

[٦٦] الأنبياء / من الآية ١٠٧.

[٦٧] استناداً الى الآية الكريمة، (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)، سورة التوبة / ١٢٨.

[٦٨] النجم / من الآية ٣.

[٦٩] استناداً الى الآية (علمه شديد القوى)، النجم/٥.

[٧٠] الأحزاب / من الآية ٤٥.

[٧١] الاحزاب / من الآية ٤٦.

[٧٢] استناداً للآية الكريمة (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة)، الأحزاب / من الآية ٢١.

فان الرسول قد رباه الله وأحسن تربيته وعلمه ووجهه وحفظه ورعاه وهيأ له سبل الرشاد والنجاة، وأيده بنصر منه، ودافع عنه وأمر المسلمين بطاعته والالتزام بما يأمرهم به، ووبخ من خطأ بحقه وأنه أولى منهم بأنفسهم وزوجاته أمهاتهم، وآيات الذكر الحكيم الممتدة على طول مائة وأربع عشرة سورة مباركة هي خير دليل على صحة ما جاء أعلاه.

والرســول المصطفى، في الكرم والجود كريم[٧٣]، وفي الحلم حليم[٧٤]، وفي التواضع والعفو عند القدرة، فهو متواضع الى ابعد حد، وقد عفى عن من كان يوماً قد رفع السيف بوجهه وأراد قتله وجيّش الجيوش لذلك. أما في الصبر فحدث ولا حرج فانه قد صبر وعانى من قومه ما عانى، يقول القمي "والحديث عن حلمه وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن تأتي عليه وحسبك ما جرى عليه من كفار قومه من الأذى وصبره على مقاساة قريش ومصابرته للشدائد الصعبة معهم الى أن أظفره الله عليهم وحكمه فيهم، وهم لا يشكون في استئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم فما زاد على أن صفح وعفا وقال: ما تقولون اني فاعل بكم، قالوا خيراً، أخ كريم وابن أخٍ كريم،فقال: اقول ما قال: أخي يوسف: (لا تثريب عليكم اليوم) اذهبوا فأنتم الطلقاء"[٧٥].

أما شجاعة الرسول فهي صفة ملازمة له لقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) شجاعاً مقداماً فارساً لا يهاب الموت وقد جاء عن أنس بن مالك (رض) قوله: كان رسول الله أشجع الناس وأسمح الناس وأحسن الناس وقع في المدينة فزع فركب فرساً عربياً فسبق الناس اليه وأخذ يقول: يا أيها الناس لم تراعوا، وعن الامام علي (عليه السلام)

---

[٧٣] القمي، المصدر السابق، ص٨٦.

[٧٤] المصدر نفسه، ص٩٧.

[٧٥] المصدر نفسه، ص٨٣.

قوله: كنا اذا اشتد البأس اتقينا برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فكان أقربنا الى العدو[٧٦]. يقول ابن الأثير: وكفى بهذا شجاعة أن مثل علي الذي هو في شجاعته يقول هذا[٧٧]. وعن عمران بن حصين قوله: ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب فهو قوي البطش ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته وجعل يقول أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب .. فما رؤي يومئذٍ أحد كان أشد منه[٧٨]. يعد القمي في كتابه كحل البصر بعضاً من صفات الرسول وقد أجمعها بالكرم والجود والسخاء والشجاعة والحياء وحسن العشرة والشفقة والحلم والوفاء والتواضع والعدل والأمانة والعفة ونظافة الجسم والوقار والطاعة والزهد في الدنيا فضلاً عن كونه عالماً لا ينطق عن الهوى وقد أفرد لكل صفة صفحتين أو أكثر من كتابه للحديث عنها[٧٩].

ثانياً: فلسفة الزواج لدى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

تزوج الرسول المصطفى لأول مرة في حياته الشريفة وكان سنه آنذاك على رغم الإختلاف فيه خمسة وعشرين عاماً على أغلب الروايات[٨٠]. وقد تزوج من السيدة

---

[٧٦] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢١٠، وانظر ايضاً : القمي، المصدر السابق، ص٨٩.

[٧٧] ابن الأثير، ، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢١٠.

[٧٨] الغزالي، الامام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، (ت، ٥٠٥ هـ)، أحياء علوم الدين، مجـ٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ص٣٨٠، وانظر ايضا ابن هشام ، المصدر السابق حـ١، اليعقوبي، المصدر السابق

[٧٩] القمي، المصدر السابق، ص٨٠-١٠٧.

[٨٠] ابي عبيدة، معمر بن المثنى، (ت، ٢٠٨هـ) تسمية أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) وأولاده، تحقيق، الدكتور ناصر حلاوي، مطبعة حداد، بغداد ١٩٦٩، ص٢٠، وانظر ايضا: ابن هشام ، المصدر السابق،٨٧.
اليعقوبي، التاريخ، جـ٢، ص٢٠. وايضاً المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٢٧٦.

خديجة بنت خويلد وكانت أكبر منه سناً وسنأتي الى تفصيل ذلك لاحقاً. لم يتزوج الرسول غير خديجة (عليها السلام) حتى توفيت وسن الرسول كان حوالي خمسين عاماً وهذا يعني أن الزواج الثاني في حياة الرسول حدث وسنه الشريف أكثر من خمسين عاماً، وقد جاء بسبب وفاة السيدة خديجة، اذ لو قدر الله لخديجة أن تحيا على قدر حياة الرسول لكان الرسول ما تزوج غيرها، وهذا ما أكدته الوقائع اذ لو كان يريد الزواج لغرض الزواج والمتعة لتزوج وهو في سن الشباب هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لأستطاعت السيدة خديجة وبناتها من القيام بالدور الذي قمن به زوجات النبي (رضي الله عنهن) بعد وفاته وذلك من خلال روايتهن للأحاديث المتعلقة بالأسرة وخاصة بأحوال النساء المعروفة والتي عدها البعض سبباً لتعدد زوجات النبي[٨١]، وبذلك أسقط الرسول عن نفسه كلام الآخرين بخصوص زواجه وعدد نساءه وبأنه كان مزواجاً ونكاحاً للنساء .. الخ. فزواج الرسول كان مبرراً، ولم يكن زواجاً عن رغبة جنسية وولع بالنساء بقدر ما هو زواج ذو صبغة اجتماعية وذو أهداف انسانية ومضامين تربوية خالصة.

يقول العقاد: ولا حرج على رجل قويم الفطرة، سليم العقل والجسم كالرسول أن يلتمس المتعة في زواجه، ولكن الذي حدث فعلاً أن المتعة لم تكن قط مقدمة في الاعتبار في نظر النبي وهو يختار واحدة من زوجاته سواءً قبل الدعوة أو بعدها وفي ايام شبابه أو بعد تجاوزه ذلك السن، فسائر زوجاته (صلى الله عليه وآله وسلم) ما واحدة منهن إلا وكان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة[٨٢].

---

[٨١] انظر: الحيالي، المصدر السابق، ص٥١.

[٨٢] العقاد، عبقرية محمد، ص١١٠.

والذين اتهموا الرسول بتهمة الاستسلام للهوى والرغبات ليس هم من الذين وقفوا ضده وضد مبادئه ودينه وتاريخه من المحدثين والمستشرقين فقط بل أن التهمة قديمة على الرغم من ان تعدد الزوجات سابقاً كان أمراً طبيعياً، وهذا ما حدث فعلاً عندما اتهمه اليهود بكثرة الزواج حتى برأه الله ودافع عنه بقوله تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً)[٨٣].

فمحمد اذن كغيره من الأنبياء والرسل الذين تعددت زوجاتهم وكانت لهم ذرية، ومعنى ذلك ان تعدد الزوجات بالنسبة للأنبياء أمر لا يخالف ولا يتعارض مع واجبات النبوة وأهدافها، بل قد يعين عليها[٨٤]. وكما أشرت فأن المصلحة في تعدد زوجات الرسول كانت تكمن في مصلحة الدين ذاته وقد كان هناك ما يسمى بالزواج السياسي تجلى واضحاً في الفترات اللاحقة لوفاة الرسول اذ كان الملوك والأمراء والقادة يتزوجون تقرباً وتزلفاً لأصحاب القرار ولغرض الحصول على مكاسب سياسية، أما الرسول فان مكاسبه لم تكمن في الجانب السياسي كونه هو القائد والمسؤول ولا يحتاج الى زيجات تقربه للآخرين لأطماع سياسية أو أمور أخرى تتعلق برغبات دنيوية، بل على العكس من ذلك كانت دوافعه كلها تصب في خدمة الدين والمجتمع ولغرض تحقيق حالة من التقارب مع الآخرين لخدمة المصلحة العامة، وعند استعراض اسباب ودوافع زواج الرسول من زوجاته اللواتي تزوج بهن بعد السيدة خديجة (عليها السلام) سنرى ذلك الأمر يظهر جلياً.

---

[٨٣] الرعد / من الآية ٣٨.

[٨٤] الحيالي، المصدر السابق، ص٥٠.

اختلف في عدد زوجات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الذين دخل بهن أو اللواتي لم يدخل بهن[٨٥] لكن أغلب الروايات أكدت انه تزوج بخمس عشرة امرأة، دخل بثلاث عشرة واجتمع عنده احدى عشرة ومات عن تسع[٨٦] وهن المشمولات بآية الاختيار لذلك سنتطرق لهن فضلاً عن السيدة خديجة باعتبارها تمثل المرحلة الأولى من حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والتي سنأتي على ذكرها بالتفصيل لاحقاً ان شاء الله اذ تزوج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقية زوجاته بعد وفاتها كما هو مبين أدناه حسب سنة الزواج.

يقول البلاذري (ت، ٢٧٩ هـ): "لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فعرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم التزويج فقال: بمن؟ قالت بسودة وعائشة، وكانت سودة مسلمة، فزوجها اياه ابوها وهو شيخ كبير"[٨٧].

رواية البلاذري اعلاه صريحة جداً وقد اعتمدتها الكثير من المصادر التاريخية[٨٨]، فالرسول في هذه الرواية على الرغم من كونه رجلاً مسؤولاً عن عائلة وله من المتطلبات الأسرية ما يجعله يبحث عن امرأة تملأ الفراغ الذي أحدثه وفاة السيدة خديجة، إلا أنه لم يفعل ذلك ولم يتقدم هو شخصياً لخطبة اية امرأة وذلك لانشغاله بأمور الدين بسبب حراجة الموقف آنذاك اذ ان السنوات الأخيرة للرسول قبل الهجرة كانت سنوات حرجة جداً وقد تكالب عليه المشركون نتيجة لفقده لأهم عنصر كان يشكل بالنسبة له مصداً

---

[٨٥] انظر: اليعقوبي، التاريخ، جـ٢، ص٨٤ وانظر ايضاً: السعيدي، المصدر السابق، ص١٣.

[٨٦] ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٥٠.وانظر: الطبري، التاريخ، جـ٣، ص١٦٠، وكذلك ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢١١، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٥، ص٢٩١.

[٨٧] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٠٨.

[٨٨] الطبري، التاريخ، جـ٣، ص١٦١. وانظر ايضا: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢١١. الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٣٠٥. العقاد، عبقرية محمد، ص١٠٩.

قوياً بينه وبين قريش، ذلك هو عمه ابو طالب (رض) لذلك انشغل الرسول عن نفسه وعن مصلحة اسرته، مما حدا بمحبيه من أن يقوموا بواجباتهم تجاهه، لذلك عندما كان رده ايجابياً بخصوص اقتراح خولة بنت حكيم، ذهبت الأخيرة وهيأت الأجواء للرسول الذي ذهب هو الآخر فيما بعد وخطب السيدة سودة ودخل بها قبل الهجرة بأشهر[٨٩] أما السيدة عائشة فلم يتزوجها إلا بعد وفاة السيدة خديجة بثلاث سنوات كما يقول ابن اسحق[٩٠].

وبهذا يكون زواج الرسول بسودة وعائشة لم يكن برغبته فيهن بقدر ما هو استجابة لمقترح طُرح عليه أولاً ولمصلحة رآها الرسول قبل أن يقرر الموافقة ثانياً، وبذلك تكون الرواية أعلاه قد اسقطت الرواية التالية والتي تصور الرسول وكأنه رجل مغرم وولهان لم يستطع أن يتحكم بمشاعره وأحاسيسه والتي أراها برأيي رواية موضوعة غير متلائمة مع سير الحدث التاريخي، تقول الرواية (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى عائشة على أرجوحة فأعجبته، فأتى منزل أبي بكر ولم يكن حاضراً، فقالت له أم رومان: ما حاجتك يا رسول الله؟ قال: جئت أخطب عائشة، قالت: أن عندنا يا رسول الله من هي أكبر منها، قال: انما أريد عائشة، ثم خرج، ودخل أبو بكر رضي الله تعالى عنه، فأخبرته أمها بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج فزوجها اياه

---

[٨٩] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٠٧.

[٩٠] المصدر السابق، ص٢٣٩، يقول ابو عبيدة بان السيدة خديجة توفيت قبل الهجرة بخمس سنوات، وأن الرسول تزوج السيدة عائشة قبل الهجرة بسنتين وبذلك يتفق مع ابن اسحق بأن زواج الرسول من كل من السيدتين سودة وعائشة كان بعد وفاة السيدة خديجة بثلاث سنين. أبي عبيدة، المصدر السابق، ص٢٦، أما الديار بكري في تاريخ الخميس فيقول: توفيت خديجة قبل هجرة الرسول بثلاث سنين فلبث سنتين أو قريباً من ذلك ونكح عائشة وهي بنت ست سنين، ثم بنى بها وهي بنت تسع سنين. الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٣٠٥.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع الأراجيح)[٩١]. هذه الرواية روجها من يريد أن يقول أن السيدة عائشة (رض) هي أحبُ نساء الرسول الى الرسول حتى لو كان ذلك على حساب النبي ذلك العظيم الذي كان يحمل في تلك السنوات الحرجة من حياته هموم أمة بكاملها ..

كانت السيدة سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي[٩٢] امرأة مسنة، وكان في اذنها ثقل[٩٣]، وكانت تحت السكران بن عمرو بن عبد شمس وهو من مهاجري الحبشة، آمن هو وزوجته وهاجرا الى الحبشة[٩٤]، وعندما عاد الى مكة مات عنها وهو مسلم[٩٥].

يقول البلاذري: طلق رسول الله سودة بنت زمعة تطليقة واحدة وذلك سنة ثمان للهجرة، فجمعت ثيابها وجلست له على الطريق التي كان يسلكها اذا خرج الى الصلاة فلما دنا منها، بكت وقالت يا رسول الله هل اعتددت عليّ في الاسلام بشيء؟ فقال اللهم لا، فقالت اسألك بالله لما راجعتني، ولله ما غايتي الا أن أرى وجهك وأحشر مع أزواجك وقد التزمت بيتها ولم تحج التزاماً بقول رسول الله أثناء حجة الوداع عندما قال هذه

---

[٩١] البلاذري، المصدر السابق، ص٤١١.

[٩٢] ابن حبيب، النسابة أبي جعفر محمد بن حبيب الهاشمي، (ت، ٢٤٥هـ)، كتاب المحبر، رواية الحسن بن الحسين السكري، حيدر آباد، ١٩٤٢م، ص٧٩.

[٩٣] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٠٧.

[٩٤] الطبري، التاريخ، جـ٣، ص١٦١.

[٩٥] ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٥، ص٢٩٤، وهناك من يقول بأن زوجها ارتد عن الاسلام وتنصر وهذا غير صحيح وهم يخلطون في ذلك بين زوج سودة الذي مات مسلماً وبين زوج أم حبيبة الذي تنصر في الحبشة فأرسل الرسول الى النجاشي وخطبها له، راجع ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢١٢.

الحجة، ثم ظهور الحصر[96]، وكانت حاضنة ولده ابراهيم عليه السلام[97] توفيت سنة ثلاث وعشرين هجرية[98] وعمرها يقارب الثمانين عاماً[99]، وبذلك تكون وفاتها (رض) بعد الرسول باثنتي عشرة سنة وبما أن عمرها كان حين توفيت اذا صحت رواية البلاذري أعلاه ثمانين عاماً فهذا يعني انها كانت أسن من الرسول حين تزوج بها، يعلق العقاد على زواج الرسول من سودة فيقول: كانت سودة من اسبق النساء الى الاسلام، آمنت وهجرت أهلها ولجأ بها زوجها الى الحبشة فراراً من كيد المشركين، فلما مات لم يبق لها سوى أن تعود الى أهلها فتؤذى أو تتزوج بغير كفوء لذلك ضمها النبي اليه حماية لها وتأليفاً لأعدائه من آلها وان غير هذا الزواج أولى بالنبي لو كان يريد المتعة من الزواج والرغبة بالجنس[100]. هذا ما يتعلق بالسيدة سودة، ثم تزوج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) السيدة عائشة وبنى بها في المدينة في السنة الأولى للهجرة[101]، وسنأتي على ذكر ذلك لاحقاً عند الحديث عن اثر السيدة عائشة (رض).

وكما اختلف في عدد نسائه (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما أشرنا اختلف كذلك في تسلسل زوجاته منهن والاختلاف هنا حدث بعد الثلاث الأول وهن خديجة، سودة وعائشة. اذ أجمعت المصادرعلى أن زوجته الاولى كانت السيدة خديجة واتفقت ذات

---

(96) البلاذري، المصدر السابق، ص٤٠٧.

(97) ابن حبيب، المصدر السابق، ص٨٠.

(98) ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد، (ت، ١٠٨٩ هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مجـ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٣٤.

(99) البلاذري، المصدر السابق، ص٤٠٧.

(100) العقاد، عبقرية محمد، ص١٠٩.

(101) المسعودي، التنبيه والأشراف، ص٢٠١.

المصادر على أنه لم يتزوج عليها في حياتها أبداً وانما كان زواجه بعد أن توفيت (عليها السلام) اما زوجتاه الثانية والثالثة فاتفقت المصادر ايضاً على أن السيدة سودة كانت الثانية والسيدة عائشة الثالثة حيث بنى بها في المدينة كونها كانت صغير السن[١٠٢]، أما زوجته الرابعة فقد حدث الخلاف حول من هي بالضبط، فمنهم من يقول كانت حفصة بنت عمر بن الخطاب (رض)[١٠٣] ومنهم من يقول هي أم شريك وبعدهما حفصة[١٠٤] ومنهم من يقول كانت زوجة الرسول الرابعة هي السيدة أم سلمة[١٠٥]، لذلك سنعود الى المصادر الأقرب للحدث ونستطلع رأيها ثم نقرر بعد ذلك لمن سيكون الموقع الرابع بالتحديد، أقرب المصادر المتوفرة لدينا لحظة كتابة هذه السطور هي سيرة ابن اسحق، وابن اسحق يعدد الزوجات كالآتي:

١. خديجة ٢.سودة ٣. عائشة ٤. حفصة ٥. زينب بنت خزيمة ٦. أم حبيبة ٧. أم سلمة ٨. زينب بنت جحش ٩. جويرية ١٠. صفية ١١. ميمونة بنت الحارث، ثم يتحدث ايضاً عن نساء خطبهن الرسول ولم يدخل بهن واخريات وهبن أنفسهن للنبي فدخل ببعضهن ولم يدخل في البعض الآخر[١٠٦] واختصاراً للموضوع سنكتفي برأي ابن اسحق المعتمد لدى ابن كثير[١٠٧] وفي الكثير من تسلسلاته لدى الديار بكري[١٠٨].

---

[١٠٢] راجع تفصيلات الموضوع لدى كل من، الطبري، التاريخ، جـ٣، ص١٦١، وكذلك ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٥، ص٣٠٠.

[١٠٣] ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٤٠.

[١٠٤] اليعقوبي، التاريخ، جـ٢، ص٨٤.

[١٠٥] ابي عبيدة، المصدر السابق، ص٢٧.

[١٠٦] ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٣٨-٢٥٠.

[١٠٧] ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٥، ص٣٠٠.

[١٠٨] الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤١٦ فصاعداً.

وحفصة هي بنت عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن عبد الله من بني كعب بن لؤي[١٠٩]. وأمها زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح[١١٠]، كانت متزوجة من خنيس بن حذافة بن قيس من بني سهم[١١١]، مات عنها بعد معركة بدر فتزوجها رسول الله سنة ثلاثة هجرية قبل معركة أحد بشهرين[١١٢].

ولزواجه (صلى الله عليه وآله وسلم) منها قصة: مفادها أن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) والد السيدة حفصة لما توفي زوجها عرضها على الخليفة أبو بكر (رض) فلم يجبه وعرضها على الخليفة عثمان بن عفان (رض) وكانت زوجته رقية بنت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قد توفيت وأراد بذلك عمر أن يعوضه عن زوجته فلم يجبه ايضاً فأشتكى الخليفة عمر (رض) الى الرسول الكريم مما بدر من كل من أبي بكر وعثمان فأجابه الرسول بأنه سيتزوجها وسيزوج ابنته أم كلثوم الى عثمان عوضاً عن زوجته حين قال مقولته الشهيرة "ستتزوج حفصة من هو خيرٌ من عثمان وسيتزوج عثمان من هي خيرٌ من حفصة"[١١٣]. وذلك ليدخل الفرحة الى قلب الخليفتين لحبه لهما، تعلق السيدة الخرساني على زواج الرسول من حفصة قائلة: تألم عمر بن الخطاب (رض) من ترمل ابنته الشابة، ففكر في اختيار زوج يليق بمركز ابيها وذلك بعد ستة اشهر من الحداد فوقع اختياره على أبي بكر فعرض عليه الأمر لكن أبا بكر أمسك

---

[١٠٩] ابن حزم، المصدر السابق، ص١٥٢.

[١١٠] ابن حبيب، المصدر السابق، ص٨٣، وانظر ايضاً: البلاذري، المصدر السابق، ص٤٢٢.

[١١١] المسعودي، التنبيه والأشراف، ص٢١٠.

[١١٢] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٢٢.

[١١٣] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٢٣. ابن الأثير، أسد الغابة، المصدر السابق، ص٦٥. الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤١٦.

ولم يجب فحزن عمر وذهب الى عثمان وكانت زوجته رقية بنت الرسول قد ماتت، فلم يجبه ايضاً، فلم يجد نفسه إلا وهو أمام الرسول يشكو له الامر وهو في غاية الحزن والألم فأجابه الرسول "يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة" وهنا فهم عمر مقصد الرسول فشكره على الشرف الذي منحه اياه فخرج الى المدينة يزف اليها بشرى الخطبة فيبارك الناس هذا الزواج وباركوا يد الرسول وهي تمتد لتكرم عمر بن الخطاب وتأسو جراح ابنته حفصة(١١٤).

دخلت السيدة حفصة (رض) الى بيت الزوجية كواحدة من نساء الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) وسنها عشرون عاماً(١١٥) فوجدت أمامها اثنتين من النساء ضرات لها احداهن أكبر منها سناً وهي امرأة كبيرة ناضجة، في العقد الخامس من عمرها تلك هي السيدة سودة بنت زمعة (رض) والأخرى أصغر منها سناً لكنها أكثر منها جمالاً وحيوية ونشاطاً تلك هي السيدة عائشة (رض). لم تكن حفصة لتتمتع بما يجعلها في موقع مؤثر في قيادة أحداث البيت النبوي لذلك انطوت تحت تأثير عائشة واصبح الطرفان يشكلان ثنائياً اثر في مجرى الأحداث واستطاع ان يستقطب أخريات من نساء الرسول اليهن كسودة بنت زمعة وصفية بنت الأخطب تحت قيادة السيدة عائشة(١١٦) التي استطاعت أن تؤثر على تحركات حفصة ونشاطاتها وهذا الأمر كان مصدر ازعاج بالنسبة للخليفة عمر بن الخطاب (رض) الذي كان قلقاً على مصير ابنته

---

(١١٤) الخرساني، المصدر السابق، ص١٣٤ وانظر: في ذات السياق آراء كل من العقاد، عبقرية محمد، المصدر السابق، ص١١٠، وطلس، المصدر السابق، جـ٢، ص١٩٣، السعيدي، المصدر السابق، ص٢٥٩، وايضاً الحيالي، المصدر السابق، ص٢٢٩.

(١١٥) السعيدي، المصدر السابق، ص٢٢٩.

(١١٦) انظر: طلس، المصدر السابق، جـ٢، ص١٨٧.

وهي في بيت النبي اذ كان يعلم ان الرسول تزوجها حباً به هو لذلك كان حريصاً على أن يكون سلوكها حسن لغرض ادامة العلاقة مع الرسول[١١٧]. فكان يقول لها دائماً "لا تراجعي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنه ليس لك جمال زينب ولا حظوة عائشة"[١١٨]، وحِلفُ عائشة وحفصة (رضي الله عنهما) ورد في أحاديث عديدة نقلها البلاذري عن السيدة عائشة ومن تلك الأحاديث ما روته من قصة العسل حين قالت: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، قالت: فتواطئت أنا وحفصة أيتنا ما دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم أن تقول له: اني لأجد منك ريح مغافير) وهي رائحة كريهة كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يكره أن يوجد منه رائحة كريهة فحرم العسل على نفسه[١١٩]، فأنزل الله (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[١٢٠]. ثم أدان تعالى الحلف أعلاه بقوله (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)[١٢١].

---

[١١٧] انظر: تفاصيل الموضوع في مسند الامام أحمد بن حنبل، تفسير سورة التحريم، ابن حنبل، المصدر السابق، جـ١٨، ص٣١٢.

[١١٨] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٢٧، تعلق الخرساني على متابعة عمر بن الخطاب (رض) لابنته حفصة فتقول: وكان عمر يراقب موقف ابنته بشيء من القلق، حيث كان يريبه التقارب الحاصل بينها وبين عائشة فجاء اليها يوماً فقال: أين أنت من عائشة وأين أبوك من ابيها، وسمع من زوجته ان ابنته تراجع رسول الله فغضب وجاء لها فزجرها قائلاً: تعلمين أني احذرك عقوبة الله وغضب رسوله، يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب الرسول لها، ولله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا انا لطلقك، المصدر السابق، ص١٣٥.

[١١٩] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٢٧.

[١٢٠] التحريم/١.

[١٢١] التدريم/٤.

يقول البلاذري، وان تظاهرا عليه يعني عائشة وحفصة أما صالح المؤمنين، فعن ابن عباس قوله المراد بهم أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما) لوقوفهما الى جانبه ضد ابنتيهما[١٢٢].

بقي حلف عائشة وحفصة (رض) قائماً حتى بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث كادت حفصة أن تشترك مع عائشة في موقعة الجمل عندما قالت: ان رأيي لرأي عائشة تبع وأرادت أن تخرج الى البصرة فحال أخوها عبد الله بن عمر دون ذلك[١٢٣].

روت السيدة حفصة عن الرسول ستين حديثاً أفرد لها مسلم في صحيحه ستة أحاديث والباقية متوزعة في كتب الحديث، والمتفق عليها منها أربعة أحاديث فقط[١٢٤].

وكانت السيدة حفصة بليغة في خطبها وقد قدم لها ابن طيفور خطبة في كتابه وعدها من النساء البليغات[١٢٥]، وقد ذكرها ايضاً ابو نعيم في حلية الأولياء[١٢٦] ما اشتهرت به السيدة حفصة انها اختيرت من بين أمهات المؤمنين لتحفظ النسخة الخطية للقرآن الكريم التي أمر بجمعها أبو بكر اثناء خلافته والتي أخذها بعد ذلك الخليفة عثمان بن عفان (رض) اثناء خلافته ونسخ منها النسخ الأربعة التي وزعت على الأمصار[١٢٧].

---

(١٢٢) البلاذري، المصدر السابق، ص٤٢٤. النووي، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٨٦. الصابوني، المصدر السابق، جـ٣، ص٤٠٨.

(١٢٣) الخرساني، المصدر السابق، ص١٣٤.

(١٢٤) الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤١٦.

(١٢٥) ابن طيفور، المصدر السابق، ص٤٠.

(١٢٦) ابو نعيم، احمد بن عبد الله الأصبهاني، (ت، ٤٣٠ هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مجـ٢، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٣٣م، ص٥٠.

(١٢٧) الخرساني، المصدر السابق، ص١٣٥.

وبعد وفاة الرسول تفرغت السيدة حفصة للعبادة وكانت صوامة قوامة حتى ماتت في مطلع العقد الخامس الهجري وبالتحديد في سنة احدى وأربعين ويقال خمس وأربعين[١٢٨].

ثم تزوج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) السيدة زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف[١٢٩]، وكانت قبله عند طفيل بن الحارث ابن عم النبي ثم خلف عليها أخوه عبيدة بن الحارث فأهداها للنبي[١٣٠] فتزوجها ويقال أن الزواج كان شكلياً[١٣١]. وكانت تسمى (رضي الله عنها) بأم المساكين نظراً لطيبتها وتصدقها على الفقراء، وكانت فرحة بكرم الرسول وزواجه منها، إلا أنها توفيت في حياته (صلى الله عليه آله وسلم) وذلك بعد زواجها باشهر فقط[١٣٢].

ثم تزوج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أم حبيبة بنت ابي سفيان ولزواجه منها قصة، حيث كان زوجها عبيد الله بن جحش قد أسلم وهاجر الطرفان الى الحبشة، ثم تنصر بعد ذلك هناك وبقيت هي على اسلامها، واعتزازاً من الرسول الكريم بموقفها هذا أرسل الى النجاشي رسالتين أحدهما يدعوه فيها للاسلام، والأخرى يأمره أن يخطب عليه أم حبيبة، يقول البلاذري فاسلم النجاشي لما عرف من أمر رسول الله وصفته وأوان مبعثه، ووجه الى أم حبيبة جارية له لتبشرها بالموضوع فوهبت لها أم حبيبة حلياً كانت

---

[١٢٨] ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ص٥٢.

[١٢٩] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٢٩.

[١٣٠] ابن حبيب، المصدر السابق، ص٨٣.

[١٣١] الخرساني، المصدر السابق، ص١٣٦.

[١٣٢] الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤١٧.

عليها وكستها، فتزوجها الرسول وأمهرها عنه النجاشي اربعمائة دينار[١٣٣]، وعن ابن عباس قوله في تفسير الآية الكريمة (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً)[١٣٤] انها نزلت بعد زواج الرسول من أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب[١٣٥]. توفيت السيدة أم حبيبة في سنة أربع وأربعين هجرية[١٣٦].

واستناداً لتسلسل زوجات الرسول لدى ابن اسحق فان الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) تزوج بعد أم حبيبة، السيدة أم سلمة. وهي هند بنت حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم[١٣٧]، وامها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن كنانة[١٣٨]. اذ كانت قبله تحت أبي سلمى عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم تزوجها وهي بكر فولدت له سلمة، عمر، ودره، وزينب[١٣٩]. هاجر أبو سلمة وأم سلمة الى أرض الحبشة ثم قدما المدينة فأصابت أبا سلمة جراحه بمعركة أحد فمات بها[١٤٠]. يقول البلاذري: رمي بسهم رماه به ابو أسامة الجشمي فانتقض عليه فمات منه في جمادي الآخرة سنة أربعة[١٤١].

---

[١٣٣] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٣٩.

[١٣٤] المتحنة/ من الآية ٧.

[١٣٥] ابن حبيب، المصدر السابق، ص٨٨. وانظر ايضاً، االبلاذري، المصدر السابق، ص٤٣٩.

[١٣٦] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٤٠.

[١٣٧] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٢٩.

[١٣٨] المصدر نفسه.

[١٣٩] ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٤٢.

[١٤٠] المصدر نفسه.

[١٤١] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٢٩.

تتحدث أم سلمة عن أبي سلمة وقد كانت تحبه حباً شديداً، فتقول: سمعت رسول الله يقول، عندما يصاب المؤمن بمصيبة عليه أن يقول "اللهم أعطني أجر مصيبتي وأخلف علي خيراً منها" فقلت ذلك عندما توفي أبو سلمة، ثم قلت من لي مثل أبو سلمة، فاخلف الله علي خيراً من أبي سلمة[١٤٢].

وأم سلمة، أمرأة صادقة مع القريبين منها والبعيدين، وقد كانت امرأة غيورة كما قالت هي لرسول الله عندما خطبها[١٤٣]. قد اتفقت مع أبا سلمة يوماً وهي تحبه كما أشرت، على الوفاء والاخلاص بينهما في الدنيا والآخرة. فقالت له: بلغني انه ليس من امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة ثم لم تتزوج بعده إلا جمع الله بينهما في الجنة وذلك الرجل اذا ماتت زوجته وهي من أهل الجنة ولم يتزوج بعدها فيجمعه الله بها في الجنة، فتعال أعاهدك ألا تتزوج بعدي ولا أتزوج بعدك، فقال لها أتطيعينني يا أم سلمة، فقالت: ما استأمرتك إلا وأنا أريد اطاعتك، فقال لها: اذا مت فتزوجي، ثم دعا قائلاً: اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني لا يحزنها ولا يؤذيها[١٤٤]

وفي رواية أن أم سلمة هي بنت عمة النبي وأمها هي عاتكة بنت عبد المطلب أما عاتكة بنت عامر الوارد ذكرها أعلاه فهي جدة أم سلمة لأمها[١٤٥]، لذلك وبناء على حسن اسلامها وكونها هاجرت الهجرتين* وأماً لأربعة صبيان أراد الرسول ضمها الى نساءه

---

[١٤٢] المصدر نفسه، ص٤٣١.

[١٤٣] ابن حبيب، المصدر السابق، ص٨٤.

[١٤٤] السعيدي، المصدر السابق، ص٢٢٢.

[١٤٥] انظر: السعيدي، المصدر السابق، ص٢١٥.

* يروي ابن هشام في السيرة النبوية الصعوبات التي واجهتها أم سلمة في هجرتها الى المدينة فيقول: قال ابن اسحق: حدثني أبي إسحق بن يساره عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة، عن جدته أم=

فضلاً عن مواصفاتها الرائعة التي كان لها هي الأخرى أثراً في زواج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من أم سلمة.

على الرغم من أن البلاذري يؤكد بأن ام سلمة كانت حين تزوجها الرسول مسنة اذ ينقل رواية على لسانها (رضي الله عنه) حين قالت لرسول النبي اليها وهو عمر بن الخطاب (رض) حين أرسله لخطبتها، اني مسنة فقال لها الرسول وأنا اسنُ منك،

=سلمة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، قالت (لما أجمع أبو سلمة الخروج الى المدينة رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قاموا اليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام تتركك تسير بها البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الاسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا لبني سلمة بينهم، حتى خلعوا يده، وأطلق به بنو عبد الاسد، حبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة الى المدينة. قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين أبني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فاجلس بالأبطح، فما أزال أبكي، حتى أمسى سنة أو قريباً منها، حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قالت: فقالوا لي: ألحقي بزوجك ان شئت. قالت: وردّ بنو عبد الأسد اليّ عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني، فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت وما معي أحد من خلق الله. قالت فقلت: أتبلغ بمن لقيت، حتى أقدم على زوجي، حتى اذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن ابي طلحة، أخا بني عبد الدار، فقال لي: الى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أوما معك أحد؟ قالت: قلت: لا والله، إلا الله وبني هذا. قال: والله مالك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فأنطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط، أرى أنه أكرم منه، كان اذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى اذا نزلت استأخرت بعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى (عني) الى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا أردنا الرواح، قام الى بعيري، فقدمه مرحلة، ثم استأخر عني، وقال: أركبي فاذا ركبت واستويت على بعيري، أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة. فلما نظر الى قرية بني عمر بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية .. وكان أبو سلمة بها نازلاً - فأدخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً الى مكة. قال فكانت تقول ما أعلم أهل بيت في الاسلام اصابهم ما أصاب آل أبي سلمة)، ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص٤٦٩ وورد نص الحديث ايضاً في ترجمة السيدة أم سلمة لدى ابن الأثير، أسد الغابة المصدر السابق، ص٣٤١، واكب الطبري، المصدر السابق، ص٧١.

فقالت فأني مصبية (صاحبة صبيان) فقال: همْ في عيال الله ورسوله قالت: فأني غيور، فقال انا أدعو الله عز وجل أن يذهب عنك الغيرة، فدعا لها، ثم تزوجها(١٤٦).

الا أني أرى أن أم سلمة لم تكن مسنة أبداً بل كانت أكبر سناً من حفصة وعائشة وكانت أماً لأربعة أطفال*. أما من ناحية العمر فعلى الرغم من أن مصادر التاريخ لم تتطرق الى زمن ولادتها، إلا أن بعضاً منها أكد أن عمرها رضي الله عنها يوم توفيت كان أربعة وثمانين(١٤٧).

وذلك سنة ستين للهجرة وهذا يعني أن عمرها يوم هاجرت الى المدينة كان أربعة وعشرين عاماً، واذا صحت رواية زواجها من الرسول بعد وقعة أحد وفي السنة الرابعة للهجرة فهذا يعني أن عمرها ليلة دخول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بها كان ثمانية وعشرين عاماً. وهو سن شبابي إلا أن مفردة مسنة هنا جاءت لكونها كانت مصبية فضلاً عن رجاحة عقلها وذكائها وشدة ايمانها. لذلك كانت تبدوا أكبر من سنها الحقيقي.

امتازت السيدة أم سلمة (رض) عن بقية نساء النبي الذي مات وهن في عهدته بأشياء عديدة ومنها ما يتعلق بمسألة الزواج وهذا ينسحب حتى على اللواتي توفين في حياته، فاذا صحت الرواية التي تقول أن السيدة خديجة (عليها السلام) هي التي أرسلت الى النبي وعرضت نفسها عليه، واذا صحت ايضاً رواية خولة بنت حكيم التي عرضت على الرسول الزواج بالسيدتين سودة وعائشة بعد وفاة السيدة خديجة كما نقلت ذلك

---

(١٤٦) البلاذري، المصدر السابق، ص٤٣١، وانظر ايضاً: الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٦٦.

* وهناك من يقول ثلاثة، انظر الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٦٧.

(١٤٧) الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٦٧. السعيدي، المصدر السابق، ص٢٢٥. وايضاً : طلس، المصدر السابق، جـ٢، ص١٩٠.

مصادر التاريخ كما أشرنا، واذا صحت رواية زواج الرسول من السيدة حفصة بعد أن عرضها أبوها على أبي بكر وعثمان (رض) ثم شكواه للرسول بخصوص ذلك مما جعله (صلى الله عليه وآله وسلم) يتقدم لخطبتها اعتزازاً بأبيها، فأن أم سلمة امتازت عنهن بأن الرسول هو الذي خطبها وأرسل اليها المراسيل وعندما اعتذرت بأطفالها وكبرَ سنها وغيرتها كأنثى عالج كل تلك الأسباب مما جعلها تطمئن فتزوجها والظاهر أن الرسول كان له بزواجه من أم سلمة فضلاً عن الجانب الانساني واعتزازه بأثرها كامرأة مؤمنة صابرت وهاجرت وعانت ماعانت من الآلام والصعوبات أسباب أخرى لعل أهمها أنه رأى فيها امرأة ناضجة، ذكية، نبيلة، جليلة، وفاضلة[148]، فضلاً عن كونها كانت من أجمل النساء[149]، لذلك أراد أن يحقق بعملية الزواج منها حالة من التوازن في داخل البيت النبوي وهذا واحد من دوافع تعدد الزوجات بشكل عام[150]، اذ كان البيت النبوي آنذاك تتسيده السيدة عائشة (رض) نظراً لموقعها فيه، اذ دخلته وهي بكر وضرتها امرأة عجوز ونظراً لعدم استطاعة السيدة حفصة من تحقيق تلك الحالة بعد خروجها من دائرة التنافس مبكراً وانضوائها تحت لواء السيدة عائشة وكذلك بالنسبة للسيدة أم حبيبة، فضلاً عما كانت تتمتع به السيدة عائشة من جمال كان بالنسبة لها واحداً من أهم ما تتميز به من خصائص يدعمه الى حد بعيد صغر سنها وكونها كانت بكراً والرسول زوجها الأول، لذلك كان دخول امرأة قوية الشخصية، ذكية وتتمتع بمواصفات

---

[148] طلس، المصدر السابق، جـ٢، ص١٩٠.

[149] المصدر نفسه.

[150] جاء في السمط الثمين، عن السيدة عائشة (رض) قولها: ان نساء النبي كنّ حزبين، حزب بقيادة عائشة وفيه حفصة وصفية وسودة، وحزب ثاني بقيادة أم سلمة وفيه بقية نساء النبي. محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص٣٣.

المرأة المثالية فضلاً عن الجمال الذي كان واحداً من صفات السيدة أم سلمة*. كل ذلك وغيره أحدث حالة من التوازن بالعلاقة الاجتماعية بين النبي ونساءه.

تحدثت هند بنت الحارث عن موقع أم سلمة وأهميتها في حياة النبي بالقول: كان النبي يقول ان لعائشة مني شعبة ما نزلها أحد، فلما تزوج أم سلمة سئل عن الشعبة، فسكت فعرف أن أم سلمة قد نزلت عنده بمنزلة لطيفة(١٥١).

وفي عودة الى ما طرحته السيدة أم سلمة على الرسول ليلة خطبته لها من انها مصبية وغيورة فأنها أرادت بذلك أن تضع الرسول في الصورة عله يساعدها على توفير بيئة ملائمة تستطيع من خلالها أن تقوم بواجباتها تجاهه كرسول عظيم له من المهام ما هو جسيم وكبير وذلك من خلال تفهمه لوضعها، وبالفعل فان ما كان يتعلق بأبنائها فانهم كانوا تحت رعاية زوج أم في حنانه ورعايته ودوره التربوي أكثر من والد وأكثر من مربي حتى ان ابنتها دره التي أسماها الرسول زينب(١٥٢) وهي أصغر بناتها، فقد روي عنها قولها: كانت أمي أذا دخل رسول الله يغتسل وأنا صغيرة تقول أدخلي عليه فكنت أدخل فينضح في وجهي الماء ويقول ارجعي، فيقول من رآها لا زال ماء الشباب في وجهها حتى كبرت وعجّزت ولم ينقص من وجهها شيء وكانت من أفقه نساء زمانها(١٥٣). أما سلمة فقد زوجه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أميمة بنت الحمزة

---

* ينقل البلاذري في أنساب الأشراف بسنده عن السيدة عائشة قلها: (لما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم سلمة حزنت حزناً شديداً لما ذكر لنا من جمالها. فتلطفت حتى رأيتها فكان في عيني على اضعاف ما وصفت لنا فذكرت ذلك لحفصة وكنا يداً واحدة، فقالت: لا والله ان هذا إلا غيرة). المصدر السابق، ص٤٣١، وانظر ايضاً: الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٦٧.

(١٥١) البلاذري، المصدر السابق، ص٤٣٢، وانظر ايضاً: الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٦٧.

(١٥٢) الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٦٧.

(١٥٣) ابن الأثير، أسد الغابة، المصدر السابق، ص١٣٣. الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٦٧.

بن عبد المطلب (رضي الله عنه) وبالنسبة الى عمر فقد تربى في بيت النبوة وشب على الوفاء والاخلاص لآل الرسول حتى كان قائداً في جيش الامام علي في معركة الجمل ثم عينه الامام (عليه السلام) والياً على البحرين وفارس[١٥٤]. هذا ما يتعلق بكونها صاحبة صبيان، أما ما يتعلق بالغيرة وهي الفقرة الأكثر تماساً بتفاصيل العلاقة الاسرية بينها وبين الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من جهة وفي العلاقة الاجتماعية والاسرية بينها وبين ضراتها أمهات المؤمنين الباقيات من جهة أخرى فأن السيدة أم سلمة قد ذهبت عنها الغيرة التي غالباً ما تفسد العلاقة بين المرأة وزوجها اثر دعوة الرسول لها، فقد جاء في السمط الثمين (وكانت أم سلمة في النساء كأنها لم تكن فيهن لا تجد ما يجدن من الغيرة)[١٥٥].

وبهذا تكون أم سلمة (رض) بذكائها وفطنتها ورغبتها بأن تكون زوجة مؤدية لواجباتها الزوجية ومتفاعلة مع الأحداث بطريقة هادئة استطاعت أن تحقق ما ترغب. بصراحتها مع الرسول منذ البدء فكان لها ما أرادت حيث ذهبت عنها الغيرة وهدأ بالها وتنعم حالها فضلاً عن كونها كانت ذات عقل وكمال وفهم وحزم وعزم وحلم ورأي ومشورة[١٥٦]، يقول الحنبلي "كان أزواج النبي يتحاكمن اليها لعلمهن ببرائتها من الغيرة وهي صاحبة المشورة المباركة يوم الحديبية"[١٥٧]، ومشورة الحديبية تطرقت لها مصادر التاريخ وأساسها هو أن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، عندما توجه في غزوة الحديبية

---

[١٥٤] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٣٠. الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٦٧ وانظر ايضاً: الخرساني، المصدر السابق، ص١٣٨.

[١٥٥] محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص٧٣ وانظر ايضاً: الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٦٦.

[١٥٦] السعيدي، المصدر السابق، ص٢٢٣.٦

[١٥٧] ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، جـ١، ص٧٠.

وعاد منها دون أن يحج بعد أن عقد صلحاً مع قريش وفق عدة شروط ومنها عودته الى مكة في العام القادم وبعد ان عاد الى المدينة أمر اصحابه أن ينحروا ويحلقوا فلم يتمثلوا الى أمره وقد كرر ذلك عليهم ثلاثاً، فغضب الرسول وعاد الى بيته وفرّغ شكواه وهمه الى أم سلمة فبادرته بقلب طيب وعقل وهاج ورأي من امرأة محبة تهمها مصلحة الدين والمسلمين فأجابت زوجها وحبيبها ذلك الرسول العظيم وهي تخفف عنه اله وحزنه وغضبه فقالت: يا نبي اله أخرج ولا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بدنك وتحلق شعرك فأنهم تابعوك، فقام وفعل ذلك كله فلما رأوه قاموا ايضاً فنحروا وحلقوا حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً[(١٥٨)]. كانت أم المؤمنين السيدة أم سلمة (رض) تعلم جيداً وبفطرة المرأة الذكية الجادة في علاقاتها ونظرتها للأمور بأن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يحب أهل بيته[(١٥٩)] حباً جماً وتعلم جيداً أن أهل بيت النبي هم عليٌ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وقد نزلت آية التطهير في بيتها[(١٦٠)] ورأت المشهد بأم عينيها لذلك عقدت العزم على أن تتعامل مع هذا الموضوع بجدية فحبت

[(١٥٨)] الطبري، التاريخ، جـ٢، أحداث سنة ست هجرية. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص١٤٢. المحب الطبري، المصدر السابق، ص٧٧.. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٤، ص. الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٦٦. السعيدي، المصدر السابق، ص٢٢٣.

[(١٥٩)] ورد عن أم المؤمنين عائشة (رض) انها سُئلت من كان أحب الناس الى رسول الله فقالت فاطمة وزوجها، ابن الأثير، اسد الغابة، ص٢٢٣، وانظر ايضاً: ترجمة السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام)، في تاريخ الخميس، الديار بكري، جـ١، ص٢٧٧.

[(١٦٠)] نقل الترمذي في صحيحه بسنده عن عمر بن أم سلمة، قوله نزلت آية التطهير (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) في بيت أم سلمة، فدعا النبي، فاطمة والحسن والحسين وجعلهم بكساء وعلي خلف ظهره وقال اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، الترمذي، أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سوره، (ت، ٢٧٩هـ)، سنن الترمذي، وهو الجامع الصحيح، تحقيق عبد الرحمن محمد، جـ٥، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ص٣٢٨، باب مناقب أهل البيت.

السيدة فاطمة الزهراء حباً كبيراً واعتزت بالإمام علي اعتزازاً كبيراً هو الآخر وعطفت على الحسن والحسين واعتبرتهما ابنيها* لذلك خصها الرسول بسر دون غيرها بعد أن رأت جبرائيل وهو يحدث الرسول عن مصير الحسين وكيف يقتل؟ ومن الذي يقتله؟ وبعد أن أعطاها عينة التراب الذي جاء به جبرائيل من أرض كربلاء وأوصاها أن تحتفظ به لحين استشهاده[١٦١].

وبالفعل فقد امتد بها العمر حتى ذلك الحين وعندما وردها الخبر قالت "أوقد فعلوها ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً ثم بكت حتى غشي عليها"[١٦٢]. يقول الذهبي: عمّرت أم سلمة طويلاً حتى بلغها مقتل الحسين فوجمت لذلك وغشي عليها وحزنت عليه كثيراً ولم تلبث بعده إلا يسيراً وانتقلت الى رحمة الله[١٦٣].

وفي خضم الأحداث السياسية التي مرت على الأمة الاسلامية أثر مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض) كان لأم سلمة موقفٌ منسجم تماماً مع توجهاتها التي شذبتها وركزتها وأعطتها بُعداً نبيلاً علاقتها الحميمة مع الرسول في حياته الكريمة ومع آل بيته

* جاء في كتاب نساء النبي وأولاده ما يلي: كانت أم سلمة محبة لعلي وفاطمة وأولادهما ومن الممرضات لفاطمة عليها السلام حتى ماتت ولم تزل في ولائها لأولاد فاطمة حتى توفاها الله بعد استشهاد الامام الحسين عليه السلام. ولما عزم الامام الحسين على الخروج جاءته وقالت: يا بنيَّ لا تفجعني بخروجك الى العراق فاني سمعت جدك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: يقتل ولدي الحسين بأرض يقال لها كربلاء من أرض العراق. السعيدي، المصدر السابق، ص٢٢٠.

[١٦١] انظر: ترجمة الامام الحسين في نور الأبصار للشبلنجي، الشيخ مؤمن بن حسن، (من علماء القرن الثالث عشر الهجري)، نور الابصار في مناقب آل النبي المختار (صلى الله عليه وسلم)، دار الجبل، بيروت ١٩٨٩م، ص٢٥٤، وانظر، سعادة، المصدر السابق، ص١٥٤.

[١٦٢] سبط ابن الجوزي، يوسف بن فرغلي البغدادي، (ت، ٦٥٤هـ)، تذكرة الخواص، تقديم العلامة محمد صادق بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ص٢٦٧.

[١٦٣] الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت، ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنوط وآخرون، جـ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١م، ص٢٠٢.

الكرام سواء في حياته الشريفة أو بعد مماته، فبعد أن أصبح الأمر واضحاً لها بخصوص عزم السيدة عائشة أم المؤمنين (رض) على الخروج والمطالبة بدم عثمان والوقوف بوجه الخليفة الجديد الذي بايعته الناس وهو الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) جاءت اليها وحدثتها قائلة "انك سدة بين محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبين أمته، وحجابك مضروب على حرمته، قد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه، وسكّن عقيرتك فلا تصحريها،الله من وراء هذه الأمة. لو قد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانك أو أن يعهد اليك عهداً عُلّت، عُلّت، بل قد نهاك عن الفرطة في البلاد. ان عمود الدين لا يثبت بالنساء ان مال، ولا يرأب بهن ان انصدع، حماديات النساء غض الأطراف وضم الذيول. ما كنت قائلة لو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عارضك بعد القلوات ناصعة قلوصاً، من منهل الى آخر، ان بعين الله مهواك، وعلى رسوله تردين، وقد وجهت سدافته، وتركت عهيداه. لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لي: ادخلي الفردوس، لأ ستحيت أن ألقى محمداً صلى الله عليه وسلم هاتكة حجاباً، وقد ضربه عليَّ، اجعلي حصنك بيتك، ووقاعة الستر قبرك، حتى تلقيه وأنت على تلك أطوع ما تكونين لله بالرقبة، وانصر ما تكونين للدين ما حلت عنه. لو ذكرتك قولاً تعرفينه لنهشت به نهش الرقشاء المطرقة"[١٦٤]. وبعد

---

[١٦٤] ابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم، (ت، ٢٧٦هـ)، الامامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، جـ١، ط٣، مصر ١٩٦٣م، ص٥٦.وانظر ايضاً: ابن أبي الحديد، المصدر السابق، مجـ٢، ص٤١١، والقول الذي تقصده أم سلمة نقله السعيدي في نساء الأنبياء ومفاده أن أم سلمة ذكرت عائشة وهي تحاول ثنيها عن التوجه الى البصرة بقول للرسول (صلى الله عليه وسلم) فقالت لها: اذكرك ايضاً اذ كنتُ انا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أنت تغسلين رأسه وأنا أحيس له حيساً، وكان الحيس يعجبه، فرفع رأسه وقال: يا ليت شعري ايتكن صاحبة الجمل الأذنب فتنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة على الصراط فرفعت يدي من الحيس فقلت: أعوذ بالله ورسوله من ذلك، ثم ضرب على ظهرك وقال اياك أن تكونيها، ثم قال يا ابنة أبي أمية اياك أن تكونيها، وقال يا حميراء، أما انا فقد أنذرتك. قالت عائشة نعم أذكر هذا، السعيدي، المصدر السابق، ص٢٢٠.

أن أنهت كلامها أجابتها السيدة عائشة قائلة: "ما أقبلني لوعظك، وأعلمني بنصحك وليس مسيري كما تظنين، ولنعم المطلع مطلع فزعت فيه الي فئتان متناجزتان، فأن اقدر ففي غير حرج وان أخرج فالى ما لا بد اليّ من الازدياد منه"[١٦٥]. ولما عجزت عن اقناعها بالعدول عما نوت عليه، كتبت للامام علي كتاباً جاء فيه أما بعد "فأن طلحة والزبير واشياعهما .. يريدون أن يخرجوا بعائشة الى البصرة ومعهم عبد الله بن عامر بن كريز، ويذكرون أن عثمان قتل مظلوماً، وأنهم يطلبون بدمه والله كافيهم بحوله وقوته ولولا ما نهانا الله عنه من الخروج، وأمرنا به من لزوم البيوت لم أدع الخروج اليك والنصرة لك، ولكني باعثة نحوك ابني عدل نفسي عمر بن أبي سلمة فاستوصي به يا أمير المؤمنين خيراً"[١٦٦]. يقول البلاذري: شهد عمر بن أبي سلمة معركة الجمل مع الامام علي (عليه السلام) بعثت به أمه وقالت "قد دفعته اليك وهو أعز عليّ من نفسي، فليشهد مشاهدك حتى يقضي الله ما هو قاض، فلولا مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لخرجت معك كما خرجت عائشة مع طلحة والزبير"[١٦٧].

وكما أسلفنا فأن السيدة أم سلمة كانت من السيدات الفاضلات العالمات جليلة القدر[١٦٨] ذكية راوية للحديث فقد جاء عن محمود بن لبيد قوله "كأن ازواج النبي صلى

---

[١٦٥] ابن قتيبة، المصدر السابق، ص٥٧. وانظر ايضاً: ابن أبي الحديد، المصدر السابق، مجـ١، ص٤١١ يعلق السيد عبد الله عفيف في كتابه المرأة العربية في جاهليتها واسلامها على رد السيدة عائشة على كلام السيدة أم سلمة بقوله: انظر الى حسن وصف السيدة عائشة لموقفها وتبين قولها "وان امض فالى ما لا غنى بي عن الازدياد منه" تراها على امتلاء حجة صاحبتها وقوتها، لا تنثني عن داعية قلبها، ولا تتراجع عما رأت الخير فيه وعقدت العزم عليه، عفيف، المصدر السابق، جـ٢، ص٨١.

[١٦٦] ابن أبي الحديد، المصدر السابق، مجـ٢، ص٤١٠.

[١٦٧] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٣٠.

[١٦٨] طلس، المصدر السابق، جـ٢، ص١٩٠.

الله عليه وسلم حفظن من حديث النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ولا بمثل عائشة وأم سلمة"[١٦٩].

وعلى الرغم من أن ابا نعيم لم يفرد لها مجالاً على صفحات كتابه "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" كما فعل لأمهات المؤمنين عائشة، وحفصة، وزينب بنت جحش، وصفية رضي الله عنهن، مع باقة أخرى من الصحابيات الجليلات، إلا أن أم سلمة كانت مكثرة من رواية الحديث وهي تأتي بالمرتبة الثانية بعد السيدة عائشة. اذ آن لها من المرويات ثلاثمائة وثمانية وسبعين حديثاً، المتفق عليه منها ثلاثة عشر، أفرد لها البخاري ثلاثة ومسلم ثلاثة عشر والباقيات في سائر كتب الحديث[١٧٠].

توفيت السيدة الجليلة أم المؤمنين، أم سلمة (رض) على أصح الروايات نهاية عام ٦١ هـ بعد استشهاد الامام الحسين (عليه السلام) باشهر، ولها من العمر أربعة وثمانون عاماً[١٧١]. لتلتحق بالرفيق الأعلى بعد ان أدت دوراً تاريخياً كبيراً.

ثم تزوج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد ام سلمة، وبناء على تسلسل زوجاته الوارد ذكره والمأخوذ عن سيرة ابن اسحق، السيدة زينب بنت جحش (رض). ولزواجه من السيدة زينب قصة تطرق القرآن الكريم الى جوانب أساسية منها بدأها بزواج زينب من زيد بقوله تعالى (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)[١٧٢]. وزينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن سبرة من

---

[١٦٩] البلاذري، المصدر السابق، ص٤١٥.

[١٧٠] الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٦٧ وانظر ايضاً: السعيدي، المصدر السابق، ص٢٢٤.

[١٧١] محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص٧٨. الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٦٧. ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، جـ١، ص٧٠.

[١٧٢] الأحزاب / من الآية ٣٦.

بني أسد[١٧٣]. وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول. فهي اذن ابنة عمته وشقيقة عبد الله بن جحش ابن عمة النبي والذي كان من المسلمين الأوائل والمهاجرين الأوائل شهد بدراً واستشهد في أحد وكان من القادة الكبار في الاسلام[١٧٤]. وفي عودة الى الآية الكريمة (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ... الخ) تتحدث السيدة زينب بنت جحش عن سبب نزولها فتقول (خطبني عدة من قريش فأرسلت أختي حمنة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم استشيره فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم "أين هي ممن يعلمها كتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم؟" قالت ومن هو يا رسول الله؟ قال" "زيد بن حارثة" قالت فغضبت حمنة غضباً شديداً فقالت يا رسول الله أتزوج ابنة عمتك مولاك؟ قالت: وجاءتني فأعلمتني فغضبت اشد من غضبها فقلت أشد من قولها فأنزل الله عز وجل (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) الآية. قالت فأرسلت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت اني استغفر الله واطيع الله ورسوله افعل يا رسول الله ما رأيت، فزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً فكنت أزرأ عليه فشكاني الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاتبني رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم عدت فأخذته بلساني فشكاني الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أمسك عليك زوجك واتق الله". فقال أنا أطلقها قالت فطلقني فلما انقضت عدتي لم أعلم إلا ورسول الله صلى الله عليه

---

[١٧٣] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٣٣.

[١٧٤] ينظر: تفاصيل الموضوع في سرية عبد الله بن جحش (رض)، في السيرة الحلبية، الحلبي، علي بن برهان الدين الشافعي، (ت، ١١٤٤هـ)، انسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية، جـ٣، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٦٢م، ص١٧٥. وانظر ايضاً السعيدي، المصدر السابق، ص٢٣٥.

وسلم قد دخل عليّ بيتي وأنا مكشوفة الشعر فعلمت أنه أمر من السماء فقلت يا رسول الله بلا خطبة ولا إشهاد؟ فقال الله زوّج وجبريل الشاهد" [١٧٥].

هذه باختصار قصة زواج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالسيدة زينب بنت جحش (رض) وفي رأي ان لذلك حكمة جاءت من خلال ما يلي:

أ. السيدة زينب بنت جحش هي ابنة عمة النبي ومن بيت اعتنق أهله الاسلام مبكراً، وكان أخوها عبد الله بن جحش قائداً كبيراً في جيش المسلمين كما أسلفنا، لذلك رغب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بأن يكرمهم بالمصاهرة*، لكن الذي كان يحول دون ذلك هو أن زينب كانت تحت مولى الرسول، الصحابي زيد بن حارثة (رض)، لذلك كان الذي يشكل لدى الرسول رغبة خفية كان لدى الله تعالى امراً مقضيا أقره في كتابه المجيد وأمر رسوله بالالتزام به.

ب. كانت السيدة زينب بنت جحش تبعث للرسول تأخذ رأيه عند خطبتها من قبل الآخرين وهي في رأيي كانت ترغب باعتبارها ابنة عمته أن يشرفها بزواجه منها لكنه فاجأها برغبته بأن تكون تحت زيد بن حارثة -مولى الرسول- وكان يقال له ابن محمد كون الرسول قد تبناه منذ صغره، لذلك كان ردها قوياً لأن العربي آنذاك كان يستنكف الزواج من الموالي أو لا يقره اصلاً حتى جاء الاسلام فأجازه لذلك كان الأمر غريباً عليها بعض الشيء لعدم التعود عليه بسبب حداثة الاسلام. هذا من جهة

---

[١٧٥] أبو نعيم، المصدر السابق، مجـ٢، ص٥٢.

* يقول البلاذري، عندما توفيت السيدة زينب بنت جحش، أم المؤمنين (رض) سار في موكبها الخليفة عمر بن الخطاب، وقد حُملت على السرير الذي حُمل عليه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان من بين المشيعين أخوها أبو أحمد بن جحش وكان ضريراً، يحمل السرير بيده في طقس حار جداً فناداه عمر قائلاً: يا أبا أحمد تنح عن السرير لا يعنتك الناس، فأجابه قائلاً (يا عمر هذه التي نلنا بها الشرف وهذا مما يبرد حر ما أجد). البلاذري، المصدر السابق، ص٤٣٦.

ولغرض أن يصل الرد الى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يستنتج من خلاله رغبتها بالزواج منه هو شخصياً فيعدل عن رأيه ويتزوجها*.

ج. بسبب الايمان العميق لتلك المرأة العابدة الساجدة، استسلمت لارادة الله تعالى وأمر نبيه حال نزول الآية الكريمة اعلاه، فجاءت الى الرسول قائلة: "يا رسول الله أمري اليك فأصنع ما أحببت"[176] وبذلك أعلنت موافقتها على الزواج من زيد رغم عدم رغبتها به وحين لم تستطع التكيف معه أراد الله تعالى اكرامها كونها راغبة بالزواج من النبي أولاً وليبطل في ذلك جل في علاه حالة اجتماعية كانت سائدة وهي حالة التبني التي كان يُنسب فيها المتبنى على أنه ابنٌ للذي تبناه لا يحل لوليه زواج امرأته في حال طلاقها أو وفاته عنها ثانياً، وكما جاء في الذكر الحكيم (لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً)[177]، ومن هنا كان زواج زيد وطلاقه وزواج النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- واقعاً لا محالة والهدف اجتماعي انساني محض"[178].

يقول البلاذري، لما تزوج الرسول من زينب بنت جحش بعد طلاق زيد لها قال المنافقون محمد يحرم نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه فأنزل الله (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)[179].

---

* جاء عن عمر الناقد قوله: (قد أخبرتُ أن زينب لما بُشرت بتزويج الله نبيه إياها ونزول الآية في ذلك، جعلت على نفسها صوم شهرين شكراً لله، وأعطت من بشرها حلياً كان عليها). البلاذري، المصدر السابق، ص٤٣٦.

[176] أبي عبيدة، المصدر السابق، ص٣٢.

[177] الأحزاب / من الآية ٣٧.

[178] مغنية، محمد جواد، التفسير المبين، دار التعارف، بيروت، ١٩٧٠م، ص٤٨٤.

[179] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٦٩ والآية من الأحزاب / ورقمها ٤٠.

عاشت أم المؤمنين زينب بنت جحش (رض) في بيت النبوة مزهوة بما جاء في الذكر الحكيم من أمر زواجها بالرسول فكانت تعتز بذلك وتقول لضراتها أمهات المؤمنين، زوجكن آبائكن وزوجني الله من السماء وأطعم عليها خبزاً ولحماً[١٨٠].

كانت أم المؤمنين زينب بنت جحش (رض) ذات منزلة كبيرة عند الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقد روي عن السيدة عائشة أم المؤمنين (رض) قولها: كانت زينب بنت جحش تساويني من بين أزواج النبي في المنزلة عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولم أرَ امرأة خيراً في الدين وأتقى لله عز وجل منها[١٨١].

وفي رأي آخر للسيدة عائشة قالته بحق السيدة زينب بعد وفاتها: رحم الله زينب لقد نالت الشرف الذي لا يبلغه شرف في الدنيا، ان الله زوجها نبيه، ونطق بذلك كتابه، وأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال ونحن حوله: أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً. ثم بشرها بسرعة لحاقها به وأنها زوجته في الجنة[١٨٢].

وطول اليد هنا تعني كثرة الصدقات فقد روي عن السيدة عائشة ايضاً: ان الرسول عندما قال لنساءه أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً، أخذت نساءه (رضي الله عنهن) يتطاولن أيتهن اطول يداً من زميلتها، فلما توفيت زينب بنت جحش عرفن بأن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد بطول اليد كثرة الصدقة، حيث أن زينب كانت كثيرة الصدقة، تعمل بيدها وتتصدق في سبيل الله[١٨٣].

---

[١٨٠] أبي نعيم، المصدر السابق، مجـ٢، ص٥٢. ابن الأثير، أسد الغابة، المصدر السابق، ص١٢٦. محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص٨٨.

[١٨١] أبي نعيم، المصدر السابق، مجـ١، ص٥٣.

[١٨٢] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٣٥.

[١٨٣] ابن الأثير، أسد الغابة، ص١٢٦. محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص٩١.

عندما خصص الخليفة عمر بن الخطاب (رض) عطاءً لأمهات المؤمنين أرسل اليها اثني عشر ألف درهم فأخذتها ووزعتها على ذوي القربى من اليتامى والمحتاجين وقالت "اللهم لا يدركني عطاءً لعمر بن الخطاب بعد هذا" [١٨٤] وبالفعل فقد ماتت (رض) قبل أن يدركها العطاء القادم، يقول البلاذري: كانت السيدة زينب أول نساء النبي لحوقاً به، وحين حضرتها الوفاة قالت: اني هيأت كفني، ولعل عمر سيبعث لي بكفن، فأن فعل فتصدقوا بأحد الكفنين، فلما توفيت أرسل عمر خمسة أثواب يخيرها ثوباً ثوباً فكفنت فيها، وتصدقت أختها حمنة بنت جحش بالكفن الذي كانت قد أعدته لها[١٨٥].

كان تسلسل السيدة زينب بنت جحش (رض) في تعدد زوجات النبي لدى ابن اسحق هو التسلسل الثامن وهي تأتي بعد ام سلمة وقبل السيدة جويرية ابنة الحارث (رض) التي تزوجها الرسول بعد زينب بنت جحش. وجويرية هي بنت الحارث بن ابي ضرار المصطلقية من بني عمرو بن خزاعة[١٨٦]وكانت قبل الرسول تحت ابن عم لها يقال له بن ذي الشفر قتل يوم غزوة بني المصطلق كافراً[١٨٧]. كانت السيدة جويرية (رض) قد وقعت في الأسر في غزوة بني المصطلق، وكان أبوها الحارث بن ضرار سيد قومه، ولزواج الرسول منها روايتان، الأولى أنها سبيت وكانت في سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبته على نفسها، فجاءت الى الرسول تحكي له قصتها وكونها بنت سيد قومها، فقال لها: فهل لك الى ما هو خير لك؟ فقالت: ما هو يا رسول الله؟ قال: اؤدي عنك كتابك وأتزوجك، فقالت: قد فعلت فتزوجها الرسول ولما سمع الناس أعتقوا كل سبايا بني

---

[١٨٤] ابن الأثير، أسد الغابة، ص١٢٧.

[١٨٥] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٣٥.

[١٨٦] أبو عبيدة، المصدر السابق، ص٣٢.

[١٨٧] . أبن اسحق، المصدر السابق، ص٢٤٥.

المصطلق، والرواية الثانية تقول أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما انصرف من غزوة بني المصطلق[١٨٨] ومعه جويرية بنت الحارث، راجعاً الى المدينة، قدم أبو جويرية الحارث بن ضرار بفداء ابنته وهو في الطريق نظر الى الأبل التي جاء بها لفداء ابنته فأعجبته منهما بعيرين فغيبهما في شعب من الشعاب، ثم أتى النبي وقال: يا محمد اصبتم ابنتي وهذا فداءها فقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فأين البعيران اللذان غيبت بالعقيق في شعب كذا وكذا، فقال الحارث اشهد أن لا إله إلا الله واشهد ان محمداً رسول الله فوالله ما أطّلع على ذلك إلا الله فأسلم الحارث واسلم ابنان له وناس من قومه وأرسل الى البعيرين فجاء بهما ودفعت له ابنته فأسلمت وحسن اسلامها فخطبها النبي الى ابيها فزوجه اياها واصدقها اربعمائة درهم[١٨٩].

يعلق السيد الحيالي في كتابه تعدد الزوجات في الاسلام. عن زواج الرسول من السيدة جويرية قائلاً: وهنا رأى النبي أن يعبر عن انسانيته الكريمة مع بنت زعيم أعداءه فأعتقها أولاً، ثم رفع عنها ذل الوحدة وبعدها عرض عليها وسام الشرف الأعظم بأن تصبح من زوجاته أمهات المؤمنين، ثم يقول أي شرف هذا واي فضل، يقول فسارعت الى التلبية فكان لزواجها أثر مبارك على كل بني المصطلق الذين وقعوا في الأسر، حيث رأى المسلمون أن الأسرى في ايديهم قد اصبحوا اصهاراً للنبي لذلك سارعوا الى عتقهم، حيث أدرك الأسرى عظمة الاسلام وخلق نبيه فسارعوا الى اعتناقه اقتناعاً به واعترافاً بالجميل[١٩٠]. روت السيدة أم المؤمنين جويرية بنت الحارث (رض) عن الرسول سبعة

---

[١٨٨] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٤١.

[١٨٩] محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص١٠٠ وانظر ايضاً الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٧٥.

[١٩٠] الحيالي،المصدر السابق، ص٥٦.

أحاديث أخرج لها البخاري واحداً ومسلم اثنين والباقي في سائر الكتب[١٩١]، وتوفيت (رض) في سنة ٥٠ هـ[١٩٢] ويقال ٥٦ هـ[١٩٣].

وبعد جويرية بنت الحارث تزوج الرسول السيدة صفية بنت حيي بن أخطب[١٩٤] من بني النظير من بني هارون بن عمران (عليه السلام)[١٩٥] وكانت قبله عند كنانة بن أبي العقيق اليهودي فقتل يوم خيبر[١٩٦].

والسيدة صفية كالسيدة جويرية كانت من سبايا معركة خيبر وقعت في سهم الرسول هي وأختها فتزوجها الرسول بعد أن اسلمت وحسن اسلامها وهب أختها الى دحية بن خليفة الكلبي[١٩٧]. يقول البلاذري: جرى بين صفية وعائشة ذات يوم كلام فعيرتها عائشة على أنها يهودية وفخرت عليها بالنسب، فشكت ذلك الى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: ألا قلتِ لهن أن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد، فهل فيكن مثلي[١٩٨].

---

[١٩١] الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٧٥ وانظر ايضاً: السعيدي، المصدر السابق، ص٢٥٧، وقد كانت السيدة جويرية (رض) كثيرة التسبيح لله جل في علاه، فقد روي عنها قولها (أتى عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أسبّح غدوة ثم انطلق لحاجته ثم رجع قريباً من نصف النهار وأنا أسبّح فقال: ما زلت قاعدة، قلت نعم، فقال: ألا أعلمك كلمات لو عدلن بهن أو لو وزن بهن وزنهن يعني جميع ما سبحت به هو: سبحان الله عدد خلقه، ثلاث مرات، وسبحان الله زنة عرشه ثلاث مرات، وسبحان الله رضاء لنفسه ثلاث مرات، وسبحان الله مداد كلماته ثلاث مرات)، محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص١٠٠.

[١٩٢] الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٧٥.

[١٩٣] ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، جـ١، ص٦١.

[١٩٤] ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٤٧.

[١٩٥] أبي عبيدة، المصدر السابق، ص٣٥.

[١٩٦] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٤٢.

[١٩٧] المصدر نفسه، ص٤٤٣.

[١٩٨] المصدر نفسه، وانظر ايضاً ابن الاثير، اسد الغابة، المصدر السابق، ص١٧٠، وايضاً محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص١٠٣.

والسيدة صفية أم المؤمنين (رض) كانت زوجة لملك اليهود كنانة بن الربيع بن ابي العقيق وينتهي نسبها الى النبي هارون (عليه السلام) فحياة الرق لا تصلح لزوجات الملوك لذلك كرم النبي أخاه هارون ومسح الرق والوحشة عن صفية وتزوجها بعد أن اسلمت[١٩٩].

توفيت أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب (رض) سنة ٥٠ هـ[٢٠٠]. يقول ابن اسحق: ثم تزوج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد السيدة صفية، السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية[٢٠١]، وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى من بني عامر ابن لؤي فلقت من سفهاء أهل مكة أذى يوم حملت[٢٠٢]، وميمونة هي أخت السيدة أم الفضل لبابة الكبرى زوجة العباس عم النبي، وأختها من أمها هي السيدة أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن ابي طالب (رض)[٢٠٣]. وعن عكرمة قوله: ان السيدة ميمونة (رض) وهبت نفسها لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تزوجها[٢٠٤]. يقول البلاذري وليس ذلك بثابت[٢٠٥].

توفيت السيدة ميمونة سنة احدى وستين فقال عبد الله بن عباس للذين حملوها وهي خالته، ارفقوا بها ولا تزعزعوا فأنها أمكم وموضعها من الرسول موضعٌ فدفنت

---

[١٩٩] الحيالي، المصدر السابق، ص٥٦.

[٢٠٠] ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، جـ١، ص٥٦.

[٢٠١] ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٤٧.

[٢٠٢] أبي عبيدة، المصدر السابق، ص٣٦.

[٢٠٣] السعيدي، المصدر السابق، ص٢٦٨.

[٢٠٤] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٤٦.

[٢٠٥] المصدر نفسه.

بسرف وصلى عليها عبد الله بن عباس[٢٠٦]. وبوفاة السيدة ميمونة نكون قد وصلنا الى الزوجة التاسعة من زوجاته الكريمات (رض) التي مات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهن في عهدته وهن ايضاً أمهات المؤمنين في الآية الكريمة (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ)[٢٠٧].

وكما مر بنا فأن لزواجه من كل سيدة من السيدات الفاضلات أمهات المؤمنين حكمة وسبب كان يراه النبي بطريقة تختلف عما كان يرى الآخرون بها ذات الأمر، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فان تعدد الزوجات كنظام اجتماعي كان ساري المفعول ومعمولاً به ويكاد ان يكون هو النظام السائد سواء قبل الاسلام أو بعده لذلك فأن زواج الرسول كان من هذا المنطلق فضلاً عما كانت تراه نفسه الشريفة من جوانب انسانية واجتماعية وأخلاقية، ولغرض توطيد العلاقة مع القبائل بالمصاهرة التي كان يهتم بها الفرد العربي في الجزيرة لأهميتها الاجتماعية ناهيك عن مسألة أخرى وهي أن القبائل والعوائل كانت تتسابق من أجل أن تحظى بمصاهرة الرسول لعظمته ومنزلته عند الله تعالى وقيمته في الحياة الاجتماعية، أما ما تم نقله في بعض المصادر من أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قد رأى السيدة عائشة وهي جالسة على أرجوحة فأعجبته فذهب لخطبتها[٢٠٨] كما مر بنا أو أنه رأى السيدة زينب بنت جحش (رض) بيضاء جميلة

---

[٢٠٦] المصدر نفسه، ص٤٤٧.

[٢٠٧] الأحزاب / من الآية ٦، يقول مغنية في تفسيره للآية المذكورة اعلاه، (للولاية معان تختلف تبعاً الى من تنسب اليه، فولاية الله سبحانه معناها السلطة التي لا تغلب، ومعنى ولاية النبي الطاعة من غير اعتراض وما من شك ان تصرفات النبي بكاملها، هي لخير الفرد والجماعة، أما أزواجه أمهاتهم فذلك يكون في الاحترام والمبرة وتحريم الزواج)، مغنية، المصدر السابق، ص٤٧٩.

[٢٠٨] البلاذري، المصدر السابق، ص٤١١.

وسمينة فأعجبته[٢٠٩] أو رواية ابن اسحق التي وردت في مصادر أخرى والتي تقول "وقعت جويرية ابنة الحارث في سهم ثابت بن قيس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة مليحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تستعينه من كتابتها، قالت عائشة فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهتها، وقلت سيرى منها مثل ما رأيت"[٢١٠]. وهذا يعني ان زواج الرسول من السيدة جويرية جاء بسبب حلاوتها، هذه الروايات لا تتعدى كونها روايات مغلوطة نقلت ربما بطريقة لم يقف عندها ناقلها ليرى تأثير ذلك على صحة ما ينقل عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فمن الذي يؤكد أن النبي تزوج من السيدة عائشة بعد أن رآها في أرجوحة فأعجبته وذهب مسرعاً الى بيت أبيها ليخطبها؟ ثم اين ذهبت رواية خولة بنت حكيم التي خطبت للرسول السيدتين سودة وعائشة دون أن يكون قد فكر الرسول بالزواج بعد، وذلك بعد وفاة السيدة خديجة؟ ومن الذي يؤكد أن النبي أحب زينب ابنة عمته لأنها سمينة وبيضاء وجميلة، وهي كانت على نفس الصفات يوم زوجها بنفسه الى زيد؟ ثم من الذي يؤكد أن سبب زواج الرسول بميمونة كان لكونها جميلة ومليحة وتأخذ العين والقلب؟ هل تطرق الرسول بنفسه الى هذا وقال هو شخصياً أنه تزوجها لأنها جميلة؟ هذه روايات موضوعة بعيدة عن المنطق ولا تتلائم وسير الحدث التاريخي فضلاً عن كونها تسيء للرسول ولعظمته ولقداسة روحه الشريفة الطاهرة.

---

(٢٠٩) محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص٨٨.

(٢١٠) ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٤٥، انظر ايضاً: أبن الاثير، أسد الغابة، المصدر السابق، ص٥٧ وايضاً محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص٩٩.

ومما قرأته في صحيح مسلم شرح النووي وفي هذا السياق دون غيره وفي (باب ندب من رأى امرأة فوقعت في نفسه الى أن ياتي امرأته أو جاريته فيواقعها) الحديث التالي والذي ورد عن الصحابي جابر الأنصاري (رض) بثلاث طرق، أنقل هنا أحداها، يقول الحديث حدثنا عمرو بن علي حدثنا عبد الأعلى حدثنا هشام بن أبي عبد الله عن أبي الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فأتى امرأته زينب وهي "تمعسُ منيئة" لها فقضى حاجته ثم خرج الى أصحابه فقال ان المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان فاذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فأن ذلك يرد ما في نفسه" وفي شرحه للحديث يقول النووي: ومعنى الحديث أنه يُستحب لمن رأى امرأة فتحركت شهوته أن يأتي امرأته أو جاريته ان كانت له جارية فليواقعها ليدفع شهوته وتسكن نفسه[٢١١].

وفي هذا اشارة الى أن الرسول عندما رأى المرأة تحركت عنده الشهوة وسيطرت عليه الغريزة بالشكل الذي لم يستطع معه مواصلة حياته بشكل طبيعي فجاء الى زوجته فواقعها وبذلك أعاد الى نفسه التوازن وواصل حياته. وهذا في رأيي يتناقض مع الحديث المنقول عن محمد بن كثير عن سفيان عن يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد عن أبي زرعه عن جرير قوله (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فقال اصرف نظرك)[٢١٢].

يلخص السيد طلس في كتابه تاريخ العرب الأسباب التي كانت وراء زواج الرسول بأمهات المؤمنين بعد ان يعددهن فيقول (هؤلاء هن زوجاته (صلى الله عليه وسلم) ولم

---

[٢١١] مسلم، المصدر السابق، جـ٦، ص١١٦، باب ندب من رأى امرأة فوقعت في نفسه الى أن يأتي امرأته أو جاريته فيواقعها.

[٢١٢] أبو داود، المصدر السابق، جـ٦، ص١٨٦، باب ما يؤمر به من غض البصر.

يتزوج بهن إلا بعد وفاة السيدة خديجة، ولم يتزوج بواحدة منهن إلا لسبب من مصلحة عامة أو غير ذلك من الأساليب التي كان هو (صلى الله عليه وسلم) أدرى بها، لا لأسباب جنسية بحتة كما يزعم ذلك بعض الضالين من الزنادقة أو المغرضين من المستشرقين، فأول امرأة تزوج بها بعد وفاة خديجة كانت سودة، وانما تزوج بها لتقوم بأمور بيته، ثم تزوج بالسيدة عائشة وما كان تزوجه بها إلا لأنه كان يحب أن يرتبط بأبي بكر ارتباطاً تقوية وشائج الدم مع وشائج الأخوة والاسلام، وكذلك كان أمر زواجه بحفصة بنت عمر، أما زينب بنت خزيمة فقد كانت سيدة نبيلة أصيبت بزوجها وأشتد ولهها عليه فلم يجد النبي بداً من التزوج بها، ولم تلبث عنده إلا شهرين حتى لحقت بزوجها، وقد ظل النبي الكريم وفياً لها ولأسرتها فتزوج بأختها ميمونة، وأما أم سلمة فقد كانت امرأة كهلة، ولما مات زوجها يوم بدر اشتد حنينها اليه فواساها النبي قائلاً: سلي الله أن يؤجرك في مصيبتك وأن يخلفك خيراً، فقالت: ومن يكون خيراً من أبي سلمة!! فأدرك النبي (صلى الله عليه وسلم) أنها تريده بعد أن رفضت الزواج بأبي بكر وعمر وتزوجها. وأما زينب فانما تزوجها ليزيل ما علق باذهان الناس يومئذ من أن مطلقات المتبنين حرام على المتبني، كما بينا ذلك وكما اشارت اليه الآية الكريمة. وأما زواجه برملة بنت أبي سفيان فقد كان شاهداً على النجدة والمروءة والشرف لأنه رآها بعد مخالفتها لأبيها وهجرتها مع زوجها الى الحبشة فراراً بدينها، وفجيعها بزوجها، أهلاً لأن تصان ويكون لها عضد يحميها فكان هو ذلك العضد. أما جويرية فقد كانت بنت سيد قومها فلما وقعت سبية واستعطفته عطف عليها ورحمها وتزوجها وكان زواجه بها سبباً في عتق أسرى قومها، وأما صفية فكان أمرها كأمر جويرية. هذا هو السر في تعدد أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) لا ما يزعمه المغرضون والضالون)[٢١٣].

---

[٢١٣] طلس، المصدر السابق، ص١٩٣.

ثالثاً: أم المؤمنين خديجة بنت خويلد واثرها التاريخي
أول من شهد بوحدانية الله

للرجال مواقف خلدتها الايام والسنون، أقوالٌ وأفعالٌ فيضٌ من نبل وحكمة وايمان أفرز سيلاً مما هو راقي ونافع، ترك من الآثار ما لا يمكن أن تدثره الأيام مهما تواغلت في القدم. هذا ما جاء به التاريخ وكتبته صفحات الزمن بحروف من الوفاء. وهنا تطرح الحياة التي عاشها الرجال والنساء معاً في حلوها ومرها تساؤلها المنطقي الذي يقول: هل يا ترى اقتصرت المواقف على الرجال فقط؟ هل كان آدم وحده صاحب الموقف المخلد للحياة دون حواء أم ان لحواء* أنثاه التي شعر وقد أصبحت حياته أحلى بوجودها كان لها هي الأخرى مواقف خلدها الزمن رغم ما عرف عنها من انها عورة فضلاً عن كونها عنصراً سلبياً في الحياة من خلال كونها تحتاج الى ما تحتاج اليه أكثر من قدرتها على اشباع حاجات الآخرين عدا النفسية والجنسية منها. هذا ما أجاب عليه القرآن الذي تطرق الى نساء كان لهن إثراً في الحياة أكثر عمقاً وأنبل على مستوى النتائج وأكثر عطاء من مواقف الرجال أما السُنّة فقد أشارت وعلى لسان سيد الخلق بأن خير نساء العالمين أربع "مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسيا امرأة فرعون"[٢١٤] عليهن السلام. والأفضلية هنا لم تأتِ من فراغ فمريم وآسيا اشاد بهما الله

* مفردة حواء وردت للاشارة الى المرأة بشكل عام وليس لحواء زوجة آدم فقط.

[٢١٤] ورد الحديث بطرق عديدة عن الامام علي وابن عباس وابو هريرة وأنس بن مالك وغيرهم في المصادر التالية:

ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٢٨، فقرة٣٣٤.

ابن حنبل، المصدر السابق، جـ٢٠، ص١٣٩. =

تعالى وكفى بالله شهيداً وبين الله جلّ في علاه ورسوله الكريم حبل ممدود من السماء جاء به جبرائيل، واذا نطق الله بأفضلية مريم فقد نطق الذي لا ينطق عن الهوى بأفضلية خديجة وابنتها، فجاءت شهادته استحقاقاً لتلك المرأة التي احتضنته بقلبها وعقلها وروحها الطاهرة، فكانت بحق أول حاضنة للاسلام فتحت له بيتها واعتنقته بقلبها الراجح وبذلت من أجله مالها وما تملك، تلك هي حرم الرسول الأولى، وأول أم للمؤمنين ليس لأنها حُرمت عليهم كزوجة كما هو شأن الأخريات من نساء النبي وانما هي أمهم حقاً لأنها أولهم ايماناً[٢١٥] وأكثرهم حرصاً على الدين وهو لا زال يافعاً، وأول وزيرة في الاسلام[٢١٦].

=والبخاري، المصدر السابق، جـ٥، ص٤٧ مناقب السيدة خديجة، ولدى البخاري خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة فقط دون ذكر آسيا وفاطمة وكذلك في صحيح مسلم ايضاً، جـ٩، ص٣٥٠.

الترمذي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٦٧.

البلاذري، وايضاً المصدر السابق، ص٤٠٦ وينقل حديثي البخاري ومسلم دون ذكر آسيا وفاطمة (عليهما السلام).

الطبراني، المصدر السابق، ص٧.

ابن عبد البر، المصدر السابق، ص٢٧٩.

ابن الأثير، أسد الغابة المصدر السابق، ص٨٣.

محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص٢٢.

ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ص٢١٦.

ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ص٢١٦.

الهندي، المصدر السابق، جـ١٣، ص١١٥.

ناصف، المصدر السابق، جـ٣، ص٣٣٥.

[٢١٥] ابن اسحق، المصدر السابق، ص١١٢، فقرة ١٥٥، وانظر ايضاً ابن عبد البر، المصدر السابق، ص٢٦٧، ابن الأثير، أسد الغابة، ص٧٨، والهندي، المصدر السابق، جـ١٣، ص١١٤.

[٢١٦] ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٢٧، فقرة٣٢٩.

فمن هي خديجة اذن؟

وأم المؤمنين خديجة هي بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشية[٢١٧] وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحة بن حجر من بني عامر بن لؤي[٢١٨]. وهي بذلك تلتقي بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بجدها وجده قصي بن كلاب الذي كان واحداً من الرجال القلائل الذين تتمثل فيهم الصفات الايجابية من القيادة وبعد النظر وتحمل المسؤولية، يقول البلاذري: كان قصي بن كلاب أبعد قومه رأياً وأصدقهم لهجة وأوسعهم بذلاً وأبينهم عفافاً[٢١٩]. ولدت السيدة خديجة بنت خويلد (عليها السلام) في بيت مجد وسؤدد ورياسة نشأت على الأخلاق الحميدة واتصفت بالحزم والعقل والعفة[٢٢٠] فكانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال[٢٢١].

وكانت تلقب في الجاهلية بالطاهرة[٢٢٢] وهذا اللقب دليل قاطع على التاريخ المشرف لهذه المرأة حتى قبل دخولها الاسلام، وبذلك التقى الصادق الأمين، بالطاهرة النقية، ليكوّنا أسرة كريمة شاء الله أن يظل صداها يملأ الدنيا علماً وبهجة ويديمها بخيرة الرجال والنساء الى يوم الدين، وذلك بعد أن شاءت حكمته جلَّ في علاه بأن لا يبقَى من ابناء النبي إلا بضعته الكريمة فاطمة الزهراء[٢٢٣] التي ادخرها الله لهارون

---

[٢١٧] ابن بكار، نسب قريش، ص٣٥١. وانظر البلاذري، المصدر السابق، ص٣٩٦.

[٢١٨] ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص١٨٩. البلاذري، المصدر السابق، ص٣٩٦.

[٢١٩] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٩.

[٢٢٠] كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام، جـ١، المطبعة الهاشمية، دمشق، ص٢٧٥.

[٢٢١] ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص١٨٧.

[٢٢٢] ابن بكار، نسب قريش، المصدر السابق، ص٣٣٤، البلاذري، المصدر السابق، ص٤٠٧، ابن الأثير، أسد الغابة، المصدر السابق، ص٧٨.

[٢٢٣] يقول ابن الأثير في ترجمته للسيدة فاطمة الزهراء، (وانقطع نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا منها)، ابن الأثير، أسد الغابة، المصدر السابق، ص٢٤١. يتحدث الآلوسي في تفسير روح المعاني عن=

محمد[٢٢٤] الامام علي (عليه السلام) ليكون زوجاً لها فتلدُ منه سيدي شباب أهل الجنة[٢٢٥] وليملأ نسلهما آفاق الأرض فهم آل الرسول وجدتهم أم المؤمنين، خديجة بنت خويلد عليها السلام.

ب – زواج الرسول منها

أفرزت عملية زواج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من السيدة خديجة (عليها السلام) صورتين مهمتين لا بد من التوقف عندهما. أولهما سبب الزواج، وكيف حدث وتحول الى حقيقة بعد أن كان مجرد رغبة، حيث وردت بخصوصه روايات متعددة ومختلفة، وثانيهما سن السيدة خديجة آنذاك أي كم كان عمرها حين تزوجها الرسول؟ حيث أن المؤرخين اتفقوا على أنها تزوجت قبله مرتين لكنهم اختلفوا تماماً في كيفية زواجه منها وفي عمرها حينذاك. وقد تمت الاشارة الى كيفية الزواج في بداية الفصل، حيث أشرنا للموضوع بشكل سريع اعتمدنا فيه الروايات الصحيحة المنسجمة مع سير الحدث التاريخي متجاوزين تلك التي رأينا فيها شيئاً من الغرابة ومنها ما يتعلق بروايات الخمر التي وردت في عدة مصادر ونقلت من عدة طرق[٢٢٦] لذلك سنكتفي هنا

=حديث الرسول بخصوص أفضل النساء فيقول: والذي أميل اليه ان فاطمة البتول أفضل النساء المتقدمات والمتأخرات من حيث انها بضعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، الآلوسي، التفسير، المصدر السابق، جـ٣، ص١٥٥.

[٢٢٤] نسبة الى الحديث الشريف (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)، النووي، شرح صحيح مسلم، جـ٩، ص٢٧٧، وانظر ايضاً: الترمذي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٠٤.

[٢٢٥] انظر نص الحديث لدى الترمذي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٢١، وانظر ايضاً الهندي، المصدر السابق، جـ١٣، ص٩٧، وايضاً ناصف، المصدر السابق، جـ٣، ص٣١٧.

[٢٢٦] انظر مجمل الروايات لدى الشرهاني، حسين علي، السيدة خديجة بنت خويلد (عليها السلام)، رسالة ماجستير في التاريخ الاسلامي الى كلية التربية، جامعة البصرة، ٢٠٠١م، ص٩٢-١٠٣.

بالتطرق الى سن السيدة خديجة حين تزوجها الحبيب المصطفى، فقد وردت عدة روايات في ذلك منها من يقول كان سنها أربعين عاماً ومنها من يقول ثمانية وعشرون عاماً[٢٢٧] أما الديار بكري، فيدرج كل الروايات قائلاً (وخديجة كانت بنت اربعين سنة وقيل خمس واربعين وقيل ثلاثين وقيل ثمان وعشرين)[٢٢٨].

وقد فند السيد الشرهاني في بحثه عن السيدة خديجة (عليها السلام) هذه الروايات وتوصل الى رأي مفاده ان رواية الثامنة والعشرين التي وردت عن ابن عباس هي أكثر الروايات قبولاً كونها تتناسب مع كم الأبناء الذين ولدتهم السيدة خديجة للرسول[٢٢٩] وهم ثلاثة أولاد القاسم والطاهر والطيب وأربع بنات وهن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة (عليهم السلام أجمعين)[٢٣٠] يقول صاحب كتاب نساء من العرب "واني أميل الى تصديق رواية ابن عباس من أن السيدة خديجة كانت في الثامنة والعشرين حين تم زواجها بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وذلك لأنه الثابت انها أنجبت ثلاثة أبناء وأربع بنات هم القاسم والطاهر والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء، ولا يعقل أن تلد امرأة سبع مرات بعد أن تكون في الأربعين أو الخامسة والأربعين من عمرها"[٢٣١].

---

[٢٢٧] ابن حبيب، المصدر السابق، ص٧٩.

[٢٢٨] المصدر السابق، جـ١، ص٢٦٤.

[٢٢٩] المصدر السابق، ص٣٨.

[٢٣٠] ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٢٩.

[٢٣١] طلفاح، المصدر السابق، ص١٦.

ج – اثرها التاريخي من قبل البعثة وبعدها ..

بدأت أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد (عليها السلام) مشوارها مع الرسول الكريم منذ بدايات زواجها به، فقد كانت امرأة وزوجة مثالية وفرت لزوجها بيئة ملائمة جداً لتفكيره حيث عُرف عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) انه كان يختلي بنفسه يفكر في أمر الكون والوجود متسائلاً مع ذاته عن سر عظمة الكون، وعظمة من يقف خلفه، فالكون والطبيعة، الجبال بطولها، والصحراء بعمقها، الأنهار والأشجار، القمر الجميل والشمس الساطعة، الليل والنهار، ملكوت واسع لابد وأن يكون وراءه مدبر، ولابد أن يكون له خالق عظيم أكبر وأوسع من أن يكون على شكل تماثيل صغيرة توضع بين جدران الكعبة. لذلك نزع محمد بعد ان تزوج من خديجة الى التأمل والاستغراق في التفكير، فقد تآلفت روحه الطاهرة مع الخلوة سواءٌ في بيته الهادئ رغم كثرة صغاره أو في غار حراء "وما كانت خديجة لتضيق بهذه الخلوات التي تبعده عنها أوقاتاً طويلة ولا كانت تتدخل في شؤونه أو تقطع عليه صفوة تأملاته، بل هيأت له كل أسباب الراحة ووسائل الاستقرار النفسي والهدوء والطمأنينة"[٢٣٢].

ومن مزايا السيدة خديجة (عليها السلام) انها كانت امرأة حازمة لبيبة ذات عقل راجح وكمال وافر وفهم وقاد[٢٣٣] شريفة في قومها حكيمة في رأيها تحتفظ بجمال شباب وسمعة نقية[٢٣٤]. ومن مزاياها الأخرى (انها ما زالت تعظم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتصدق حديثه قبل البعثة وبعدها قالت له لما طلبت منه أن يتوجه في

---

[٢٣٢] الخرساني، المصدر السابق، ص١١٨.

[٢٣٣] السعيدي، المصدر السابق، ص٦١.

[٢٣٤] الخرساني، المصدر السابق، ص١١٦.

تجارتها انه دعاني الى البعث اليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك)[٢٣٥].

ومن طواعيتها له قبل البعثة انها رأت ميله الى زيد بن حارثة بعد أن صار في ملكها فوهبته له (صلى الله عليه وآله وسلم) فكانت هي السبب فيما امتاز به زيد من السبق الى الاسلام[٢٣٦]. كانت السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين عليها السلام "أعقل العقائل وفضلى الفواضل وقد ادركت بفراستها وبعد نظرها ما ينتظر محمداً من مستقبل كريم وشأن الهي عظيم فوصلت حبلها بحبله وألقت بمالها بين يديه ثم خلطت نفسها بنفسه، حيث كان عليه الصلاة والسلام ينقطع عن أهله ونفسه متعبداً في غار حراء متفرغاً لربه ذاكراً لآلائه ونعمائه، وما كانت خديجة في هذه الليالي بالمرأة التي تدفعها غايتها الشخصية أو منزلتها المالية الى الوقوف في وجهه وتحويله عن الغار الى البيت وعن مناجاة ربه الى مناجاته لها، بل كانت على العكس من ذلك تزوده وتعزيه وتطعمه وتعينه وتقويه، وكأنها بذلك كله وكلّ اليها أمره في اعداده وكفلت بشأنه في تهيئته"[٢٣٧].

بعقل المرأة وحدسها الذي نادراً ما يخطئ وخصوصاً عندما تكون أمينة في رأيها تصف الأستاذة الخرساني علاقة السيدة خديجة بالرسول وكيف رغبت به ما ترتب على ذلك الأمر من مواقف قبل البعثة وحتى ظهور الاسلام. فتقول: "يعرف التاريخ ان أول زوجات الرسول هي السيدة خديجة بنت خويلد...عاش معها وخاضت معه معركة الدعوة الأولى على أحسن حال من السيرة الطاهرة العطرة، ولم يحب سواها في حياته، لا لأنها كانت غنية أو جميلة، وانما لأنها كانت صدّيقة آمنت به أول من آمن به من الرجال

---

[٢٣٥] ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ص٢١٦.

[٢٣٦] المصدر نفسه.

[٢٣٧] خيرت، أحمد (مركز المرأة في الاسلام)، مطبوعات دار المعارف، مصر ١٩٧٥، ص١٠٦.

والنساء حين كذبه الناس ونصرته حين خذله الناس، وكانت له أماً وأختاً وزوجة اختارته لأنها رأت فيه مخايل أمر عظيم"[٢٣٨]. ثم تتحدث عن رغبتها فيه فتقول "لقد طلبها الكثير من أشراف مكة ولكنها ردت كل طالب في عزة واباء وقد وجدت في الشاب محمد عليه السلام مما ليس في الرجال شيباً وشباباً فرغبت في الاقتران به في غير عشق ولا هيام ولا رعونة ولا طيش ولكن في ارادة وقوة تفكير عميق متزن في الماضي والحاضر والمستقبل .. ثم تلاقت الاسرتان واتفقتا على تفاصيل الزواج وان الصداق اثنتا عشرة اوقية من ذهب ونصف اوقية وكان وكيل خديجة عمها عمرو بن أسد بن عبد العزى، أما وكيل محمد عليه السلام فكان عمه أبا طالب الذي قال "أما بعد فأن محمداً ممن لا يوازن به فتى من قريش، إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً وان كان في المال قل فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك" وتم الزواج ونحرت الذبائح ودقت الدفوف ووجد محمد عليه السلام في السيدة خديجة اليد اللطيفة الرفيقة التي عوضته عما قاساه من حزن وحرمان ويتم كما وجد فيها اليد القويمة والعقل الراجح عندما تبلّغ برسالة الدعوة، فقد كان الرسول عائلاً فأغناه الله بمال السيدة خديجة عن طيب نفس منها ورفعة وعلو من النبي الكريم، واذا كانت امرأة نوح وامرأة لوط قد تخاذلتا عن معاونة زوجيهما وهما النبيان فأن السيدة خديجة أعلت شأن النساء كافة، فكانت الزوجة الملهمة المواسية الودود العطوف الولود، يكابد الرسول مشاق الدعوة فاذا آوى الى البيت وجد البرد والسلام والعطف والحنان"[٢٣٩].

---

[٢٣٨] الخرساني، المصدر السابق، ص١١٥.

[٢٣٩] الخرساني، المصدر السابق، ص١١٦.

كان غار حراء بالنسبة للرسول يمثل المكان الأكثر أمناً واطمئناناً والبيئة التي من خلالها يناجي ربه بعد أن يكون قد اقترب منه بروحه وقلبه ووجدانه، يقول ابن اسحق: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج الى غار حراء في كل عام شهراً من السنة ينسك فيه وحين ينصرف لم يدخل الى بيته حتى يطوف بالكعبة[٢٤٠]، وعندما كان يبطأ بالعودة الى البيت تخرج خديجة -عليها السلام- ومعها الامام علي وهو صبي فتطلبه طلباً حثيثاً بين شعاب مكة وتقول لعلي: يا علي انا استظهر الوادي وانت تستبطنه وهي تحمل معها الشراب والطعام،"حتى اذا ما وصلت اليه في جبل حراء وجدته في غار حراء يعبد الله فيه ويتضرع وهو ساجد، فتعرض خديجة عليه الشراب والطعام ثم يأتي الى المنزل برفقتها، وهكذا كان دأبه صلى الله عليه وآله وسلم، وهكذا كان دأبها وسيرتها معه طيلة حياتهما الزوجية حتى بعثه الله تعالى برسالته وخصه بكرامته واجتباه بسره واصطفاه بعلمه واختاره رسولاً في أرضه"[٢٤١].

لم يترك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) غار حراء بعد أن أصبح نبياً، وبعد أن بلغه جبرائيل عليه السلام بذلك كما مر بنا في مطلع الفصل اذ ظل ملازماً له وكان جبرائيل يأتيه هناك ويتابعه الى بيته، أما خديجة فأنها كانت السند والمعين والحبيب الذي يتابع حبيبه وعينه عليه أينما حل وارتحل فكانت كعادتها تتبعه الى غار حراء وبين يديها الكريمتين زاده وغذاءه وفي قلبها الكبير حبه وفي عينيها اللتين ملأهما نور الايمان أملاً بمستقبل مشرق لمحمد حبيبها وسيد بيتها، وفي ذات مرة وهي تتابع خطوات محمد حاملة معها زاده رآها جبرائيل (عليه السلام) فقال للرسول صلى الله عليه وآله وسلم "يا رسول الله هذه خديجة قد أتت ومعها اناء فيه ادام أو طعام أو شراب فاذا هي اتتك

---

[٢٤٠] ابن اسحق، المصدر السابق، ص١٠١ فقرة ١٤٠.

[٢٤١] السعيدي، المصدر السابق، ص٤٠.

فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب"[٢٤٢]. وقد جاء في ترجمة السيدة خديجة في الاصابة نقلاً عن ابن السني أن خديجة خرجت تلتمس رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم- بأعلى مكة ومعها غذاؤه، فلقيها جبرئيل في صورة رجل فسألها عن النبي فهابته وخشيت أن يكون بعض من يريد أن يقتله، فلما ذكرت ذلك للنبي – صلى الله عليه وآله وسلم- قال لها: هو جبرئيل وقد أمرني أن اقرأ عليك السلام وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب[٢٤٣].

وبهذا تكون السيدة خديجة قد بشرت بالجنة في أعلى مراتبها وهي قد آمنت للتو، وهذا لم يأت لتصديقها لدعوة محمد بشكل مجرد فقط، فالذين صدقوا الدعوة كثيرون، بل جاء لكونها كانت جزءاً من الرسول، تحسُ به، وتفرح لفرحه، تتابع خطواته، وتناجي ربها وان كانت بطريقتها الخاصة، فخديجة لم تكن كأي امرأة أخرى، فهي امرأة طاهرة نقية، عاشت مع الرسول وهي تنتظر لحظات أن يكرمه الله بالنبوة، لتعلن هي اسلامها وايمانها ولتقف مع الرسول بكل قوة، فكان لها ما أرادت حيث كرمها الله، فكانت أول من يُكرم ويُبشر بالجنة. يقول ابن هشام "كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدق بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيه، صلى الله عليه وسلم، لا يسمع

---

[٢٤٢] ورد هذا الحديث باسانيد مختلفة وطرق متعددة في كل من:
ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٢٧.
ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص٢٤١. وانظر: البخاري، المصدر السابق، جـ٥، ص٤٨.وايضاً مسلم، المصدر السابق، جـ٩، ص٣٠٤. وانظر: الترمذي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٦٦.وايضا. اليعقوبي، التاريخ، المصدر السابق، مجـ٢، ص٣٥. وايضا الطبراني، المصدر السابق، جـ٢٣، ص٩. وانظر : ابن الأثير، أسد الغابة، المصدر السابق، ص٨٣. وانظر: محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص٢٠. ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ص٢١٧.وانظر الهندي، المصدر السابق، جـ١٣، ص١١٦.

[٢٤٣] ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ص٢١٧.

شيئاً مما يكرهه من رد عليه، وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها اذا رجع اليها، تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس"[٢٤٤].

لم يقتصر دور السيدة خديجة بتصديق الدعوة المحمدية والوقوف الى جانب النبي داخل بيته ومتابعته الى غار حراء والقلق عليه، ولم يقتصر ايضاً على المساهمة الفعلية بتربية أبناءه تربية اسلامية رائعة والقيام بشؤون الأسرة بشكل عام، بل تعداه الى ما هو أبعد وأكثر تأثيراً واعمق على مستوى الأداء المثمر الذي ساهم بنشر الدعوة وتثبيت دعائم الاسلام. ويمكن اجمال ما هو أبعد بما يلي:

١. الأثر الأسري

كانت السيدة خديجة ربة اسرة ناجحة على الرغم من كونها كانت تاجرة تستأجر الرجال في أموالها[٢٤٥]، فقد جمعت هذه المرأة الرائعة بين نظريتين مختلفتين في عملها ومهامها واثرها في الحياة. وهما النظرية الداعية الى عمل المرأة ومشاركتها في الحياة العامة، وتلك التي تحدد دورها في نطاق الأسرة وتعتبر وجودها في داخل البيت وتربيتها لأبنائها وملاحظتها لشؤون زوجها وافراد اسرتها هو أهم هدف يجب أن تتصدى له المرأة يتفوق بنتائجه على أي واجب أو مهمة أخرى، وبذلك هيأت للرسول بيئة أسرية هادئة متكاملة الجوانب ساعدته على القيام بما كان يراه صحيحاً ليتأهل من خلاله الى الدور الريادي الكبير الذي تبوأه والذي غير مجرى التاريخ ..

---

[٢٤٤] ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص٢٤٠.

[٢٤٥] المصدر نفسه، ص١٨٨.

أنجبت السيدة الجليلة أم المؤمنين – خديجة بنت خويلد- عليها السلام للرسول – صلى الله عليه وآله وسلم- ثلاثة ذكور ماتوا جميعهم وهم صغار وأربع بنات[٢٤٦] قامت بتربيتهن تربية أحدثت من خلالها مسارات ايجابية كبيرة في سلوكهن فكن نساء فاضلات عالمات عابدات فيهن من الخصائص والسمات ما ليس بغيرهن، وهذا الأمر ليس بالسهل، أمرُ وفاة الذكور وبقاء الاناث في مجتمع كانت تسيطر عليه الى حد بعيد ظاهرة وأد البنات، اذ اعتبر المجتمع الجاهلي الأنثى حينذاك حملاً ثقيلاً لابد من التخلص منه، هذا الأمر الثقيل لم يثقل كاهل السيدة أبداً لأنها كانت مؤمنة صادقة، لا تتثاقل من أمر صدر حكمه عن الله تعالى، لذلك صابرت وجاهدت وتحملت احتضنت اطفالها الذكور بكل مشاعر الأم وما تحمله من حنان ورأفة وحب صادق، ثم ودعتهم الأرض بكل آلام الأم التي أشد ما يكون عليها هو ان تفقد ولداً ذكراً، فكيف بسيدتنا وقد فقدت ثلاثة على التوالي، هذا الأمر لم يثقل كاهل السيدة كما قلت بل على العكس زاد من اصرارها على أن تهيئ لزوجها رسول الله الأجواء وتفرش له أرض الدار ورداً وحباً وحناناً واعتزازاً قل نظيره ولتحنو على بناتها حتى نشأن على الفضيلة، فكن نساء مؤمنات، آمن بالله ورسوله، وتزوجن وكن زوجات ناجحات تحملن بسبب اسلامهن وايمانهن ولكونهن بنات النبي الكثير من منغصات الحياة حتى فارقن الحياة وهن في عز الشباب[٢٤٧] وفي حياة الرسول إلا الطاهرة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين[٢٤٨]

---

[٢٤٦] ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٢٩، فقرة ٣٣٦.

[٢٤٧] راجع ما جاء في مسند أحمد بن حنبل عما جاء في مواقف بنات النبي وسيرة حياتهن وزواجهن ومواقف ازواجهن وكل ما يتعلق بذلك الموضوع، ابن حنبل، المصدر السابق، جـ٢٢، ص٩٠-١٠٠.

[٢٤٨] انظر: نص الحديث عن مسروق عن السيدة عائشة (رض) لدى، ابن حنبل، المصدر السابق، جـ٢٢، ص٩٢.

التي لحقته بعد وفاته بأشهر، بعد أن أنجبت للدنيا ريحانتي الرسول وسيدي شباب اهل الجنة الامامين الحسن والحسين[٢٤٩] وأم كلثوم، وبطلة كربلاء زينب الكبرى التي كان لها في الحياة دور لايمكن أن يتجاهله من يريد أن يكون منصفاً[٢٥٠] وبذلك كانت أسرة الرسول مثلاً رائعاً للأسرة المسلمة المؤمنة بقدرة الله وعظمة هيمنته على عباده وبقيادة أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد (عليها السلام).

٢. الأثر العام المرتبط بالدعوة الاسلامية

عندما صلى الرسول بعد تبليغه بالنبوة كان ذلك أول نهار الاثنين، ثم صلّت السيدة خديجة بعد أن آمنت بزوجها آخر نهار الاثنين وبعد أن علمها الرسول ما علمه جبرائيل من مراحل قيام الصلاة وأهمها الوضوء[٢٥١]، وبذلك كانت السيدة خديجة أول خلق الله أسلم باجماع المسلمين لم يتقدمها رجل ولا امرأة[٢٥٢] ومن هنا كان لخديجة أثر عظيم بالتأثير على نساء مكة بعد أن كانت قد سبقتهم للاسلام، حتى بدأ موكب النساء المؤمنات يتزايد ويتكامل فكانت فاطمة بنت أسد، وأم شريك، وأم أيمن، وسمية أم عمار، وأم سلمة وأم حبيبة والأخريات الكثيرات من النساء اللواتي دخلنَ الاسلام بقوة وكنَّ عناصر ايجابية في الحياة الاسلامية الجديدة[٢٥٣]، يقول الأستاذ عفيفي: لقد تأثرت خديجة بنت خويلد زوج النبي وأم المؤمنين بهذا الدين تأثراً نفذ الى قلب الرسول، فكانت

---

[٢٤٩] انظر: نص الحديثين لدى الترمذي، المصدر السابق، جـ٥، مناقب الحسن والحسين، ص٣٢١، الحديث الأول رقم ٣٨٥٩ والحديث الثاني رقم ٣٨٥٦.

[٢٥٠] انظر: ترجمة السيدة زينب (عليها السلام) لدى ابن الأثير، أسد الغابة، المصدر السابق، ص١٣٢.

[٢٥١] محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص١٥.

[٢٥٢] ابن الأثير، أسد الغابة، المصدر السابق، ص٧٨.

[٢٥٣] ينظر: تفاصيل أوسع لدى، عفيفي، المصدر السابق، جـ٢، ص٨٦-٩٦.

مبعث الغبطة والسكينة عند تدافع النوب، واشتداد الخطوب، ثم أعقبها جمهور النساء، فتأثرنَ بهذا الدين تأثراً هان دونه كل شيء[٢٥٤].

٣. الدور الاقتصادي

لا يختلف اثنان من أن السيدة خديجة حين تزوجها الرسول وقبل ذلك وبعده كانت امرأة تاجرة ثرية ذات رأسمال كبير وظفته في خدمة الدعوة الاسلامية، ولم تبخل بذلك أبداً، ولعل قسماً من أموالها نفذ في بداية الدعوة، أما القسم الأكبر فقد كان عوناً للمؤمنين ومصدراً لعيشهم وهم في حصار قريش لهم في شعب أبي طالب[٢٥٥]، حتى أن أموال خديجة نفذت وهي تصرفها لاشباع الجياع من الأطفال والنساء[٢٥٦]، الذين ظلوا محاصرين لمدة ثلاث سنوات[٢٥٧].

وقد نقل السيد الشرهاني في بحثه عن السيدة خديجة، الرواية التالية نقلاً عن نزهة المجالس للصفوري، تقول الرواية: "ان النبي صلى الله عليه وسلم تزوج السيدة خديجة عليها السلام وحينها كثر كلام الحساد فيها فقالوا: ان محمداً فقير وتزوج بأغنى النساء فكيف رضيت خديجة بفقره، فلما بلغها ذلك أخذتها الغيرة على محمداً أن يُعَيَّر بالفقر فدعت رؤساء الحرم وأشهدتهم أن جميع ما تملكه لمحمد فان رضى بفقري فذلك من كرم أصله، فتعجب الناس منها وانقلب القول فقالوا: أن محمداً أمسى من أغنى أهل

---

(٢٥٤) عفيفي، المصدر السابق، جـ٢، ص٨٦.

(٢٥٥) اليعقوبي، التاريخ، المصدر السابق، جـ٢، ص٣١.

(٢٥٦) ينقل ابن اسحق معاناة المسلمين وهم في الحصار فيقول: حتى بلغ القوم الجهد الشديد وسمع أصوات صبيانهم يتضارعون من وراء الشعب: ابن اسحق، المصدر السابق، ص١٤٠، فقرة ٢٠٧.

(٢٥٧) ابن اسحق، المصدر السابق،ص١٤٠، وينظر ايضاً ابن الأثير، الكامل في التاريخ، المصدر السابق، جـ٢، ص٦٢.

مكة وخديجة أمست من أفقر أهل مكة فأعجبها ذلك القول"[٢٥٨] ثم يعلق على الرواية فيقول: وهذه الرواية وإن لم تتطرق لها المصادر المتقدمة إلا أنها قد تكون تصوراً أو استنتاجاً لما حدث ثم انها تعبر تماماً عن الواقع آنذاك، فأموال السيدة اصبحت ملكاً للرسول يتصرف كيفما يشاء[٢٥٩]، وقد أشار الله الى ذلك بكتابه العزيز حين قال (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى)[٢٦٠]، أي أغناك بأموال خديجة[٢٦١].

د – وفاة السيدة خديجة (عليها السلام)

لم تكن وفاة السيدة خديجة (عليها السلام) حدثاً عابراً في حياة الرسول، بل على العكس من ذلك تماماً كان حدثاً بارزاً ومؤثراً ترك بصماته على مجرى الأحـداث، ولم ينتهِ بانتهاء ظرفه أبداً، بل امتد تأثيره حتى كانت واحدة من أهم تداعياته هي هجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الى المدينة المنورة في العام الثالث عشر للبعثة النبوية[٢٦٢].

---

[٢٥٨] الشرهاني، المصدر السابق، ص٨٣.

[٢٥٩] المصدر نفسه، ص٨٤.

[٢٦٠] الضحى/٧.

[٢٦١] انظر : تفاسير كل من:
الواحدي، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٥١.وكذلك الطبرسي، المصدر السابق، جـ٣٠، ص١٣٨. وانظر ابضاً: النووي، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٥١.

[٢٦٢] انظر: المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٢٧٨، وأبو الفداء، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٦.

في العام الذي غادرت فيه السيدة خديجة الحياة توالت المصائب على الرسول، اذ شاء القدر أن يغادر الحياة بعد ايام على ذلك عم النبي ابو طالب فسمي ذلك العام لتأثيره السلبي على حياة الرسول بعام الحزن[٢٦٣].

يقول ابن اسحق: "ثم ان خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بمهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الاسلام، يشكو اليها، وبمهلك عمه ابو طالب، وكان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة وناصراً على قومه وذلك قبل مهاجرته الى المدينة بثلاث سنين"[٢٦٤].

كانت خديجة تمثل الملاذ الآمن للرسول، والحضن الدافئ الذي يلتجئ اليه حين يضيمه الضيم، وتتكالب عليه الهموم، كانت له أماً وأختاً وزوجة صالحة، ربّت له ابناءه واسست له أسرة كريمة وكانت له في حياته الشريفة أكثر من عون وأكثر من أنيس ثم فجأة رحلت، فتركت في حياته فراغاً موحشاً مؤلماً، رحلت خديجة وبقي محمد لا أحد يمد اليه يد الحنان، ولا أحد يمسح عن جبينه الشريف تعب الأيام. لا امرأة تستقبله بابتسامة الانثى التي تعرف اثرها جيداً عند عودته الى البيت، ولا قلب صادق يقلق عليه فيدفعه الحنين حتى يخرج هائماً يبحث عن محمد حين يكون هو الآخر باحثاً عن الحقيقة في خلوات الايمان.

---

[٢٦٣] الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٣٠٠، وانظر كل من، علي، المصدر السابق، ص٥١، وبنت الشاطي، المصدر السابق، ص١٢٠، وشرف الدين، المصدر السابق، ص١٥٦.

[٢٦٤] ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص٤١٦.

رحلت خديجة الى بيتها الذي في الجنة[٢٦٥] فقد كان ذلك البيت، الذي منحه الله لها لعمق ايمانها وعظمة اثرها في الحياة، بحاجة الى أنثى تعمره بالحياة فالحياة التي تمنحها خديجة للمكان حياة من نوع آخر، فيها من طعم الوجود وحلاوة الذكرى وعشق الأرواح المؤمنة الشيء الكثير. غادرت خديجة مكة الى الجنة ولو خُيّرت بين أن تغادر الى قصرها في جنات الخلد أو الانتظار مع محمد مشواراً آخر، لفضلت البقاء مع محمد على العيش بدونه في باحات الجنان الواسعة، والسبب واضح فالجنة ستبعدها عن محمد، أما محمد فهو الذي أوصلها وسيوصلها ان انتظرت الى الجنة التي هي أمل كل مؤمن ومؤمنة. غادرت خديجة الحياة وبقي حبيبها يعاني ويكابد ويتعرض جسده الشريف للاضطهاد[٢٦٦]، حتى انها وهي في العالم الآخر كانت ترى الرسول بروحها الطاهرة وهي ترفرف وتتابع خطواته على الأرض فتبكي كونها لا تقدر أن تمسح عنه تعب الحياة وتُقبّل جبينه الوضاء مواسية اياه بما يواسي الحبيب حبيبه، لكن عزاءها كان بابنتها، فقد تركت للرسول أماً صغيرة اسمها فاطمة، علمتها كيف تحنو على الرسول فتكون له أماً وابنةً طيبة. أرضعت خديجة ابنتها حليب الوفاء، فكانت وفية للرسول ولمبادئ الاسلام، فاحتضنت أباها وتابعت شؤونه وكانت له كل شيء، وكان لها كذلك.

---

[٢٦٥] جاء في صحيح البخاري عن ابي هريرة (رض) قوله: (أتى جبرئيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها اناء فيه ادام أو طعام أو شراب فاذا هي اتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)، البخاري، المصدر السابق، جـ٥، ص٤٨.

[٢٦٦] ينظر: المبحث الخاص بسعي الرسول الى ثقيف بطلب النصرة، بعد وفاة خديجة وأبو طالب لدى ابن هشام، وما تعرض له من أذى، ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص٤١٩.

أهم خصائص السيدة خديجة بنت خويلد (عليها السلام)

امتازت سيدتنا الجليلة بالخصائص والسمات التالية:

١. كانت واحدة من أربع نساء هن خير ما خلق الله من اناث وقد جاء ذلك بالحديث النبوي الشريف[٢٦٧].
٢. هي أول زوجة لآخر واعظم نبي خلقه الله ليشرفه بحمل رسالة السماء الى خلقه.
٣. الزوجة الوحيدة التي أنجبت للرسول ذكوراً واناثاً، وكانت أماً رائعة في سلوكها وقيامها بواجباتها على المستويين الأسري والعام[٢٦٨].
٤. كانت سيدة لنساء العالمين، وأنجبت للعالمين سيدة أخرى هي السيدة الجليلة فاطمة الزهراء عليها السلام[٢٦٩].
٥. كانت امرأة ثرية أغدقت أموالها في سبيل نصرة الدين والمبادئ.
٦. كانت السيدة خديجة قبل زواج الرسول منها امرأة شريفة في قومها تدعى بالطاهرة[٢٧٠] يقول ابن هشام (وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراد الله بها من كرامته .. فضلاً عن كونها من أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً)[٢٧١].

---

[٢٦٧] جاء في سنن الترمذي عن انس بن مالك (رض) قوله: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسيا امرأة فرعون)، الترمذي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٦٥.

[٢٦٨] أنجبت السيدة خديجة كل أبناء وبنات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عدا ابراهيم آخر ابناءه الذي ولد في المدينة وكانت أمه مارية القبطية، انظر: ابن حبيب، المصدر السابق، ص٩٨.

[٢٦٩] انظر: الهامش رقم (٢٦٧) اعلاه

[٢٧٠] البلاذري، المصدر السابق، ص٤٠٨، وانظر : ترجمة السيدة خديجة لدى ابن الاثير، اسد الغابة، المصدر السابق، ص٧٨.

[٢٧١] ابن هشام، المصدر السابق، جـ١، ص١٨٩.

٧. السيدة خديجة الزوجة الأولى للرسول ومن مميزاتها على مستوى علاقتها بالرسول انه كان يحبها ويعتز بها بشكل غير طبيعي لأنه كان عارفاً بأهميتها في حياته واثرها الريادي الرائع وما تركته من بصمات في مسيرة الدعوة الاسلامية.

٨. ومن مميزاتها الأخرى والمهمة ان الرسول لم يتزوج عليها في حياتها أبداً في وقت كان فيه في عمر الشباب وفي مجتمع يزخر بتعدد الزوجات في الوقت الذي تعددت فيه زوجاته بعد وفاتها، وهذا أمر بحد ذاته يستوجب الوقوف عنده فضلاً عن ذلك كان دائم الذكر لها لم تفارقه روحها الطاهرة حتى وهو بين تسع نساء بعضهن من يحمل الجمال والشباب والحيوية، وقد وردت عدة روايات عن غيرة نسائه من كثرة ذكره لها واعتزازه بها، وخاصة من قبل السيدة عائشة (رض)، وللاختصار فقط نورد الرواية التالية، يقول ابن اسحق: "حدثنا يونس، عن عبد الواحد بن أيمن المخزومي قال: حدثنا أبو نجيح قال: أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم جزور أو لحم، فأخذ عظماً منها فتناوله الرسول بيده فقال له: اذهب به الى فلانة، فقالت له عائشة: لم غمرت يدك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ان خديجة أوصتني بها، فغارت عائشة وقالت: لكأنه ليس في الأرض امرأة إلا خديجة، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضباً، فلبث ما شاء الله، ثم رجع، فاذا أم رومان – وام رومان هي ام السيدة عائشة – فقالت: يا رسول الله مالك ولعائشة إنها حدث، وأنت أحسن من تجاوز عنها، فأخذ بشدق عائشة وقال ألست القائلة "كأنما ليس على الأرض إلا خديجة" والله لقد آمنت بي اذ كفر قومك ورزقت مني الولد وحرمتموه"[٢٧٢]، وبهذا تكون ولادة نساء الرسول من الرسول تكريماً لهن أكثر من كونها فائدة للرسول.

---

[٢٧٢] ابن اسحق ، المصدر السابق، ص٢٢٨، فقرة ٣٢٢، وقد ورد الحديث في مصادر عديدة وبطرق عديدة ايضاً وباختلاف في بعض مفرداته، انظر: الترمذي، المصدر السابق، جـ٥، مناقب السيدة خديجة،=

٩. مثلت السيدة خديجة دوْرَ أم المؤمنين من خلال سلوكها الميداني مع الرسول من جهة والبيئة المكية من جهة أخرى أروع تمثيل فكانت بحق المرأة المناسبة للدور المناسب والملائم.

رابعاً. السيدة عائشة بنت أبي بكر (رضي الله عنهما) وأثرها التاريخي

السيدة أم المؤمنين عائشة (رض) هي الزوجة الثالثة في تسلسل زيجات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تزوجها في مكة بعد وفاة السيدة خديجة بثلاث سنوات[٢٧٣] وبنى بها في المدينة[٢٧٤]، نقل الشافعي في باب خطبة الصغيرة عن عروة عن عائشة قولها: (تزوجني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنا بنت سبع، وبنى بي وأنا بنت تسع)[٢٧٥].

اسمها ونسبها

هي عائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة وهو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب القرشي[٢٧٦]، وامها أم رومان بنت عمر بن عامر من بني

=ص٣٦٦، وايضاً ترجمة السيدة خديجة، لدى ابن الاثير، أسد الغابة، ص٧٨ ما بعدها، وانظر: الهندي، المصدر السابق، جـ١٣، ص١١٧، وايضاً، ناصف، المصدر السابق، جـ٣، ص٣٣٤.

[٢٧٣] ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٣٢، فقرة ٣٦٣. وايضا ابن حنبل، المصدر السابق، جـ٢٢، ص١٠٩.وايضا ابن الأثير، أسد الغابة، المصدر السابق، ص١٥٩ ترجمة السيدة عائشة.

[٢٧٤] ابن هشام، المصدر السابق، جـ٢، ص٦٤٤. ابي عبيدة، المصدر السابق، ص٢٦. ابن حبيب، المصدر السابق، ص٨١.

[٢٧٥] الشافعي، أبو عبد الله محمد بن ادريس، (ت، ٢٠٤هـ)، بدائع المنن في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن، شرح عبد الرحمن البنا المعروف بالساعاتي، جـ٢، دار الأنوار للطباعة، مصر، ص٣٢٠. وانظر ايضاً البلاذري، المصدر السابق، ص٤١٠.

[٢٧٦] ابن حبيب، المصدر السابق، ص٨٠. ابن حزم، المصدر السابق، ص١٣٧.

مالك من كنانة[٢٧٧]، اشتهرت السيدة عائشة بأنها كانت البكر الوحيدة التي تزوجها النبي[٢٧٨] فضلاً عن كونها ابنة صديق عمره الخليفة أبي بكر الصديق (رض)، وهذا ما ساعدها على أن تتبوأ مركزاً مرموقاً داخل البيت النبوي فضلاً ايضاً عما كانت تتمتع به من جمال وذكاء ونشاط انثوي واضح.

يمكن تقسيم حياة السيدة عائشة الى قسمين رئيسيين أولهما حياتها مع الرسول الكريم منذ زواجه منها وحتى وفاته، وثانيهما حياتها بعد وفاته واثرها العلمي والسياسي وما ترتب عليه من مواقف حتى وفاتها في نهاية العقد السادس اثناء خلافة معاوية بن أبي سفيان[٢٧٩].

أ. حياتها مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى وفاته

دخلت السيدة عائشة الى البيت النبوي الشريف كزوجة ثانية للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد السيدة سودة بنت زمعة، وذلك في الأشهر الأولى للهجرة وبالتحديد في شهر شوال من العام الأول للهجرة[٢٨٠]، وهي الوحيدة من نسائه التي تزوجها وهي بِكر كما مر بنا حيث لم يتزوج بكراً غيرها[٢٨١] وقد كان لها موقف خاص في نفسه[٢٨٢].

---

[٢٧٧] ابن حبيب، المصدر السابق، ص٨٠.

[٢٧٨] ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٣٩، فقرة ٣٦٢. وانظر: ابي عبيدة، المصدر السابق، ص٢٦.

[٢٧٩] ابن حبيب، المصدر السابق، ص٨١، وانظر ايضاً أبن العماد الحنبلي، المصدر السابق، جـ١، ص٧٠.

[٢٨٠] ابن حبيب، المصدر السابق، ص٨١.وانظر ايضاً ابي عبيدة، المصدر السابق، ص٢٦. البلاذري، المصدر السابق، ص٤٠٩.

[٢٨١] ابن اسحق، المصدر السابق، ص٢٣٩، فقرة ٣٦١.

[٢٨٢] يقول البلاذري، كانت عائشة أحب نساء النبي اليه، البلاذري، المصدر السابق، ص٤٠٩.

يقول ابن الاثير "وعائشة بنت أبي بكر الصديق، الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين، زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأشهر نساءه"[٢٨٣].

لم تستطع السيدة عائشة بصغر سنها وجمالها ونشاطها كامرأة شابة ترغب بسد المنافذ امام زوجها خاصة تلك التي يلج منها للأخريات وبموقعها الاجتماعي المميز كونها ابنة صديق الرسول لم تستطع بكل ذلك من أن تمنع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الزواج عليها، وهذا الأمر بحد ذاته يقودنا الى التساؤل التالي: لماذا لم يتزوج الرسول وهو في عمر الشباب على زوجته الأولى السيدة خديجة بنت خويلد (ع) التي كانت تكبره سناً وراغبة به ومتزوجة قبله، لم يتزوج عليها في حياتها في الوقت الذي كانت فيه الظروف الاجتماعية تساعده على ذلك كثيراً، بينما تزوج على السيدة عائشة وهي شابة صغيرة جميلة ومن الممكن أن تلبي رغبات الرسول بكل اتجاهاتها تقريباً بالشكل الذي يحد من رغبته في الزواج من اخرى؟ والجواب في رأيي المتواضع يكمن هنا في تحديد دوافع الزواج للرسول، فلو كانت الدوافع ذاتية مرتبطة برغبات الرسول الجنسية والنفسية لكان قد تزوج على السيدة خديجة، خاصة وانه كان في سن يستطيع معه أن يشبع رغباته المرتبطة بالعمر والقوة الجنسية التي تكون على أشدها في مرحلة الشباب، ولو كانت الدوافع ذاتها ايضاً لا زالت هي المحرك لنشاطات الرسول الزواجية ان صح التعبير حين زواجه من السيدة عائشة في المدينة، لكان قد تأثر تأثيراً كبيراً خاصة اذا أخذنا بنظر الاعتبار مسألتين أولهما ان الرسول كان متقدماً في السن في تلك السنوات وقد تجاوز مرحلة الشباب التي عاشها مع السيدة خديجة مما يترتب عليه تراجع ملموس

---

[٢٨٣] ابن الأثير، اسد الغابة، ص١٨٨.

لتلك الرغبات* وثانيهما ان السيدة عائشة بخصائصها الذاتية المرتبطة بالحيوية والنشاط والجمال ورغبتها ببقاء الرسول لها دون غيرها كل تلك العوامل لو كان الدافع جنسياً لاستطاعت السيدة عائشة أن تحد منه وتروضه وتجعله يكتفي بها وحدها[٢٨٤]، لذلك فان زواجه عليها وبأعداد كبيرة من النساء يدلل بدون أدنى شك ان الدوافع ليست جنسية أبداً بل هي اجتماعية وأخلاقية مرتبطة مباشرةً بأمر الدين ودواعي الحياة الجديدة وضرورة احتوائها لأغلب القبائل والاتجاهات والتي كانت مصاهرة الرسول واحدة من أهم عوامل ذلك الاحتواء، يقول العقاد: "أما سائر زوجاته عليه السلام فما كان من واحدة منهن رضي الله عنهن إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة"[٢٨٥].

لعل أهم حدث اجتماعي واجه السيدة عائشة (رض) في حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو حديث الإفك الذي جاء على ألسنة المنافقين الذين أرادوا بالإسلام شراً من خلال ما قصدوا من الاساءة للرسول الكريم وذلك بالطعن على حرمه المصون أم المؤمنين

* ورد في مسند أحمد بن حنبل، عن قتادة عن أنس قوله: (ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يدور على نساءه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن احدى عشرة امرأة قال: قلت لأنس وهل انه يطيق ذلك؟ قال: كنا نتحدث انه أعطي قوة ثلاثين رجلاً)، بن حنبل، المصدر السابق، جـ٢٢، ص١٤٩، وهذا الحديث ايضاً من الأحاديث التي لا يزنها العقل اذ كيف يدور على احدى عشرة امرأة في ساعة واحدة حتى لو افترضنا عدم اغتساله من الجنابة، فان الوقت لا يسمح بذلك أبداً، فضلاً عن اننا بتساهلنا مع هكذا روايات نعطي الحجة للمستشرقين من أن يتقولوا على الرسول الكريم بما يحلو لهم ويصفوه بنكّاح النساء، أو زير النساء .. الخ.

[٢٨٤] يقول السيد محمد علي قطب: وقد اشتهرت (رض) بحبها للزينة وذوقها الرفيع فيها ولذلك كان نساء المدينة يأتينها يستعرن بعض ثيابها وكانت تنصح النساء بقولها لاحداهن يوماً (اذا كان لك زوج فاستطعت ان تنزعي مقلتيك فتضعينها أحسن مما هما فافعلي). قطب، محمد علي، عائشة معلمة الرجال والأجيال، مكتبة القرآن، مصر، ص٢٩.

[٢٨٥] العقاد، العبقرية المصدر السابق، ص١١٠.

السيدة عائشة (رض) وقبل أن ندخل بتحليلنا للأسباب والدوافع التي كانت وراء اشاعة ذلك الحديث لنستمع اولاً الى نص ما جرى وعلى لسان السيدة عائشة ذاتها حيث تقول: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذا أراد أن يخرج الى سفر أقرع بين نساءه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عله وسلم معه، قالت عائشة: فأقرع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما أنزل الله علينا الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل منه، فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حيث أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت الى الرحل فلمست نحري فاذا عقدي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، واقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي، فحملوا هودجي فرفعوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسون انني فيه، قالت: وكان النساء اذ ذاك خفافاً لم يهبلهن ولم يفشهن اللحم، انما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رفعوه ورحلوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا به، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتأممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني ويرجعون الي، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت حتى أصبحت ، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلج فاصبح عند منزلي، فرأى سواد انسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب علي الحجاب، فما استيقظت إلا باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما كلمني كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فركبتها فأنطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا (موغرين) في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان

الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمت المدينة، واشتكيت حين قدمتها شهراً والناس يخوضون في قول أهل الافك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أن أعرف من رسول الله اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، انما كان يدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم يقول: (كيف تيكم) فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت مع أم مسطح قبل المناصع، وهو متبرزنا، لا نخرج إلا من ليل الى ليل، وذلك قبل أن تتخذ ألكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت تسبين رجلاً شهد بدراً، فقالت: أي هنتاه أولم تسمعي ما قال؟ قلت: وما (ذا) قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الأفك، فازددت مرضاً الى مرضي، فلما رجعت الى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ثم قال: (كيف تيكم؟) قلت له: اتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجئت فقلت لأمي: يا أمه ما تحدث الناس؟ فقالت: أي بنية هوني عليك فوالله لقل ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا؟ قالت: نعم، قالت: فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً بن ابي طالب واسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق اهله، قالت: فأما أسامة فاشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً، وأما (علي بن ابي طالب) فقال: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وأن تسأل الجارية

تصدقك، قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال: (أي بريرة هل رايت من شيء يريبك من أمر عائشة؟) فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ان رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، قالت: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: (يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي الا معي) فقام سعد بن معاذ الانصاري فقال: (لقد) أعذر منه يا رسول الله، ان كان من الأوس ضربت عنقه، وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن حملته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبتَ لعمرو الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمرو الله لنقتلنه، فانك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت، فمكثت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم وأبواي يبكيان حتى ظننت ان البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي، فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل في ما قيل، ولقد لبث شهراً لا يوحى اليه في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال:(أما بعد يا عائشة فأنه بلغني عنك كذا وكذا، فان كنت بريئة فسيبرئك الله، وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه، فان العبد اذا اعترف بذنب ثم تاب الى الله

تاب الله عليه) فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، (قالت: فقلت) وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ من القرآن كثيراً: اني والله قد عرفت انكم قد سمعتم بهذا الأمر حتى استقر في أنفسكم وصدقتم، ولئن قلت لكم اني منه بريئة والله يعلم اني بريئة لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لا تصدقونني، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا والله أعلم اني حينئذ بريئة وان الله مبرئي ببرائتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج من البيت حتى أنزل الله على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى انه يتحدر منه مثل الجمان في اليوم الشاتي من ثقل الوحي الذي أنزل عليه، قالت: فلما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال (أبشري يا عائشة أما والله فقد برأك الله) فقالت لي أمي: قومي اليه، فقلت: والله لا أقوم اليه ولا أحمد إلا الله هو الذي أنزل براءتي"[٢٨٦]،

---

[٢٨٦] وردت الرواية في المصادر التالية، واللفظ منقول عن الطبراني:
بن حنبل، المصدر السابق، جـ٢٢، ص١١٦. والبخاري، المصدر السابق، جـ٦، ص١٢٧. و الترمذي، المصدر السابق، جـ٥،ص١٣ وقد ورد الحديث بلفظ يختلف بعض الشيء عما جاء في الرواية اعلاه. وكذلك الطبري، التفسير، المصدر السابق، جـ١٨، ص٧١. وكذلك الطبراني، المصدر السابق، جـ٢٣،ص٥١.وايضاً = =محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص٥٢. وايضاً الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٧٦. وقطب، محمد علي، المصدر السابق، ص٣٤.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)[٢٨٧].

ومن خلال القصة أعلاه التي وردت في العديد من المصادر بذات اللفظ أعلاه أو بشيء لايختلف عنه إلا بالقليل الذي يحافظ على المعنى نستنتج أمرين مهمين: أولهما ان حديث الافك لم يأتِ من فراغ فهو بني على حادثة شرحتها السيدة عائشة (رض) وهي الراوي وصاحب القصة في آن واحد، لذلك جاء وكأنه فيه شيء من الصحة استثمره اعداء الاسلام واعداء الرسول بالذات لتحقيق مآربهم الدنيئة من خلال محاولة المس بكرامة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لذلك فان الأمر في رأيي لا يتعدى كونه حرباً اعلامية ذات دوافع سياسية بحتة أراد بها عبد الله بن أبي بن سلول أن يوجد من خلالها حالاً من الخصام والبعد بين المسلمين وخاصة الأنصار منهم من جهة والرسول الكريم من

[٢٨٧] النور / الآيات من ١١-٢٠.

جهة أخرى، فبعد أن شاهد بأم عينيه السيدة عائشة وقد جاء بها صفوان بن معطل السلمي (رض) وهو صحابي جليل، استغل هذا الموقف وانطلق منه لاسيما وانه كان في حالة من الخلاف وعدم الانسجام مع الرسول منذ أن وطأ الرسول أرض المدينة حتى ذلك الحين تقول السيدة عائشة "مررنا بملأ من المنافقين وكانت عادتهم أن ينزلوا منتبذين من الناس فقال عبد الله بن أبي وهو رئيسهم مَن هذه؟ قالوا: عائشة وصفوان قال: والله ما نجت منه ولا نجا منها وقال امرأة نبيكم باتت مع رجل آخر حتى أصبحت ثم جاء يقودها"[٢٨٨] ومن هنا بدأ حديث الأفك اللعين فالذي أشاعه وأراد من خلال ذلك أن يحقق مكاسب سياسية وشخصية في آن واحد هو عبد الله بن أبي بن سلول فقد جاء عن ابن عباس في تفسير قوله (وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[٢٨٩] فيقول: هو عبد الله بن أبي بن سلول وكان من رؤساء المنافقين[٢٩٠] يؤيده في ذلك عروة بن الزبير (ت،٩٤هـ) حيث يقول: والذي تولى كبر الافك عبد الله بن أبي بن سلول حيث كان يشيعه ويتحدث به ويقره اما حسان ومسطح وحمنة بنت جحش فانهم تابعوه بالتصريح به[٢٩١].

اذاً فالحديث بدأ وهو لا يتعدى كونه مؤامرة الهدف منها ليس السيدة عائشة، بقدر ما كان المقصود منه الرسول أولاً والاسلام في المدينة ثانياً كان بطله ذلك المنافق الذي

---

[٢٨٨] الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٧٥.

[٢٨٩] النور / من الآية ١١.

[٢٩٠] ينظر: ابن هشام، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٠٣. الطوسي، المصدر السابق، جـ١٨، ص٤٩٥. الثعالبي، المصدر السابق، جـ٣، ص١١١.

[٢٩١] الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٧٥.

دخل الاسلام كرهاً والذي كان وفود الرسول الى المدينة قد خيب آماله بتتويجه زعيماً لأهلها فمن هو ابن أبي بن سلول؟

كان بن سلول (وسلول هي امرأة من خزاعة)[٢٩٢] سيداً لقومه قبل هجرة الرسول الى المدينة يقول ابن اسحق: "فأما عبد الله بن أبي فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه، ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه الى الاسلام ضغن (أي اعتقد العداوة) ورأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استلبه ملكاً. فلما رأى قومه قد أبوا إلا الاسلام، دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن"[٢٩٣].

لذلك كان عداؤه للرسول قديماً بدأ منذ أن قدم (صلى الله عليه وآله وسلم) بوجهه المشرق الوضاء الى يثرب فنوَّرها حتى بدلت اسمها وثوبها وأصبحت مدينة الرسول المنورة، ومن هذا المنطلق كان دخول بن سلول الى الاسلام أمراً فرضه عليه الواقع، لذلك تعامل معه على انه غطاء لا بد من توظيفه لتمرير دسائسه ومؤامراته ضد الاسلام. وبالنظر لزعامته التي سبقت الاسلام في المدينة فقد استطاع أن يجند العديد من المنافقين للعمل معه بالاتجاه الذي يصب في خدمة أعداء الاسلام كوديعة وهو رجل من بني عون ومالك بن أبي قوفل وسويد وداعس فكانوا يدسون الى بني النضير حين حاصرهم الرسول ان اثبتوا فوالله لان خرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً وان قوتلتم لننصرنكم يقول ابن هشام فأنزل الله فيهم (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ

---

[٢٩٢] ابن هشام، المصدر السابق، جـ٨، ص٤٤٦.

[٢٩٣] المصدر نفسه، ص٥٨٥.

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)[٢٩٤].

وفي غزوة بني المصطلق التي سبقت حادثة الافك بأيام، كان بن أُبي بن سلول حاضراً وعند منبع ماء المريسيع حيث تشاجر قوم من المهاجرين مع مثلهم من الأنصار فغضب بن سلول اذ جاء الشجار ملبياً لرغباته حيث قال لقومه وفيهم زيد بن الأرقم وهو غلام حدث أو قد فعلوها، نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما اعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على قومه قائلاً: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم، فسمع ذلك زيد فوشى به الى الرسول، فغضب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وارتحل من ساعته، فجاءه أُسيد بن حضير قائلاً: يا نبي الله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له الرسول: اوما بلغك ما قال صاحبكم؟ ثم حدثه بما حدثه به زيد فقال أسيد: يا رسول الله والله لتخرجه أنت منها ان شئت فهو الذليل وأنت العزيز، ثم قال: ارفق به يا رسول الله فوالله لقد جاءنا الله بك وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فانه ليرى انك قد سلبته ملكاً[٢٩٥].

هذا هو عبد الله بن أُبي بن سلول وهذه الدوافع التي دفعته لاشاعة حديث الافك أما الأمر الثاني المستنتج من حديث الافك، فهو سرد قصة الافك أعلاه على لسان السيدة عائشة (رض) التي ذكرت القصة كاملةً وهي لا تعلم بحديث الناس إلا من أم مسطح التي أبلغتها بمشاركة مسطح بالحديث، أما ما يتعلق باستشارة الرسول لكل من الامام

---

[٢٩٤] المصدر نفسه، ص٥٢٧، والآية ١١ من سورة الحشر.

[٢٩٥] ابن هشام، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٩١.

علي (عليه السلام)، واسامة بن زيد (رض) فلم يذكر لنا الراوي كيف استدلت عليه السيدة ومن الذي أبلغها به، فهو لم يحدث أمامها وقد ورد التطرق اليه حين كانت السيدة في بيت أبيها*، وفي الوقت الذي يرى فيه الدكتور حسين علي محفوظ بأن الامام قد برأ السيدة من خلال استجوابه للجارية اذ ان كلام الجارية باعتبارها شاهد اثبات قد أزاح الكثير من الإشكالات ومهد الطريق للبراءة التي توَّجَتْ في آيات الذكر الحكيم المشار اليها أعلاه[٢٩٦]. أرى أنا ان هذا الأمر الذي يبدو وكأن أسامة وعلياً قد وقفا موقفين مختلفين، قد حُشر حشراً في القصة، خاصة اذا أخذنا التفاوت في نقل قول الامام للرسول بالذات وشدة موقفه من الموضوع، فالمصادر أعلاه أشارت بأن الامام قال للرسول ما قاله أعلاه في الوقت الذي يضيف ابن هشام سلوكاً آخر للامام حيث يقول (قالت: -يعني السيدة عائشة- فدعا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه واسامة بن زيد فاستشارهما،

---

* لم تذكر السيدة عائشة (رض) المكان الذي سأل فيه الرسول كلا من الامام علي وأسامة بن زيد من خلال سياق حديثها وهذا يستدعي أن السؤال كان في بيت الرسول وأمام ناس أوصلوا ما قاله الطرفان الى السيدة، وهذا ما لم يتم ذكره في سياق القصة، إلا أن هناك من فهم أن السؤال كان في بيت أبي بكر وأمام عائشة تقول زاهية قدورة في كتابها عائشة أم المؤمنين ما يلي: دخل الرسول الى بيت أبي بكر وهو لا يزال متكمتاً لانه أراد أن يتحقق فدعا علياً وأسامة ليستشيرهما فيما يصنع فكان جواب أسامة (يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً، فيما كان جواب علياً النساء سواها كثير، وأشار عليه أن يسأل جاريته بريرة حيث تولى علي ضربها ضرباً شديداً لكي تقول الحق، قدورة، زاهية مصطفى (الأستاذة)، عائشة أم المؤمنين، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٢م، ص١٣٨، وهذا في رأيي غير صحيح لان السيدة لم تذكر المكان أولاً، ولأن الامام علي لا يمكن أن يضرب انساناً دون أن يكون له ذنب يستوجب الحد أو القصاص، وهذا بحد ذاته افتراء وكذب آخر يضاف الى الكذب والافك الذي أشيع ضد السيدة عائشة، على الرغم من أن قدورة استندت بنقلها رواية الضرب على رواية ابن هشام، إلا أن قولها دخل النبي الى بيت أبي بكر وحدث ما حدث هذا ما لم يتلائم مع سير الحدث.

[٢٩٦] في احدى المقابلات التي أجريت مع الدكتور حسين علي محفوظ وهو يتناول موضوع الدراسة ويبدي رأيه في فصولها.

فأما اسامة فأثنى عليّ خيراً ثم قال: يا رسول الله، أهلك ولا تعلم منهم إلا خيراً وهذا الكذب والباطل، وأما علي فأنه قال: يا رسول الله ان النساء لكثير، وانك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية، فأنها تصدقك، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بريرة يسألها، قالت: فقام اليها علي بن أبي طالب فضربها ضرباً شديداً وهو يقول: أصدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: فتقول والله ما اعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أني كنت أعجن عجيني لآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتي الشاة فتأكله)[٢٩٧].

وهذا الاختلاف والزيادة في قول السيدة عن قولها المنقول في المصادر أعلاه يؤكد صحة ما ذهبنا اليه، فضلاً عن ذلك فأن الديار بكري ينقل الرواية التالية والتي تخالف الى حد بعيد ما جاء بخصوص قول الامام سواء في المصادر أعلاه أو ما أضافه ابن هشام، يقول الديار بكري: "وروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الأيام كان أكثر أوقاته في البيت فدخل عليه عمر فاستشاره في تلك الواقعة فقال عمر يا رسول الله احمي سمعي وبصري والله انا قاطع بكذب المنافقين لأن الله عصمك من وقوع الذباب على جلدك لأنه يقع على النجاسات فيتلطخ بها، فلما عصمك الله تعالى من ذلك القدر من القذر فكيف لا يعصمك عن صحبة من تكون متلطخة بمثل هذه الفاحشة فاستحسن صلى الله عليه وسلم كلامه وقال عثمان ان الله ما اوقع ظلك على الارض لئلا يضع انسان قدمه على ذلك الظل أو تكون تلك الأرض نجساً فلما لم يكن أحد من وضع القدم على ظلك كيف يمكن أحد من تلويث عرض زوجتك، وقال علي يا رسول الله كنا نصلي خلفك فخلعت نعليك في أثناء الصلاة فخلعنا نعالنا فلما أتممت الصلاة سألتنا عن سبب الخلع فقلنا

---

[٢٩٧] ابن هشام، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٠١.

الموافقة، فقلت أمرني جبريل باخراجهما لعدم طهارتهما، فلما أخبرك أن على نعلك قذراً وأمرك باخراج النعل عن رجلك بسبب ما التصق به من القذر فكيف لا يأمرك باخراجها بتقدير أن تكون متلطخة بشيء من الفواحش"[٢٩٨]. ثم يقول وفي المشكاة للطيبي عن أبي سعيد الخدري (رض) مثله[٢٩٩].

هذا ما يمكن استنتاجه من رواية الافك اللعينة التي استهدفت الرسول وكرامته ومركزه المرموق، لذلك وقف الله تعالى مع نبيه وأنزل ما يبرأ زوجته من الطعون الموجهة ضدها رأفة بالرسول واعتزازاً به وبمكانته الطاهرة الشريفة يقول النيسابوري "لقد برأ الله أربعة بأربعة برأ يوسف عليه السلام بلسـان الشاهـد وشهد شاهد من أهلها وبرأ موسى (عليه السلام) من قول اليهود فيه بالحجـر الذي ذهب بثوبه وبرأ مريم بانطاق ولدها حين نادى من حجرها أني عبد الله -الآية- وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنبيه على إنافة سيد ولد آدم وخير الأولين والآخرين وحجة رب العالمين"[٣٠٠].

---

[٢٩٨] الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٧٧.

[٢٩٩] المصدر نفسه.

[٣٠٠] النيسابوري، المصدر السابق، جـ١٨، ص٧٠ وانظر ايضاً: الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٤٧٨.

ثانياً: حياتها بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

عندما غادر الرسول الحياة الدنيا كان عمر السيدة عائشة (رض) ثمانية عشر عاماً[٣٠١] وفي حسابات العمر والشباب وما يترتب عليه من وقائع اجتماعية فان السيدة عائشة كانت من أكثر المتضررات من نساء النبي من خلال كونهن أمهات المؤمنين[٣٠٢] وما ترتب على ذلك من عدم تمكنهن من الزواج بعد الرسول، فالتي يطأها الرسول لا يطأها غيره وهذا واحد من دلائل أهميته في الحياة وعظمته وقيمته عند ربه.

نساء الرسول بدءاً بالسيدة زمعة وصولاً الى آخر زوجة تزوجها كن أولاً نساءً لغيره حيث كان الرسول الزوج الثاني وهذا الأمر يدلل على أنهن كُنَّ في عمر متقدم لا يمكنهن الزواج بعد الرسول حتى لو كان ذلك مسموحاً وثانياً فان من كانت منهن لا زالت في سن الشباب كصفية وحفصة وجويرية (رضي الله عنهن) فانهن كن قد تزوجن قبل الرسول، أما الوحيدة التي لم يطأها رجل قبل الرسول هي السيدة عائشة (رض) وهذه ميزة تسجل

---

(٣٠١) ابن حبيب، المصدر السابق، ص٨١.وايضًا البلاذري، المصدر السابق، ص٤٠٩. الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٣٥٨.

(٣٠٢) اشارة الى الآية الكريمة ((النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه امهاتهم)) الأحزاب من الآيـة/٦، والمؤمنون هنا هم الرجال فقط ولا يسري القول على النساء لأن المطلوب من الآية هو أن نساء الرسول لا يستطيع أحد أن يتزوجهن بعده، فقد جاء عن السيدة عائشة قولها لاحدى النساء واسمها مليس حين قالت لعائشة يا أماه فأجابتها السيدة انا لست أُمَكن ولكن أختكُن، ابن حنبل، المصدر السابق،جـ٢،ص١٢٤، يعلق الساعاتي في شرح المسند فيقول: (وفيه أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين الرجال لا النساء ويعني ذلك تحريم نكاحهن، نفس المصدر. وفي رأيي أن عملية تحريم نكاح نساء الرسول من بعده، لم يأتِ لأهميتهن كما يتصور البعض، بل لأهمية الرسول كونه وطأهن ولا يصح لمن وطأها الرسول أن يطأها غيره وهذا في حد ذاته تكريم للرسول ذاته، لأهمية جسده الشريف ويديه الكريمتين.

لها، لذلك فان مغادرة الرسول للحياة وعائشة في سن الشباب مع عدم قدرتها على الزواج لخصوصيتها كما أشرنا فهذا يعني ان السيدة دفعت ثمن كونها أم المؤمنين وكان ثمناً اذا قيسَ بمقياس الرغبات النفسية والجسدية خاصة وأن السيدة عائشة ليس لها أطفال يسدون عليها المنافذ (رغم انهم لم يكونوا عائقاً أمام زواج الأمهات في تلك الفترة) فسيكون ثمناً باهظاً.

كانت هناك عوامل عدة ساعدت السيدة على أن يكون لها دور كبير بعد وفاة الرسول كان واضحاً في جانبين مهمين أولهما الجانب العلمي والثاني الجانب السياسي ومن تلك العوامل ما يلي:

أ. كان لعلاقة الرسول بأبي بكر تلك العلاقة الأزلية القوية تأثير كبير على وضع السيدة عائشة داخل البيت النبوي حيث كانت من أقرب نساء الرسول للرسول ونظراً لصغر سنها فقد تعامل معها الرسول بانسانية آخذاً بنظر الاعتبار حاجة الانسان في تلك الفترة الى رعاية وحنان واهتمام كي يستطيع أن يبني شخصيته بشكل طبيعي.

ب. هذا الأمر انعكس ايجابياً على مجمل ما اكتسبته السيدة عائشة من بيئتها التي أثر فيها الرسول كثيراً حتى اصبحت بيئة ملائمة جداً لأن ينمو فيها الانسان على الشمائل الحسنة والخصائص النبيلة.

ج. كان قربها من الرسول قد أثر ايجابياً في قدراتها الذاتية واستعداداتها النفسية التي وظفتها بعد وفاة الرسول باتجاه استطاعت من خلاله تحقيق شهرة كبيرة على المستوى العلمي والفكري، يقول البلاذري (قيل لعائشة: يا أم المؤمنين هذا القرآن تلقيته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك الحلال والحرام، وهذا الشعر والنسب وأحاديث الناس سمعتيها عن أبيك وغيره فما بال الطب؟ قالت: كانت

الوفود تأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يزال الرجل يشكو علة به فيسأله عن دوائها فيخبره بذلك فحفظت ما كان يصفه لهم)[٣٠٣].

د. كان الرسول دائم الحركة والحديث والتوجيه لذلك كانت السيدة عائشة قد ركزت على ما كان يقوم به ويهتم به ويحدث الآخرين بشأنه سواءٌ على المستوى الأسري أو المستوى العام، فنقلته الى الصحابة والتابعين الذين أبهرهم موقعها ومركزها الاجتماعي فنقلوا أحاديثهم عنها باعتبارها من أقرب النساء الى الرسول.

هـ كان موقعها باعتبارها زوجة النبي ثم موقعها باعتبارها ابنة الخليفة الأول بعد وفاة الرسول، هذا الموقع وظفته السيدة عائشة كثيراً ليكون منطلقاً لها للعمل السياسي فيما بعد.

و. ربما يسأل سائل بأن السيدة حفصة قد امتازت ايضاً فيما يتعلق بالفقرة (هـ) أعلاه، بنفس امتيازات السيدة عائشة لكنها ما وظفت ذلك لصالحها. أقول ان نشاط السيدة عائشة وجمالها وحنان الرسول عليها وحبه لها قد شجعها كثيراً على المضي قدماً في مشروعها السياسي فيما بعد بالوقت الذي حددت فيه الظروف الذاتية والموضوعة للسيده حفصة من الانطلاق في ذات المشروع[٣٠٤].

---

[٣٠٣] البلاذري، المصدر السابق، ص٤١٦، وانظر ايضاً: الذهبي، المصدر السابق، جـ٢، ص١٩٧.

[٣٠٤] يقول ابن كثير: (وكانت حفصة بنت عمر أم المؤمنين قد وافقت عائشة على السير الى البصرة فمنعها أخوها عبد الله من ذلك). ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، ص٢٣١.

١- السيدة عائشة (رض) واثرها العلمي والفكري بعد وفاة الرسول

لم يكن للعرب في الجاهلية علوم بالمعني الدقيق المجرد للعلوم، بل كانت هناك معارف متفرقة ومعلومات في أمور شتى مستنبطة من البشر وطبيعة الحياة المفتوحة على الآفاق أخذتها الأجيال جيلاً عن آخر، إلا أنها وبعد ظهور الاسلام أخذت بالارتقاء والتطور[٣٠٥] متأثرةً بما جاء به الاسلام من مبادئ تحث على العلم وضرورة اتيانه لأهميته في الحياة.

أصبحت المدينة بعد وفاة الرسول وخلافة الراشدين تعج بالمسلمين القاصدين اليها من الأمصار لحاجتهم الماسة لمعرفة أمور دينهم، وكانوا يقصدونها لسببين أولهما لأنها عاصمة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والخلفاء من بعده، وثانيهما انها الوطن الأصلي للصحابة[٣٠٦].

وهذا الأمر دفع بالصحابة وخاصة أصحاب الشأن منهم بأن يؤسسوا لعلوم جديدة منظمة شقت طريقها الى الوجود وهي العلوم الاسلامية والتي تشمل علوم القرآن والحديث والفقه[٣٠٧] ثم تلتها علوم أخرى في السيرة النبوية والمغازي[٣٠٨]. ومن هنا يمكن القول بأنه استجابة للأحداث الدينية والاجتماعية والسياسية وأهميتها في حياة الفرد المسلم أصبحت المدينة المنورة بعد وفاة الرسول وعهد السيدة عائشة مركزاً للحياة العلمية ونقطة ارتكاز للحياة الاسلامية بشكل عام[٣٠٩]، حيث جذبت اليها رجالات العرب

---

[٣٠٥] ينظر: قدورة، المصدر السابق، ص١٨٩.

[٣٠٦] مصطفى، شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ص١٤٩.

[٣٠٧] قدورة، المصدر السابق، ص١٩٠، وايضاً مصطفى، المصدر السابق، ص١٤٩.

[٣٠٨] ينظر: سالم، المصدر السابق، ص١٩٠.و مصطفى، المصدر السابق، ص١٤٩ وما بعدها.

[٣٠٩] قدورة، المصدر السابق، ص١٩٠.

وعقلائها[٣١٠] بعد أن نشأت فيها أولى المدارس الفكرية وهي مدرسة المدينة[٣١١]. التي كان لابن عباس فضل كبير بتأسيسها[٣١٢] وهو الذي أخذ علومه عن ابن عمه الامام علي[٣١٣] (عليه السلام) في تلك الفترة كان للسيدة عائشة دور كبير بايصال سلوك الرسول البيتي وهو ما يسمى بالسنّة الفعلية أي ما كان يفعله الرسول ويقوم به من تطبيقات ميدانية على مستوى الأسرة أما أقواله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتسمى بالسنّة القولية، ولولاها لضاع على المسلمين الكثير من أفعال الرسول[٣١٤].

يروي الترمذي في صحيحه عن أبي موسى الأشعري قوله: "ما أشكل علينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً)[٣١٥]. على الرغم من أن السيدة عائشة برز اثرها العلمي في رواية الحديث حيث جاءت في المرتبة الأولى برواية الحديث من نساء الرسول حين روت ما مقداره (ألفان ومائتان وعشرة أحاديث، مائة واربعة وسبعون متفق عليه، افرد لها البخاري اربعة وخمسين حديثاً، ومسلم تسعة وستين حديثاً، والباقية في سائر الكتب"[٣١٦]. إلا أن ذلك لا

---

[٣١٠] المصدر نفسه.

[٣١١] مصطفى، المصدر السابق، ص١٤٩.

[٣١٢] مصطفى، شاكر، المصدر السابق، ص١٥٠.

[٣١٣] ينظر:، ابن ابي الحديد، المصدر السابق، جـ١، ص٣٦.

[٣١٤] الراوي، عجيل جاسم، عائشة أم المؤمنين (رض) وجهودها في التفسير، رسالة ماجستير في أصول الدين، كلية العلوم الاسلامية، جامعة بغداد، ٢٠٠٠م، ص٦٩.

[٣١٥] الترمذي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٦٥.

[٣١٦] الذهبي، المصدر السابق، جـ٢، ص١٣٩. الديار بكري، المصدر السابق، جـ١، ص٣٥٩. يختلف محب الدين الطبري عن كل من الذهبي والديار بكري على الرغم من انه أقدم منهما فيقول (قال الحافظ عبد الغني وغيره روي لها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف وعشرة أحاديث، اتفقا منها على مائة=

يعني اقتصار اثرها على الرواية فقط، فقد عدها ابن طيفور من البلغاء ونقل لها أكثر من خطبة في كتابه "بلاغات النساء"[٣١٧].

أبو نعيم الاصبهاني في حليته أفرد لها ست صفحات تحدث فيها عن سيرتها بكل عام مركزاً على دورها العلمي[٣١٨]. الشيرازي في طبقات الفقهاء عدها منهم وأفرد لها صفحة تحدث فيها عن دورها العلمي[٣١٩]. أما قدورة فقد عدتها من جملة العلماء الستة دون أن تذكر المصدر الأصلي للمعلومة فتقول "وتعد عائشة من جملة الستة الذين هم أكثر الصحابة علماً"[٣٢٠] ثم تعد الصحابة الستة في هامش الصفحة معتمدة على أحمد أمين في فجر الاسلام حيث يقول اشتهر من الصحابة ستة عدوا الطبقة الأولى في العلم، ويختلف العادون في بعضهم فيضعون واحداً مكان الآخر وهم عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس وزيد بن ثابت[٣٢١].

وبهذا تضع قدورة السيدة عائشة فوق ابي الدرداء علمياً وهذا ما يتنافى مع ما جاء به الشيرازي حيث نقل عن مسروق قوله "انتهى العلم الى ثلاثة، عالم بالمدينة وعالم بالشام وعالم بالعراق فعالم المدينة علي بن أبي طالب، وعالم الشام أبو الدرداء، وعالم العراق عبد الله بن مسعود، فاذا التقوا سأل عالم الشام وعالم العراق عالم المدينة ولم

=وأربعة وسبعين، انفرد البخاري باربعة وخمسين ومسلم بثمانية وستين)، محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص٦٠.

[٣١٧] ابن طيفور المصدر السابق، ص٧.

[٣١٨] ابن نعيم المصدر السابق، ص٣٤ وما بعدها.

[٣١٩] ابو اسحق الشيرازي الشافعي، (ت، ٤٧٦هـ)، طبقات الفقهاء، دار الرائد العربي، بيروت، ص٥٧

[٣٢٠] قدورة، المصدر السابق، ص١٩٧.

[٣٢١] المصدر نفسه.

يسألهما"[٣٢٢]. وقد جاء في كتب الحديث عدداً من الأحاديث في فضل السيدة عائشة منها ما نقله الترمذي عن أنس بن مالك (رض) قوله قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم "فضل عائشة على النساء فضل الثريد على الطعام"[٣٢٣]. يعلق القسطلاني على نص الحديث بالقول "هذا لا يلزم منه ثبوت الافضلية المطلقة بل يخص نساء هذه الامة كما أشار ابن حيان وكما أفاده في الفتح الى أن أفضليتها التي يدل عليها هذا الحديث مقيدة بنساء النبي صلى الله عليه وسلم وحتى لا يدخل فيها مثل فاطمة (عليه السلام) جمعاً بينه وبين حديث الحاكم، أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة"[٣٢٤]. وقد ورد الحديث الذي أشار له القسطلاني في كتب الحديث حيث اشرنا له اثناء حديثنا عن السيدة أم المؤمنين خديجة (عليها السلام).

٢- السيدة عائشة(رض) واثرها السياسي بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

كان للسيدة عائشة دوراً سياسي كبير أخذ بالاتساع منذ منتصف خلافة الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض) حتى بلغ أشده مطلع خلافة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وذلك أثناء معركة الجمل الكبيرة سنة ٣٦ هـ[٣٢٥]، وهذا الأثر مختلف

[٣٢٢] الشيرازي، المصدر السابق، ص٤٢.

[٣٢٣] الترمذي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٦٥ وينظر ايضاً: ابن الأثير، أسد الغابة، المصدر السابق، ص١٩٠، والذهبي، المصدر السابق، جـ٢، ص١٤٤.

[٣٢٤] القسطلاني، شهاب الدين أبو العباس، (ت، ٩٢٣هـ)، ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري، جـ٦، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة١٣٢٥هـ ص١٤٢.

[٣٢٥] الطبري، التاريخ، جـ٤، ص٥٠٨.

عليه[٣٢٦] على الرغم من ان المصادر التاريخية[٣٢٧] تكاد تكون قد أجمعت على أن السيدة عائشة (رض) قد ندمت على خروجها من بيت الرسول وتجاوزها الآية الإقرار التي جاءت في سورة الأحزاب[٣٢٨] بعد أن تم معاملتها معاملة تليق بها كأم للمؤمنين من قبل غرمائها السياسيين وعلى رأسهم الخليفة الذي خرجت ضده وهو الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام) لذلك ارتأينا أن نكتفي بهذه الاشارة فقط كون التوسع بالموضوع لا يخدم الهدف الأخلاقي للبحث.

---

[٣٢٦] ينظر: ابن العربي، القاضي أبو بكر، (ت، ٥٤٣هـ)، العواصم من القواصم، تحقيق محب الدين الخطيب، مجهول الطبعة، ص١٤٧.

[٣٢٧] ينظر: كل من: ابن حنبل، المصدر السابق، جـ٢٢، ص١٢٦.محب الدين الطبري، المصدر السابق، ص٦٦. ابن كثير، البداية والنهاية، المصدر السابق، جـ٥، ص٩٤. د. يقول الذهبي، في سير أعلام النبلاء عن عاصم عن أبيه قوله انتهينا الى علي (رضي الله عنه) فذكرنا عائشة فقال خليلة رسول الله. يعلق الذهبي على ذلك قائلاً (وهذا يقوله أمير المؤمنين في حق عائشة مع ما وقع بينهما فرضي الله عنهما ولا ريب ان عائشة قد ندمت ندامة كلية على مسيرها الى البصرة وحضورها يوم الجمل وما ظنت أن الأمر يبلغ ما بلغ، فعن عمارة بن عمير عمن سمع عائشة اذا قرأت –وقرن في بيوتكن- بكت حتى تبل خمارها). الذهبي، المصدر السابق، جـ٢، ص١٧٧. أما صاحب السيرة الحلبية فيقول (وبكت عائشة (رض) بكاءً كثيراً وقالت وددتُ أني متُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة. الحلبي، المصدر السابق، جـ٣، ص٣٢٣.

[٣٢٨] اشارة الى الآية (وقرن في بيوتكن)، الأحزاب / من الآية ٣٣.

الخاتمة

ونحن نصل الى خاتمة البحث لا بد من الوقوف أخيراً في وريقات نختصر فيها ما تم تناوله من أحداث تاريخية وروايات أشار لها المؤرخون ومعلومات وصلت الينا من مصادر الأمس وعلى رأسها القرآن الكريم تم اعتمادها في أصل البحث والاستناد اليها في البناء العلمي للأطروحة، فالفصول العشرة التي احتواها البحث كانت غنية بالأحداث، والنساء اللواتي كن مصدر البحث كانت لهن من المواقف الشيء الكثير منها ما يعد سلبياً كما أشار لذلك الذكر الحكيم وهو ما يتعلق بامرأتي نوح ولوط عليهما السلام، ومنها ما يعد ايجابياً ومشرّفاً كمواقف نساء الرسول الكريم محمد بن عبد الله (ص) وكذلك نساء النبي إبراهيم والنبي أيوب وأمهات كل من النبيين موسى وعيسى عليهما السلام. ومنها ما يعد ذا خصوصية فرضتها طبيعة الظرف الذي عاشته تلك المرأة التي اعتمدناها زوجة لنبي كحواء امرأة النبي آدم، وزليخا امرأة النبي يوسف عليهما السلام.

وبعد أن كان الفصل الأول بمثابة مدخل للبحث تطرقنا فيه إلى وضع المرأة في الحضارات القديمة كان الفصل الثاني نقطة البداية التي انطلقنا منها الى حيث بقية الفصول التي جاءت بالتعاقب بناءً على التسلسل الزمني لوقوع أحداثها.

فحواء التي كانت محطتنا الأولى كما أشرت توقفنا عندها في فقرات ثلاث غطينا بها ما يمكن تغطيته من حياتها بدءاً من خلقها في الجنة، ثم اثرها في الخطيئة التي حدثت والتي على أثرها قال تعالى ((اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)) الأعراف من الآية (٢٤). ثم بعد ذلك ذهبنا مع مصادر التاريخ الي حيث الحدث الأول على الأرض لنرى كيف عاشت حواء كأول زوجة على الأرض وما هي مواقفها الحياتية، وكيف استطاعت بصبرها وجلدها أن تعيش دون أنيس أو قرين من جنسها سوى بناتها لتؤسس بذلك لبناتها على الأرض منظومة حياتية بدأت بها المرأة حياتها

على الأرض وهي تتحدى الصعاب وتمارس اثرها كأنثى في رسم الخطـوط الأولى للحيـاة على الأرض بعد أن غادرت حياة الاسترخاء في جنات النعيم، فحواء اذاً هي أول من عجنت وخبزت وهي أول امرأة وأول زوجة وأول جدة على وجه الأرض، عاشت حزن الـدنيا بعـد نعيم الجنة، نعت ابنها وبكته بأول قلب عرف نكبات الحياة ومآسيها دون أن تـشاركها أنثى بذلك ودون أن تجلس الى جانبها وهي تنعى ابنها أيـة صـديقة أو جـارة أو رفيقـة تخفف عنها الهموم وتشاركها الأحزان.

أما والعة أو (ولعب بنت عجويل) وهي امرأة نوح المشار اليها في الآيـة العـاشرة مـن سورة التحريم بقوله تعالى ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُـوطٍ كَانَتَـا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيـلَ ادْخُـلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)) هذه المرأة كانت محور الفصل الثالث من بحثنا عـن نـساء الأنبيـاء وأمهاتهم واثرهن التاريخي، إذ كانت واحـدة مـن امـرأتين تزوجهمـا النبـي نـوح (ع) احداهما كانت صالحة والأخرى عكس ذلك اشـار لهـا القـرآن دون أن يتطـرق الى الأولى باعتبارها كانت سائرة والحدث التاريخي باتجاه واحد مما يستدعي عدم التوقف عندها لعدم خصوصيتها وهذا هو تحليلنا للأمور بعد أن وجدنا روايات لمؤرخين يؤكـدون عـلى وجود امرأتين لنبي الله نوح (ع).

كانت والعة قد خانت نبي اللـه نـوح خيانـة عقائديـة وليـست الخيانـة الجـسدية الاعتيادية كما يتصورها البعض اذ كانت على دين غـير دينـه وقـد وقفـت بالـضد مـن توجهاته وسلوكه وكانت تستهين بدوره الفكـري والعقائـدي وتـصف دعوتـه الى اللـه بالجنون وقد جاء في تفسير البحر المحيط لأبي حيان عن الضحاك قوله خانت امرأتا نوح ولوط زوجيهما بالنميمة والنفاق. أما ما يتعلق بتفسير قوله تعالى ((قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)) هود من الآية ٤٦، فان للجزائري في قصص الأنبيـاء رَأْيـاً بذلك فيقول: المراد بذلك أنه ليس على دينك فكأن كفره أخرجه من أن يكـون لـه احكـام

أهله ثم يقول وهذا كما قال النبي (ص) سلمان منا أهل البيت، وإنما أراد أن يقول على ديننا. ومن هنا فان خيانة امرأة نوح كما أشرنا هي خيانة عقائدية ومبدئية حيث وقفت نداً لزوجها وساهمت بشكل مباشر في افشال دعوته.

سارة وهاجر، أشهر من نار على علم فهما زوجتان صالحتان لنبي الله ابراهيم عليه السلام توقفنا عند اثرهما التاريخي الكبير في الفصل الرابع، السيدة سارة كانت الزوجة الأولى فهي ابنة عمه خاران بن ناحور بناءً على عدد مهم من الروايات، كانت سيدة جميلة بل رائعة الجمال وهي من أجمل النساء كما يقول المؤرخون فضلاً عن ذلك كانت مؤمنة بإبراهيم ومتمكنة مادياً وضعت امكانيتها لخدمته وخدمة دعوته الى الله تبارك وتعالى، سافرت معه الى الشام ومصر بعد أن غادر الطرفان العراق مسقط رأسيهما، كانت سارة امرأة ذات شخصية قوية ومؤثرة وعلى الرغم من أنها كانت عاقراً كما أشار لذلك القرآن الكريم إلاّ أن إبراهيم كان حبه لها أزلياً ولم يفكر رغم رغبته الجامحة بالذرية أن يتزوج غيرها لتأثيرها الكبير على سايكولوجية حبه لها واعتزازه بها وكونها مصدر الهامه ورفيقة دربه والمرأة التي ما تهاونت أبداً في تقديم خدماتها له ودعمه مادياً ومعنوياً. وبعد أن يئست من قدرتها على الانجاب عملت على تزويجه من امرأة أخرى، وهنا دخلت هاجر في حياة الطرفين وبقرار من سارة ذاتها، ومن هنا نرى أن لسارة اثراً كبيراً في توجهات حياة ابراهيم الاجتماعية كي يتفرغ ابراهيم لدوره الكبير كنبي عظيم.

هاجر الزوجة الثانية لإبراهيم كانت هي الأخرى ذات هيئة وجمال وقدرة على الفعل المؤثر تحملت ما لم تتحمله أنثى من الغربة والابتعاد عن زوجها وبيئتها انسجاماً مع أمر الله الذي وهب لإبراهيم من هاجر نبياً هو اسماعيل عليه السلام الذي أراد الله تعالى أن يجعل من هاجر وإسماعيل النواة التي شكلت فيما بعد تواجداً اجتماعياً كبيراً قرب البيت الحرام، فكانت هاجر أم الطفل الذي أكرمه الله بنبع زمزم الذي كان مصدراً

لاستقرار عشائر الجزيرة العربية وعلى رأسهم عشيرة جرهم التي استقرت قرب النبع بعد أن أخذت موافقة هاجر. وهكذا عاشت هاجر بين نبيين حققت لأولهما رغبة بأن يكون اباً لولدٍ صالح وساعدت الثاني على أن يشب على الايمان والقوة والصبر فلا يعصي لأبيه أمراً حتى كرمه الله بأن جعل ذريته تملأ الأرض بعد أن كان وحيداً مع أمه في وادٍ غير ذي زرع بجوار بيت الله الحرام وليجعل منهم آخر أنبيائه ورسله وهو النبي المصطفى محمد بن عبد الله (ص).

امرأة لوط، واسمها واعلة كما يقول الثعلبي أشار لها القرآن الكريم تسع مرات ووصفها بالخائنة وقال عنها عجوزاً في الغابرين في العديد من آيات الذكر الحكيم. كانت واعلة شأنها شأن امرأة نوح وقفت بالضد من زوجها وخانته خيانة عقائدية إذ كانت تختلف وإياه بالتوجيه الفكري والعقيدة التي تؤثر في سلوك الانسان نحو الايجاب أو السلب. فوقفت مع قومها الذين هم أعداء زوجها قلباً وقالباً فكانت تتحالف معهم ضد النبي لوط وتدلهم على ضيوفه بوسائل عدة تدلل على قدرتها على الفعل السلبي المؤثر فكانت امرأة ماكرة متمردة صاحبة فكر رديء ومتخلف بعيد عن المنطق وعن ما كان يدعو اليه النبي لوط (عليه السلام) وبذلك ساهمت مساهمة فعالة بانتشار الفساد وشيوع ظاهرة اللواط في مجتمع سدوم، لذلك حق عليها العذاب عندما قال تعالى في واحدة من السور الثمان التي ورد اسم امرأة لوط فيها في الآية ٥٧ من سورة النمل ((فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنْ الْغَابِرِينَ)).

زليخا امرأة العزيز وكما أطلقنا عليها عاشقة النبوة لأنها عشقت يوسف وأحبته حباً أشار اليه القرآن قائلاً ((وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا)) يوسف/من الآية٣٠. وشغفها حباً هنا أي حجبها عن الناس فلا تعقل غيره والشغاف هو حجاب القلب كما يؤكد ذلك الطباطبائي في تاريخ الأنبياء.

ورغم أن القرآن لم يشر الى زواج يوسف من زليخا إلاّ أن المفسرين كادوا أن يُجمعوا على أن يوسف عندما جعله فرعون مصر الريان بن الوليد على خزائن مصر بوأه المركز السياسي الذي كان يحتله القطفير عزيز مصر قبل وفاته، وزوجه امرأته أيضاً.

على الرغم من أن العديد من المفسرين والمؤرخين أساءوا تفسير قوله تعالى ((وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)) يوسف/من الآية ٢٤، إلاّ أننا توصلنا الى نتيجة مفادها أن علاقة زليخا بيوسف كانت علاقة بريئة يملأها الحب، فقد أحبته لذلك راودته ولم تكن تقصد الممارسة الجنسية لمجرد كونها ممارسة فقط أما هو فقد كان عليه السلام من عباد الله المخلصين الذين لا يمكن لهم أن يستهينوا بعلاقتهم الروحية بالله تعالى. أما الموقف التاريخي الكبير الذي وقفته زليخا هو ما آلت اليه الأمور في نهاية المطاف وأصبحت زوجة له أعانته على القيام بأثره الريادي في التأثير بالحياة المصرية آنذاك من خلال دوره السياسي والعمراني والاقتصادي، والذي أشار له القرآن الكريم.

رحمة زوجة النبي أيوب كان لنا معها وقفة من خلال الفصل السابع من البحث، الذي جاء تحت عنوان رحمة امرأة أيوب "وراء كل صابر صابرة"، فرحمة رحمها الله كانت خير زوجة لنبي كريم صبر على ضياع ماله وموت أبناءه وتفكيك أسرته وتحوله من حالة النعيم والحياة الهانئة الى حال العوز والمرض والسقم الذي خيّم على حياته فأفسدها مما جعله يعاني ويكابد وهو صابر محتسب لم يفارق طريق الهدى والحق أبداً، فوقفت الى جانبه حين تخلى عنه حتى أخوته، وأقرب الناس اليه، فكانت له فضلاً عن كونها زوجة كانت له ممرضة تداوي جراحه، وقلباً كبيراً تحمل طلباته، ويداً كريمة تمسد على جسده عله يشفى يوماً ويعود كما كان قوياً معافى، فصبر أيوب أُديم واستمر بصبر آخر كان بمثابة دافع قوي دفعه الى الأمام هو صبر زوجته رحمة التي صبرت فأضافت الى صبر زوجها طعماً آخر هو طعم الصبر النسائي الذي اشتهرت به حواء صاحبة القلب الكبير الذي احتوى أبناء آدم فكانت أماً عظيمة، وزوجة فعالة، وامرأة

تعرف جيداً قيمة وأهمية أثرها الكبير في الحياة، فكانت تستحق بالفعل ما أطلقنا عليها بأن وراء كل صابر صابرة،

أم موسى – يوكابد بنت لاوي على رأي بعض المؤرخين وهي أول أم نبي تطرق لها القرآن صراحة، إذ أن الأنبياء الذين ظهروا على مسرح الحياة قبل موسى لم يتطرق القرآن الى أمهاتهم كما تطرق الى زوجات قسم منهم كإشارة منه الى أهمية التفاعل الأسري وأثر المرأة في تحديد مسار الأحداث، والحديث عن أم موسى يعني الانتقال الى الشطر الثاني من عنوان بحثنا وهو أمهات الأنبياء بعد أن كانت الفصول الأولى تتحدث عن نساء الأنبياء، تطرق القرآن الى أم موسى في سورتي القصص وطه، حتى أن قوله تعالى ((وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ)) القصص/الآية ٧، قد أحدث اختلافاً لدى المفسرين والعلماء بخصوص عملية الوحي وهل انه وحي كما يحدث للأنبياء، أم انه الهام، أم انه قذف في القلب وليست هي نبوة كما يقول الطبري، وهكذا أوحي الى أم موسى، فساعدت كثيراً على سلامة ابنها بعد أن جاهدت كثيراً بتهيأه الأجواء الملائمة لرميه في البحر قبل أن يُعاد اليها بأمر الله لترضعه وتهيأه لأن يكون رجلاً سيكون له شأن كبير في المستقبل وهذا ما حدث بالفعل وهو تنفيذ لوعد الله عندما قال لها إنّا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين. وهكذا كان لأم موسى أثر كبير في الرسالة الموسوية الخالدة. بقي أن نقول أن الفصل الثامن هو المساحة الورقية من البحث التي غطت ما يتعلق بأم موسى (رض).

أما الفصل التاسع فقد كان مخصصاً لأم عيسى – السيدة مريم بنت عمران - عليها السلام والتي كرمها الله تعالى بأن ناداها باسمها في القرآن الكريم أربع وثلاثين مرة في احدى عشرة سورة، وهي بذلك تكون أول امرأة تُذكر في القرآن الكريم صراحة وبطريقة مبجلة فيها من الاعتزاز والتوقير الشيء الكثير، وما ميزها عن أم موسى هو أن الخطاب

القرآني لم يتعامل معها على أنها أمٌ لعيسى كما تعامل مع يوكابد باعتبارها أماً لموسى، وبهذا تكون أهمية يوكابد جاءت من خلال كونها أماً لموسى ودورها كان مرتبطاً أساساً بتهيئة الأجواء لموسى كي يأخذ طريقه لأداء اثره الكبير في الحياة أما مريم بنت عمران فان اثرها قد بدأ قبل أن يولد عيسى، لذلك جاء الخطاب القرآني متحدثاً عن عيسى بن مريم وليس عن مريم أم عيسى، فضلاً عن ذلك فأنه وعلى الرغم من كون السيدة مريم العذراء عليها السلام لم تكن نبية كما أشار المفسّرون مستندين على قوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة النمل ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ)) إلاّ أن الخطاب قد تعامل معها معاملة الأنبياء وخاطبها مباشرة باصطفاء الله تعالى لها حين قال ((وَإِذْ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)) آل عمران/٤٢، كما خاطب بقية الأنبياء باصطفاء الله لهم لخصوصيتهم وأهميتهم في الحياة، ثم ان نزول سورة كاملة باسمها قد جعلها في موازاة الأنبياء الذين نزلت سور خاصة بأسمائهم الشريفة في الذكر الحكيم من ناحية الموقع القرآني وبذلك تفردت هذه المرأة الجليلة بميزات وخصائص زادت من قيمتها وأهمية اثرها الكبير على الساحة الانسانية بشكل عام.

الفصل الأخير من بحثنا خصصناه لنساء الحبيب المصطفى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم وهن يساهمن بدور كبير سواءٌ في حياة الرسول الشخصية أو في حياته الشريفة كرسول وقائد انساني عظيم، فمن السيدة الجليلة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد عليها السلام، مروراً بالسيدات سودة بنت زمعة وعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن الخطاب وزينب بنت خزيمة وأم حبيبة وصولاً الى أم سلمة وزينب بنت جحش وجويرية وصفية وميمونة بنت الحارث رضي الله عنهن جميعاً، كان الأثر النسائي واضحاً وجلياً، فلكل امرأة من نسائه والتي تزوجهن ليس عن رغبة في الزواج كما يشير لذلك بعض المفسرين وانما لأهداف وغايات انسانية تهدف الى تقوية الإسلام

وتثبيت جذوره التي أراد الرسول لها أن تمتد لتشمل أكبر عـدد مـن العـشائر والعوائـل المؤثرة في المجتمع من خلال المصاهرة الاجتماعية، كان أثرهن في الحيـاة يـصغر ويكـبر بناءً على استعداد كل واحدة منهن وقدرتها على الفعل المؤثر، فكان اثر الـسيدة خديجـة باعتبارها أولى الزوجات وقد دعمت الرسول وهو في بداية حياتـه وسـاندته بقـوة حـين اصبح رسولاً حتى كرمها الله في بيت في الجنة من قصب لا صخب فيـه ولا نـصب، كمـا جاء في العديد من كتب الحديث والتاريخ والسير، كان أثراً كبيراً يحتذى به، حتى جـاءت الأدوار الأخرى لبقية نساءه بالتتابع كلها مهمة ومؤثرة سواءً في حياته الشريفة أو بعـد مماته حتى مغادرتهن رضي الله عنهن الدار الدنيا الى الدار الآخـرة. وقـد شـهد الفـصل التطرق الى الكثير من المواقف الجليلة كما أشار لها القرآن الكريم وكذلك كتـب الحـديث وما جاء به السلف الصالح من المؤرخين والرواة.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- القرآن الكريم
- ابن أبي الحديد، عبد الحميد المدائني، (ت، ٦٥٦ هـ).
١- شرح نهج البلاغة، مراجعة وتحقيق لجنة إحياء الذخائر، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت .
- ابن الأثير، ابي الحسن علي بن محمد الجزري، (ت، ٦٣٠ هـ)
٢- الكامل في التاريخ، تحقيق الدكتور علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٤م .
٣- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور، مج٧، كتاب النساء .
- ابن اسحق، محمد بن إسحق بن يسار، (ت ١٥١ هـ) .
٤- سيرة ابن إسحق المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، تحقيق محمد حميد الملك، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، المملكة المغربية، ١٩٧٦ .
- الأزرقي، أبي الوليد محمد بن عبد الله، (كان حياً، ٢٣٣ هـ)
٥- أخبار مكة وما جاء فيها من آثار، تحقيق رشدي الصالح، مجهول الطبع، ١٩٦٥ م.
- الألوسي، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود شكري البغدادي، (ت ١٢٧٠هـ) .
٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٧- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ابن بكار، ابو عبد الله الزبير بن بكار، (ت، ٢٥٦هـ) .
٨- الأخبار الموفقيات، تحقيق الدكتور سامي العاني، مطبعة العاني، بغداد .
٩- جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٣٨١هـ .
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن علي (ت، ٥٩٧هـ) .

١٠- تفسير زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥م.
- ابن حبيب، العلامة الإخباري النسابة أبي جعفر محمد بن أمية البغدادي، (ت، ٢٤٥هـ).
١١- كتاب المحبر، رواية أبي سعيد السكري، مطبعة جمعية المعارف العثمانية، حيدر أباد، ١٩٤٢م .
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل بن علي، (ت، ٨٥٢هـ) .
١٢- الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق طه محمد الزيني، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٦م .
- ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد، (ت، ٤٥٦هـ)
١٣- جمهرة أنساب العرب، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢م .
- ابن حنبل، الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، (ت، ٢٤١هـ) .
١٤- شرح مسند أحمد بن حنبل، المعروف بالفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، شرح عبد الرحمن أحمد البنا المعروف بالساعاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت .
- أبي حيان، أثير الدين محمد بن يوسف (ت، ٧٥٤هـ) .
١٥- تفسير البحر المحيط، مطابع النصر الحديثة، الرياض .
- ابن خياط، خليفة بن خياط العصفري، (ت، ٢٤٠هـ) .
١٦- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، دار القلم، بيروت ١٩٧٧م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي (ت، ٨٠٨هـ) .
١٧- تاريخ ابن خلدون، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، تحقيق خليل شحاذه وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٩م .
- أبو داوود، سليمان بن الأشعث السجستاني، (ت، ٢٧٥ هـ) .
١٨- سنن أبو داوود، شرح أبي الطيب محمد شمس الحق، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ١٩٦٨م .
- ابن سعد، ابو عبد الله محمد بن سعد، (ت، ٢٣٠هـ)
١٩- الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت .
- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، (ت، ٩٥١هـ)

٢٠- تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت .
- ابن شهر آشوب، الشيخ محمد بن علي المازندراني، (ت، ٥٨٣هـ) .
٢١- متشابهات القرآن ومختلفه، طبعة إيران، ١٣٢٨هـ .
- ابن طيفور، أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر، (ت، ٢٨٠هـ) .
٢٢- بلاغات النساء، دار النهضة الحديثة، بيروت، ١٩٧٢ .
- ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، (ت، ١٢٨٢هـ) .
٢٣- تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٣م .
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، (ت، ٤٦٣هـ)
٢٤- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق الدكتور محمد الزيني، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٦م .
- أبي عبيدة، معمر بن المثنى، (ت، ٢٠٨هـ) .
٢٥- تسمية، أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده، تحقيق ناصر حلاوي، مطبعة حداد، بغداد ١٩٦٩م .
- ابن العربي، القاضي أبي بكر بن العربي، (ت، ٥٤٣هـ) .
٢٦- العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة، تحقيق محب الدين الخطيب، مجهول الطبع .
- ابن عساكر، علي بن الحسن الشافعي، (ت، ٥٧١هـ) .
٢٧- تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩م .
- ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد (ت، ١٠٨٩هـ) .
٢٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت .
- أبو الفداء، المؤيد عماد الدين إسماعيل، (ت، ٧٣٠هـ) .
٢٩- المختصر في أخبار البشر، دار الفكر، بيروت .
- ابن قتيبة، ابي محمد عبد الله مسلم الدينوري، (ت، ٢٧٦هـ) .
٣٠- الإمامة والسياسة، المعروف بتاريخ الخلفاء، مطبعة مصطفى الباني، مصر ١٩٦٣م.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الدمشقي، (ت،٧٥١هـ)

٣١- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الفكر.
- ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن كثير، (ت، ٧٧٤هـ) .
٣٢- قصص الأنبياء، منشورات مكتبة النهضة، بغداد ١٩٨٣م .
٣٣- البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت .
٣٤- تفسير القرآن العظيم، إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاءه .
- ابن الكلبي، هشام بن محمد السائب (ت ٢٠٤-٢٠٦هـ) .
٣٥- جمهرة النسب، تحقيق ناجي حسين، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٨٦م .
- ابن ماجه، أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت، ٢٧٣هـ) .
٣٦- سنن ابن ماجه، شرح محمد ناصر الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م .
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب المعروف بالوراق (ت، ٣٨٠هـ) .
٣٧- كتاب الفهرست، تحقيق رضا تجدد، ١٩٧١م .
- أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني، (ت، ٤٣٠هـ) .
٣٨- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة، مصر ١٩٣٣م .
- ابن هشام، أبو محمد بن عبد الملك الحميري، (ت، ٢١٨هـ) .
٣٩- السيرة النبوية، المعروفة بسيرة ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة الحلبي وأولاده، مصر .
- البخاري، محمد بن إسماعيل، (ت، ٢٥٦هـ) .
٤٠- صحيح، أبي عبد الله البخاري، مشكول، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده.
- البرسوي، إسماعيل حقي البرسوي، (ت، ١١٣٧هـ) .
٤١- تفسير روح البيان .
- البغدادي، علاء الدين علي بن محمد (ت، ٧٢٥هـ)
٤٢- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العربية الكبرى، مصر .
- البلاذري، أحمد بن يحيى، (ت، ٢٧٩هـ) .
٤٣- أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، مصر .
- الترمذي، أبي عيسى محمد بن عيسى بن سوره، (ت، ٢٧٩هـ) .
٤٤- سنن الترمذي وهو الجامع الصحيح، مراجعة عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة .

- الثعالبي، ابي محمد بن مخلوف، (ت، ٨٧٥هـ).
٤٥- تفسير الثعالبي الموسوم بجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت
- الثعلبي، أبي إسحق أحمد بن محمد النيسابوري، (ت، ٤٢٧هـ) .
٤٦- قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، المكتبة الشرقية .
- الجاحظ، أبي عثمان بن عمروا بن بحر، (ت، ٢٥٢هـ) .
٤٧- كتاب الحيوان، دار الكتاب العربي، ١٩٦٩م .
٤٨- مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق الدكتور محمد طه، دار النهضة، بيروت .
- الجزائري، نعمة الله الجزائري، (ت، ١١١٢هـ) .
٤٩- النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، مؤسسة الأمير، النجف الأشرف .
- الحراني، الشيخ ابو محمد الحسن بن علي، (من أعلام القرن الرابع) .
٥٠- تحف العقول عن آل الرسول، تقديم حسين الأعلمي، ط٦، مطبعة الأعلمي، بيروت، ١٩٥٦ .
- الحلبي، علي بن برهان الدين الشافعي، (ت، ١٠٤٤هـ) .
٥١- إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ١٩٦٢م .
- الحميري، محمد عبد المنعم، (ت، ٧٢٧هـ).
٥٢- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة .
- الحنفي، الشيخ محمد بن أحمد بن أباس (ت، ٩٣٠هـ).
٥٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور، بيروت .
- الخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي، (ت، ٤٦٣هـ)
٥٤- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، المكتبة السلفية، المدينة المنورة .
- الديار بكري، الشيخ حسين بن محمد بن الحسن، (ت ٩٦٦هـ) .
٥٥- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، مؤسسة شعبان، بيروت .
- الدينوري، أبي حنيفة أحمد بن داوود، (ت، ٢٨٢هـ) .
٥٦- الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، سلسلة تراثنا، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر .
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت، ٧٤٨هـ) .

٥٧- سير أعلام النبلاء، إشراف وتحقيق شعيب الأرنوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م .
- الرازي، فخر الدين ابن الخطيب، (ت، ٦٠٦ هـ) .
٥٨- عصمة الأنبياء، بيروت .
٥٩- التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، طهران .
- سبط ابن الجوزي، يوسف بن فرغلي البغدادي، (ت، ٦٥٤هـ) .
٦٠- تذكرة الخواص، تقديم العلامة محمد صادق بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف .
- السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن، (ت، ٩١١هـ).
٦١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، المكتبة الإسلامية بطهران، ودار الكتب العراقية، الكاظمية .
٦٢- لباب النقول في أسباب النزول، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٠م .
- الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، (ت، ٢٠٤هـ).
٦٣- شرح مسند الشافعي المسمى بدائع المنن في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن، شرح عبد الرحمن البنا المعروف الساعاتي، دار الأنوار للطباعة والنشر، مصر ١٣٦٩هـ
- الشبلنجي، الشيخ مؤمن بن حسن (من علماء القرن الثالث عشر الهجري) .
٦٤- نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار -صلى الله عليه وسلم-، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٩م .
- الشهرستاني، أبي الفتح محمد بن عبد الكريم، (ت، ٥٤٨هـ) .
٦٥- الملل والنحل، دار المعرفة، بيروت .
- الشوكاني، محمد بن علي الشوكاني، (ت، ١٢٥٠هـ) .
٦٦- نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار، مطبعة الحلبي، مصر.
- الشيرازي، أبو إسحق الشافعي، (ت، ٤٧٦هـ) .
٦٧- طبقات الفقهاء، دار الرائد العربي، بيروت .
- الطبراني، أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، (ت، ٣٦٠هـ) .
٦٨- المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مجهول الطبعة .

- الطبرسي، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن (من أكابر علماء الإمامية في القرن السادس).
٦٩- مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الفكر ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٥م .
- الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير، (ت، ٣١٠هـ) .
٧٠- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر .
٧١- جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة للطباعة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨م.
- الطوسي، الشيخ أبو جعفر محمد بن عبد الحسن، (ت، ٤٦٠هـ) .
٧٢- تفسير التبيان، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٢م .
- العاملي، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، (ت، ١١٠٤هـ)
٧٣- الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، مطابع النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٤م .
- الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، (ت، ٥٠٥هـ) .
٧٤- إحياء علوم الدين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت .
- الفاسي، محمد بن أحمد الحسني، (ت، ٨٣٢هـ) .
٧٥- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة .
- القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، (ت، ٦٧١هـ) .
٧٦- الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، ١٩٤٩م .
- القسطلاني، شهاب الدين أبو العباس، (ت، ٩٢٣هـ) .
٧٧- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، ١٣٢٥هـ
- الكليني، أبي جعفر محمد بن يعقوب الرازي، (ت، ٣٢٩هـ)
٧٨- الروضة من الكافي، تعليق علي أكبر الغفاري، الطبعة الثامنة، طهران، ١٣٨٩هـ .
- الماوردي، أبي الحسن علي بن حبيب البصري، (ت، ٤٥٠هـ) .
٧٩- تفسير الماوردي المعروف بالنكت والعيون، تحقيق خضر محمد خضر، مطابع مقهوي، الكويت، ١٩٨٢م، ط١ .
٨٠- أعلام النبوة، مراجعة طه عبد الرؤوف، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر ١٩٧١م .
- المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين، (ت، ٣٤٦هـ)

٨١- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة / مصر.
٨٢- التنبيه والإشراف، مراجعة عبد الله إسماعيل الصاوي، القاهرة، ١٩٣٨م .
- محب الدين الطبري، احمد بن عبد الله، (ت، ٦٩٤هـ) .
٨٣- السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة .
- المحلي، جلال الدين محمد بن أحمد وجلال الدين السيوطي، (ت، ٩١١هـ) .
٨٤- تفسير الجلالين، تحقيق الشيخ مصطفى الحديدي، القاهرة ١٤٠١هـ .
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، (ت، ٢٦١هـ) .
٨٥- صحيح مسلم، شرح النووي، على هامش إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، دار صادر، بيروت .
- النسفي، أبي البركات عبد الله بن أحمد، (ت، ٧١٠هـ) .
٨٦- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت .
- النووي، الشيخ محمد الجاوي، (ت، ١٣١٦ هـ) .
٨٧- التفسير المنير لمعالم التنزيل المعروف بمراح لبيد، دار الفكر، بيروت ١٩٨٠م .
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت، ٧٣٣هـ) .
٨٨- نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر .
- النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد، (ت، ٨٥٠ هـ) .
٨٩- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، على هامش تفسير جامع البيان للطبري، دار المعرفة، بيروت .
- الهندي، العلامة علاء الدين علي المتقي، (ت، ٩٧٥هـ) .
٩٠- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، دائرة المعارف العثمانية، ط٢، حيدر آباد، الهند، ١٩٦٥م .
- الواحدي، أبي الحسن علي بن أحمد، (ت، ٤٦٨هـ).
٩١- الوجيز في تفسير القرآن العزيز، على هامش مراح لبيد، دار الفكر، بيروت ١٩٨٠م.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، (ت، ٦٢٦هـ) .
٩٢- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥ .
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، (ت، ٢٩٠هـ) .
٩٣- تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م .
٩٤- البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٥٧م .

ثانياً : المراجع :

- أحمد، أنيس
٩٥- النساء المسلمات والتعليم العالي، مكتبة التربية العربية لدول الخليج العربي، الرياض، ١٩٨٧ .
- إمام، عبد الفتاح إمام
٩٦- الطاغية، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٧م .
- البدري، جمال عبد الرزاق
٩٧- نبي العراق والعرب، مطبعة الدار العربية، بغداد، ١٩٨٩م .
- بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن
٩٨- مع المصطفى عليه الصلاة والسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٢م .
- بهجت، أحمد
٩٩- أنبياء الله، ط١١، دار الشروق، بيروت ١٩٨٣م .
- جاد المولى، محمد أحمد
١٠٠- قصص القرآن، مطبعة منير، بغداد، ١٩٧٨م .
- جاسم، عزيز السيد
١٠١- المفهوم التاريخي لقضية المرأة، ط١، بغداد ١٩٨٦ .
- حمدان، حسن علي مصطفى
١٠٢- حواء التي أنصفها الإسلام، دار الإسراء للنشر والتوزيع، ١٩٩١ .
- حسين، احمد
١٠٣- نبي الإنسانية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر .
- الحيالي، رعد كامل
١٠٤- تعدد الزوجات في الإسلام، كيف؟، ولماذا؟، مطبعة الجمهور، نينوى، ١٩٩٠ .
- الخرساني، غادة
١٠٥- الإسلام وتحرير المرأة، تقديم الدكتور عبد الجليل شلبي، والدكتور عبد الله العلايلي.
- خيرت، أحمد
١٠٦- مركز المرأة في الإسلام، مطبوعات دار المعارف، مصر ١٩٧٥م .
- ديورانت، ول وايرل

١٠٧- قصة الحضارة، ترجمة الدكتور زكي نجيب، مطبعة ليدين .
- سالم، عبد العزيز
١٠٨- التاريخ والمؤرخون العرب، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر ١٩٦٧م .
- سعادة، يوسف جعفر
١٠٩- الجهاد بين النظرية والتطبيق، من خلال ثورة الحسين بن علي (عليه السلام)، منشورات ذات السلاسل، الكويت .
- السعيدي، محمد جواد المختصر
١١٠- نساء النبي وأولاده، ط١، مطبعة العمال المركزية، بغداد ١٩٩٠ .
١١١ - سليم، محمد ابراهيم، الأربعة الذين ملكوا العالم، مكتبة القرآن، القاهرة ١٩٨٩.
- سوسه، أحمد
١١٢- حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، مطبوعات وزارة الإعلام، بغداد .
- قطب، سيد
١١٣- في ظلال القرآن، ط٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت .
- شرف الدين، صدر الدين
١١٤- هاشم وأمية في الجاهلية، بيروت .
- الصابوني، محمد علي
١١٥- صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت .
- الطباطبائي، العلامة السيد محمد حسين (صاحب تفسير الميزان)
١١٦- تاريخ الأنبياء، إعداد الشيخ قاسم الهاشمي، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٤م .
١١٧- الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٢ .
- طلس، محمد أسعد
١١٨- تاريخ العرب، ط٢، دار الأندلس، بيروت، ١٩٧٩م .
- طلفاح، خير الله
١١٩- نساء من العرب، مج١٧، ق٢، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٣ .
- عبد الجبار، شاكر
١٢٠- كيف عاش آدم (عليه السلام)، مطبعة المنير (بغداد)، ١٩٨٩م .
- عبد الحسين، جمعة غني
١٢١- الوفا في معرفة شخصية المصطفى، مطبعة الحوادث، بغداد .

- العسلي، كامل جميل
١٢٢- موسم النبي موسى في فلسطين، ط١، عمان، ١٩٩٠ .
- عفيفي، عبد الله
١٢٣- المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ط٢، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٢ .
- العقاد، عباس محمود
١٢٤- هذه الشجرة، دار النهضة، القاهرة .
١٢٥- حقائق الإسلام واباطيل خصومه، دار الهلال، مصر، ١٩٦٥ .
١٢٦- أبو الشهداء الحسين بن علي، مجهول الطبع .
١٢٧- عبقرية محمد، دار الهلال، مصر .
١٢٨- شخصيات إسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت .
- عقراوي، ثلماستبان
١٢٩- المرأة، دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٨م .
- علي، سيد أمير
١٣٠- روح الإسلام، ترجمة عمر الديراوي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦١م .
- فريزر، جيمس
١٣١- الفولكلور في العهد القديم، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م .
- قاشا، سهيل
١٣٢- المرأة في شريعة حمورابي، منشورات مكتبة بسام، الموصل، ١٩٨٤ .
- قدورة، زاهية مصطفى
١٣٣- عائشة أم المؤمنين، دار الكتاب اللبناني، بيروت .
- قطب، محمد علي
١٣٤- عائشة (رضي الله عنها) معلمة الرجال والأجيال، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة .
- القمي، الشيخ عباس محمد رضا، (ت ١٣٥٩هـ)
١٣٥- كحل البصر في سيرة سيد البشر (صلى الله عليه وآله وسلم)، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٤ .
- كحاله، عمر رضا

١٣٦- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام،
- كمال، علي
١٣٧- الجنس والنفس في الحياة الإنسانية، دار واسط، لندن، ١٩٨٦ .
- كيال، باسمة
١٣٨- تطور المرأة عبر التاريخ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨١م .
- مصطفى، شاكر
١٣٩- التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت .
- مغنيه، محمد جواد
١٤٠- التفسير المبين، دار التعارف، بيروت، ١٩٧٠م .
- منصور، سهام
١٤١- المرأة اليهودية، الماضي والحاضر والمستقبل، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٨٧ .
- موسى، محمد
١٤٢- الزنى والزواج، وزارة الأوقاف المصرية، ١٩٤٠ .
- الميادينى، محمد مشكور
١٤٣- الأحاديث الأربعين في الصلاة والسلام على النبي الأمين، المكتبة العالمية، ١٩٨٥ .
- النجار، عبد الوهاب
١٤٤- قصص الأنبياء، ط٣، دار إحياء التراث العربي .
- الهيله، عصمة الدين كركر حرم
١٤٥- المرأة من خلال الآيات القرآنية، الشركة التونسية للتوزيع .
- هويدي، محمد
١٤٦- التفسير المعين للواعظين والمتعظين، مطبعة المغرب، بغداد .

ثالثاً : الرسائل الجامعية :
- الراوي، عجيل جاسم،
١٤٧- عائشة أم المؤمنين (رض) وجهودها في التفسير، رسالة ماجستير في أصول الدين، كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، شباط، ٢٠٠٠م .
- الشرهاني، حسين علي
١٤٨- السيدة، خديجة بنت خويلد، عليها السلام، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية التربية، جامعة البصرة، حزيران ٢٠٠١م .

الفهرست

المؤلف في سطور

- بغداد ١٩٥٧ م
- دكتوراه في التراث الفكري والعلمي العربي.. بتقدير امتياز
- خريج دورة الصحافة الديمقراطية الأولى(٢٠٠٣-٢٠٠٤م).
- كاتب وباحث.
- عضو اتحاد المؤرخين العرب.
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

الكتب المطبوعة :

- العباس بن علي (رجل الثورة والإيثار).
- محمد بن الحنفية ودوره في الحياة الفكرية والسياسية.
- حقوق الانسان في دساتير العراق المعاصر واشكالية التطبيق.

كتب في طريقها للطبع :

- امرأة وموقف.. نافذة على مواقف نسائية .
- زليخا عاشقة النبوة.. يوسف وامرأة العزيز
- الإعلام والمنظور من الحقائق.. قراءة في تاريخ الإعلام العراقي-قديماً وحديثاً -

رقم الأيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٥٠٢٥) لسنة ٢٠١١

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

دراسات

سلسلة تعنى بمناقشة ظواهر مختلفة ونشاطات جادة في أنساق الثقافات المتنوعة.

تسعى إلى تقديم دراسات تحاول الكشف عن موضوعات هامة في مجالات بعينها تستحق الوقوف عندها والنظر إليها في أفق جديد بالتأمل والإفادة كما في هذا الكتاب (نساء الأنبياء - دراسة تاريخية في الجانب الاجتماعي لسيدات البيوت النبوية) الذي يتصدى لأدوار متعددة لأمهات الأنبياء وزوجاتهم، جمعت مصادر بحثها من كتب التفاسير وقصص الأنبياء وكتب التاريخ فضلا عن الأحاديث النبوية الشريفة.

تطرق الكتاب لأسماء نساء الأنبياء اللائي جاء ذكرهن في القص القرآني صريحا تارة بينما كان القسم الآخر مستندا إلى ما قدمته أقلام المفسرين والمؤرخين ممن قدموا دراسات وآراء علمية وبحثية في تعليل وتحليل واستنتاج ومراجعة لأدوارهن المختلفة، تارة اخرى.

فالكتاب عودة موغلة في القدم إلى تاريخ بداية الخليقة بدءاً من أم البشر حواء مروراً بأسماء الأخريات الفواضل والعظيمات، مما يجدر التعرف على جوانبه الاجتماعية ومواقفه المختلفة عبر هذا الجهد البحثي القيم.

رئيس مجلس الإدارة

اصدارات دار الشؤون الثقافية العامة/ وزارة الثقافة

الغلاف: ابتسام السيد السعر: ٦٠٠٠ دينار